



البعث الرسالي  
مجلس النجباء والحجيج  
«بلاد الجزيرة العربية»



مجموعة من الباحثين

إعداد

مركز البحوث والدراسات  
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

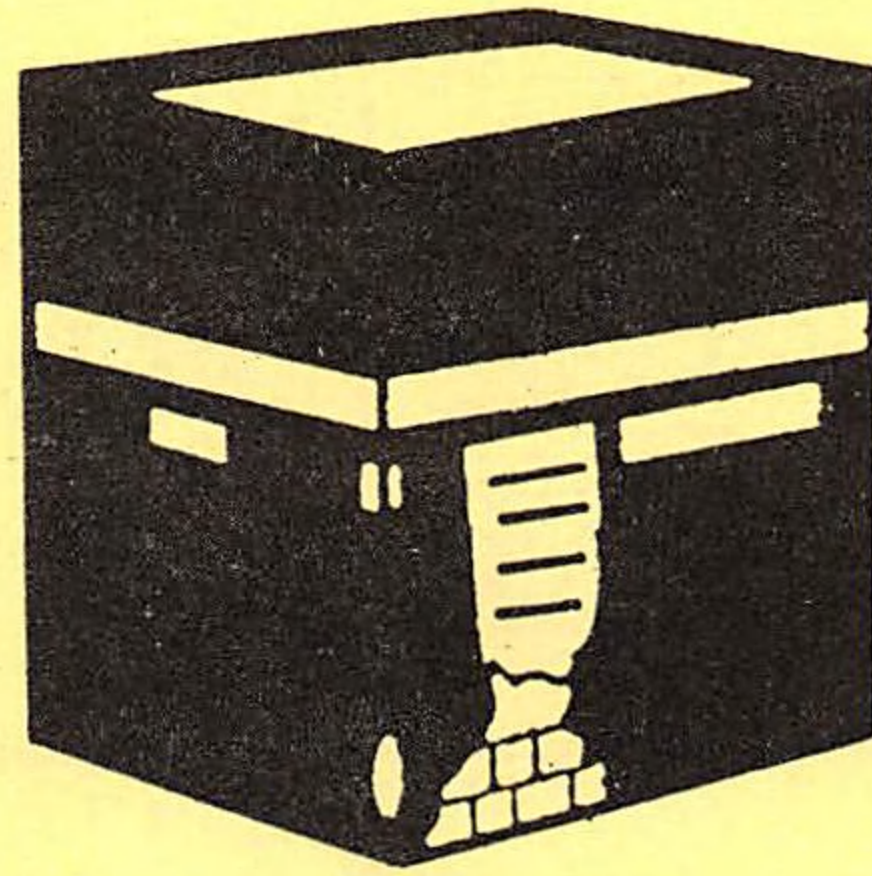




البعْدُ الرَّسَالِيُّ

مَجْلِسُ النَّعَاوِزِ الْخَلِيجِيِّ

«بلاد الجزيرة العربيّة»



مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْبَاحِثِينَ

إعداد

مركز البحوث والدراسات  
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



## الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٣هـ - تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٢م

٩٥٢ البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي : بلاد الجزيرة  
العربية / تأليف مجموعة من الباحثين .. الدوحة :  
وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٢.  
٤٢٢ ص : ٢٤ سم.  
رقم الايداع بدار الكتب القطرية : ٤٨٦ / ٢٠٠٢  
الرقم الدولي (ردمك) : ١ - ٤٦ - ٤٨ - ٩٩٩٢٦

رقم الايداع بدار الكتب القطرية

٤٨٦ / ٢٠٠٢م

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بدولة قطر

مركز البحوث والدراسات

هاتف : ٤٤٤٧٣٠٠ - فاكس : ٤٤٤٧٠٢٢

ص.ب : ٨٩٣ - الدوحة

www.Islam.gov.qa

موقعنا على الإنترنت :

E. Mail: M\_Dirasat@Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني:

ما ينشر في هذا الكتاب يعبر عن رأي المساهمين فيه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ  
وَسُلْبِهِمْ لَمَّاسُونَ  
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ  
سَاهُونَ









حَضْرَةُ صَاحِبِ السَّمَوِّ  
السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ حَمَلَيْفَةَ بْنِ تَائِي  
أَمِيرِ دَوْلَةِ قَطْرٍ







## تقديم

### سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية

#### أحمد بن عبد الله المري

الحمد لله الذي اصطفانا لوراثة النبوة والكتاب، وجعلنا محلاً للرسالة الخاتمة، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ...﴾ (فاطر: ٣٢)، وجعل بلاد الجزيرة العربية مسكن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ومهبط الوحي، وموطن الرسالة الخاتمة، واختار إنسانها ليكون نواة القاعدة البشرية للانطلاقة الإسلامية للعالمين، واختص أرضها لبناء الأنموذج المحتذى على الزمن، وتجسيد هذا الدين في حياة الناس، والوصول بهم إلى درجة الكمال والاكتمال. وهذا الاختيار لبلاد الجزيرة العربية لتكون المنطلق ويكون إنسانها الأنموذج المحتذى بمقدار ما هو تشريف لها ولإنسانها بمقدار ما هو تكليف وأمانة ومسؤولية، ذلك أن هذا التكليف لم يأت عبثاً، أو من فراغ، وإنما جاء ثمرة لعلم الله المحيط، الذي لا يخطئ، بوجود الصفات والخصائص التي تؤهل أهل هذه البلاد لهذا التكليف، ف ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

والصلاة والسلام على الرسول، محل الأسوة والقدوة، صاحب الخلق الكامل، الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، الذي اختاره الله من سائر الخلق، القائل: «...أنا خيار من خيار» (أخرجه



الحاكم والبيهقي)، فكان من أعلى العرب نسباً وشرفاً وفضلاً وطهرًا  
وبلاغة، كان رسولاً من أنفسم.

وبعد:

فهذا كتاب: «البعث الرسالي لمجلس التعاون الخليجي.. بلاد الجزيرة  
العربية»، الذي يشارك فيه مجموعة من الباحثين والكتاب من أبناء الجزيرة  
وتتشرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بإعداده وتقديمه بمناسبة انعقاد  
الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية  
في دولة قطر، برئاسة حضرة صاحب سمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني أمير  
دولة قطر، حفظه الله، مساهمة منها في الدعوة إلى تجديد الانتماء وإعادة  
النظر والمراجعة والتقويم للواقع، في محاولة للارتقاء والتنمية والنهوض على  
مختلف الأصعدة، وتأكيداً على أهمية الاضطلاع بالدور الرسالي لبلاد الجزيرة  
العربية، التي شرفها الله بالإسلام، فكانت مهبط الوحي الخاتم، والقاعدة  
البشرية الأولى للأمم الوسط، التي تمثلت خيريتها بمدى عطائها الإنساني  
والحاق الرحمة بالعالمين، والقيام بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،  
قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وأخذت موقعها في الريادة والقيادة البشرية بما تحمل من قيم سماوية انتهت  
إليها أصول النبوات جميعاً، وتجارب النبوة التاريخية من لدن آدم عليه السلام،  
والتي تمثل قبلة الإسلام ووجهة المسلمين في العالم، ومحور حركتهم في الحج



إليها، والتوجه صوبها، في السعي للتجديد والتجدد واستعادة الفاعلية،  
أو الولادة الجديدة: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرُفْثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمٍ  
وَلَدَتْهُ أُمُّهُ» (أخرجه البخاري).

هذا الحج السنوي إليها، والتواصل البشري معها والعيش على أرض  
النسبة بكل أبعادها ومعطياتها، وتجديد معانيها في النفوس، والتأكيد على  
ذلك في التوجه إليها خمس مرات يومياً، يجعل المسؤولية كبيرة، والأمانة  
عظيمة، في إِبصار أبعاد هذه الحركة والأخذ بيدها، لتحقيق أهدافها وترشيد  
مساراتها، وإعادة تأهيلها لمعاودة عطائها الحضاري الإنساني.

وبلاد الجزيرة العربية، بما حباه الله من تاريخ مميز في مسيرة النبوة،  
وجعل من إنسانها أداة لبناء الأنموذج المحتذى، وتجسيد القيم الإسلامية في  
واقع الناس، وبما منحها من طاقات مادية، تمثل ركيزة الحضارة العالمية  
وقوامها، ومن طاقات روحية تتمثل في قبلة المسلمين (البيت الحرام)، قادرة  
على تحريك العالم أيضاً، وبما حماها الله من تسلط شياطين الإنس والجن،  
قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾  
(المائدة: ٣)، «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيَسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ  
وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ» (أخرجه مسلم)، مؤهلة لاستئناف دورها  
وحمل رسالتها، التي كانت بها رائدة للحضارة الإنسانية، وقد تكون  
مسؤولة اليوم إلى حد بعيد عن أزمته بسبب غيابها عن دورها الرسالي  
الذي شرفها الله به.



وقد حرصنا في هذا الكتاب على تقديم جميع المساهمات من خلال إنسان الجزيرة العربية نفسه، تلك المساهمات التي تمحورت بعمومها حول الاستشراف التاريخي باعتبار أن التاريخ هو المختبر الحقيقي لفاعلية القيم المحركة للفعل الإنساني، ذلك أن الأرض التي أنبتت ذلك النبات المتميز مؤهلة باستمرار معاودة الإنبات إذا أحسنت التعامل مع قيمها، ووعت تاريخها، وأفادت من عبره، كما تمحورت حول محاولة إعادة تقويم الواقع بقيم الإسلام، الذي يعتبر قدر المنطقة وخيارها وتاريخها ومستقبلها ومشروعيتها العليا، لتحديد مواطن القصور والخلل، واكتشاف أسباب التقصير، بحيث تعزم على التعامل مع الواقع من خلال القيم، وتتعامل مع القيم في الكتاب والسنة، من خلال الواقع بكل تعقيداته ومكوناته، ومن ثمَّ تُبصر المستقبل في ضوء ذلك كله، وكيف تريده وتتعامل معه من خلال الإمكانيات المتوفرة والظروف المحيطة، ذلك أن الحاضر هو مستقبل الماضي وماضي المستقبل.

والله نسأل أن يبصرنا بواقعنا ومستقبلنا، وأن يلهمنا الاستشعار بدورنا، ويعيننا على الاضطلاع بمسؤوليتنا، لنكون في مستوى إسلامنا وعصرنا، بحيث يصدق فيها قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٤).

والحمد لله من قبل ومن بعد.



## هذا الكتاب

لعل عنوان هذا الكتاب: «البعث الرسالي لمجلس التعاون الخليجي.. بلاد الجزيرة العربية»، يحمل الدلالة الكافية على ما نهدف إليه من مشروعنا الثقافي ومحاولتنا الدعوة إلى المراجعة وإعادة النظر في الدور الحضاري التاريخي والمستقبلي لبلاد الجزيرة العربية ومساهماتها في العطاء الإنساني وإلحاق الرحمة بالعالمين، والتأمل في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، وما يحمل من دلالات ويحمل من أمانة ومسؤولية.

إن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، وإن كان يتجه بالدرجة الأولى إلى اختيار الرسول ﷺ النبي العربي من بين سائر الخلق لحمل الرسالة الخاتمة إلى العالمين، لما يتصف به من السجايا والصفات، وما يتوفر عليه من الخصائص والسمات التي تجعله أهلاً لهذا الجعل والاختيار من الله؛ لأن المسؤولية والاختيار تكليف وتشريف في الوقت نفسه؛ فإنه يتضمن أيضاً اختيار المكان (الجغرافيا) جزيرة العرب، التي كانت مهبطاً للوحي ومحلاً للتنزيل، كما يتضمن الزمان (التاريخ)، الذي اختير من سائر الزمن ليكون



وعاءاً للرسالة الخاتمة، ويتضمن أيضاً الإنسان في الجزيرة، الذي يحمل من الصفات والخصائص ما يجعله مؤهلاً لحمل الرسالة والاضطلاع بالريادة، كما يتضمن اللغة التي اختيرت لتكون طريق التوصيل ووسيلة التعبير ووعاء التفكير، ويكون معهود العرب في الخطاب هو الذي يحدد دلالات ألفاظ ومفردات القرآن العظيم.

إن اختيار الإنسان واللسان والزمان والمكان محلاً لوحي الله الخاتم، بما يحمل من أبعاد إنسانية وعالمية، إنما كان بما تتوفر عليه الجزيرة العربية من صفات وخصائص تجعلها مؤهلة لهذا الجعل الآلهي: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة: ١٤٣)، ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، كما يجعلها مؤهلة لهذا الدور الإنساني والعطاء العالمي، حيث كانت الجزيرة العربية هي القاعدة البشرية الأولى التي اكتمل وتجدد فيها النموذج بكل أبعاده، التي استوعبت الحالات الإنسانية وما يعرض لها جميعاً قبل أن يتجاوز حدود الجزيرة إلى العالم.. فقدمت الجزيرة بذلك للعالم تجربة حضارية فذة، وخالدة، مجردة عن حدود الزمان والمكان، خلود القيم التي اضطلعت بها وحملتها إلى الناس جميعاً.

وفي تقديرنا أن إنسان مجلس التعاون الخليجي «بلادالجزيرة العربية» كان ولا يزال يحمل مسؤولية رسالة عالمية، بما يمتلك من إمكانات مادية، وطاقات روحية وتجربة حضارية تاريخية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ



وَلِقَوْمِكُمْ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ (الزخرف: ٤٤)، فإذا وعى إنسان هذه البلاد ذاته ورسالته ومسؤوليته، والعالم من حوله، واستوعب تجربته التاريخية، أصبح قادراً على معاودة الإخراج للناس من جديد، والمساهمة بمعالجة أزمة الحضارة الإنسانية، ويتأكد الأمر أكثر فأكثر في عصر العولمة المتأزم، الذي أزيلت فيه السدود والحدود وزُويَ الزمان بحيث أصبح الأقوياء يحاولون جعل العالم قرية إعلامية وثقافية وسوقاً استهلاكية واحدة، يتحكمون فيها بكل شيء.

لقد برزت فكرة الكتاب بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، في دولة قطر، برئاسة حضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، أمير البلاد حفظه الله، بحيث تشكل هذه المساهمة الثقافية، التي اضطلع بها مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، رؤية للبعد الرسالي، وأحد أدلة العمل المستقبلية أمام إنسان المنطقة وأصحاب القرار، والاستشعار بالمسؤولية الحضارية نحو الذات و(الآخر)، بحيث يكون استشراف الماضي هو سبيلنا لتقويم الحاضر وإبصار المستقبل، والارتقاء بإدارة الموارد المادية، وإدارة الموارد البشرية للعتاء الأفضل.

ولقد حاولنا ما أمكن أن نصل إلى أهل الرأي السديد والتفكير الاستراتيجي والبصيرة النافذة، ليساهموا معنا في هذا المشروع الثقافي المقدور، ورجبنا في الاقتصار على أبناء الجزيرة لأكثر من معنى، قد لا يغيب عن الفطين.



ولا ندعي أننا استطعنا أن نبلغ بهذا المشروع المدى الذي أردناه من ضمان مساهمة معظم المفكرين أو النخب الفكرية لبلورة رؤية ثقافية نضيجة، وإنما هي محاولة يمكن وصفها بأنها نواذ تمكن من الإطالة على «البعد الرسالي» وأهمية الاضطلاع به.

ذلك أننا نعتقد أن طرح الموضوع لا يعني بالضرورة دائماً إنضاجه في كثير من الأحيان واستكمال جوانبه والخلوص إلى النتائج والأهداف المرجوة، بقدر ما يعني لفت النظر وفتح الملف واستدعائه إلى ساحة الاهتمام والنظر، في محاولة لإثارة الوعي بالذات، وإدراك رسالتها ومسؤوليتها، من خلال المقومات التي تمتلكها.. فالوعي بالذات اليوم لم يعد ذاتياً فقط - إن صح التعبير - وإنما الوعي بالذات أصبح له مقومات ومعطيات جديدة، حيث بات الوعي (بالآخر) جزءاً لا يتجزأ من متطلبات الوعي بالذات في عصر العولمة.

وقد تكون الإشكالية اليوم تتمثل في انصراف الاهتمام كله للوعي (بالآخر)، بعالم أفكاره وأشياؤه؛ لأن المغلوب مولع دائماً بمحاكاة الغالب، وهذا التوجه صوب الوعي (بالآخر) مطلوب شريطة أن لا يكون على حساب الذات وينتهي إلى سلب الإرادة والارتقاء؛ لأن ذلك يعني التأسيس والتأصيل للغلبة الحضارية، والإلغاء للتنوع الثقافي الذي يثري الحضارة، والإسقاط للذات.



إن الدخول في عصر العولمة، الذي لم يعد خياراً، يعني التفكير في إعادة تحديد الموقع من هذا الحوار والصراع الحضاري، ولن يتأتى ذلك إلا بوعي الذات وإدراك متطلبات هذا الوعي التاريخية والثقافية والواقعية والمستقبلية؛ لأن الاعتصام بالقيم واستحضار التجربة التاريخية والمخزون الثقافي هو الإمكان الحضاري الذي يشكل سفينة النجاة.

ونحب أن نؤكد أن الآراء والاجتهادات ووجهات النظر لا تمثل بالضرورة وجهة نظر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بل يمكن القول: إن بعضها لا يمثلها بل هو محل نظرها.

لقد آثرنا، من حيث المبدأ، عدم المداخلة في مساهمات الباحثين، ونشرها كما وردت، ما أمكن، حتى ولو غيرت رأينا، على الرغم من بعض الملاحظات، وخاصة أن بعض البحوث لم تلتزم الإطار المطروح، كما كان الشأن من قبل في كتاب: «الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد»، لكن ليس هناك مانع - فيما نرى - من بعض التهميشات التي نرى أهمية إثباتها في أحيان قليلة، استدراكاً على بعض وجهات النظر.

ولا يسعنا هنا إلا أن نقول: سامح الله بعض الإخوة الذين استجابوا ووعدوا بالمساهمة من مواقع متنوعة واستمهلوا حتى استنفدوا الزمن المخصص، ومن ثم جاء اعتذارهم في الوقت غير المناسب، ولعل هذا يشكل إحدى الإصابات أو أحد شواهد الإدانة والأدلة على الواقع الذي نعاني منه. وتبقى المحصلة النهائية لهذا المشروع تتمثل في طرحه واستدعائه إلى الهم



الثقافي، بحيث نبقي الملف مفتوحاً لكثير من النظر، والتأمل، والمتابعة، والاجتهاد، وشحذ الهمة، والتحريض الحضاري.

من هنا ترجح عندنا أن يحتوي الكتاب على ورقة طرح المشروع بمحاورها، لتكون هادياً وحافزاً إلى مزيد من العطاء والارتقاء.

ونحب أن نوضح أن ترتيب البحوث والباحثين جاء ملتزماً بالحروف الهجائية لأسماء الباحثين دون أي اعتبار آخر.

ولا يسعنا بهذه المناسبة إلا أن نتقدم بالشكر والتقدير والبدعاء لحضرة صاحب السمو، أمير البلاد، حفظه الله، رئيس الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، لحرصه على الارتقاء بالواقع الخليجي من خلال القيم الإسلامية والتقاليد الاجتماعية السليمة واستحضار السبع الرسالي لبلاد الجزيرة، كما نخص بالشكر والتقدير والعرفان سعادة الأخ وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، السيد أحمد عبد الله المري، على استجابته الخيرة لفكرة المشروع وسائر المبادرات البصيرة، ومحاولته تذليل كل الصعوبات.

كما نتقدم بالشكر الجزيل للإخوة الكتاب والباحثين، وإلى الإخوة في مركز البحوث والدراسات، الذين شاركوا في إعداد هذا العمل الثقافي، على الرغم من الظروف الصعبة والإمكانات البشرية المتواضعة.

والله نسأل أن يكون هذا المشروع لبنة في البناء النهضوي، ومساهمة في استرداد دور الريادة، ومعاودة إخراج الأمة من جديد، إنه نعم المسؤول.



## المحاور الرئيسية(\*)

### البعد الرسالي لمجلس التعاون الخليجي «بلاد الجزيرة العربية»

#### المحور الأول: استشراف الماضي (التجربة الحضارية التاريخية):

- الجزيرة العربية أرض النبوة الأولى (إبراهيم أبو الأنبياء عليه الصلاة والسلام) والرسالة الخاتمة (محمد عليه الصلاة والسلام)؛
- النص السماوي، وخاتمة وخلود الرسالة، وقدرتها على الإنتاج والنهوض تاريخياً؛
- عطاء التجربة التاريخية (القيادة الحضارية العالمية): عبرة الماضي ورؤية المستقبل.

#### المحور الثاني: الإمكانيات المذخورة:

##### ■ الإمكانيات التاريخية:

- مهبط الوحي؛
- وراثـة النبوة؛
- التجربة الحضارية التاريخية؛
- امتلاك الأنموذج التطبيقي (السيرة النبوية، وخير القرون)؛
- العطاء الإنساني على مستوى الذات و(الأخر).

(\*) هذه المحاور تشكل إطار المشروع الذي أعده مركز البحوث والدراسات وطرحه واستكتب حوله مجموعة من الباحثين من أبناء مجلس التعاون الخليجي.



## ■ الإمكان الثقافي والاجتماعي:

- عالمية الرسالة وإنسانيتها؛
- امتلاك الطاقة الروحية (الحرمين)؛
- الرصيد الإسلامي في العالم؛
- قبة المسلمين في العالم، توجه المسلمين اليومي صوب الجزيرة العربية (دول مجلس التعاون) واستمرار الارتحال للحج والعمرة؛
- عوامل التجانس والتشكيل المشترك بين أبناء الجزيرة، والتي تؤهل للدور الرسالي: العقيدة(القرآن)، اللغة واللهجات، التاريخ المشترك، العبادات والتقاليد وطبيعة الوحدات الاجتماعية(الأسرة والقبيلة)، الوحدة الجغرافية، الظروف الطبيعية(الجغرافيا)؛ التزاوج؛ التداخل السكاني(الديموغرافي)؛

## ■ الإمكان الاقتصادي:

- امتلاك الطاقة المادية(النفط، المحرك الأساس لعجلة الحضارة العالمية)؛
- الموقع الجغرافي؛
- ارتفاع مستوى الدخل؛
- توفر الأمن الاقتصادي والاجتماعي.

## المحور الثالث: إِبصار المستقبل (الرؤية المستقبلية للإسلام بالدور الرسالي):

- الحاجة الإنسانية الحضارية المتأزمة للدور الرسالي؛
- مواطن الخلل وأسباب القصور وعوامل الإعاقة؛
- السبيل إلى الخروج ومعاودة الإحياء والبعث لأمة الرسالة، لإحقاق الرحمة بالعالمين.



## من خصائص جزيرة العرب

الدكتور الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد<sup>(\*)</sup>

إن بعث روح الاكتساب، والعمل، والجد، والتحصيل، والتخصص في شعب المعرفة المختلفة؛ من أهم المهام لبناء الحياة في جزيرة العرب على يد أبنائها، فهم أسلم لها، وأصلح حالها من الدخلاء عليها.. فالجزيرة والحجاز معقل الإسلام، ومصدر الإشعاع العالمي الإسلامي، ومقياس قوة الإسلام وسلطانه.

### مدخل:

قد يكون من الأهمية بمكان أن نعرض لبعض الخصائص التي امتازت بها جزيرة العرب، وجعلتها محلاً للوحي الإلهي، ومنطلقاً لحمل الخير والرحمة إلى العالم.. فاختيار الجزيرة لحمل الرسالة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات السماوية جميعاً، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لما تتمتع به من الخصائص والصفات، فالحمل الثقيل لا تستطيعه اليد الشلاء، والأمانة الكبيرة لا يطيقها المهازيل والتافهون؛ فالمسؤولية تكليف وتشريف، ولا يكون

(\*) عضو هيئة كبار العلماء، رئيس مجمع الفقه الإسلامي (المملكة العربية السعودية).



التكليف إلا إذا توافرت الأهليات والاستطاعات: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

من هنا رغبتنا أن يشاركنا في هذا العمل، الذي نرجو له أن يكون إحدى البصائر المستقبلية على الطريق الطويل، فضيلة الشيخ الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد، الذي كانت رؤيته للبعد الرسالي للجزيرة مبكرة في كتابه: (خصائص جزيرة العرب)، وذلك باختيار نبذ مما عرض له، تمثل نوافذ للإطلاقة من خلالها، إلا أن ذلك لا يعني بحال من الأحوال عن العودة إلى الكتاب<sup>(١)</sup>.

الحمد لله تعالى حق حمده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا معقب لحكمه، وأشهد أن محمداً عبد الله ونيبه ورسوله ومصطفاه من خلقه. اللهم صلّ وسلم عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه واستنّ بسنته. أما بعد:

فهذا بيان للناس عن أصل من أصول الملة، عن دار النصر والقبلة، حبيبة المسلمين، عدوة الكافرين، عن الدار الأولى لظهور الإسلام، والخط الأخير في غرة الوجود الإسلامي، جزيرة العرب؛ في حدودها، وحدود الحجاز، وخصائصها في الإسلام، والضمانات الحافظة لها. أفردتها لما رأيتها عند الكثيرين من السنن المهجورة، مع أن تلك الخصائص معلومة من الدين بالضرورة.

(١) عرض الشيخ حفظه الله لكثير من الآثار الواردة في فضل الجزيرة وأحكامها، وأسماؤها وأقاليمها وحدودها الجغرافية، من خلال روايات متعددة للتعريف بحدود الجزيرة، كما عرض لخصائص الجزيرة والضمانات المطلوبة لحماية هذه الخصائص، وغير ذلك، وقد رأينا اختصارها والاقتصار على ما غلب عليه الظن أنه مرتبط بالموضوع بشكل مباشر.. ويمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع إلى كتاب الشيخ بكر: خصائص جزيرة العرب، الطبعة الأولى (الدمام: دار ابن الجوزي، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).. الناشر.



وإن الله سبحانه جلت حكمته وقد رتب أحكام هذه الدنيا على أسباب ظاهرة، ولم يجعلها قدرية محضة، وإن دين الإسلام هو قدر الله في هذه الجزيرة؛ قاعدة انطلاقه إلى كل الخليقة في المعمورة، وهو من الظهور والوضوح بمكان، وأحكام هذه الجزيرة فيه كذلك، بل هي من آخر ما عهده النبي ﷺ - وهو على فراش الموت - إلى أمته.

وإنك إذا أدرت النظر في سبب هجرها - عند الأكثرين -؛ رأيت أثرًا من آثار موجة الفتور التي تمر بالمسلمين؛ من ضعف الحس، والغفلة عن تنشيطه صُعداً إلى الترقى في مدارج الإسلام، والإبقاء على امتيازات داره وكيان أهله؛ عبر جسور شرعية من الكتاب والسنة.

ورأيت امتداداً لحبل التراخي من عرب هذه الجزيرة عن وجودهم القيادي في العالم، إذ غرقوا في الترف، والملذات، والتهم الأموال، والتقلب في عدة أوجاع؛ فآلت السابلة إلى ما ترى.

ومن شداد ولائده: أسر النفوس عن توثبها بالحق لنصرتة؛ مضغوطاً عليها من كل جانب: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١).

وهذا البيان تذكرة باحثة عن خصائص الجزيرة وسبل حمايتها، ثم تنزيل وسائل الإصلاح والاستصلاح، وبعث الهمم على إعمالها وتخليصها من الأدواء: أيها المصلح من أخلاقنا أيها المصلح الداء هنا

فإذا خلصت من الأدواء؛ بقي الإسلام في حضانة أهله؛ تشع أنواره، وتظهر شعائره، فتقام الشريعة، وتؤمن السابلة، وهذا هو الدين كما قال حسان، رضي الله عنه:



وما الدين إلا أن تُقام وتؤمن سبيل بيننا وهضاب

وبها تبقى دارهم مركزاً للإسلام، ودار قيادة للعالم الإسلامي.

وبها يبقى أهلها قدوة لأهل القبلة؛ قياديين عرباً مسلمين؛ يحمون حمى

الدين، وينافحون عنه.

ومن هنا يتضح للبصراء بجلاء منزلة هذا الأصل العقدي، وضرورة إحياء

ما هُجر من خصائصه، وبعثها من مرقدتها؛ ليروا كيف منحت الشريعة هذه

الجزيرة شخصية مستقلة؛ في قيادتها، وأرضها، وأهلها، ودعوتها؛ على رسم

منهاج النبوة لا غير.

وإنه إذا ما عدت يوماً نفسها مثل أي قطر من الأقطار، ترضى بمداخلة

ما هو أجنبي عن الإسلام، فإنها تعمل على إسقاط نفسها من سجل التاريخ،

وتقضي على ميزتها البارزة في خريطة العالم، فيخفت احترام العالم الإسلامي لها،

وتفقد رهبة شرادم الكفر منها، وتفتح مجالاً فسيحاً للقوى الشريرة العاتية.

وإنه إذا تقدمت الفتن، والبدع، والأهواء، والنحل، وضروب الغزو

الفكري؛ تضرب فارهة على صخرة هذه الجزيرة؛ فقد تجللت حينئذ من كل

ويل تياراً، وأذنت بمشاكل ذات أحجام مختلفة في التمرد، وإذا تشربت النفوس

بهذه الأنماط المتناثرة على جنبتي الصراط المستقيم؛ تشكلت الحياة إلى مزيج من

الأهواء والضلال البعيد.

وهذا إيذان بذلك آخر حصن للإسلام، وتقليص لظله عن معاقله في هذه

الجزيرة المسكينة.



فإنَّه طَلِبُ الفَعْلَةِ لذلك، وهو حسيبهم.

وإذا نفذت أنوار البصيرة إلى هذا الأصل العقدي وخصائصه؛ فلا بد من إدارة النظر آخراً بالضمانات الحافظة الحامية لها؛ تبصرة لمن بسط الله يده على أي من هذه الجزيرة ولمن شاء الله من عباده، ولطماً لهذا الزحف المهول والموجات الطاغية المدفوعة بدم فاسدة؛ لصدها عن هذه الجزيرة وأهلها، والرقابة اليقظة على صنائعها الرابضين في مغارات الجزيرة؛ حاملين بصمات العدا والاستعداد؛ يعملون في الجهر والخفاء؛ في مجالات: العلم، والسلوك، والأخلاق، والإعلام، والاقتصاد.

وعليه؛ فإذا كنا من هنا نعلم أحكام هذه الجزيرة؛ فمن هنا - أيضاً - نبداً فننادي أهل العلم والإيمان أن يُفيضوا على أمتهم بساعات من الاكتساب للاحتساب - و«الدِّينُ النَّصِيحَةُ»<sup>(١)</sup> -؛ استنهاضاً للموحدين على مواضع الفتور وسبل الغواشي التي غشيت التوحيد وأوهنت أخلاقيات هذه البلاد، وإحياء لما تأكل من معالم هذا الدين.

والحديث عن خصائص هذه الجزيرة واحدة منها.

وقد عنيت الإيجاز؛ لأن القصد غرس هذه النعمة في أفئدة أبناء هذه الجزيرة؛ يحدو ذلك الحمية؛ لله، ودينه، وشرعه؛ ليس إلا. والله المستعان.

(١) أخرجه البخاري.

## حدود جزيرة العرب على العموم

كما أن شبه جزيرة العرب أكبر شبه جزيرة في العالم، فقد حماها الله تعالى بثلاثة أبحر من جهاتها الثلاث: غرباً، وجنوباً، وشرقاً.

فيحدها غرباً: بحر القلزم - (والقلزم): مدينة على طرفه الشمالي - ويقال: الحبشة، وهو المعروف الآن باسم: (البحر الأحمر).  
ويحدها جنوباً: بحر العرب، ويقال: بحر اليمن.  
وشرقاً: خليج البصرة، الخليج العربي.

والتحديد من هذه الجهات الثلاث بالأبحر المذكورة محل اتفاق بين المحدثين والفقهاء، والمؤرخين، والجغرافيين، وغيرهم.

ومن أفصح عن هذا التحديد بالنص: ابن حوقل، وأطلق على الأبحر الثلاثة اسم: (بحر فارس)، والإصطخري، والهمداني، والبكري، وياقوت، وهو منصوص الرواية عن الإمام مالك وتفيده الرواية عن الإمام أحمد رحم الله الجميع.

الحد الشمالي: ويحدها شمالاً ساحل البحر الأحمر الشرقي الشمالي، وما على مُسَامَتِهِ شرقاً؛ من مشارف الشام وأطرافه (الأردن حالياً)، ومُنْقَطَعِ السَمَاوَةِ من ريف العراق، والحد غير داخل في الحدود هنا.  
وبهذا قال الأصمعي، وأبو عبيدة.



وهذا هو ما حرره شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، فقال: «جزيرة العرب: هي من بحر القلزم إلى بحر البصرة، ومن أقصى حجر اليمامة إلى أوائل الشام؛ بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل فيها الشام، وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله...».. انتهى مختصراً.

هذه هي الحدود الطبيعية بمعالمها الظاهرة - ثلاثة أبحر - غرباً وجنوباً وشرقاً؛ وهي تحديد جغرافي يلتقي فيه الفقهاء مع غيرهم.

ولهذا التحديد بالمياه الإقليمية الثلاثة صارت تعرف عند المتأخرين باسم (شبه جزيرة العرب)، وإنما قيل: (جزيرة العرب)؛ بحكم إحاطتها بثلاثة أبحر، ولأن الحد الشمالي، وإن كان إلى مشارف الشام وريف العراق؛ فإن ما وراء ذلك من أنهار: بردى، ودجلة، والفرات، متصل برأس الخليج العربي، فكان التجوز في الإطلاق بحكم المجاورة.

ولذا قال الخليل: «إنما قيل لها (جزيرة العرب)؛ لأن بحر الحبش، وبحر فارس، والفرات قد أحاطت بها، ونُسبت إلى العرب؛ لأنها أرضها، ومسكنها، ومعدنُها»، انتهى...

ونحوه ذكره الباجي عن الإمام مالك...

### حدود الحجاز:

الحجاز - في اللغة - : الحد الفاصل.

وفي سبب تسميته توجيهان:

الأول: سميت الحجاز حجازاً، لأنها قد احتزمت واحتجزت بالجبال،

أو بالحِرار، أو بهما، فسميت حجازاً، فهو من الاحتجاز؛ بمعنى: شد الوسط بالحِجزة، أو بالحِجاز.

والحجاز حجازان:

١- حجاز المدينة: وهو ما حجزته الحِرار.. والحِرار الحِجازة: هي خيط من حجارة سوداء، تمتد من الجنوب إلى الشمال في سلسلة متتابعة، فتتسع حيناً، وتضيق أحياناً في مواضع.

وهي من الجنوب مما يلي مكة إلى المدينة شمالاً فتبوك: حرّة بني سُليم، فحرة واقم، فحرة ليلي، فحرة شوران، فحرة النار، وهي أطولها مسافة.

٢- الحجاز الأسود: وهو ما حجزته الجبال، وهي: سراة شنوءة.. وسلسلة جبال السراة هذه هي أعظم جبال في بلاد العرب.

و(السراة): أعلى الشيء؛ كما يقال لظهر الدابة: السراة. وتمتد من جبل تثليث جنوباً إلى الطائف في الشمال.



## خصائص جزيرة العرب

ينتظم هذا ذكرَ خصائص الجزيرة عموماً، فالحجاز خصوصاً، فعرب الجزيرة خصوصاً، فالعرب عموماً.  
فألق إليها سمعك، فهو خيرٌ تُدَلُّ عليه.

### ١ - خصائص الجزيرة عموماً:

هذه جملةها:

#### الأولى:

هذه الجزيرة حرم الإسلام، فهي مَعْلَمُهُ الأول، وداره الأولى، قسبة الديار الإسلامية، وعاصمتها، وقاعدة لها على مر العصور، وكرَّ الدهور، منها تفيض أنوار النبوة الماحية لظلمات الجاهلية، ولذلك جاءت المنح المحمدية في صحيح السنة بما لهذه الجزيرة من خصائص وأحكام؛ لتبقى هذه المنطقة قاعدة الإسلام دائماً؛ كما كانت قاعدته أولاً، ومعقل الإيمان آخرها؛ كما كانت سابقاً.

وهذه - وإيم الله - ضمانات لا يمكن أن تكون لهيئة الأمم المتحدة (!) ولا لمجلس الأمن (!) ولا لمنظمة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (!) التي ما نشأت إلا في محيط حكومات الغاب وقرش العباد.

أما جزيرة العرب؛ فلها من سامي المكانة التي تتميز بها في (خريطة العالم)، ودقيق الضمانة الواجب توفيرها، ما يجعل فعاليتها في أمم الأرض تفوق هذه المؤتمرات التي هي في حقيقتها تأمر على ما ينبزونه توهيناً باسم (العالم الثالث)، الذي ليس بعده في حسابهم من رابع، وباسم الشرق الأوسط.. وهذا

الاصطلاح الحادث وسابقه من تخطيط يهود قبحهم الله؛ لتبقى منطقة العرب والمسلمين منطقة جغرافية فحسب، لا اختصاص لها بعرب ولا بمسلمين، وهو تخطيط خبيث يرمي بعد إلى تسويغ إقامة دولة يهود، خسثوا. وليُعلم أولاً أن الشرق مشرقُ العِظائم، وأنه بلغ موضع أقدامهم بسلطان قائم، وما على الله بعزير أن يبلغ الإسلام مبلغه منهم، وبالغ الأمل في الأفق يلوح، ونزول النصر لنا مرهون منا بتوبة نصوح. فاعرف هذه الخصيصة لجزيرة العرب من أهما (حرم الإسلام)، وللحرم حرماته التي لا تنتهك، ولن تكون دار كفر أبداً. ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم.

### الثانية:

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وقد جاء هذا الحديث عن جماعة من الصحابة بألفاظ متقاربة...

والخلاصة: أن متن الحديث ثابت من عدة طرق عن عدد من الصحابة رضوان الله عليهم.

ومعنى هذا الحديث: أن الشيطان يئس من اجتماع أهل الجزيرة على الإشراف بالله تعالى.

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢٨١٢)، الترمذي (١٩٣٧)، وأحمد (٣١٣/٣ و٣٥٤)، وأبو يعلى (٢٢٩٤)، والبخاري في شرح السنة (٣٥٢٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٨)، وابن حبان (١٨٣٦ و٦٤)؛ من طرق عنه.



ومنذ بعثة النبي ﷺ وهي إلى يومنا هذا دار إسلام - والله الحمد، حماها الله وسائر أوطان المسلمين-، ولم يعرف الشرك فيها إلا جزئياً على فترات في فرد أو أفراد، ثم يهيم الله على مدى الأزمان من يردهم إلى دينهم الحق. على أن بعض العلماء، رحمهم الله تعالى، رأى عموم هذا الحديث لأمة محمد ﷺ.

قال ابن رجب، رحمه الله، في شرحه لهذا الحديث: «المراد أنه يشس أن يجتمع الأمة كلها على الشرك الأكبر»، انتهى.

وذلك كما في قول الله تعالى من سورة المائدة: ﴿الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ (المائدة: ٣).

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وعلى هذا يردُّ الحديثُ الصحيحُ: (فذكره)». وهذا يكون ذكر جزيرة العرب؛ لمزيتها بأنها ديار الإسلام، وأهلها أصلُ المسلمين ومادتهم.. والله أعلم.

### الثالثة:

جزيرة العرب وقف في الإسلام على أهل الإسلام؛ على من قال: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وقام بحقهما.

جزيرة العرب وديعة النبي ﷺ إلى أمته، التي استحفظهم عليها في آخر ما عهده النبي ﷺ.

فهي دار طيبة، لا يقطنها إلا طيب، ولما كان المشرك خبيثاً بشركه؛ حرمت عليه جزيرة العرب...

## الرابعة:

ومن خصائص هذه الجزيرة المباركة أن الإسلام حين يُضطهد في دياره خارجها، فإنه ينحاز إلى هذه الجزيرة، ويأوي إليها، فيجد كرم الوفادة بعد الغربة وطول المحنة.

وفي ذلك جاء حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»<sup>(١)</sup>.

فانظر كيف ربط النبي ﷺ بين غربة الإسلام، ثم احتضان هذه الجزيرة له؛ انتشالاً من غربته.

## ٢ - خصائص الحجاز:

يقع الحجاز من جزيرة العرب موقع التاج من الحلة، وبين مسجديه يأرز الإيمان، وينحاز في آخر الزمان، كما سبق حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وتمتع بهذه الشذرة الفائقة من كلام القاضي عياض -رحمه الله تعالى- في "الشفاء" عن الحرمين الشريفين، فيقول:

«ووجدت بمواطن عمرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد

(١) أخرجه مسلم.



المرسيلن، ومتبواً خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عباها، ومواطن مهبط الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفى ترابها: أن تعظم عرصاتها، وتتنسم نفحاتها»، انتهى مختصراً.

واعلم أن الخصائص السالفة لجزيرة العرب هي للحجاز - قلب الجزيرة، بل قبل العالم الإسلامي - من باب أولى.

وقد اختُصَّ الحرمين الشريفان - مكة حرسها الله تعالى، والمدينة النبوية حرسها الله تعالى - بخصائص وميزات:

**خصائص مهد الهداية (البلد الحرام، أم القرى، مكة)؛ زادها الله شرفاً:**

وفي خصوص البلد الحرام؛ آيات القرآن الكريم، وأحاديث نبيه عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، متكاثرة نصوصها على بيانها وذكرها، وكتب المؤرخين - وبخاصة عن تاريخ الحرمين الشريفين - توضح ذلك وتشرحه:

واكتفي هنا بذكر ما رقمه قلم الإمام ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى في فاتحة كتابه الحافل "الهدى النبوي" (١/٤٦-٥٤) عند تفسير قول الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨)، فقال رحمه الله تعالى:

«ومن هذا اختياره سبحانه وتعالى من الأماكن والبلاد خيرها وأشرفها، وهي البلد الحرام؛ فإنه سبحانه وتعالى اختاره لنبيه ﷺ، وجعله مناسك لعباده، وأوجب عليهم الإتيان إليه من القرب والبعد من كل فج عميق، فلا يدخلونه إلا متواضعين متخشعين متذللين، كاشفي رؤوسهم، متجردين عن لباس الدنيا، وجعله حرماً آمناً، لا يُسفك فيه دم، ولا تعضد به شجرة، ولا ينفر له صيد،

ولا يختلى خلاه، ولا تلتقط لقطته للتميلك، بل للتعريف ليس إلا، وجعل قصده مكفراً لما سلف من الذنوب، ماحياً للأوزار، حاطاً للخطايا، كما في "الصحيحين" عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتى هذا البيت، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»<sup>(١)</sup>.

ولم يرض لقاصده من الثواب دون الجنة، ففي السنن من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ حَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»<sup>(٢)</sup>.

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ».

فلو لم يكن البلد الأمين خير بلاده، وأحبها إليه، ومختاره من البلاد؛ لما جعل عرساتها مناسك لعباده؛ فرض عليهم قصدها، وجعل ذلك من أكد فروض الإسلام، وأقسم به في كتابه العزيز في موضعين منه، فقال تعالى: ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (التين: ٣)، وقال تعالى: ﴿ لَا أَقِيمُ بِهِذَا الْبَلَدِ ﴾ (البلد: ١).

وليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها، والطواف بالبيت الذي فيها؛ غيرها، وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيله واستلامه، وتحط الخلايا والأوزار فيه؛ غير الحجر الأسود، والركن اليماني. وثبت عن النبي ﷺ أن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة، ففي سنن

(١) وأخرج البخاري في صحيحه: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفَثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وُلِدَتْهُ أُمُّهُ».

(٢) أخرجه الترمذي.



النسائي والمسند، بإسناد صحيح، عن عبد الله بن الزبير عن النبي ﷺ أنه قال: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيْمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ، وَصَلَاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةٍ فِي مَسْجِدِي هَذَا بِمِئَةِ صَلَاةٍ»<sup>(١)</sup>.

وهذا صريح في أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، ولذلك كان شد الرحال إليه فرضاً، ولغيره مما يستحب ولا يجب.

وفي المسند، والترمذي والنسائي؛ عن عبد الله بن عدي بن الحمراء أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف على راحلته بالحزورة من مكة يقول: «وَاللَّهِ إِنَّكَ لَخَيْرُ أَرْضِ اللَّهِ وَأَحَبُّ أَرْضِ اللَّهِ إِلَيَّ، وَلَوْلَا أَنِّي أُخْرِجْتُ مِنْكَ مَا خَرَجْتُ»<sup>(٢)</sup>.

بل ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم، فليس على وجه الأرض قبلة غيرها.

ومن خواصها أيضاً أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة؛ دون سائر بقاع الأرض.

وأصح المذاهب في هذه المسألة أنه لا فرق بين الفضاء والبنيان؛ لبضعة عشر دليلاً قد ذكرت في غير هذا الموضوع، وليس مع المفرق ما يقاومها ألبتة؛ مع تناقضهم في مقدار الفضاء والبنيان، وليس هذا موضع استيفاء الحجاج من الطرفين. ومن خواصها أيضاً أن المسجد الحرام أول مسجد في الأرض؛ كما في

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، وفي رواية لمسلم: «صَلَاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيْمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ».

(٢) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث صحيح.

الصحيحين عن أبي ذر قال: «سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَوَّلِ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قُلْتُ: كَمْ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ عَامًا»<sup>(١)</sup>.

وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام!

وهذا من جهل هذا القائل؛ فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده، لا تأسيسه، والذي أسسه هو يعقوب بن إسحاق صلى الله عليهما وآلهما وسلم، بعد بناء إبراهيم الكعبة بهذا المقدار.

ومما يدل على تفضيلها أن الله تعالى أخبر أنها أم القرى، فالقرى كلها تبع لها، فرع عليها، وهي أصل القرى، فيجب ألا يكون لها في القرى عديل فهي كما أخبر النبي ﷺ عن الفاتحة أنها أم القرآن، ولهذا لم يكن لها من الكتب الإلهية عديل.

ومن خصائصها أنها لا يجوز دخولها لغير أصحاب الحوائج المتكررة إلا بإحرام، وهذه خاصية لا يشاركها فيها شيء من البلاد، وهذه المسألة تلقاها الناس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد روي عن ابن عباس بإسناد لا يحتج به مرفوعاً: «لا يدخل أحد مكة إلا بإحرام من غير أهلها».. ذكره أبو أحمد بن عدي؛ ولكن حجاج بن أرطاة في الطريق، وآخر قبله من الضعفاء.

وللفقهاء في المسألة ثلاثة أقوال: النفي، والإثبات، والفرق بين من هو داخل

(١) أخرجه مسلم.

المواقيت ومن هو قبلها، فمن قبلها لا يجاوزها إلا بإحرام، ومن هو داخلها؛ فحكمه حكم أهل مكة، وهو قول أبي حنيفة، والقولان الأولان للشافعي وأحمد. ومن خواصه أنه يعاقب فيه على الهمم بالسيئات وإن لم يفعلها؛ قال تعالى:

﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُلْطَمِ نُدْقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ (الحج: ٢٥).

فتأمل كيف عدى فعل الإرادة ها هنا بالباء، ولا يقال: أردت بكذا؛ إلا لما ضمن معنى فعل (هم)؛ فإنه يقال: هممت بكذا، فتوعد من هم بأن يظلم فيه بأن يذقه العذاب الأليم.

ومن هذا تضاعف مقادير السيئات فيه، لا كمياتها؛ فإن السيئة جزاؤها سيئة، لكن سيئة كبيرة وجزاؤها مثلها، وصغيرة جزاؤها مثلها، فالسيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه أكد وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصى الملك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه، فهذا فصل النزاع في تضعيف السيئات، والله أعلم.

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص في انجذاب الأفئدة، وهوى القلوب، وانعطافها، ومحبتها لهذا البلد الأمين، فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد، فهو الأولى بقول القائل:

مَحَاسِنُهُ هَيُّوْلَى كُلِّ حَسَنِ وَمَغْنَاطِيْسُ أَفئِدَةُ الرِّجَالِ

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس، أي: يثوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار، ولا يقضون منه وطراً، بل كلما ازدادوا له زيارة؛ ازدادوا له اشتياقاً.



لا يَرْجِعُ الطَّرْفُ عنها حين حتى يعودَ إليها الطَّرْفُ مُشتاقا  
 فله كم لها من قتيل وسليب وجريح، وكم أنفق في حبها من الأموال  
 والأوطان؛ مقدماً بين يديه أنواع المخاوف والمتالف، والمعاطب والمشاق، وهو  
 يستلذ ذلك كله، ويستطيبه، ويراه - لو ظهر سلطان المحبة في قلبه- أطيّب من  
 نعم المتحلّية وترفهم ولذاتهم.

وليس محباً من يُعَدُّ شقاءه عذاباً إذا ما كان يرّضى حبيبه

وهذا كله سر إضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ (الحج: ٢٦)،  
 فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الإجلال والتعظيم والمحبة ما اقتضته؛  
 كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضته من ذلك، وكذلك  
 إضافته عباده المؤمنين إليه كستهم من الجلال والمحبة والوقار ما كستهم.

فكل ما أضافه الرب تعالى إلى نفسه؛ فله من المزية والاختصاص على غيره  
 ما أوجب له الاصطفاء والاجتباء، ثم يكسوه بمذه الإضافة تفضيلاً آخر،  
 وتخصيصاً وجلالة زائداً على ما كان له قبل الإضافة.

ولم يوفق لفهم هذا المعنى من سَوَى بين الأعيان والأفعال، والأزمان  
 والأماكن، وزعم أنه لا مزية لشيء منها على شيء، وإنما هو مجرد الترجيح  
 بلا مرجح.

وهذا القول باطل بأكثر من أربعين وجهاً، قد ذكرت في غير هذا الموضوع،  
 ويكفي تصور هذا المذهب الباطل في فساده؛ فإن مذهباً يقتضي أن تكون ذوات  
 الرسل كذوات أعدائهم في الحقيقة، وإنما التفضيل بأمر لا يرجع إلى اختصاص  
 الذوات بصفات ومزايا لا تكون لغيرها، وكذلك نفس البقاع واحدة بالذات،

ليس لبقعة على بقعة مزية البتة، وإنما هو لما يقع من الأعمال الصالحة، فلا مزية لبقعة البيت والمسجد الحرام، ومنى، وعرفة، والمشاعر على أي بقعة سميتها من الأرض، وإنما التفضيل باعتبار أمر خارج عن البقعة، لا يعود إليها ولا إلى وصف قائم بها.

والله سبحانه وتعالى قد رد هذا القول الباطل بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾... قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (الأنعام: ١٢٤)؛ أي: ليس كل أحد أهلاً ولا صالحاً لتحمل رسالته، بل لها محال مخصوصة لا تليق إلا بها، ولا تصلح إلا لها، والله أعلم بهذه المحال منكم.

ولو كانت الذوات متساوية - كما قال هؤلاء - لم يكن في ذلك رد عليهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٣)؛ أي: هو سبحانه أعلم بمن يشكره على نعمته، فيختصه بفضله، ومن عليه، ممن لا يشكره، فليس كل محل يصلح لشكره، واحتمال منته، والتخصيص بكرامته.

فذوات ما اختاره واصطفاه من الأعيان والأماكن والأشخاص وغيرها مشتملة على صفات وأمر قائمة بها ليست لغيرها، ولأجلها اصطفاه الله، وهو سبحانه الذي فضلها بتلك الصفات، وخصها بالاختيار، فهذا خلقه، وهذا اختياره: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (القصص: ٦٨)...

إلى أن قال رحمه الله: «... ولم نقصد استيفاء الرد على هذا المذهب المردود المردول، وإنما قصدنا تصويره، وإلى اللبيب العادل العاقل التحاكم، ولا يعبأ الله

وعبادته بغيره شيئاً، والله سبحانه لا يخصص شيئاً، ولا يُفضِّله ويُرجِّحه، إلا لمعنى يقتضيه تخصيصه وتفضيله.

نعم؛ هو معطي ذلك وواهبه، فهو الذي خلقه، ثم اختاره بعد خلقه، وربك يخلق ما يشاء ويختار» انتهى.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، في الصفدية (٢٢٠/١-٢٢١) ما نصه: «كذلك ما خص به الكعبة الحرام من حين بناه إبراهيم وإلى هذا الوقت من تعظيمه وتوقيره وانجذاب القلوب إليه، ومن المعلوم أن الملوك وغيرهم يبنون الحصون والمدائن والقصور بالآلات العظيمة البناء المحكم، ثم لا يلبث أن ينهدم ويهان، والكعبة بيت مبني من حجارة سود بواد غير ذي زرع، ليس عنده ما تشتهي النفوس من البساتين والمياه وغيرها، ولا عنده عسكر يحميه من الأعداء، ولا في طريقه من الشهوات ما تشتهي الأنفس، بل كثيراً ما يكون في طريقه من الخوف والتعب والعطش والجوع ما لا يعلمه إلا الله، ومع هذا؛ فقد جعل الله من أفئدة الناس التي تهوي إليه ما لا يعلمه إلا الله».

وقد جعل للبيت من العز والشرف والعظمة ما أذل به رقاب أهل الأرض، حتى تقصده عظماء الملوك ورؤساء الجبابرة، فيكونون هناك في الذل والمسكنة كأحاد الناس.

وهذا مما يُعلم بالاضطرار أنه خارج عن قدرة البشر، وقوى نفوسهم وأبدانهم، والذي بناه قد مات من ألوف السنين.

ولهذا كان أمر البيت مما حير الفلاسفة والمنجمين والطبائعية؛ لكونه خارجاً عن قياس عقولهم وقوانين علومهم، حتى اختلقوا لذلك من الأكاذيب ما يعلمه



كل عاقل لبيب؛ مثل قول بعضهم: إن تحت الكعبة بيتاً فيه صنم يبخر، ويصرف وجهه إلى الجهات الأربع لِيُقْبِلَ الناس إلى الحج!

وهذا مما يَعْلَمُ كلُّ من عرف أمر مكة أنه من أبين الكذب، وأنه ليس تحت الكعبة شيء من هذا، وأنه لا ينزل أحد من أهل مكة إلى ما تحت الكعبة، ولا يحفره أحد، ولا يبخر أحد شيئاً هناك، ولا هناك صنم ولا غير صنم!!

وكان ابن سبعين وأمثاله من هؤلاء يحارون من هذا، وربما قالوا: ليت شعرنا؛ ما هو الطلسم الذي صنعه إبراهيم الخليل حتى صار الأمر هكذا؟ وهم يعلمون أن أمور الطلاسم لا تبلغ مثل هذا، وأنه ليس في الأرض ما يقارب هذا، وأن الطلاسم أمور معتادة معروفة بأسباب معروفة، ولهذا يصنع الرجل طلسماً ويصنع الآخر مثله أو أعظم منه، وأما هذا؛ فخارج عن قدرة البشر.

وليس في الوجود طلسم يستحوذ على أهل الأرض، ولا يتصرف في قلوب أهل الأقاليم الثلاثة، وهم أفضل الإنس، وأكملهم عقولاً وأدياناً، والطلاسم إنما يقوى تأثيرها إذا ضعف العقل، فيؤثر في الجماد أكثر من الحيوان، ويؤثر في البهائم أكثر من الأناسي، ويؤثر في الصبيان والمجانين أكثر من العقلاء، وهكذا تأثير الشياطين، كلما ضعفت العقول؛ قوي تأثيرهم».. انتهى.

### خصائص المدينة النبوية:

وأما الدار النبوية الشريفة: طَيْبَةٌ، وطَابَةُ الطَّيْبَةِ، دار المحجرة، المدينة النبوية المنورة؛ كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

بَطِيْبَةٌ رَسَمَ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفَوُ الرِّسْومُ وَتَهَمَدُ

فلها من الخصائص الشريفة:

١- تسميتها (حراماً)؛ مثل مكة، حرسهما الله تعالى:

وليس في الدنيا ما يطلق عليه اسم الحرم سواهما؛ إلا أن مكة يقال  
لمسجدها: المسجد الحرام، أما المدينة؛ فلا يقال لمسجدها: الحرم، ولا المسجد  
الحرام، وإنما يقال: مسجد النبي ﷺ .

ولهذا فلا يقال للمسجد الأقصى: ثالث الحرمين، لأن لفظ (الحرم) لا يطلق  
عليه، وقد بينت ذلك في "معجم المناهي اللفظية".

٢- تحريمها كان على لسان رسول الله ﷺ:

وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، بعد غزوة خيبر، أما مكة، حرسها الله  
تعالى؛ فتحريمها على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام.

٣- المدينة حرم آمن؛ مثل مكة:

فعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أهوى بيده إلى  
المدينة، وقال: «إِنَّهَا حَرَمٌ آمِنٌ»<sup>(١)</sup>.

وحرمها ما بين لا بتيها - ويقال: ما بين مأزميها، وهما الحرتان؛ شرقاً  
وغرباً، ويحدها شمالاً وجنوباً جبلان: جبل أحد شمالاً، وجبل عير جنوباً. ويقال:  
شمالاً جبل ثور، وهو جبل صغير خلف أحد.

وقد غلط من الفقهاء من ظن أن ثوراً هو الذي بمكة، ومعناه إخراج المدينة  
من المحدود، فلا تكون حراماً.

(١) أخرجه مسلم.

٤- وقد خصها النبي ﷺ بأدعية عامة، وخاصة:

أ- فمن العامة قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ بِالْمَدِينَةِ ضِعْفِي مَا جَعَلْتَ بِمَكَّةَ مِنَ الْبَرَكَةِ»<sup>(١)</sup>.

ب- ومن الخاصة: دعاؤه ﷺ بأن يبارك الله في صاعها، ومدها، وأن ينقل الله حماها إلى الجحفة وهي مهيبة.

٥- إخبار النبي ﷺ أن الإيمان يَأْرِزُ وينحاز إلى المدينة، زادها الله شرفاً.

٦- وقد خص النبي ﷺ أهلها وسكانها بأمر منها ما يلي:

أ- عن جابر - وذكر قصة- أن النبي ﷺ قال:

«الْمَدِينَةُ كَالْكَبِيرِ تَنْفِي خَبَثُهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا»<sup>(٢)</sup>.

ب- عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطُوهُ الدَّجَالُ إِلَّا مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نَقَابِهَا نَقَبٌ إِلَّا عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ صَافِينَ يَحْرُسُونَهَا ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلَاثَ رَجَفَاتٍ فَيُخْرِجُ اللَّهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ»<sup>(٣)</sup>.

ج- ما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما؛ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَصْبِرُ عَلَى لَأْوَانِهَا وَشِدَّتِهَا أَحَدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَهِيدًا أَوْ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»<sup>(٤)</sup>.

د- وما في حديثه -أيضاً- أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمُوتَ بِالْمَدِينَةِ فَلْيَمُتْ بِهَا فَإِنِّي أَشْفَعُ لِمَنْ يَمُوتُ بِهَا»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) رواه أحمد والترمذي، وابن ماجه.



هـ- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَرَادَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِسُوءٍ أَذَابَهُ اللَّهُ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ»<sup>(١)</sup>.

و- وعن سعيد بن أبي وقاص رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «... الْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ لَا يَدْعُهَا أَحَدٌ رَغْبَةً عَنْهَا إِلَّا أَبَدَلَ اللَّهُ فِيهَا مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ...»<sup>(٢)</sup>.

ز- لا يدخلها الطاعون، كما في حديث عند البخاري وهو من أفرادهِ عن مسلم. وبجته في (بذل الماعون) لابن حجر، ص ١٠٢، ٢٠٤.

#### ٧- والمدينة النبوية لها أحكام فقهية خاصة بها:

أ- فلا يُنْفَرُ صيدها، ولا يُقْتَل، وجزاء الصائد وعقوبة فاعل ذلك: سلبه.

ب- ولا يقلع منها شجرة، وأبيح ذلك لرجل يعلف بغيره.

ج- ولا تُلتقط لُقُطُهَا.

د- ولا يُهْرَاق فيها دم، ولا يحمل فيها سلاح لقتال.

هـ- لا تقتل حيَّاتها إلا بعد إيدائها ثلاثة أيام.

#### ٨- خصائص لبعض ثمارها:

عن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِمَّا بَيْنَ لَابَتَيْهَا حِينَ يُصْبِحُ لَمْ يَضُرَّهُ سُمْ حَتَّى يُمَسِّي»<sup>(٣)</sup>. وفي رواية عنده وعند البخاري تقييده بالعجوة. وفي رواية لمسلم: «إِنَّ فِي عَجْوَةِ الْعَالِيَةِ شِفَاءً»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه مسلم.

وفي "مسند أحمد" وغيره: «الْعَجْوَةُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهِيَ شِفَاءٌ...»<sup>(١)</sup>  
الحديث.

#### ٩- خصائص لبعض بقاعها وجبالها في الفضل والفضيلة:

أ- فضل المسجد النبوي الشريف، وفضل الصلاة فيه: ويشترك مع  
مسجدي مكة والمقدس بمضاعفة أجر الصلاة، وجواز شد  
الرحل؛ على ما هو مشهور في السنة.

ب- فضل الروضة من مسجده ﷺ، وأما ما بين بيته ومنبره ﷺ:  
ولم يأت في لفظ صحيح أنها ما بين قبره ومنبره، وإنما كان ذلك  
بعد، باعتبار ما كان من قبر النبي ﷺ في بيته.

ج- فضل صلاة ركعتين في مسجد قباء، وأن النبي ﷺ كان يأتيه  
كل سبت ماشياً وراكباً.

د- وادي العقيق: واد مبارك.

هـ- جبل أحد: ثبت عن النبي ﷺ قوله: «... أَحَدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا  
وُحْبُهُ»<sup>(٢)</sup>.

١٠- ومنها: تحريم الإحداث فيها، وإيواء من أحدث حدثاً، وعقوبة من  
فعل ذلك بأن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، كما في حديث الخليفة  
الراشد علي رضي الله عنه، المشهور بحديث الصحيفة، والله أعلم.

(١) أخرجه أحمد.

(٢) متفق عليه في غيره من الأحاديث، واللفظ للبخاري.

### ٣- خصائص عرب الجزيرة

العرب قوم شرافٌ، يَزِنُون الحياة بغير ما تزنها به أمم البطون والفروج، وموازينهم في الحياة تدور على قطب واحد، وهو: المحمّدة، والذكر الحسن.

وفي حدّهم يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

"واسم العرب في الأصل كان اسماً لقوم جمعوا ثلاثة أوصاف:

أحدها: أن لسانهم كان باللغة العربية.

الثاني: أنهم كانوا من أولاد العرب.

الثالث: أن مساكنهم كانت أرض العرب، وهي جزيرة العرب التي هي من بحر القلْزُوم إلى بحر البصرة، ومن أقصى حجر باليمن إلى أوائل الشام؛ بحيث كانت تدخل اليمن في دارهم، ولا تدخل الشام.

وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله، فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار، سكنوا سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وإلى سواحل الشام وأرمينية، وهذه كانت مساكن فارس والروم، والبربر وغيرهم. ثم انقسمت هذه البلاد قسمين:

منها: ما غلب على أهله لسان العرب، حتى لا تعرف عامتهم غيره، أو يعرفونه وغيره، مع ما دخل على لسان العرب من اللحن، وهذه غالب مساكن الشام والعراق ومصر والأندلس ونحو ذلك، وأظن أرض فارس وخراسان كانت هكذا قديماً.

ومنها: ما العجمة كثيرة فيهم أو غالبية عليهم؛ كبلاد الترك وخراسان وأرمينية وأذربيجان ونحو ذلك.



فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربي ابتداءً، وما هو عربي انتقلاً، وإلى ما هو أعجمي.

وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام:

قوم من نسل العرب، وهم باقون على العربية، لساناً وداراً، أو لساناً لا داراً، أو داراً لا لساناً.

وقوم من نسل العرب، بل من نسل هاشم، ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما.

وقوم مجهولو الأصل، لا يدرون: أمن نسل العرب هم أو من نسل العجم؟ وهم أكثر الناس اليوم، سواء أكانوا عرب الدار واللسان، أم عجماً في أحدهما.

وكذلك انقسموا في اللسان ثلاثة أقسام:

قوم يتكلمون بالعربية لفظاً ونغمة.

وقم يتكلمون بها لفظاً لا نغمة، وهم المتعربون الذين ما تعلموا اللغة ابتداءً من العرب، وإنما اعتادوا غيرها، ثم تعلموها؛ كغالب أهل العلم ممن تعلم العربية. وقوم لا يتكلمون بها إلا قليلاً.

وهذان القسمان: منهم من تغلب عليه العربية، ومنهم من تغلب عليه العجمة، ومنهم من يتكافأ في حقه الأمران: إما قدرة، وإما عادة.

فإذا كانت العربية قد انقسمت نسباً ولساناً وداراً؛ فإن الأحكام تختلف باختلاف هذا الانقسام، خصوصاً النسب واللسان».. انتهى.

ولفاضل مزاياهم ظهر الإسلام فيهم، واصطفى الله نبيه ورسوله محمداً ﷺ منهم، فكانت النبوة من أصلابهم، وترشحوا حملة نشر الرسالة الأولى، وصار اعتقاد فضلهم على غيرهم من أصول الاعتقاد في الإسلام.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم؛ عبرانيهم وسريانيهم، رومهم وفرسهم، وغيرهم، وأن قريشاً أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفساً، وأفضلهم نسباً، وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم؛ بمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفساً ونسباً، وإلا لزم الدور.

ولله تعالى حكيم بالغة في أن اختار لهذه الرسالة رجلاً عربياً، وليس هذا موضع بيان ما بلغ إليه العلم من تلك الحكم، وقد قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ .

بيد أنا نقول: إن الرسول لما كان عربياً؛ كان بحكم الضرورة يتكلم بلسان العرب، فلزم أن يكون المتلقون منه الشريعة بادئ ذي بدء عرباً، فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها، وهم من جملتهم، واختارهم الله لهذه الأمانة؛ لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعث عن الاختلاط ببقية أمم العالم.

فهم بالوصف الأول أهل لفهم الدين وتلقيه.

وبالوصف الثاني أهل لحفظه، وعدم الاضطراب في تلقيه.

وبالوصف الثالث أهل لسرعة التخلق بأخلاقه، إذ هم أقرب إلى الفطرة

السليمة، ولم يكونوا على شريعة مُعتدِّ بها متمائلة حتى يصمموا على نصرها.

وبالوصف الرابع أهل معاشره بقية الأمم، إذ لا حزازات بينهم وبين الأمم الأخرى؛ فإن حزازات العرب ما كانت إلا بين قبائلهم؛ بخلاف مثل الفرس مع الروم، ومثل القبط مع الإسرائيليين.

ولا عبرة بما جرى بين بعض قبائل العرب وبين الفرس والروم في نحو يوم ذي قار، ويوم حليمة؛ لأنها حوادث نادرة، على أن العرب كانوا فيها يُقاتلون انتصاراً لغيرهم من الفرس أو الروم، فأحنتهم معهم محجوبة بإحس من قاتلوا هم وراءهم».. انتهى.

ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني، صاحب الإمام أحمد، في وصفه للسنة، التي قال فيها:

«هذا مذهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المعروفين بها، المقتدى بهم فيها، وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلاً، فهو مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد، وإسحاق بن إبراهيم بن مخلد، وعبد الله بن الزبير الحميدي، وسعيد بن منصور، وغيرهم؛ ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم.

فكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية.

وساق كلاماً طويلاً، إلى أن قال:

«ونقرُّ للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث رسول الله ﷺ:

«الحب للعرب إيمان وبغضهم نفاق»، ولا نقول بقول الشعبية وأراذل الموالي، الذين لا يحبون العرب، ولا يقرُّون فضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف».



وعن خصائصهم تبعت وقيدت كثيراً، فوجدت أن ما وقفت عليه مشمول بما هو مدون في كتاب "أم القرى" (ص ٢١٨-٢٢٢)، وعنه في "مجلة المنار" (٨٦١/٥-٨٦٢)، فيها أنا ذا أسوقه باختصار قليل:

«وحيث كانت الجمعية لا يعينها غير أمر النهضة الدينية؛ بناء عليه؛ رأت الجمعية من الضروري أن تربط آمالها بالجزيرة وما يليها، وأهلها ومن يجاريهم، وأن تبسط لأنظار الأمة ما هي خصائص الجزيرة وأهلها والعرب عموماً، وذلك لأجل رفع التعصب السياسي أو الجنسي.

ولأجل إيضاح أسباب ميل الجمعية للعرب فنقول:

- ١- الجزيرة هي مشرق النور الإسلامي.
- ٢- الجزيرة فيها الكعبة المعظمة.
- ٣- الجزيرة فيها المسجد النبوي، وفيه الروضة المطهرة.
- ٤- الجزيرة أنسب المواقع لأن تكون مركزاً للسياسة الدينية؛ لتوسطها بين أقصى آسية شرقاً وأقصى إفريقية غرباً.
- ٥- الجزيرة أسلم الأقاليم من الأخلاط؛ جنسية، وأدياناً، ومذاهب.
- ٦- الجزيرة أبعد الأقاليم عن مجاورة الأجانب.
- ٧- الجزيرة أفضل الأراضي لأن تكون ديار أحرار؛ لبعدها عن الطامعين والمزاحمين؛ نظراً لفقرها الطبيعي.
- ٨- عرب الجزيرة هم مؤسسو الجامعة الإسلامية؛ لظهور الدين فيهم.

- ٩- عرب الجزيرة مستحکم فيهم التخلق بالدين.
- ١٠- عرب الجزيرة أعلم المسلمين بقواعد الدين؛ لأنهم أعرقهم فيه، ومشهود لهم بأحاديث كثيرة بالمتانة في الإيمان.
- ١١- عرب الجزيرة أكثر المسلمين حرصاً على حفظ الدين، وتأيدته، والفخار به؛ خصوصاً والعصبية النبوية لم تزل قائمة بين أظهرهم في الحجاز، واليمن، وعمان، وحضرموت، والعراق، وإفريقية.
- ١٢- عرب الجزيرة لم يزل الدين عندهم حنيفاً، سلفياً، بعيداً عن التشديد والتشويش.
- ١٣- عرب الجزيرة أقوى المسلمين عصبية، وأشدهم أنفة؛ لما فيهم من خصائص البدوية.
- ١٤- عرب الجزيرة أمراؤهم جامعون بين شرف الآباء والأمهات والزوجات فلم تحتل عزهم.
- ١٥- عرب الجزيرة أقدم الأمم مدنية مهذبة؛ بدليلي: سعة لغتهم، وسمو حكمتهم وأديياتهم.
- ١٦- عرب الجزيرة أقدر المسلمين على تحمل قشف المعيشة في سبيل مقاصدهم، وأنشطهم على التغرب والسياحات، وذلك لبعدهم عن الترف المذل أهله.
- ١٧- عرب الجزيرة أحفظ الأقوم على جنسيتهم، وعاداتهم، فهم يخالطون ولا يختلطون.

١٨ - عرب الجزيرة أحرص الأمم الإسلامية على الحرية والاستقلال وإباء الضيم.

١٩ - العرب عموماً لغتهم أغنى لغات المسلمين في المعارف، ومصونة بالقرآن الكريم من أن تموت.

٢٠ - العرب لغتهم هي اللغة العمومية بين كافة المسلمين البالغ عددهم (٣٠٠ مليون).

٢١ - العرب لغتهم هي اللغة الخصوصية لمئة مليون من المسلمين وغير المسلمين.

٢٢ - العرب أقدم الأمم اتباعاً لأصول تساوي الحقوق، وتقارب المراتب في الهيئة الاجتماعية.

٢٣ - العرب أعرق الأمم في أصول الشورى في الشؤون العمومية.

٢٤ - العرب أهدي الأمم لأصول المعيشة.

٢٥ - العرب من أحرص الأمم على احترام العهود عزة، واحترام الذمة إنسانية، واحترام الجوار شهامة، وبذل المعروف مروءة.

٢٦ - العرب أنسب الأقوام لأن يكونوا مرجعاً في الدين، وقدوة للمسلمين، حيث كان بقية الأقوام قد اتبعوا هديهم ابتداءً؛ فلا يأنفون عن اتباعهم أخيراً.

... والجمعية تسأل الله تعالى أن يوفق ملوك المسلمين وأمراءهم للتصلب في

الدين، وللحزم، والعزم، عساهم يحفظون عزهم وسلطانهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن يحميهم من التعصب السيء، للسياسات والجنسيات،

ومن الكبر والأنفة، ومن التخاذل والانقسام، ومن الانقياد إلى وساوس الأجناب الأضداد، وإلا؛ فينتابهم الخطر القريب المحقق بهم، وتتخاطفهم النسور المحلقة في سمائهم.

والله الموفق وإليه ترجع الأمور».. انتهى باختصار يسير.

#### ٤ - خصائص قوم النبي ﷺ وعترته

وعن مزايا قوم النبي ﷺ وعترته واستعدادهم للنهوض بدعوته كتب كثير من العلماء، وبخاصة الذين ألفوا في أحوال العرب.

وللشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى مبحث نفيس في رسالته "خلاصة

السيرة المحمدية" (٤-١٦)، حيث قال مانصه:

«مزايا قومه وعترته، واستعدادهم للنهوض بدعوته ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ

آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣)، إذ جعل

فيهم النبوة والهداية للمتقدمين والمتأخرين.

ثم إن الله تعالى اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة،

واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفى سيد ولد آدم من بني هاشم، فكان

آل إسماعيل أفضل الأولين والآخرين، كما كان بنو اسحاق أفضل المتوسطين، إذ

كانت هداية الأنبياء من بني إسحاق وغيرهم خاصة، وهداية هذا النبي

من آل إسماعيل عامة، فيه أكمل الله تعالى الدين، وأتم نعمته على العالمين؛

كما اقتضته سنته تعالى في النشوء والارتقاء، التي كانت في البشر أظهر منها

في سائر الأحياء.



كيف كان اصطفاء الله تعالى لهذه الأصول من الأمة العربية، الذي ثبت في "صحيح مسلم" و"سنن الترمذي" من كتب السنة السنية؟  
وبماذا امتاز قوم خاتم الرسل الكرام، ففضلوا به غيرهم من الأقوام، حتى استعدوا به لهذا الإصلاح الروحي المدني العام، الذي اشتمل عليه دين الإسلام، على ما طرأ عليهم من الأمية وعبادة الأصنام، وما أحدثت فيهم غلبة البداوة من التفرق والانقسام والعدوان والخصام؟  
الجواب:

كانت العرب ممتازة باستقلال الفكر، وسعة الحرية الشخصية؛ أيام كانت الأمم ترسف في عبودية الرياستين الدينية والدينيوية، محظوراً عليها أن تفهم غير ما يلقتها الكهنة ورجال الدين من الأحكام الدينية، وأن تخالفهم في مسألة عقلية أو كونية أو أدبية؛ كما حظرت عليها الحكومات المستبدة حرية التصرفات المدنية والمالية.

كانت العرب ممتازة باستقلال الإرادة في جميع الأعمال؛ أيام كانت الأمم مذللة مسخرة للملوك والنبلاء، المالكين للرقاب والأموال، يستخدمونها كما يستخدمون البهائم، ويصرفونها كما يصرفون السوائم، لا رأي لها معهم في سلم ولا حرب، ولا إرادة لها دونهم في عمل ولا كسب.

كانت العرب ممتازة بعزة النفس، وشدة البأس، وقوة الأبدان، وجرأة الجنان، أيام كانت الأمم مؤلفة من رؤساء أفسدهم الإسراف في الترف، ومرؤوسين أضعفهم البؤس والشظف، وسادة أبطروهم بغي الاستبداد، ومَسودين أذلهم قهر الاستعباد.

كانت العرب ممتازة بالذكاء واللوزعية، وكثير من الفضائل الموروثة والكسبية؛ كقري الضيوف، وإغاثة الملهوف، والنجدة والإباء، وعلو الهمة والسخاء، والرحمة والإيثار، وحماية اللاجئ وحرمة الجار، أيام كانت الأمم مرهقة بالأثرة والأنانية، وثقل الضرائب والأتاوي الأميرية، ورؤساؤها منغمسين في الشهوات البهيمية، وفساد الأخلاق قد عم الراعي والرعية.

كانت العرب قد بلغت أوج الكمال في فصاحة اللسان، وبلاغة المقال، وكادت تتحد لغات قبائلها أو لهجاتها العربية، وبزت المضرة منها الحميرية؛ بما كان لقريش وغيرها من الرحلات التجارية والأسواق الأدبية.

فتلك كبريات مزايا الأمة العربية، التي أعدها الله تعالى بها للبعثة المحمدية، والسيادة الدينية والمدنية، بعد أن طال العهد على مدنيتهم العادية، واستعمارهم للبلاد الكلدانية والبابلية، والبلاد الفينيقية والمصرية، التي تشهد لها سيادة لغتهم للغات السامية، وبقاياها في اللغة الهيروغليفية، وبعد أن غلبت عليهم الأمية، وفشت فيهم خرافات الوثنية وعصبية الجاهلية.

وجملة مزاياهم أنهم كانوا أسلم فطرة على كون أمم الحضارة كانت أرقى منهم في كل فن وصناعة.

والإصلاح الإسلامي مبني على تقدم إصلاح الأنفس؛ باستقلال العقل والإرادة، وتهذيب الأخلاق، وحرية الوجدان، على إصلاح ما في الأرض من معدن ونبات وحيوان.

وهذا كان الله تعالى يعد هذه الأمة للإصلاح العظيم، الذي جاء به محمد عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم.

### اصطفاء كنانة قريش وبني هاشم:

أما اصطفاء الله لكنانة الشيخ الجليل، من سلالة نبيه الذبيح إسماعيل؛ فيفسره ما كانت تحفظه العرب من أخبار كرمه ونبله، حتى نقل الحافظ في "شرح البخاري" أنهم كانوا يحجون إليه لعلمه وفضله، وكان على سنة جده إبراهيم الخليل؛ لا يأكل وحده.

ومما يؤثر عنه من الحكم الجليلة، كما روي في "السيرة الحلبية": رب صورة تخالف المخبرة، قد غرّت بجمالها، واختبر قُبْحُ فعالها، فاحذر الصور، واطلب الخُبْر.

فهذا دليل على ما وصف به من العلم والحكمة.

وأما حج العرب إليه؛ فهو دليل على أنه كان مثابة التعارف، ومعقد رابطة الاجتماع والتآلف.

وإما اصطفاء الله تعالى لقريش الميامين الغر، وهم ذرية فِهْر بن مالك، وقيل: جده النضر؛ فقد كان بما آتاهم من المناقب العظام، ولا سيما بعد سكنى مكة، وخدمة المسجد الحرام، إذ كانوا أصرح ولد إسماعيل أنساباً، وأشرفهم أحساباً، وأعلامهم آداباً، وأفصحهم السنة، وهم الممهّدون لجمع الكلمة.

فقد نقل أهل السير أن مالك بن النضر كان ملك العرب، وأن كعب بن لؤي كان يجمع قومه ويعظهم يوم الجمعة، وكانوا يسمونه يوم العروبة، وأنهم كانوا يجلبونه في حياته، ثم أرّخوا بموته بعد وفاته، وأن قصياً جمع شمل قبائل قريش بمكة، إذ كان هو الوارث لمن كانوا يتولونها من خزاعة، وقد تملك عليهم فَمَلَّكُوهُ؛ إلا أنه قد أقر للعرب ما كانوا عليه، وذلك أنه كان يراه ديناً في نفسه، لا ينبغي له تغييره ولا لغيره من بعده.

قال ابن اسحاق: وهو الذي أنشأ الندوة، وجعل بابها إلى الكعبة، وقد أجمعت قريش على طاعته وحبه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة واللواء، ثم وُزعت المناصب بعده على الزعماء.

فجملة ما امتاز به آله ﷺ على سائر قومه: الأخلاق العلية، والفواضل العملية، والفضائل النفسية، وكانوا أبعد من سائر قريش عن الكبر والأثرة والأمور الحربية، ولذلك غلبوا على الرياسة حتى بعد الإسلام، وحكمة ذلك ظاهرة لأولي الأحلام، فهو أنقى للشُّبهِ عن رسالته، عليه أفضل الصلاة والسلام».. انتهى ملخصاً.

وعما اختصت به العرب من العلوم، يقول ابن فارس، رحمه الله تعالى، في "الصاحبي" (ص ٧٦-٧٧) ما نصه:

«باب ذكر ما اختصت به العرب:

من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب: الإعراب، الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا صدرٌ من مصدر، ولا نعت من تأكيد.

وذكر بعض أصحابنا أن الإعراب يختص بالأخبار.

وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً؛ لأننا نقول: "أزِيدُ عندَكَ؟"، و"أزِيداً ضربت؟" فقد عمل الإعراب وليس هو من باب الخبر.

وزعم ناس يتوقف عن قبول أخبارهم أن الذين يسمون الفلاسفة قد كان لهم إعراب ومؤلفات نحو.



قال أحمد بن فارس: وهذا كلام لا يُعَرَّج على مثله، وإنما تشبّه القوم آنفاً بأهل الإسلام، فأخذوا من كتب علمائنا، وغيروا بعض ألفاظها، ونسبوا ذلك إلى قوم ذوي أسماء منكراً؛ بتراجم بشعة، لا يكاد لسان ذي دين ينطق بها، وادّعوا مع ذلك أن للقوم شعراً، وقد قرأناه، فوجدناه قليل الماء، نَزُرُ الحلاوة؛ غير مستقيم الوزن.

بلى؛ الشعر شعر العرب، ديوانهم، وحافظ مآثرهم، ومُقَيَّد أحسابهم. ثم للعرب العروض، التي هي ميزان الشعر، وبها يعرف صحيحه من سقيمه، ومن عرف دقائقه وأسراره وخفائيه؛ علم أنه يربي على جميع ما يتبجح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء؛ من الأعداد، والخطوط والنقط، التي لا أعرف لها فائدة؛ غير أنها مع قلة فائدتها، تُرِقُّ الدين، وتنتج كل ما نعوذ بالله منه.

وللعرب حفظ الأنساب، وما يعلم أحد من الأمم عني بحفظ النسب عناية العرب.

قال الله جل ثناؤه: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣)، فهي آية ما عمل بمضمونها غيرهم.

ومما خص الله جل ثناؤه به العرب: طهارتهم، ونزاهتهم عن الأدناس التي استباحها غيرهم؛ من مخالطة ذوات المحارم، وهي منقبة تعلقو بجمالها كل مآثرة.

والحمد لله... انتهى.

وهكذا...

وفي أعقاب خاتمة الرسالات لنبينا ورسولنا محمد بن عبد الله المُطَلِّبي الهاشمي ﷺ كانت دعوة التجديد على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب المتوفي سنة (١٢٠٦هـ) رحمه الله، الذي نصب راية الدعوة إلى التوحيد، وإحياء ما اندرس من معالم الدين، والتي لا يزال ينعم بها من شاء الله من عباده في هذه الجزيرة وخارجها.

وفي الحاضر: هذه اليقظة الإسلامية التي نشاهدها اليوم؛ فإن هذه الدعوة المباركة تمثل الزاد النقي لهذه اليقظة على منهاج النبوة، سليمة من الأهواء والأوهام والانحرافات، مبرأة من مظاهر الشرك وتبعات الغلو. وهكذا يمتد رواقها في العالم الإسلامي؛ لأنها تمثل الإسلام تماماً؛ كما أنزله الله على نبيه محمد ﷺ.

وفي المستقبل: على مشارف الساعة، في أيام الفتنة الكبرى؛ فتنة المسيح الدجال؛ فإن الرجل المؤمن الذي تتحطم على يديه هذه الفتنة هو من أهل هذه الجزيرة؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه المتفق عليه. وفي هذا إشارة وإيماء إلى أن كل فتنة عمياء صماء تجتاح بلاد الإسلام؛ تتحطم على صخرة هذه الجزيرة، وإذا كانت فتنة الدجال هي أعظم فتنة من لدن نوح عليه السلام إلى قيام الساعة، ويكون تحطيمها على يد رجل مؤمن من هذه الجزيرة؛ فإن كل فتنة دوها ستتحطم على يد أبناء هذه الجزيرة بإذن الله تعالى.

## ضمانات لحماية هذه الخصائص (\*)

كلما امتد رواق الإسلام على أرض؛ فَعُدَّها دار إسلام، ومهما تعددت الولايات -العارضة-؛ فالجميع هو المملكة الإسلامية.

وَعُدَّ عاصمتها جزيرة العرب؛ لما لها من خصائص في الشرع؛ تتميز بها، ولا يشاركها فيها غيرها.

وَعُدَّ جميع المسلمين - مهما تعددت ديارهم وولاياتهم - يُكوِّنون الجامعة الإسلامية.

وَعُدَّ عرب الجزيرة فيها هم حفاظ هذه الرابطة الدينية للجامعة الإسلامية، وذلك لما لهم من خصال وخصائص شريفة لا يشاركهم فيها غيرهم.

وإذا كانت مدارج الشرف في الإسلام هي: الإسلام، التقوى، العلم، النسب، وكان أشرف الأنساب هو نسب العرب، وكان العرب هم مادة الإسلام؛ فَعُدَّ عرب الجزيرة هم صلب العرب، وهم مادة المسلمين؛ بعد أن صفاهم الله تعالى من نتن الجاهلية، وغلجان العصبية القبلية، ودعاوى الجاهلية، فشرفهم بالإسلام، وحطم قيود الوثنية، والنعرات القومية... وخاطبهم وغيرهم: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: ٨٥)، وحفظ لهم ميزاتهم وسر اختياريهم حملة الرسالة الأولين.

إذا كان الحال كذلك؛ فإن دار الإسلام أيًا كانت، وإن المسلمين أيًا كانوا، وفي الطليعة هذه الجزيرة وعربها؛ الكل رأس مال، تجب المحافظة عليه، من الضياع

(\*) عرض الشيخ حفظه الله لمجموعة من الضمانات لحماية خصائص الجزيرة العربية ما يمكنها من الامتداد والبقاء المستمر.. فإذا ضاق المجال عن أن نعرض لها فلا أقل من أن نفتح نوافذ للإطلالة عليها، الأمر الذي لا يفني عن الرجوع إلى الكتاب: (خصائص جزيرة العرب).

والفرقة والانقسام، وتجب تربيته وتنميته واستصلاح أحواله، وهذا أولى من مجاهدة الكفار لإدخالهم في الإسلام؛ لأن استصلاح أحوال المسلمين، وحفظ بيضتهم من باب المحافظة على رأس المال، (والمجاهدة) من باب طلب الربح. وهل يَطْلُبُ الربح من يفتقد رأس ماله؟!.. وهل يُوصَلُ إلى (المجاهدة)

والنصرة إلا بالمسلمين، الذين يمثلون الطراز الأول السائر على منهاج النبوة؟! إن هذه الجزيرة من المنطقة الإسلامية «هي معقل الإسلام والمسلمين، وعاصمته الخالدة، وقلب العالم الإسلامي؛ كمركز القلب في الجسم الإنساني، ورأس مال المسلمين، والخط الأخير في الدفاع عن الوجود الإسلامي»<sup>(١)</sup>.

وهذه الجزيرة<sup>(٢)</sup> «في العالم الإسلامي [ممتابة] مركز القلب في الجسم الإنساني، الذي إذا عاش وقوي وأدى رسالته في الجهاز الجسمي والنظام الحيوي الصحي؛ عاش الجسم، وقوي، وإذا دب الوهن إلى هذا القلب، أو اعتل، وتخلّى عن وظيفته ودوره؛ أسرع إليه الموت، واستولت عليه الأمراض والعلل، وعجز الأطباء الحاذقون عن إعادة الحياة إليه بالطرق الصناعية.

وقد أشار إلى هذه الصلة الدقيقة العميقة بين القلب والجسد الحديث الصحيح المشهور الذي جاء فيه: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضَغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»<sup>(٣)</sup>.

وذلك لأن الحجاز مهبط الوحي، ومبعث الإسلام، ومصدر الدعوة الإسلامية، ومركز الإسلام الدائم، وعاصمته الخالدة... فالرسالة الإسلامية مهما

(١) رسالة لأبي الحسن الندوي رحمه الله: إلى أين تتجه الجزيرة العربية وإلى أي غاية تنتهي؟

(٢) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب" للندوي، ص ٣-٥.

(٣) متفق عليه، واللفظ للبخاري.



كانت عالمية آفاقية، لا بد لها من مركز يعد مقياساً وميزاناً لعالميتها وواقعيتها، وأسوة وقدوة لجميع المدن والقرى والمجتمعات التي تؤمن بهذه الرسالة، وتحتضن هذه العقيدة والدعوة...

وقد عقد الله بين العرب والإسلام، ثم بين الحجاز والأمة الإسلامية، ثم بين الحرمين الشريفين وقلوب المسلمين للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر.

وقد حرص رسول الله ﷺ - وكان في ذلك نبياً مُلهماً وحكياً كل الحكمة- على بقاء هذا الرباط الوثيق المقدس، بين جزيرة العرب والإسلام؛ فضلاً عن الحجاز والحرمين الشريفين، وحرص على سلامة هذا المركز، وهدوئه، وشدة تمسكه بهذا الدين، وعضه عليه بالنواجذ، لأن العاصمة يجب أن تكون بعيدة عن كل تشويش، وعن كل فوضى، وعن كل صراع عقائدي، أو مبدئي، فشرع لذلك أحكاماً بعيدة النتائج، واسعة المدى، وأوصى لذلك وصاية دقيقة حكيمة، وأخذ لذلك من أصحابه وأمه عهوداً ومواثيق.

وقد ذكرت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ قالت: كان آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال: « لا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ »<sup>(١)</sup>...

وأخذ بذلك الخلفاء الراشدون المهديون، فكانوا ينظرون دائماً إلى جزيرة العرب كمعقل للإسلام، ورأس مال الدعوة الإسلامية.. انتهى.

لذلك فإن المتعين على أهل هذه الجزيرة، وعلى من بسط الله يده عليهم وعليها، المحافظة على هذه الميزات والخصائص الشرعية؛ ليظهر تميزها وتبقى الجزيرة وأهلها مصدر الإشعاع لنور الإسلام على العالم.

(١) أخرجه أحمد.

وليعلم أنه كلما قوي هذا النور؛ امتد هذا الإشعاع، وكلما ضعف وتضاءل في هذه الجزيرة وأهلها؛ تقاصر.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم اعلم أن هذه الضمانات منها ما هو عام لأهل الإسلام؛ مهما كانت ديارهم، ومهما تعدد جنسهم، لكنها تتأكد في حق أهل هذه الجزيرة، ومنها ما هو خاص بما لموجب النص.. ثم منها ما هو متيسر إعماله، ومنها ما فيه نوع عسر ومشقة؛ لاختلال الأحوال، لكن نذكره معذرة أمام الله وأمام التاريخ والأجيال المتعاقبة، والله المستعان.

وإليك بيان بعض منها:

\* كما تكون المحافظة على الحدود المكانية لأي إقليم ولائي؛ فإن المحافظة على الحدود الشرعية والخصائص المرعية وصيانتها لهذه الجزيرة واجبة كذلك على من بسط الله يده عليها.

وعليه؛ فإن النتيجة من المحافظة على الحدود الإقليمية الولائية معاقبة من ينتهكها، فكذلك من باب أولى تجب معاقبة من ينال من حدودها وخصائصها وحرمتها الشرعية بما يلاقي انتهاكه شرعاً.

\* سلطان الحاكمية فيها لا يجوز أن يكون لغير دولة التوحيد، وراية التوحيد... واعلم أن أي شقاء في الأمة أو فساد هو بسبب ما يُصَبُّ على الأمة من تحلل وانحلال في إقامة الدين بين العباد.

\* «اتخاذ الحياة الإسلامية؛ الحياة التي يرضاها الله ويُنصر عليها، والحرص على إزالة جميع المنكرات، وأسباب السخط، ودواعي الخذلان والفشل؛ في المجال الإداري، والأخلاق الاجتماعية والفردية، وتتبعها تتبعاً دقيقاً، والحد من

الشراء الفاحش، وتكدسه في عدد محدود وطبقة معينة، وتقييد التجارة وحركة الاستيراد الحرة على حساب أخلاق الشعب، وفي مصلحة عدد محدود جداً وطبقة معينة؛ فإن كل ذلك مما يمهد الأرض ويفتح الطريق (للمذاهب) المتطرفة... والحيلولة بقدر الإمكان، وإلى أقصى الحدود؛ فإن ذلك مما يححف بالشعب، ويجني على الأخلاق، ويجعل الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شبه مستحيل، وقد نبه نابغة العرب وفيلسوف المؤرخين العلامة ابن خلدون على ضرورة وسوء أثره في الحياة»<sup>(١)</sup>.. (انتهى ملخصاً).

\* إخضاع كل ما يجري ويصدر على أرض هذه الجزيرة؛ من أنظمة، وأوامر، وتعليمات، وقوانين؛ لمقاصد الإسلام، وللمقاصد التي بنيت لها هذه الكعبة المشرفة، واختيرت لها هذه الأرض؛ لتكون مركزاً للإسلام، ومصدر إشعاع عالمياً، وللحكمة التي نبه عليها القرآن بقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الحج: ٢٥)<sup>(٢)</sup>.

\* إزالة التناقض بين إسلامية هذه الديار القائمة منذ فجر الرسالة وإلى يومنا هذا وبين كل ما ينافسها في «مجال الإعلام، والتربية، والمظاهر الاجتماعية، واتجاهات الشعب؛ من اندفاع مشهور إلى الترفيه، والتسلية، والأغاني، والملاهي، والقصص المثيرة، والبرامج المستوردة الرقيقة، التي أفلت معها الزمام من يد المرين والآباء والأساتذة والعلماء، والتي لا يحتفظ معها أي شعب بالبقية الباقية من الشعور الديني والحصانة الخلقية، ولا يستعد للطوارئ والمفاجآت، ولا يتحمل أقل صدمة، أو خطر من الخارج»<sup>(٣)</sup>.

(١) الندوي، ص ٤٥.

(٢) الندوي، ص ٤٤.

(٣) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب"، ص ٤٤-٤٥.

\* وإذا كانت الجزيرة، وبخاصة قلبها، تثير حساسية المسلمين عند أي هجمة شرسة عليها؛ من استيلاء استعماري، أو فرض منهج عقدي، أو سلوكي علني، فإن العدا والمبطنين لها؛ سلكوا مسلك الواد الخفي لعصب الحياة في العالم الإسلامي على أرض الجزيرة: الإسلام صافياً على منهاج النبوة، وذلك بتسرب موجات الغزو؛ تحت شعار الحضارة، وقناع العلم، وتكثيف اجتماعات ولقاءات تكسر حاجز النفرة من الأهواء المضلة، وتدوَّب صفاء الحياة، وتكدر صفوها، وتقودها إلى تراقي الاحتضار.

وعليه؛ فيجب أن يُحسب لهذا كلُّ حساب، فليرفض كلُّ سابلة تؤدي إلى هذا المضمار...

\* جزيرة العرب هي بارقة الأمل للمسلمين في نشر عقيدة التوحيد؛ لأنها موئل جماعة المسلمين الأول، وهي السور الحافظ حول الحرمين الشريفين، فينبغي أن تكون كذلك أبداً، فلا يسمح فيها بحال بقيام أي نشاط عقدي أو دعوي - مهما كان - تحت مظلة الإسلام؛ مخالفاً منهاج النبوة الذي قامت به جماعة المسلمين الأولى: صحابة رسول الله ﷺ وجدده وأعلى منارة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، رحمه الله تعالى.

فالجماعة واحدة: جماعة المسلمين.. تحت علم التوحيد.. على منهاج النبوة.

لا تتوازعهم الفرق والأهواء، ولا الجماعات والأحزاب.

وإن قبول أي دعوة تحت مظلة الإسلام تخالف ذلك هي وسيلة إجهاز على دعوة التوحيد، وتفتيت لجماعة المسلمين، وإسقاط لامتياز الدعوة، وسقوط لجماعتها، وكسر لحاجز النفرة من البدع والمبتدعين، والفسق والفاستين.

والجماعات إن استشرى تعدُّها في الجزيرة؛ فهو خطر داهم؛ يهدد واقعها، ويهدم مستقبلها، ويُسلم بيدها ملف الاستعمار لها، وبه تكون مُجمَع صراع فكري وعقدي وسلوكي؛ ينشأ عن ذلك «إسلام إقليمي...»<sup>(١)</sup>.

ولما كانت الجزيرة والحجاز معقل الإسلام، ومبدؤه، ومنتهاه، والموئل الذي يأوي إليه الإسلام والمسلمون في ساعات عصيبة، وأزمات مختلفة، وفي آخر الزمان، وقد جاء في بعض الأحاديث ما يدل على ذلك، فعن عمرو بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الْأُرْوِيَةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ»<sup>(٢)</sup>.

وعن عمر عن النبي ﷺ؛ قال: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»<sup>(٣)</sup>.  
وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»<sup>(٤)</sup>.

ولما كانت هذه الجزيرة، وهذه البقاع المقدسة، مصدر الإشعاع العالمي الإسلامي، ومقياس قوة الإسلام وسلطانه؛ كان علماء المسلمين وقادتهم - في كل زمان وبلد- شديدي الحساسية لما يقع فيها من حوادث، ولما يجري فيها من تيارات، دقيقتي الحساب لمدى تمسكها بالتعاليم والآداب الإسلامية، ومحافظتها على الروح الدينية والعاطفة الإسلامية، كبيرتي العيرة عليها وعلى قيادتها للعالم

(١) "كيف ينظر المسلمون إلى الحجاز وجزيرة العرب"، ص ٨-١٠.

(٢) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه البخاري.



الإسلامي، وقد تجلّى ذلك في كتابات علماء الإسلام، وأدبهم، وشعرهم؛ في أزمنة مختلفة، وقد سار قول أشهر شعراء إيران وأدبائها: الشيخ مُصلِح الدين سعدي الشيرازي (المتوفي ٦٩١هـ) مسير المثل: «إذا بدأت طلائع الفساد والانحرافات من فناء الكعبة، ورحاب البيت الحرام؛ فعلى الإسلام والمسلمين السلام».

وقد فزع الشاعر الفارسي، المسمى بأبي المجد مجدود الغزنوي، المعروف بالحكيم السنائي، (المتوفي ٥٤٦هـ)؛ لحوادث حرت في عصره، ولتسرب نفوذ بعض القوى المعادية للإسلام إلى جزيرة العرب، وإلى البقاع المقدسة، ومركز الإسلام، فأشار إلى ذلك في قصيدة له، وحسب له كل حساب، وحذر العالم الإسلامي من سوء عاقبته، وأثار غيرة أهل الحجاز وأبناء الجزيرة... انتهى.

\* وعليه؛ فيجب تعميق الرابطة الدينية، ثم يجب جَذْمُ جذور العصبية لغير الكتاب والسنة، مهما ظهرت، في أي مسْلاخٍ، فهي عصبية جاهلية، مُتِنَتَّةٌ، تثير الشغب، وتشعل الفتن، وتضرم المشاكل، وتزرع الإحن.

فواجبٌ محاصرتها، وإطفاؤها، وتخطيم جمعها، سواء أكانت عصبية قبلية، أم غيرها، من تلكم الموجات الكاسحة، التي تبذل فيها جهود الشياطين، حاملين جراثيم المهرج؛ ركضاً وراء السراب؛ لنقله شباب الأمة إلى آخر أشواط التخلف، فيكونون هباءً منثوراً، لا يقتلون صيداً، ولا ينكثون عدواً. إنها قوة ما إن تفور إلا وتغور، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

\* يجب تعميق الوحدة الأخلاقية في قالب الإسلام لا غير، فواجب وقف مرحلة الإغارة على أخلاقيات هذه الجزيرة الإسلامية، والانتقال منها إلى السلوكيات الغنائية الوافدة في مجالات الحياة كافة، وتحت إرخاء العنان للترفُّه والمد الحضاري الغنائي الغربي، والتهام اللذات، والتسابق إلى عوامل الاسترخاء

والتميع، والتفكير المترهل، والنهم في جلب الكماليات، والتسابق إلى مظاهر البذخ، حتى في اللباس، والمواقيت، والمقاييس، والموازن... إلى آخر شهوة التشبه بأعداء الله الكافرين.

وصدق النبي ﷺ: « لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ »<sup>(١)</sup>.

وما هذا إلا لأن التشبه يفعل الأفاعيل، فيفقد النفوس والبلاد حرمتها ومكاتها، ويقطع صلتها عن الماضي، ويشبه إلى حد بعيد (الميكروبات)، فتلك تمرض القلوب، وهذه تمرض الأبدان.

وإذا كانت الشريعة تنهى عن هذا عموم المسلمين؛ فإن النهي يتأكد في حق أهل هذه الجزيرة.

وواجب - والله - بجانب وقف هذا المد عنهم: ترميم ما فسد في هذه العصابة الكريمة، وما داخلها من أخلاق وافدة غريبة عليها في دينها وعنصرها. ولا بد من دعوة جهيرة؛ لصد هذه العوادي والوفادات المفسدة لأخلاقيات البلاد، وكف الخطر المحيط بها، وإنشاء أهلها خلقاً آخر؛ على سَنَنِ الفطرة، يمزقون بمديهم وفعالهم تلك الحملات الغنائية، وما ذلك على الله بعزيز.

\* التميز في عامة الهدى؛ عملاً، وقدوة، ودعوة، على رسم الكتاب والسنة، بلا مضاهاة ولا مشاهمة، ولا تغرب؛ فإن الشريعة تنهى عن المضاهاة والتشبه بالمشركين والمنافقين، وبالشياطين، وبالأعاجم، وبالمبتدعة وأهل الأهواء،

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

وبالنساء والمختثين.. ونحو ذلك من وجوه الانحراف القاضية على تميز الشخصية الإسلامية، بأي نوع من أنواع الانحراف...

وإن الشريعة تنهى عن التعرب؛ بمعنى: الرجوع إلى البادية بعد الهجرة، وبمعنى مشابهة الأعراب فيما يخالف هدي الإسلام، ولو بالألفاظ؛ كلفظ: (العَتمَة):

«... لا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمُ الْعَتَمَةَ؛ فَإِنَّمَا هِيَ الْعِشَاءُ»<sup>(١)</sup>.

إن الشريعة كما تزدهم نصوصها وقواعدها في رفض هذه العوامل المنحرفة؛ فإنها ترسم للمسلم هدياً سويماً يرفض التبعية والمحاكاة والانحراف، ودعت إلى تعريب الأمة؛ فيما أقره الإسلام من فاضل أخلاق العرب، وصفاتهم، وسماتهم، وذلك من طرق شتى:

أ- تعريب لسان الأمة من رطانة الأعاجم إلى شعار الإسلام، ولغة القرآن؛ لسان العرب؛ «لأن الدين فيه أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو الطريق إلى فقه أعماله»<sup>(٢)</sup>.

ب- تعريب أخلاقها، وذلك بالمشاهدة للسابقين من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم بإحسان.

وفي هذا نظر إلى فقه السلف، حيث فضلوا كثيراً من غير العرب على العرب؛ لتعريب أخلاقهم، ومشابقتها بأخلاق السلف الصالح. قال الأصمعي رحمه الله تعالى<sup>(٣)</sup>: «عجم أصبهان قريش العجم».

(١) رواه مسلم (٦٤٤)، وأبو داود (٤٩٨٤)، والنسائي (٢٧٠/١)، وفي رواية لمسلم: (لا تَغْلِبَنَّكُمُ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمْ أَلَا إِنَّهَا الْعِشَاءُ وَفَمَنْ يُعْتَمُونَ بِالْإِبِلِ).

(٢) "القتضاء الصراط المستقيم"، ص ٢٠٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٦٤.

ولقد ساق شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله تعالى، آثاراً مهمة على هذا المنحى؛ قال: «إن الأمة مجمعة على هذه القاعدة، وهي: فضل طريقة العرب السابقين، وأن الفاضل من تبعهم»...

\* ويجب أن يكون دور حراس الشريعة في هذه الجزيرة من منجزات الحضارة الحديثة؛ في الطب، والهندسة، والاقتصاد.. هو دور الأصالة والتجديد، لا دور التبعية الماسخة، والوَاد الخفي - بل والعلني - لمقومات البلاد الأساسية: الإسلام، وخوض عجلة الحياة في الأوجال.

وعليه؛ فبعث روح الاكتساب، والعمل، والجد، والتحصيل، والتخصص في هذه العلوم؛ من أهم المهمات لبناء الحياة في هذه الجزيرة على يد أبنائها، فهم أسلم لها، وأصلح لحالها من الدخلاء عليها.

\* حَمَلُ أهلها على الحماس الديني، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعميق التقوى، والشوق إلى الترقى؛ لحماية الشريعة.

ومن الأولويات: شكر هذه النعم ببسط لسان التذكير، وقلم التدوين؛ بما أفاء الله عليهم وأنعم من هذه الخصائص، وأن من شكرها المحافظة عليها، وحفظها، وإعمال الحياة في قلبها، وأن أي تشويش عليها خدش لها، ونقص لشكرها، وبالتالي غياب لمزية القدوة.

ومن لازم ذلك الإجهازُ على أي عادة أعجمية، أو عامل حضاري غنائي، وأن يبقى حق الامتياز في هذه الجزيرة إسلامياً محضاً، يرفض كل تقليد دامس، ولا يقبل يد أي لامس.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

## إبصار المستقبل

الدكتور الشيخ جاسم مهلهل الياسين<sup>(\*)</sup>

إعادة البعث الحضاري يتطلب: ضرورة استنبات الكوادر الفذة من نوايغ الأمة وقوادها؛ وتكوين مجمع لعلماء الجزيرة يبحث أوضاعها، ويخطط لمستقبلها؛ وتفتيح المناهج الشرعية، بحيث تدرس فقه الشريعة والواقع معاً؛ واستلهام الموروث الحضاري بعد فرزهِ جيداً؛ وتجاوز النظرة الإقليمية الضيقة، إلى نظرة أعمى تهتم بقضايا الأمة وإشكالاتها؛ وترتيب أولوياتها.

مقدمة:

ينبني هذا المحور "إبصار المستقبل في الجزيرة العربية" على المحورين السابقين

وهما:

١- استشراف الماضي (التجربة الحضارية التاريخية).

٢- الإمكانيات المذخورة.

كما أنه يتميز بطبيعة خاصة تنبع من موضوعه الاستشرافي، فالنتائج فيه

ليست حتمية، وإنما هي نسبية؛ وذلك لأنه يبحث في مستقبل مجهول، نسعى

(\*) باحث.. أستاذ الثقافة الإسلامية، في كلية الشريعة، جامعة الكويت (دولة الكويت).



لاستطرقه بوسائل علمية وبراهين مادية وقبلها براهين سماوية من الرسالة الخالدة، رسالة الإسلام.

وقد حرصت على استعراض ومضات موضوعية نحو الانطلاقة إلى الأمام وتحقيق مشروع البعث الحضاري المأمول أكثر مني طارحاً لسيناريوهات المستقبل.

لأن توقع السيناريوهات من وجهة نظري لا يجدي الخلاف حوله بقدر ما يجدي كيفية التغلب على عقبات الواقع ومتوقعات المستقبل، من خلال طرح الخطوط العريضة والواقعية للخروج من المأزق الحضاري المتأزم، ولعلاج مواطن الخلل ودفع أسباب القصور وعوامل الإعاقة.

وهذا ما حاولت جاهداً أن أركز الحديث عنه في إيجاز وموضوعية معتمداً في ذلك على المنهج الاستقرائي، إضافة إلى تأسيسات المنهج الوضعي الذي يفضي إلى بعد تحليلي في صورته التحريضية لاستخبار المواطن ومعرفة البنى الرئيسة، وتركيبي لابتناء رؤية كلية ننفذ منها إلى التقييم ومن ثم طرح الحلول. وقد جاءت عناصر المعالجة في طرحين:

### الطرح الأول "إبصار المستقبل (ركائز وثوابت)":

١- تمهيد عن استشراف المستقبل وضروراته.

٢- ماهية الإبصار المستقبلي للجزيرة العربية (دول مجلس التعاون).

٣- ركائز عملية الإبصار المستقبلي.

٤- خطوط عريضة في سبيل إبصار المستقبل للجزيرة العربية.

ثم جاء الطرح الثاني عن "ومضات في سبيل البعث الحضاري للجزيرة العربية"، وذلك في سبع ومضات كالتالي:

الومضة الأولى: تزاوج العقل والنقل في سبيل الانطلاق لتحقيق البعث الحضاري.

الومضة الثانية: استرجاع الثقة في ابتناء الإيمان للحضارة.

الومضة الثالثة: الصورة الحضارية في الحكم بالشرعية الإسلامية.

الومضة الرابعة: ضرورة الانفتاح على الآخرين.

الومضة الخامسة: معاً نحو أسلمة التكنولوجيا.

الومضة السادسة: عقد المصالحة بين السلطة والمجتمع.

الومضة السابعة: النظرية الإسلامية التربوية.

## الطرح الأول

### إبصار المستقبل (ركائز وثوابت)

#### ١- تمهيد عن استشراف المستقبل:

الحركة التطلعية في الإنسان نحو الأفضل والأحسن تكاد تكون مرتكزة في طبيعته، لا تفارقه، فما من إنسان على وجه الأرض إلا وله آمال يريد أن يحققها، وأحلام يرجو أن يراها واقعاً، وكل فرد إنما يتطلع للمستقبل من خلال نظرتة التي ينظر بها في الحياة، تلك التي تصطبغ بالصبغة الفكرية العقلية، أو الشعورية الوجدانية، أو الحسية المادية، ولذلك تختلف آمال الناس وتطلعاتهم لأنفسهم ولأمتهم، لكن هذه الآمال لا تنعدم ولا تتوقف إلا إذا توقفت الحياة ذاتها، بل إننا نقول: إن هذه الطبيعة ليست قاصرة على الإنسان، بل تتعداه إلى بعض الكائنات الحية الأخرى، فالنمل يدخر في فصول السنة ما يقتات به في فصل الشتاء، حين تنعدم حركته، الأمر إذن أوسع مما يظن البعض.

وتفاوت الناس في تطلعاتهم لمستقبلهم مرده إلى وجود بعض الترسبات التي رانت على بعض البيئات وظهرت في العادات والتقاليد، واتخذت لنفسها صوراً متعددة من الاتكالية والتراخي في العمل والكسل، وضعف الهمة، وفتور العزيمة، وغير ذلك من مظاهر الضعف التي تجعل الإنسان ذاهلاً عن حاضره وما يدور حوله، فضلاً عن ذهوله الجزئي أو الكلي عن المستقبل وما يدبر فيه.

والإسلام منذ مجيئه يوجه الناس إلى الاهتمام بالمستقبل اهتماماً كاملاً لا يقل عن اهتمامه بالحاضر، بل قد يزيد.. إن الدين قد ربط اليوم الآخر - وهو

مستقبل وراء هذه الحياة الدنيا- بالإيمان بالله، فقد جاء في كتاب الله: ﴿...وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ (البقرة: ١٧٧)، ومعنى ذلك أن المسلم يهتم بالمستقبل ابتداءً من لحظة الحاضرة إلى يوم القيامة، وأنه مستعد لهذا المستقبل دائماً، فهو في حياته الآنية يخطط لغده في ضوء معرفته بما يدور حوله من الأعداء المحيطين، والأصدقاء القريبين، والإمكانات المتاحة، والقوة الممكنة، لا تستخفه الأفراح والانتصارات، ولا تستذله الأتراح والانكسارات، بل هو دائماً- متطلع للأفضل، ساع نحو الأحسن، مشمر عن ساقه في سبيل الصلاح والإصلاح له ولأمته وللبشر أجمعين.

والمسلم ينظر للمستقبل بعين تفاؤلية مع شدة الظلام، وكثرة المنغصات، وانتشار المصائب، وهذا أمر بينه الشرع عندما طالب المسلمين بحسن الظن بالله تعالى، والنبي ﷺ كان يُعجبه أن يسمع في كل صباح "يا نجيح"، واليسر يأتي بعد العسر، والحق دائم والباطل طارئ!! هذه الروح التفاؤلية، والمعرفة النبوية الكريمة والاستقراء لتاريخ الصراع البشري بين الحق والباطل؛ كان من الممكن الوصول إلى النتائج لصالح الحق الإلهي.

وهناك صوراً من الاستشراف المستقبلي، المبني على المعرفة النبوية والاستقراء للسنن الكونية والشرعية، يقول النبي ﷺ لأم حرام بنت ملحان في المدينة، والقبائل العربية وقريش متربصين بهم: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عَرَضُوا عَلَيَّ غُرَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرَكِبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسْرِ»<sup>(١)</sup>، ويقول ﷺ للآخر الذي جاء شاكياً شدة البلاء وهم في مكة يُعذبون: «وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا

(١) أخرجه البخاري.

الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّأكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ  
أَوْ الذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ...»<sup>(١)</sup>.

صحيح أن العلم النبوي الغيبي له أثره في تحديد الزمان والمكان إلا أن مُطلق الانتصار مُهياً لكل من يتعرف على سنن الحياة الكونية والبشرية؛ قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَاغْلِبَ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة: ٢١)، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيَسْكُنَنَّ لَّهُمْ دِينُهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ (النور: ٥٥)، وهكذا من يعرف الماضي والحاضر يستطيع توقع المستقبل!!

وهنا نقول: لا بد من توقع المستقبل وفهم آثار التغيير الكامنة بعيدة المدى، سواء كانت إيجابية أو سلبية قبل وقوعها، وقد جاء الإسلام ليقلع من قاموس العرب «الياس إحدى الراحتين» وبشائر الخير ظهرت بدايات الصحوة الإسلامية في أواخر الألفية الثانية وستنمو وترعرع وتكبر في الألفية الثالثة، قال أحدهم للشيخ: «لقد انتشرت البدع»، فقال: «قد أذن الله بزوالها».

والناظر يجد أنه لا تعارض بين الشريعة الإسلامية وأدوات الاستشراف، فعلم الاستشراف لا يقول بالتحتمية للأحداث المتوقعة، فقد لا تقع كلياً أو جزئياً، أما وقوع المستقبل الحتمي فهو ما أخبرنا القرآن والسنة أنه سيقع في المستقبل: «صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا...»<sup>(٢)</sup>، وعندنا في مفاهيمنا الرجل "الملهم"

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه مسلم.



الذي يعرف كيف يتعامل مع الماضي والحاضر لرسم المستقبل، مثل عمر ابن الخطاب رضي الله عنه.

وسيرة رسول الله ﷺ تدل على اهتمامه بالمستقبل، فقد كانت بيعتنا العقبه خطوتين هامتين في رسم مستقبل الإسلام، وكان إخبار سراقه رضي الله عنه بأن له سوارى كسرى استشرفاً منه لمستقبل الدعوة، وكانت الغزوات والفتوح تهيئةً للحاضر ودعماً للمستقبل، وغير ذلك من الحوادث الكثيرة التي تدل على الاهتمام بالمستقبل والاستعداد له، والعمل على أن تكون كفة المسلمين فيه راجحة لا مرجوحة ومؤثرة لا متأثرة. وكانت المسيرة في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ومن بعدهم تسير على نفس الوتيرة وإلا ما امتد الإسلام شرقاً وغرباً، وثبت أركانه، وأقام بناءه في الجزيرة وغيرها من البلاد على أسس من العدالة التي حقق الناس في ظلها الرخاء والأمن.

### عقبات وتحديات:

والمسلمون اليوم مطالبون باستشراف المستقبل، واستكناه ما يطويه في جوانبه ويحمله في حناياه بالنسبة لدينهم وبالنسبة لأرضهم وبلادهم، وثرواتهم وممتلكاتهم، حيث تواجههم تحديات كثيرة، بل قل متكاثرة تحيط بهم من كل حذب وصوب على كافة الأصعدة.

ومنها في الجانب الاقتصادي الاستنزاف المستمر من الجانب الغربي لثروات العالم العربي ومقدراته، ووضع العراقيل أمام ظهور قوى اقتصادية جديدة، وتفشي البطالة، وإسقاط المقاطعة أو محاولة ذلك، وإغلاق الجمارك، وفتح الباب على مصراعيه أمام السلع والبضائع الأجنبية، التي تأتي ومعها بعض القيم والتصورات التي تهدد الهوية الإسلامية في كثير من البلاد، ومع تهديد الهوية

يكون التحدي الاجتماعي المتمثل في تفكك الأسرة، والإكثار من حالات الطلاق، وانتشار المخدرات، وتواري القيم، ويضاف إلى هذه الجوانب كلها الجانب الثقافي الذي يهدف إلى الغزو الفكري وإلى إحلال القيم والتصورات الغربية محل القيم والتصورات الإسلامية.

وإذا كانت هذه التحديات تواجه المسلمين في حياتهم، وتخترق عليهم ديارهم وبلادهم، فإن هناك تحدياً أكبر موجه نحو الإسلام ذاته، إذ أن المحاولات للنيل من الدين، كانت في الماضي تقتصر على فروع الدين، وتركز على مهاجمة اللغة العربية (وعاء الدين) بالسخرية من القائمين على أمرها والحط من قيمتهم، ومهاجمة مفرداتها، وطريقة كتابتها، وإبدالها باللغات الأجنبية لمنافستها، والتغلب عليها في ديارها وبين مثقفيها.

كان هذا في الماضي وما يزال باقياً مع اتساع دائرة التحدي للدين قبل سنوات خلت، حيث هوجمت أعمدة الدين ذاتها ممثلة في الهجوم على الرسول ﷺ وعلى القرآن بالتأويل والتحريف، بل وصل الأمر إلى إطلاق ما لا يليق من الألفاظ على الله سبحانه.

إن الهجوم على الإسلام يصحبه ويسبقه ويتبعه هجوم على الإسلاميين لمنع صوتهم، وإعلان صمتهم، ورضوخهم للأمر الواقع الذي انبطحت فيه الأمة أمام المد اليهودي الصهيوني، الذي لا يقبل أن يرى رأساً يرتفع، أو معارضاً يرفض، أو إنساناً يقول لا للتطبيع وما يتبعه من ضياع للمقدسات.

أمام هذه التحديات وغيرها مما يواجه الإسلام والمسلمين كيف يكون استشراف المستقبل؟ وكيف يمكن الخروج من هذا النفق المظلم؟ وكيف نتغلب

على المشكلات والتحديات؟ في ضوء محور بحثنا هذا عن إبصار المستقبل للاطلاع بالدور الرسالي.

## ٢- ماهية الإبصار المستقبلي للجزيرة العربية:

### أ- بين الإبصار والاستشراف:

لا نجد فارقاً بين التعبير بإبصار المستقبل أو استشراف المستقبل، إذ الإبصار فيه أعمال للبصر والبصيرة في تلمس خطوط المستقبل المجهول من خلال استقراء واستبصار الماضي وتفحص الواقع وتلمس خيوط وخطوط نمو الحدث وتكوينه، وأسبابه ومسبباته والاستشراف من طلب الشرف، وهو المكان العالي، قال الشاعر الجاهلي:

وبالشرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان  
وقد كانت العرب قديماً تصعد عالي المكان لاستبصار ما حوله واستنتاج ما قد يكون .. ومن المعلوم أن النظر من المكان العالي هو غالباً نظر إحاطة، ويورث رؤية صادقة للمكان عن حق، ويعطي توقعات لما يمكن أن يكون، وعليه فلا مشاحة في الاصطلاح: إبصار أو استشراف.

### ب- ماهية الإبصار المستقبلي:

أما عن ماهية الإبصار المستقبلي للجزيرة العربية، فهي عملية نقد بناء لواقع الجزيرة ومراجعة فاحصة لتجربتها الماضية في حمل الرسالة الإسلامية قيماً وحضارة، ديناً ودولة، دنيا وآخرة.. سعياً إلى استعادة دورها وبعث ريادتها في حمل مشعل الحضارة الإسلامية من جديد إلى عالم يسوده تخبط حضاري في وسط بحر التقدم المادي الغامر.

### ٣- ركائز عملية الإبصار المستقبلي للجزيرة العربية:

أجد عملية الإبصار بصورتها السابقة تنطلق عن ركيزتين رئيسيتين يمكن تحديدهما على النحو التالي:

#### الركيزة الأولى: الوعي بالذات

وهذه الركيزة الأولى هي المنطلق الرئيس لعملية الإبصار؛ لأن الوعي بالذات هو أول خطوات الانطلاق نحو الأمام، فَمَنْ جهل نفسه حريّ به أن يجهل غيره، ويتخبط في تَبْوِ مكانة سامية أمام مَنْ حوله.

والوعي بالذات يقصد به هنا: حالة التقييم الصحيح لواقع الجزيرة العربية (دول مجلس التعاون) على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بما يمكن أن يطلق عليه توصيف الواقع الحضاري الكائن، إضافة إلى استرجاع بعث الموروث الحضاري وتفحصه وقراءته برؤية حدائثة حضارية تركز على أخذ عناصر القوة واستجلائها واستخراجها، ونبذ عناصر السقوط والتهافت، بعد التعرف عليها ورصد أسبابها ومسبباتها وآثارها وسيورها في نخر الحضارة الإسلامية وانحرافها وانحسارها عن أدوارها الصحيحة.

#### الركيزة الثانية: الوعي بالواقع المعاصر (بالآخر):

وتلك ركيزة أخرى تمثل الجناح الثاني بعد جناح الركيزة الأولى إزاء الانطلاق لعملية الإبصار المطلوبة.. والوعي هنا ينبغي أن يكون عاماً مع درجة تخصص في صعيد المجال الإنساني، لأنه يعد المدخل الرئيس للحاجة الإنسانية الحضارية المتأزمة للدور الرسالي.

وهذا يستدعي منا دراسة استغرابية، على وزن الدراسات الاستشراقية التي سبرت أعماق تراثنا، واستقرأت حالنا المعاصر فأحسننت البناء على ذلك

إما بسيطرة علينا في صورة الاستعمار أو بتوجيه منهجي لأفكارنا من خلال موجات الاستلاب الفكري والغزو الثقافي.

وليس بخاف على العارفين دور الاستشراق في حياتنا الفكرية وأزمتنا الحضارية المعاصرة.

### أهمية الركيزتين السابقتين:

وعندي أن هاتين الركيزتين السابقتين تمثلان معاً جناحي الطير والتحليق إزاء إبصار المستقبل، واستشراف القابل من الزمان، وتحقيق الموعود من ذلك الاستشراف.. ولا أراي بعيداً عن الصواب إن قلت: إن أي خلل في إحدى هاتين الركيزتين سيترتب عليه لا محالة خلل في التقييم ثم خلل في الرؤية، وبالتالي قصور في الاستشراف وتقاصر عن إدراك آفاق المستقبل.

وانظر عن أهمية الركيزتين السابقتين الشكل الآتي لمعرفة موقعهما من عملية الإبصار المستقبلي.

### ٤- خطوط عريضة في إبصار المستقبل للجزيرة العربية:

تأسيساً على تلك المقدمة السابقة، أستطيع أن أخلص إلى طرح النقاط الآتية، عساها توضح الرؤية في عملية الإبصار المستقبلي المرومة للجزيرة العربية. وهذه النقاط ليست رسماً لسيناريو المستقبل بقدر ما هي علامات على الطريق في سبيل رسم ذلك المستقبل:-

أولاً: لا تزال الجزيرة العربية هي قبة العالم الإسلامي في كافة الأقطار والأمصار: وقد يعظم هذا الدور الروحي مستقبلاً في ظل مشروع النهوض الحضاري المروم للاطلاع بالدور الرسالي، لتكون قبة العالم الروحية بتجربتها الحضارية المتوقع تحقيقها، بحيث تغدو أرواح وضمائر الإنسانية من مسلمين وغيرهم

لتحقيق نبوءة القرآن عن نبوة محمد ﷺ ورسالته: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ولتحقيق بشارة القرآن عن دين الإسلام: ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (التوبة: ٣٣).

ثانياً: زيادة الهجوم والكيد الفكري المباشر وغير المباشر على الجزيرة العربية في ظل المتغيرات الدولية المعاصرة:-

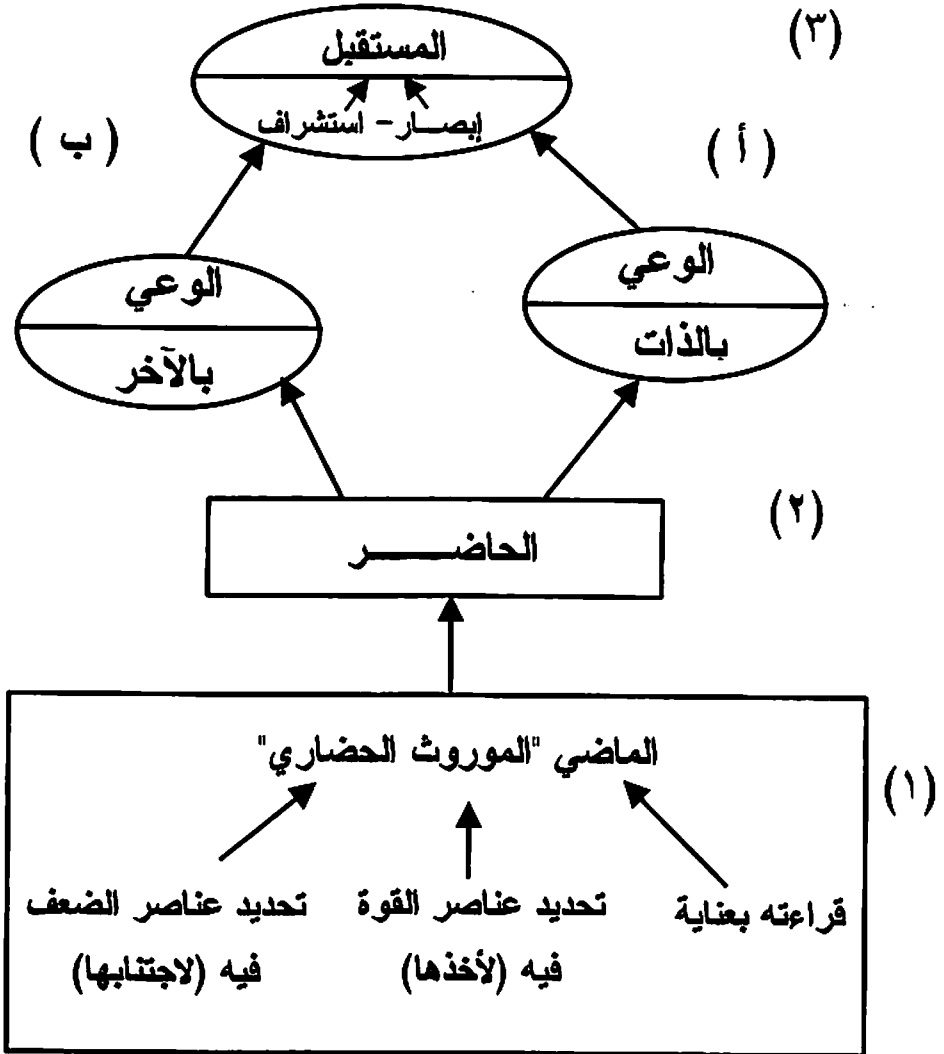
ولا تخفى وطأة الحملة الصهيونية العالمية على الإسلام، باسم الإرهاب، للسيطرة على فلسطين ومقدسات المسلمين بها، ولفض المسلمين عن الاجتماع والالتقاء في أعظم ملتقى بشري في الكون وذلك في موسم الحج. وهذا الدور الصهيوني مرشح للازدياد إن لم تتم مواجهته إيجابياً، أي بالرد المباشر وكشف زيف تلك المخططات وفضحها ونقضها كلما أبرمت، والسعي لتكوين «لوبي» إسلامي على المستوى العالمي لبيان حقيقة الإسلام وقيمه الحضارية التي تحتاج إليها الإنسانية جمعاء، وأنها دين مكارم الأخلاق، ورسالته الأولى كانت لإتمامها.

ثالثاً: توحد الرؤى وتعاوضها، والتخطيط العلمي العقلي الإيماني الصحيح، كفيل بعودة الجزيرة إلى ريادةها الروحية والحضارية على مستوى العالم:- ويتحقق ذلك بالقدرة على توظيف المكانة الدينية للمقدسات في أرض الجزيرة، وتوجيه الموارد المالية الضخمة في الجزيرة في طرح البدائل الإسلامية، وأسلمة التكنولوجيا لتصبح في خير الإنسانية.

إضافة إلى تحقيق الانسجام المجتمعي في الجزيرة، وتوفير خطوط عريضة للتفاهم بين السلطة والمجتمع.. إلى غير ذلك من محاور سيتم عرضها.

كل هذا كفيل بتحقيق الغاية المنشودة وبعث الدور الحضاري الريادي للجزيرة العربية.





شكل يبين منظومة إبصار واستشراف  
مستقبل الجزيرة العربية (دول مجلس التعاون)

## الطرح الثاني

### ومضات في سبيل البعث الحضاري للجزيرة العربية

#### مقدمة:

استكمالاً لما طرحناه سابقاً، فقد ارتأيت أن أذكر هذه الومضات التي تمثل هادياً نحو الإبصار النظري الصحيح والعمل الواقعي في سبيل استعادة الدور الحضاري للجزيرة للاطلاع بمسؤولية سد الحاجة الإنسانية للبعث الروحي المفقود في حضارتها المادية المفرغة في المادة واللذة والمحسوس على حساب الروح والضمير. وقد ركزت في ذكر ومضات الخروج من المأزق الحضاري الحالي سعياً لتحقيق القياد الحضاري المنشود في الجزيرة العربية لإحقاق الرحمة بالعالمين، من خلال إحياء الدور الحضاري الرائد لأمة الرسالة الإسلامية.

وقد جاءت هذه الومضات في الآتي:

أولاً: تزاوج العقل والنقل في سبيل الانطلاق لتحقيق البعث الحضاري.

ثانياً: استرجاع الثقة في ابتناء الإيمان للحضارة.

ثالثاً: الصورة الحضارية في الحكم بالشرعية الإسلامية.

رابعاً: ضرورة الانفتاح على الآخرين.

خامساً: معاً نحو أسلمة التكنولوجيا.

سادساً: عقد المصالحة بين السلطة والمجتمع.

سابعاً: النظرية الإسلامية التربوية.

خاتمة وخلاصة.

أولاً: تزواج العقل والنقل في سبيل الانطلاق لتحقيق البعث الحضاري:  
فإن من فضل الله العظيم علينا أن يرزقنا نعمة العقل وتعبداً به، فلا فرض ولا نفل، ولا تكليف ثم إلا من بابه.. وفضيلة العقل تقتضي بالمسلم أن يطوف به في خبير الحوادث وتصاريف المواقف، وسبر النوازل، يقرأ جديدها، ويعي مداخلها، ويلم بأطرافها، فتثمر لديه ثمرات حمة يفيد منها في دينه.

وهذا مقصود من مقاصد الشرع، دلت عليه الآيات الكثيرات: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ... ﴾ (غافر: ٨٢)، وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْتَبُوا يَتَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر: ٢)، وقال سبحانه: ﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

وهذا يجدو بالقائمين على الأمر في الجزيرة (دول مجلس التعاون) أن يعملوا على عقلنة التخطيط الإداري جنباً إلى جنب مع أسلمة السلوك الحضاري، إذ لا شك أن العقل الصريح لا يخالف النص الصحيح، وإنما يتعاضان ويتآزران؛ لأن النص خالد مطلق الصحة من الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ﴾ (الحجر: ٩)، ولم يجعل له عوجاً، والعقل ومعطياته الظاهرة والكامنة هي من الله سبحانه أيضاً: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٣)، ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ٥).

وهذه الثنائية المتناغمة تفضي إلى:

١- التوازن في الفكر والسلوك، إذ العقل والشرع هما جناحا التقدم والانطلاق نحو الأمام.

٢- تميز الدور الرسالي للجزيرة، فهو دور متوازن متكامل يسعى بالعقل والشرع معاً، وليس مجرد شعائر روحية، ومقامات زهدية تقام دون أعمال للفكر.

٣- قيادة الدور الرسالي في الأخذ بالشقين، العقلي والروحي معاً، حيث إن الصراع بين العلمانيين الداعين إلى استقالة الوحي عن الحياة العامة لدول الإسلام وقبوعه في المساجد وبين دفاف الأسفار، وبين دعوات معارضة من بعض الإسلاميين إلى فحوض الإسلام وتطبيقه دون التفات إلى معطيات العلم الحديث، بل ومقاطعة هذه الإمكانيات العلمية والتكنولوجية، أو على الأقل مجيئها في الرتبة الثالثة، ما تزال قائمة.

ثانياً: استرجاع الثقة في ابتناء الإيمان للحضارة (نموذج الحضارة الإسلامية قديماً): وهذا ينبغي استصحابه في ذلك الدور المستقبلي المأمول للحضارة الإسلامية، حيث نبع النور من مكة واكمل في المدينة وانطلق يصوغ مجتمعات إسلامية وأنظمة حضارية مجيدة نعم المسلمون وغيرهم من اليهود والنصارى بل وغيرهم من الملحدين والوثنيين في كافة البلاد برحمتها وعدلها وتصديقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

كما كانت حضارة الإسلام حلقة الوصل بين الحضارات القديمة والحضارة الأوروبية الحديثة (كما كانت لبنة رئيسة من لبنات الحضارة الغربية الحديثة).

وهؤلاء هم منصفو الغرب يقولون بذلك من أمثال:

١- جورج سارتون.

٢- غوستاف لوبون.

٣- انطوان باسي.

وغيرهم الكثير والكثير، ونسمع معاً ما قاله لوبون عالم الاجتماع الفرنسي الشهير: «ما من مؤلف أوروبي حتى القرن الخامس عشر إلا وعلمه منقول عن علوم العرب»، ثم ذكر عدداً من علماء أوروبا في ذلك الزمان وقال: «إنهم كلهم إما متعلمون للعرب أو نقلوا كتبهم، وإن الكتب المترجمة من العربية، ولا سيما الكتب العلمية منها كانت إلى مدى بعيد الأساس الذي قام عليه التعليم في جامعات أوروبا نحو خمسة قرون».

ولنذكر هنا على سبيل المثال جامعات الأندلس ومعاهدها العلمية وأدوارها في تحضير الأوربيين، حتى إنهم بعدما هزم المسلمون فيها طفق الأسيان يفتخرون بحضارة بلادهم الإسلامية ويحتذون حذو المسلمين فيها.

وهذا ملك أرجوان لا يحسن الكتابة إلا باللغة العربية؛ لأنه تعلم في معاهد ومدارس وجامعات الأندلس المسلمة وفي ربوع حضارة الإيمان التي وسعته ولم تضق عنه ولا عن أمثاله.

وهذا ألفونسو السادس ملك الأندلس يتسمى بإمبراطور العقيدتين الإسلامية والنصرانية، وقد جعل من طليطلة المسلمة بعدما سقطت في يده منارة معارف.

كما احتفظ خلفه ألفونسو الثامن بالكتابة العربية على نقوده، وكانت المسكوكات الإسلامية والفرنسية عملة مملكة النصارى في إسبانيا وجنوب فرنسا على طول أربعمئة عام.

كما استفاد الأوروبيون من النظام الإسلامي في القضاء وفي الإدارة وفي الأحوال الشخصية والاجتماعية.

ولو أتينا على بعض آثار الحضارة الإسلامية ودورها في النهضة الغربية لطلال بنا المقام كثيراً، ولكن نكتفي بتلك النبذة السابقة لنستخلص منها الآتي:-  
١- أن التجربة الحضارية الإسلامية القديمة تدعو إلى الفخر والاعتزاز، وأنها قابلة للاسترجاع.

وهذه نتيجة مبرهن عليها بشواهد جمة في شقها الأول، حيث إنها وقعت بالفعل، وما وقع وكان قابلاً لأن يكون وتوفرت له العوامل المناسبة، فهذا داع لاستجلاء آفاق البعث الرسالي للجزيرة في الماضي مروراً بواقعا العاثر ونهوضاً إلى مستقبل مشرق.

ولله در القائل الذي أحسن التصوير والتعبير:

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

٢- ابتناء الثقة في الحضارة الإسلامية على الوجه الصحيح هو سبيل مكين لاسترجاعها:

وهذا حاصل عندما نغرس روح الاعتزاز والفخر بالحضارة الإسلامية على الوجه الصحيح، بحيث لا يكتفى بالإشارة إليها والتنويه بها وإنما باستعراضها حسب:

أ- خطة منهجية مدروسة تعمم على الجيل المسلم الواعد، ليكون لهم سلف ينتسبون إليه، وعز يتواصلون معه.

ب- التدليل على الآثار الحضارية للحضارة الإسلامية والتي لا ينحصر التعريف بها في مجرد كلمات مسجوعات وإنما يتعرفون عليها من خلال:-

- معارض الحضارة الإسلامية التي أدمع لإقامتها في كل مدينة أو في أشهر المدن على الأقل.



- دراسة نماذج من تحضر السابقين، كل في مجاله بحيث يكون هناك جزء مقرر حضارة إسلامية في كافة الفروع.

- بث الروح الإسلامية في الممارسات اليومية من خلال تسمية الجامعات والمعاهد العلمية بأسماء علماء المسلمين الكبار.

### ثالثاً: الصورة الحضارية في الحكم بالشريعة الإسلامية:

وعماد هذا أن مقصد الشريعة الأول وهدفها الرئيس إنما هو صالح العباد في الدنيا والآخرة، وبرهان ذلك ما ذكره علماء الأصول من أن شريعة الإسلام إنما وضعت ابتداءً لمصالح العباد، في العاجل والآجل معاً، ومعنى كونها موضوعة ابتداءً لهذا أنه قصد ذلك من وضعها في المرتبة الأولى، ويكون ما عداه كأنه تفصيل له.

وعلى هذا القصد والوضع أجمع علماء الإسلام، ولم ينازع في ذلك منهم أحد، وذهب الإمام الشاطبي في الموافقات إلى أن ذلك يعد مسلمة لا مرية فيها، ولا جدال حولها، فقال رحمه الله: «والمعتمد إنما هو أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراءً لا ينازع فيه».

وهذا ما نص عليه الإمام الشافعي في "الرسالة" فقال: «.. فكل ما أنزل الله في كتابه - جل ثناؤه - رحمة وحجة، عِلْمَه مَنْ عِلْمِهِ وَجَهْلُهُ مَنْ جَهْلِهِ»..  
وفصل ذلك الإمام ابن القيم، رحمه الله، فقال في "إعلام الموقعين": «فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها».

وعلى هذا دلت نصوص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ (المائدة: ٦)، وقال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥).. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرات المتواترات المعنى على ذلك، إذ تقطع بأن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في الآجل والعاجل، وهذا الأمر متصل في جميع تفاصيل الشريعة.

وتأسيساً على البرهان السابق والمسلمات المستخلصة به، فإننا نخلص إلى: أن الحكم بالشريعة الإسلامية في دول الجزيرة العربية (دول مجلس التعاون الخليجي) على الوجه الصحيح بتحقيق مقاصدها وأعمال أحكامها بحسب ذلك هو سبيل مكين ونهج مبين لتحقيق ما يلي:

#### ١ - حفظ الهوية الإسلامية العربية للجزيرة العربية:

فتبقى في مأمن عن حروب الشبهات، ومنابت الفتن، وقلقل التغريب، وفتن الاستلاب الفكري والغزو الحضاري..

وكيف لا وهي تعد بؤرة لنشر العدل، ولروضة الحضارة العالمية، ولسطوع شمس عدالة الإسلام على العالم أجمع، من خلال تحقيق مقاصد الشريعة في حفظ مصالح العباد، وجلب كل ما يفيدهم، وينفعهم في دنياهم وأخراهم معاً.

وقارن ذلك بدول أخرى ولجت في دهاليز الفتن وراحت ترقع مناهجها في الحكم، وفي الابتناء والعدل الاجتماعيين، فوجدت نفسها حائرة باثرة تشكو أزمة الهوية، ويلفها ثوب الغموض والقلق الفكري والحضاري.. ولتفصيل ذلك مقام آخر.

## ٢- حفظ مكانتها الروحية في العالم الإسلامي:

وهذا واقع ورهين بالتطبيق الصحيح للشريعة في ضوء مقاصدها العصماء، وفي ركاب الواقع المتجدد والمجتمع المتحرك وفي واقع العولمة الذي يحوطننا في كل شيء.

إذ إن إبصار المستقبل يبين لنا أن الريادة الروحية لا تكون بالمادة والثراء، ولا بالرفاه الاقتصادي، ولا بالتقدم التكنولوجي فقط.. وإنما هو بادئ ذي بدء بتطبيق تعاليم الإسلام الصحيح على الوجه الفضيل، تطبيقاً متكاملًا منسجماً مع المجتمع العولمي ومعطيات الواقع المعلوماتي.. بحيث تنشده العقول وتختاره الفهوم وتتمتع به الأبصار والأسماع في الإنصاف والرؤية والكتابة والقراءة معاً عن ذلك التطبيق الواقعي للشرع الإسلامي.

وهذا مدخل المداخل لدرك نعيم الدنيا ورفاهها كما وعد الله بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَأَسْتَوُا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الأعراف: ٩٦).

## ٣- تجديد القيادة الروحية للجزيرة ضمن عملية البعث الحضاري

الإسلامي:

وفي ذلك استعادة للقيادة الروحية للجزيرة على مستوى العالم الإسلامي حيث كانت المدينة المنورة مركزاً للوحي بعد مكة وكانت بدورها أول عاصمة روحية وإدارية للإسلام في عصر الرسول ﷺ ثم تنحت عنها العاصمة الإدارية شيئاً فشيئاً غير أنها ظلت العاصمة الروحية للتطبيق الإسلامي على مستوى الدولة، ومستوى الإدارة (حيث تطبق الأحكام الإسلامية على القائد والمقود هناك) وعلى مستوى المجتمع، وعلى مستوى الأفراد، حتى ذهب

الإمام مالك رضي الله عنه إلى الأخذ بعمل أهل المدينة كمصدر من مصادر التشريع... بما يسميه الأصوليون "عمل أهل المدينة" ابتناءً على أنها عاصمة الإسلام الروحية وأن ما يمضي فيها من العمل والسلوك هو نفسه اتصال لما مضى في عهد الرسول ﷺ<sup>(1)</sup> ولهذا مغزاه ومعناه في موضوع بحثنا هذا.

#### رابعاً: ضرورة الانفتاح على الآخرين:

وهو كلمة يكتنفها غموض بعض الشيء، لذا يتوجب علينا ضبطها، ونعني بها في سياق حديثنا التعرف على (الآخر)، والانفتاح على ثقافته وفكره في إطار قيمنا، وهذا مطلب قرآني لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات: ١٣).

وعندي أنه لا إشكال في جواز التعرف على الآخر مطلقاً مجرد معرفة ذهنية تصورية، لتتعرف عليه من قرب، فهذا لا ضير فيه، بل الجهل بهذا (الآخر) يعد من دروب الجهل التي تستوجب اللوم.

ثم هناك مرحلة أخرى هي مرحلة الانفعال والتجاوب مع ذلك (الآخر)، وهو ما يتبع المعرفة غالباً، ولا يشترط هذا التجاوب والانفعال تصديق هذا (الآخر) والإيمان بما عنده وتبني أطروحاته، فهنا يبرز الإطار الحضاري والمعرفي لثقافتنا وحضارتنا، إذ تقتضي هذه المرحلة مرحلة أخرى هي :-

"مرحلة النقد والتبصر" ثم الإقدام للتجاوب والانفعال، عن طريق

خطوتين:

(1) مع ملاحظة مخالفة جمهور العلماء لمالك في ذلك، حيث لم يأخذوا بعمل أهل المدينة كأصل من أصول الشريعة.

### الخطوة الأولى: اكتساب المعرفة الجديدة النافعة لي:

والاكتساب هنا مطلق لكل ما هو مفيد وجديد من معارف وتصورات وتطبيقات، ووسائل وآليات، فهذا يقع تحت طائلة الحكمة التي نطالب بدركها وأخذها من كل أحد إذ: «...الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا»<sup>(1)</sup>.. وهي إرث إنساني لا يقتصر على جنس أو موطن ولا على دين. والاكْتساب هنا إما أن يكون:-

١- لجديد مطلق الجدة، وهذا يؤخذ بعدما تضبط أهدافه وغاياته بما يتلاءم مع حضارتي وقيمي الإسلامية.

٢- مطور في صورة جديدة، فهذا أسعى لربطه بما عندي من أصول حضارية بمعنى أني أسعى لربطه بأبوة حضارية، من عندي فيصبح حلقة وصل معها وسبيلاً لتطويرها.. ولا عجب أن يكون الابن أكثر تفوقاً من أبيه، غير أنه يدين له بالأبوة وفضل السبق.

### الخطوة الثانية: نقد المعرفة غير الملائمة وطرح بديل مناسب لها:

وهذه مرحلة لا تقل عن الأولى أهمية، إذ لسنا نجزم بأن كل جديد عن (الآخر) هو مناسب لي فهناك ما لا يناسبني ولا يليق بي غير أني أتجاوز مرحلة الرفض الأعمى إلى مرحلة النقد المتبصر، بل والاقترام وطرح البديل.

وما أكثر تلك البدائل التي يناط العمل على طرحها ونحن في الجزيرة بما آتانا الله من فضل التاريخ التليد، والحضارة الخالدة، جديرون بأن نعمل على طرح البدائل المؤسمة، سواء في الجانب التكنولوجي والمعرفي، أو في الجانب الاجتماعي الإنساني.

(1) أخرجه الترمذي.

## والحاصل أنني أخلص إلى الآتي:

١- أن الانفتاح مطلب إسلامي ضروري تمليه الظروف الاجتماعية والقيم الدينية من باب نشر الرسالة الإسلامية، سعياً إلى ريادة العالم روحياً والاضطلاع بتلك الأمانة التي فيها ذكرنا ومجدنا: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠).

٢- أن الانفتاح هو السبيل الرئيس لتلقيح الأفكار وتعريضها وتجديدها وانتعاشها، وهو مفتاح تذويب الجليد بيننا وبين الآخرين، وخاصة بعد تلك الأحداث العارمة التي اجتاحت عالمنا الإسلامي.

٣- أن الجزيرة كما كانت منفتحة على العالمين أولاً بقيمتها الروحية، فهي مؤهلة لإعادة ذلك الدور، عن طريق انفتاحها على العالمين ثانياً، معطية وآخذة، وليست معطية كما كان الحال من قبل، وهذا نلمحه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَخْنَا فِي السَّمَاءِ الْمُهْلِ فَاصْبَرَ الْمُهْلُ صَبْرًا وَقُلْنَا لَهُمْ قَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَٰكِن لَّيْسَ أَجْرِكُمْ عَلَيْنَا وَلَا نَمْنَعُ لَكُمْ إِلَهُكُم مَّا كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (الحج: ٢٧).

## خامساً: نحو أسلمة التكنولوجيا:

ابتناءً على ما سبق ذكره من امتلاك الجزيرة لموارد الطاقة ورؤوس الأموال، وكونها القبلية الاستراتيجية للطاقة في العالم، فإنها قادرة على توظيف التكنولوجيا في كافة المجالات والبنى الاقتصادية والاجتماعية.

ومن المعروف أن التكنولوجيا الحديثة غربية المنشأ غربية التطور، غربية الآثار والنتائج، وإن كانت تهدف إلى رفاه الإنسان ومتعته وهي غاية منشودة، وهدف تتفق معه إجمالاً، غير أنه يستوقفنا وقفات متتاليات.



فهي وإن كانت تكنولوجيا مادية في معظم وجهها الحضاري، يمكن أن نختزلها مجازاً في آلات وأجهزة ومعدات إلكترونية صامتة تتحرك بنظريات علمية مدروسة، إلا أنها إنسانية التشغيل، إنسانية الصنع والهدف والتوجيه.

وإن شئت وضوحاً فقل: هي غريبة السلوك والوسيلة والهدف والتوجيه .. قد انعكست عليها قيم الحضارة الغربية بدرجة كبيرة فانطبعت بطابعها الاجتماعي وبنمط حياتها اليومي حتى أصبحت الآلة لصيقة بحياتهم، تعمل بنمط حياتهم.

فهذا مصنع يعمل فيه رجال ونساء متلاصقون معاً في وردية ليلية، وهذه آلة تقتضي من المرأة مشاركة وانقطاعاً لها على فترات متناوبة بحيث يمنع عليها الحمل والإنجاب وإلا فقدت وظيفتها، وهذا عمل آخر يتطلب انقطاعاً وتبتلاً وعدم الاعتراف بالعلاقة الشرعية من زواج وأولاد والاستمتاع بأسرة هائلة تحوطها روح المحبة.

وبناءً على ذلك نشأت أنماط حياتية خاصة لها قيمها الخاصة لكي نتماشى مع تلك التكنولوجيا .. مثل:-

١- تعظيم الحياة الفردية على حساب الحياة المجتمعية، وإطلاق حريات الفرد حسبما شاء.

٢- انتشار الممارسات الجنسية خارج إطار الأسرة للترويج عن النفس في أوقات الإجازات (الويك إند)(١)

٣- انتشار بيوت الدعارة والملاهي الليلية والقمار والخمر في المنزهات لكي تستوعب ذلك العامل المضغوط في عمله (١)

٤- انتشار المواد الإباحية مطلقاً في وسائل الإعلام على اختلافها، وعلى تنوع تلك الإباحات.

٥- انتشار العلاقات المثلية (رجال ورجال)، (نساء مع نساء)، وترخيص الدول الغربية لهذا.

وكل ما سبق يدار أيضاً بوسائل تكنولوجية حديثة، لبلوغ أقصى درجات المتعة، عوضاً عن التعامل الشاق والجاف مع الآلة.

وكل هذا يحمي بسياج قانوني وإطار مؤسسي لكي يضمن للمصانع أن تنتج وللآلة أن تعمل وللتكنولوجيا أن تثمر وتدر الأموال الطائلة، ليعظم الاقتصاد ويحل الرفاه الإنساني (!)

إبصار المستقبل التكنولوجي في الجزيرة العربية:-

نعود هنا إلى حلقة الوصل بيننا وبين ما سبق، من خلال طرح السيناريوهات الآتية:

١- هل نترك التكنولوجيا الغربية جملة ونلزم خاصة أنفسنا ونولي لها ظهورنا؟!

٢- هل نأخذها بخيرها وشرها وبيئتها التي نشأت فيها؟!

٣- هل نبدأ من حيث انتهوا وكيف ذلك وليست عندنا قاعدة علمية وتكنولوجية مثلهم؟

٤- هل نأخذ بعضاً ونترك بعضاً، وما هو مقياس الحاجة وآليات الأخذ والترك؟ وماذا لو كانت المنظومة التكنولوجية متكاملة لا بد من أخذ

جملة منها...؟!

٥- وماذا لو أخذنا منهم ما نريد وحاولنا أن نكيفه حسب عاداتنا وقيمنا،

أنظّل مستهلكين وتابعين!!؟

وبين هذا وذاك من الأسئلة السابقة تحار العقول وتنقطع السبل.. ولا يصح إلا الصحيح وهو: أن نؤسلم منظومة التكنولوجيا الغربية في الجزيرة العربية، ثم في البلاد الإسلامية، مع الاستعداد لاقتحامها ومنافسة الغرب فيها.. وهذا مطلب ليس بالعسير فقد سبق أن مهدنا له بالإمكانات المادية والروحية التي حبا الله بها الجزيرة.

وفي الأخذ بالفرضية السابقة، أرى الآتي:

١- أن أسلمة التكنولوجيا هو السبيل الذي ينبغي أن نحققه في المنظور العاجل تمهيداً لمنافسة الغرب فيها على المدى الآجل.

٢- أن في أسلمة منظومة التكنولوجيا أهداف عدة:-

أ- حفظ مجتمعنا من تلك الآثار الاجتماعية التي تحيط بالآلة الغربية.

ب- طرح بديل إسلامي لتسيير تلك التكنولوجيا قادر على إثبات أهمية

التوظيف والتوجيه الحضاري المحاط بسياج القيم وبنور الوحي، وأنه

أكثر إثماراً من محض التوجيه المادي الخاوي عن الروح والقيمة.

٣- التمهيد للتجربة الإسلامية الواعدة في التقدم التكنولوجي، وإثبات أن

الإسلام يحث على النظر والاعتبار والالتفات إلى الظواهر الكونية والقوانين

الإلهية فيها، واستثمارها في الحياة لإعمار الأرض ولرفاه الإنسان.

وهكذا تقودنا الأسلمة إلى تجربة إنسانية لا تزال مقتعدة ألا وهي المزاجية

بين الآلة والقيمة، وبين الروح والجسد، وبين السماء والأرض.. وأن مردود

هذه المزاجية هو أثرى وأوفر حالاً من مردود محض التوجيه المادي كما هو عند الغرب؛ لأن الإسلام خير كله وهو دين الدنيا والآخرة، وهذا ما يجب أن تطلع به الجزيرة قبل غيرها.

### سادساً: عقد المصالحة بين السلطة والمجتمع:

ينبغي للأنظمة أن تنمي هذا التوجه لديها، وأن تدرك أهمية المصالحة والتحالف مع المتزمين بالقيم الإسلامية لتحقيق المقاصد الإسلامية، مع تجنب كل منهما الصدام وافتعال الخلاف مع (الآخر)، وإلا هدرت الطاقات، وتبددت الجهود، واستنزفت الأمة، وانحرفت المسيرة في الجزيرة الخاصة.

وعلى المتزمين بالإسلام كذلك تطوير أنفسهم من الداخل، وتجاوز الحدود الداخلية إلى آفاق الأمة نفسها، كما يجب عليها أيضاً الخروج من دائرة رد الفعل للحركات العلمانية إلى وضع البديل الذي لا يقنع بالجهل أو التجاهل لما لدى (الآخر)، وإنما يسعى جاهداً لامتلاك الوعي بما لدى (الآخر)، سواء منه ما يدخل في إطار النافع الذي يُستلهم أو الضار الذي ينبغي رده بالدليل والبرهان، ومواجهته ببديل إسلامي نافع.

كما أن على المتزمين بالإسلام الابتعاد عن الروح الحزبية التعصبية، والعمل تحت مظلة الأخوة الشاملة، واستيعاب كل الطاقات والأنشطة والمواهب.

### سابعاً: النظرية الإسلامية التربوية:

جدير بالذكر أن أي تغيير لا بد أن يكون تغييراً مجتمعياً كاملاً لكي يحدث أثره، ولتضافر الجهود حوله، ولكي لا ينقلب المجتمع عليه عشية أو ضحاها.

وفي مقام حديثنا هذا ينبغي لفت الأنظار إلى أهمية التهيئة المجتمعية، إلى تلك

الغاية التي نتحدث عنها من خلال محور الرؤية المستقبلية للاطلاع بالدور الرسالي ضمن إطار الموضوع الكبير عن «البعث الرسالي لمجلس التعاون، من استشراف الماضي إلى إبصار المستقبل».

ومما يساعد على ذلك الحديث هو الانسجام المجتمعي في الجزيرة العربية، حيث لا تشكو إثنية دينية، ولا يلفها هاجس تفجر العرقيات المختلفة، وإن لم تخل من بعض الأطر الضيقة التي لا يستهان بها، في سياق ذلك المستقبل المأمول لها أن تقوم به في الاطلاع بالدور الرسالي.

ومن هذه الأطر الضيقة:

١- إطار القبيلة.

٢- إطار الحزبية.

٣- إطار المذهبية.

٤- إطار الاستغراب.

وهذه الأطر قد لا تمثل أثراً ظاهراً في المنظور الآني أو القريب، غير أنه ينبغي الالتفات إليها وإبصار الحلول لها قبل استفحال خطرهما وتوسع دائرتهما.

ولعل أهم المخارج من ذلك العثار المخوف هو:

١- تقوية الولاء الديني والوطني:

وفي ذلك تغلب على حالة القبيلة التي تأخذ منحنيات خطيرة في بعض الأحوال.

٢- العود إلى مصدر التشريع النقي (القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة) كأساس لدفع حالة التمازج المقيت:-

وجدير أن نذكر أن المذهبية بمعناها التزام مذهب فقهي صحيح الدليل صريح الفهم لا شيء فيه ما دام قائماً على الاتباع واستبصار الدليل .. أما إن قام على الجهل ومحض التقليد، وأدى إلى عنصرية بغیضة، وولد طائفية مهلكة، فهذا هو المنبوذ، الذي نسعى لدفعه، وعليه يدور حديثنا الآن.

٣- إبراز الهوية الإسلامية والاعتزاز بالعادات والتقاليد الإسلامية والعربية الموافقة هو سبيل دفع الاستغراب:-

لأنها حالة عارضة تنشأ عند ضعف الهوية، وتشرها النفوس عند ضعف الولاء والانتماء وعند افتقاد البديل المشبع.. وهنا تبرز التساؤلات الآتية:

أ- كيف نحقق الانسجام المجتمعي؟

ب- وما هو السبيل الصحيح لدفع القيم المجتمعية السلبية؟ وتجاوز القيم الأخرى المتوقعة؟

ج- وكيف لنا أن نهيء المجتمع في الجزيرة لمرحلة الاطلاع بالدور الرسالي؟ هذه أسئلة متراكبة يفضي بعضها إلى بعض، وقد يسعنا المقام لطرح "معقد الحل" وهو ما اقترحه قبلنا غيرنا، ونسعى لتوكيد طرحه عن:

«ضرورة تطوير نظرية تربوية إسلامية شاملة تستوعب المجتمع بأنماطه، وتعمل على تنقيته وتهيئته للقيم الإسلامية وللدور المنوط بمجتمع الجزيرة في بعث الدور الحضاري الرائد لها...».

## النظرية الإسلامية التربوية لصياغة المجتمع وتهيئته:

ليس هذا مقام التفصيل لهذه النظرية<sup>(١)</sup> وإنما هو بالأساس مقام للتبويب بها، وتوكيد طرحها، وبيان ضرورتها، ضمن مخطط إحياء الدور الرسالي للجزيرة. معالم النظرية:

تنطلق معالم هذه النظرية المطلوب صياغتها وتطويرها، عن:  
أ- القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة.

ب- التراث التربوي عند المسلمين وما دار حوله من دراسات حديثة.

ج- التراث التربوي المعاصر (مع استبعاد ما لا يتلاءم معنا، وأسلمة أجزائه الأخرى بما يتناسب مع حضارتنا وقيمنا وأهدافنا...).

### أسس ومنطلقات النظرية:

وتنطلق هذه النظرية كذلك عن التصور الإسلامي المميز:-

أ- لله سبحانه وتعالى.

ب- الكون.

ج- الإنسان.

### أهداف النظرية<sup>(٢)</sup>:

تستهدف هذه النظرية عموماً ما يأتي:

١- التعبد (وهو غاية الغايات، أن يتعبد الناس لربهم).

(١) انظر في الحديث عن تلك النظرية مؤتمر تهيئة الأجواء التربوية لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية (المحور الأول: التربية في صدر الإسلام) ضمن أعمال اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، ص ٤٠ وما بعدها.

(٢) انظر المرجع السابق، ص ٥٦-٦٠.



٢- التحرر عن كل قيد وكل ذل واستعباد إلا لله.

٣- إتمام مكارم الأخلاق، وهذا من غايات الرسالة المحمدية: «إِنَّمَا بُعِثْتُ

لَأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»<sup>(١)</sup>.

٤- التعليم.

٥- التعقيل.

٦- التوجيه الاجتماعي.

٧- التعمير.

٨- الإعداد البدني.

٩- الإثراء الجمالي والوجداني.

ولعل أهمية هذه النظرية في مقامنا هذا هو:

تهيئة مجتمع الجزيرة لهذا الدور المنوط به من البعث الحضاري والاطلاع

بالدور الرسالي، وتوجيه المجتمع في العمل والممارسة لتحقيق هذا الدور.

وعليه، ففي ظل إِبْصَارِ الْمُسْتَقْبَلِ نَجِدُ :

"أنه على دول الجزيرة (مجلس التعاون) التعااضد معاً لبلورة هذه النظرية

وتنقيحها لإنفاذها في روح المجتمع وثقافته ورؤيته وحراكه، لنصل إلى الدور

الصحيح المرتقب".

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني.

## الخلاصة

نخلص من جميع ما سبق إلى ضرورة تحقيق الوصايا الآتية في سبيل تحقيق الغاية المنشودة من البعث الحضاري للاطلاع بالدور الرسالي، وهي:-

١- ضرورة استنبات الكوادر الفذة من نابغي الأمة وقوادها، تمهيداً لقيادتها وتوجيهها انطلاقاً من دول الجزيرة العربية، التي قادت الفتوحات الإسلامية ومشاعل الحضارة إلى العالم أجمع.

على أن يعيش هؤلاء الأفاضل والنوابغ والقواد حال الأمة، ويعتكرون بواقعها، ويستشعرون محنها، ويتشبعون بالمناهج الشرعية والعلوم الإسلامية والعقلية.

٢- تكوين مجلس علماء للجزيرة، يبحثون أوضاعها، ويخططون لمستقبلها، ويتعاونون فيما بينهم ومع غيرهم من مجالس أخرى للعلماء للاتفاق على خطوط مستقبلية عريضة تتوحد عليها الجهود.

٣- تنقيح المناهج الشرعية، بحيث تدرس فقه الشريعة والواقع معاً، لتخرج لنا قادة ومفكرين وليس علماء متخصصين في بعض فروع العلم الشرعي فحسب، وتعميم تلك المناهج في المؤسسات العلمية لدول الجزيرة.

٤- استلهام الموروث الحضاري بعد فرزهِ جيداً، أو استبعاد ضعيفه ومتهافته، واستخلاص قويِّه وصحيحه، للانطلاقه عنه ووصله بالحاضر، والانتماء إليها اعتزازاً وقيمة.

٥- تجاوز النظرة الإقليمية الضيقة، إلى نظرة أممية تهتم بقضايا الأمة وإشكالاتها، وليست قضية حزب أو جماعة أو فئة فقط، وإنما ينصهر هذا جميعاً في حدود الأمة.. وقد تعرضت لهذا في مقال مطول لي في جريدة الوطن<sup>(١)</sup>.

٦- التفريق بين القضايا الحقيقية والقضايا الزائفة، وترتيب أولويات قضايا الأمة ابتداءً بدول الجزيرة، فلا يقدم المهم على الأهم.

---

(١) انظر جريدة الوطن للكويتية.

## الإسلام.. دين المستقبل

الدكتور عارف الشيخ<sup>(\*)</sup>

ليس من قبيل المصادفة أن تنحہ أنظار العالم إلى الجزيرة العربية، وإنما لعلهم بأهمية الدور الذي يمكن أن تضطلع به.. فهي موطن أقدس مقدسات العالم، ومهبط الرحي الخاتم، وفيها تكمن أغنى مناطق العالم من حيث الطاقة الروحية المحركة والثروة البترولية التي من أجلها تكالبت علينا الأمم اليوم.

إن الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:  
فإن الحديث عن رسالة الإسلام ومستقبل أمة الإسلام يطول ويطول جداً،  
لأن البداية كانت شائكة والنهاية كذلك.  
لكن المتأمل في بداية الرسالة المحمدية يجد أنه لا يصعب على الله شيء،  
وكما انتصر الإسلام في البداية، ينتصر في النهاية، إن شاء الله.  
انظر كيف خلق الله الخلق أمة واحدة، ثم بعث إليهم أنبياء ورسلاً  
ليبشروهم وينذروهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وقد لقي كل منهما  
جزاءه على مرأى ومسمع الآخرين، فذهب المطيع مثلاً يحتذى به، وذهب  
المخالف عبرة لأولي الأبصار.

(\*) باحث وشاعر.. (دولة الإمارات العربية المتحدة).

هذه هي سنة الله في كونه، فترى الخير والشر يتصارعان، وفي النهاية البقاء للخير، وإننا اليوم إذا كنا نرى أن المسلمين يمرون بمرحلة حرجة فينبغي أن لا يثني ذلك من عزائمنا، لأن ما نرى من انتكاسات وهزائم ليس الإسلام سبباً فيها، بل نحن المسلمين.

إذن الإسلام هو الإسلام، ولو عاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى لعادت إليهم انتصاراتهم، وعادوا قادة العالم وسادته كما كانوا.

وهنا نحن سوف نستعرض في هذا البحث الرؤية المستقبلية للاضطلاع بالدور الرسالي من خلال العناوين التالية:

الناس أمة واحدة؛ الناس قبل الإسلام؛ بزوغ فجر الرسالة المحمدية؛ ما دعا إليه الإسلام؛ أسلوب الدعوة في الإسلام؛ الإسلام دين جاذب؛ سر جاذبية الإسلام؛ هل بقي الإسلام قويا؟؛ لماذا تأخر المسلمون؟؛ الإسلام يدعو إلى العلم؛ في الإسلام قدوة حسنة؛ كيف نهض ثانية؟.

نفهم من هذه العناوين أن الإنسان مؤهل لتقبل الخير، وإذا كانت بعض صفحات الحياة مغبرة من حوله فإن بعض صفحاتها الأخرى مشرقة، والإنسان نفسه يلعب الدورين معاً، والله تعالى يقول في كتابه: ﴿اللَّهُ يَجْعَلُ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدْيَةً لِّلْتَّجَارِينِ ﴿١٠﴾﴾ (البلد: ٨-١٠).

فلنستلهم إذن من كسوة الحاضر انطلاقة الماضي، ولنستشعر من انهمزام المسلمين عزة الإسلام، ولنعلم علم اليقين أن الإسلام هو دين الله الخالد، والجزيرة العربية هي المهد الأول لهذه الرسالة.

فالله المستعان وعليه التكلان.

## الناس أمة واحدة:

عندما نقرأ الآية الكريمة: ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ (يونس: ١٩)، لا نجد لها مختلفة كثيراً في غايتها عن الآية الكريمة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

فالآية الأولى تعيد إلى الأذهان بأن الوحدة هي أصل الإنسانية، الذي خلق الله الناس عليه، وأراد منهم أن يبقوا عليه في ظل تعايش سلمي .  
والآية الثانية مفهومها أننا لم نخلق عبثاً، بل خلقنا لعمارة الكون، وعمارة الكون لن تكون بالخلافات والمشاحنات بل بالحب، ولن نتحاب إلا إذا التففنا حول معبود واحد بحق.

ثم جعل لتلك العبادة أو لتلك الطاعة رموزاً وشعائر تجمعنا معاً مثل الكعبة، الصلاة، الصيام، الحج، القرآن، وهكذا.

إذن هذه الرموز والشعائر وإن اختلفت أساليب التعامل معها من فترة إلى فترة إلا أنها كلها كانت تدعو الناس، إلى الخضوع لرب واحد، وهذا هو التوحيد.  
وفكرة التوحيد ليست مجسدة في العبادات فحسب، بل هي مطلب يتمشى مع الطبيعة الكونية التي خلق الله الناس عليها.

فمن الناحية النظرية، لو تأملت في الكون لوجدت أن هناك ظواهر متعددة مثل السماء والهواء والمطر والنور وغيرها، وكل منها في نفسها توحي للإنسان بأنها قوية، مما جعل الكثيرين يعبدونها، لأنهم كانوا يرون فيها مظاهر القوة التي تستحق كل واحدة منها أن تكون آلهة تعبد.

لكن رغم ذلك فإن كثرة عدد الآلهة أدت بالناس أن يفكروا في تأليه الأقوى منها، إذ لا يمكن أن تكون كلها آلهة تتصارع، أو يتصارع الناس عليها. من هنا، أي بعد نظرية التعدد، ظهرت نظرية "الثنائية"، بمعنى أن القوة انحصرت في الشيء وضده، فإذا وجد النور وجد الظلام، وإذا وجد الخير وجد الشر وهكذا، لكن رغم ذلك فإن العقل البشري لم يقتنع تماماً بهذه الثنائية، إذ لا بد أن يكون خلفهما خالق واحد وموجد واحد.

إذن المطلوب هو الألوهية المطلقة، وهي هذه التي أرادها الله لعباده منذ أن خلقهم، لولا أنهم اختلفوا على أنبيائهم وكذبوهم.

ومن الملاحظ أن شبه الجزيرة العربية احتضنت فكرة التوحيد منذ نشأتها الأولى، أما الوثنية واليهودية والنصرانية فإنها كانت طارئة عليها.

### الناس قبل الإسلام:

يقول المستشرق الهولندي "رينهارت دوزي": «إنه كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات: الموسوية والعيسوية والوثنية، وفي هذه الأحوال الحالكة ولد محمد بن عبد الله في عام ٥٧٠، ومن هذا نرى أن العالم الانساني كان بحاجة إلى حادث جليل يزعج الناس عما كانوا فيه، ويضطرهم إلى النظر والتفكير في أمر الخروج من المأزق الذي تورطوا به»<sup>(١)</sup>.

ويقول "وليم موير" في كتابه "حياة محمد": «في القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا السقوط في هاوية الفوضى، لأن العقائد التي تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثمة ما يعتد به».

(١) راجع كتابه: تاريخ الدول الإسلامية في الأندلس والمغرب.



وكان يبدو وقتئذ أن المدينة الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ كانت القبائل تتحارب، فلا قانون ولا نظام، أما النظم التي خلفتها الكنسية فكانت تعمل على التفرقة والانهيار<sup>(١)</sup>.

ويبدو من خلال قراءتنا للتاريخ أن الوثنية الطائفة على شبه الجزيرة العربية كانت مرتبطة بالوضع القبلي آنذاك.

لذلك فإن بعض الأصنام كانت معروفة بأسمائها كرموز، وكانت خاصة لقبائل معينة<sup>(٢)</sup>.

وكان بعض سادات القبائل يبدل الآلهة إذا أراد، أو يدعو إلى عبادتها، بالإضافة إلى الصابئة الذين عبدوا الكواكب والنجوم.

أما اليهودية والنصرانية فلم تأخذا انتشارهما كثيراً كدين وكمعتقد، وهما وإن وجدتتا في اليمن والحجاز إلا أن اليهودية انشغلت بالاقتصاد والزراعة، وهي بدورها كانت تعادي النصرانية.

وأما النصرانية فقد ظهرت في بجران نتيجة بسط الرومان وحبشة نفوذها في شبه الجزيرة العربية.

(١) راجع الكتاب بترجمة مصطفى فهمي وعبد الحميد السحار.

(٢) من هذه الأصنام اللات، والعزى، ومناة، وهبل، ويغوث، ونسر، وسواح، وود، وإساف، ونائلة، وسعد، ومناف، وذو الخلصة، والأقبحر، ونهم، وعاتم، وسعيد، ومحرق، وعوض، وعوف، ونزيح، وقيس، وأدال، راجع كتاب الأصنام لابن الكلبي.

أقول: إن الوثنية كانت تتمتع بنفوذ أكثر حيث عمت الجزيرة العربية، ولعل السبب أن العرب كانوا يحبون أن يستقلوا بألهتهم، ويتميزوا بدينهم، وربما لأنهم كانوا إلى الحنيفية أقرب لولا إدخال عبادة الأوثان عليهم.

على كل حال فإن تمسكهم بعبادة الأوثان كان يعني أن فيهم حب التدين، لكن مع الأسف انحرفوا من عبادة الإله الواحد إلى عبادة عدد من الآلهة، وكانوا يعتقدون أن ذلك يقربهم إلى الله .

أما الذين بقوا على حنيفيتهم فإنهم كانوا ضد عبادة الأوثان، وكانوا يعادون أصنامهم حتى أن زيد بن عمرو بن نفيل، وهو من حكماء العرب، كان يقول:

فلا عُزَى أدين ولا ابتيها      ولا صنمي بني عمرو أزور  
أرباً واحداً أم ألف رب      أدين إذا تقسمت الأمور

وزيد بن عمرو هذا أثني عليه الرسول ﷺ حيث قال عنه : «... إِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً»<sup>(1)</sup>.

### بزوغ فجر الرسالة المحمدية:

كان بزوغ فجر الرسالة المحمدية في وسط هذا المجتمع الذي يعج بالوثنية من جهة، ويتشبث بأذيال اليهودية والنصرانية من جهة أخرى، بمثابة قنبلة مدوية ألقيت لتحدث انقلاباً تاريخياً عظيماً.

فالوضع الاجتماعي والديني والسياسي لا يحتمل أكثر، والحياة فوضى، وربما للناس عذر أيضاً حيث إنهم بعيدو عهد بالرسالات السماوية، إلا أن ذلك

(1) أخرجه أحمد.

لا يعني أن تستمر عبادة الأوثان وتنتشر اليهودية والنصرانية في أرض كانت تعتنق الحنيفية التي تدعو إلى عبادة الواحد الأحد.  
ومما تجدر الإشارة إليه أن الإسلام عندما ولد لم يولد لينتقص من الأديان السماوية الأخرى ، كلا فهو امتداد للرسالات السابقة، ومكملة لها.  
ولو أردت أن ترى القواسم المشتركة بينها فانظر إلى الوصايا العشر التي أتت بها الشريعة اليهودية وهي :

- ١- لا تجعل لك إلهاً غيري.
- ٢- لا تحلف باسم الرب إلهك...
- ٣- اذكر يوم السبت لتقدسه.
- ٤- اكرم أباك و أمك.
- ٥- لا تقتل.
- ٦- لا تزني.
- ٧- لا تسرق.
- ٨- لا تشهد زوراً.
- ٩- لا تشته بيت قريبك.
- ١٠- لا تشته امرأة قريبك.

ثم انظر في الشريعة العيسوية لتجد أنها تدعو إلى:

- الزهد المطلق والتخلي عن الدنيا.
- عدم مقابلة الشر بالشر.
- التسامح والحب.

— الصلة المباشرة بين الله والناس<sup>(١)</sup>.

قارن بين تلك الوصايا وبين ما ورد في القرآن الكريم جملة تجد أنها كلها تدعو إلى الخير، وتهذيب الطباع، والكف عن الرذيلة والظلم وسوء الأخلاق. وإن قلت: إن الإسلام اختلف عما قبله كثيراً، أقول: إن العصور اختلفت، والله سبحانه وتعالى كان يبعث النبيين واحداً تلو الآخر إلى أممهم، ويحملهم من الرسالات ما تطبقها أممهم.

وعندما بلغت الإنسانية مبلغاً من الكمال والاعتدال أرسل إليها أكمل الرسل بأبلغ الرسالات، وجعله خاتماً للأنبياء، ورسالته خاتمة للرسالات، لعلمه تعالى أن الأمم مهياة الآن لتلقي تعاليم السماء جملة وتفصيلاً، فما كان إلا أن قال الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨). إذن لا تستغرب إذا وجدت الرسول ﷺ يقول: « لا يَجْتَمِعُ دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ »<sup>(٢)</sup>، لماذا؟ لأن الأديان السابقة انصهرت في دين الإسلام بحكم أنه خاتم تلك الرسالات.

نعم وجدت اليهودية والنصرانية والوثنية، إلا أن قبل ذلك كله كانت الحنيفية الإبراهيمية، وقد قال الله تعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا فِيمَا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٣٣﴾ (الأنعام: ١٦١-١٦٣).

(١) راجع: مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلبي.

(٢) أخرجه مالك.

انظر كيف قال عن النبوة الأولى: إن المبعوث بها كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

وقال عن النبوة الخاتمة: إن الدين عند الله هو الإسلام، وقال: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران: ٨٥).

إذن لا تعارض منذ الأزل بين الأديان السماوية التي جاءت كلها لتؤكد أن التوحيد هو دين الله الخالص.

ومن الناحية النظرية نستطيع القول: إن الجزء يندرج تحت الكل، فالإنسان والحيوان والنبات والحجر ربما تقسم إلى حياة وجماد، لكن في النهاية يطلق عليهما لفظ الموجود.

وهذا الموجود لا بد أن يكون له من واجد فاض منه كل الموجودات . هكذا يقول الفلاسفة مثل أفلاطون.. ويقول أرسطو: إن كل ما في الكون يرجع إلى السبب الأول الذي حرك كل شيء دون أن يتحرك القدم الأزلي واجب الوجود لذاته.

أقول والعلم التجريبي أو التطبيقي الذي لا يؤمن بالشيء حتى يرى يؤكد لنا هذه الوحدة المطلقة، وكان يقول: إن عناصر المادة أربعة هي: الهواء، والماء، والنار، والتراب، وهي تشكل الطبيعة.

ثم قال: إن الطبيعة ليست عناصر مجردة بل مؤلفة من عناصر أخرى مثل الأكسجين والهيدروجين والأوزون، ثم بدأت العناصر تتوسع أكثر وأكثر، وثبت للعلم أن كل عنصر صار مستقلاً عن الآخر.

ومن هنا قال العلماء: إن العناصر ترد إلى قوتين متغايرتين:

مادة منفصلة، وطاقة فاعلة، وكأنهم عادوا بذلك إلى الاعتقاد بالثنائية القديمة، وعندئذ اتفقوا على اسم موحد هو المادة أو الطاقة.

وبعد ذلك ومع التفجر العلمي قالوا: لا يوجد شيء اسمه مادة أو طاقة، وإنما إشعاع، والإشعاع أحد عناصر الضوء، فالضوء هو الأصل<sup>(١)</sup>.

وهكذا ينتهي العلم الحديث إلى ما انتهت إليه النظريات القديمة، ليلتقيا في النهاية عند ما أثبتته الأديان السماوية.

ففي كتاب العهد القديم ورد ما نصه: في البدء كان النور.

وفي القرآن الكريم: ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥).

إذن الله الواحد الأحد خلقنا وأوجدنا، والله الواحد الأحد يجب أن يعبد، إذ لا معبود بحق سواه، قال تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ اللَّهُ الصَّكُدُّ ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿(الإخلاص: ١-٤).

### ما دعا إليه الإسلام:

لو عدنا إلى كتب السير لوجدنا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يلخص لنا ما دعا إليه الإسلام في كلمة ارتجلها أمام النجاشي ملك الحبشة عندما هاجروا إليه.. يقول جعفر:

«أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله نوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من

(١) راجع الأمة الإنسانية لأحمد حسين.

الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصللة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء.

نعم.. وهما عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، ونحن صدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلا نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث».

سمع النجاشي كل ذلك في هدوء ثم قال : هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء ؟ .  
قال جعفر: نعم.

قال النجاشي فقرأه علي، فقرأ جعفر صدرأ من سورة مريم فبكى النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكى أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم.

وهناك موقف آخر شبيه بذلك الموقف، حيث وقف صحابي يقول لرستم قائد جيش الفرس إذ ذاك: إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، وإنما طلبنا وهما الآخرة . فقال له رستم: ما دين الإسلام؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

قال: وأي شيء أيضاً؟

قال: إخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله.. والناس بنو آدم وحواء، إخوة لأب وأم.

قال: ما أحسن هذا؟ ثم دعا رستم قومه فأنفوا من ذلك، ثم طلبوا من سعد بن أبي وقاص رجلاً آخر يكلمهم، فأرسل ربيعي بن عامر، فلما وصل إلى رستم داس بفرسه على النمارق والبسط والزينة والحريز، وامتنع أن ينزع سلاحه، وأخذ يمزق الوسائد والبسط، ثم ركز رجمه على البسط، ومما قال: «إننا قد بعثنا الله لنخرج من يشاء من عباده من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

فأعجب بكلامه رستم وخلا بقومه، وقال لهم: هل رأيتم كلاماً أعز وأوضح من هذا؟ قال: معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب. ثم أرسل لهم المغيرة بن شعبة فجلس مع رستم على سريره فأنزلوه فقال: ما أرى قوماً أسفه أحلاماً منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً، وإني رأيت أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم<sup>(١)</sup>.

أقول وكم من تفاوت بين ما كان عليه الإسلام في بداية انتشاره، وبين العصر الذي نعيشه نحن اليوم.

لقد كان أهله أعزة به، أقوياء بما أوتوا من نعمة الإيمان، رغم قلة عددهم وعددهم، أما اليوم فنحن أذلة رغم كثرة عددنا وعددنا.

### أسلوب الدعوة في الإسلام:

بنى الإسلام صرحه الشامخ على أسس متينة لا تقبل الطعن فيها، فمن تلك الأسس آيات كريمة:

- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ بَيَّنَّ الرُّشْدَ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

(١) راجع: الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري حول سورة الفاتحة.



- ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ١٢٥).
- ﴿ وَحَدِّثْ لَهُمْ بِآيَاتِنَا هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).
- ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).
- ﴿ وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُواكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا ﴾ (البقرة: ١٩٠).
- ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَيْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٠).
- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى ﴾ (الحجرات: ١٣).
- ﴿ لَا يَنْهَكُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ (المتحنة: ٨).
- ﴿ وَاللَّهُ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَاللَّمُؤِنِينَ ﴾ (المنافقون: ٨).
- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨).
- ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧).
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد: ١١).
- ﴿ إِنْ تَصْرَفُوا اللَّهَ يَصْرِكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد: ٧).
- ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ (النساء: ٥٨).
- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (الحجرات: ١٠).
- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

وأحاديث شريفة :

- «مَنْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الْجَنَّةِ» (أخرجه النسائي).
- وفي الحديث أيضاً أن الرسول ﷺ مرّت به جِنَازَةٌ فقام، فقيل له: إنّها جِنَازَةٌ يَهُودِيٍّ، فقال: «أَلَيْسَتْ نَفْسًا» (أخرجه البخاري).
- وقال: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ قَالَهَا ثَلَاثًا» (أخرجه مسلم).
- وقال: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصَتُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ» (أخرجه أحمد).
- وقال: «رَوِّحُوا قُلُوبَكُمْ سَاعَةَ فَسَاعَةٍ» (أخرجه أبو داود).
- وقال: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا» (أخرجه البيهقي).
- وقال: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا» (أخرجه الترمذي وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ).
- وقال: «مَنْ لَا يَرْحَمِ النَّاسَ لَا يَرْحَمُهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» (أخرجه مسلم).
- وقال: «لِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُقَالُ هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ» (أخرجه مسلم).
- وقال: «مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِيَعِينَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ» (أخرجه أحمد والطبراني).
- وقال: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى» (أخرجه مسلم).

- وقال: « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » (أخرجه مسلم).

- وقال: « ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب » (أخرجه الطبراني).

### من كتبه إلى الملوك والرؤساء:

من محمد رسول الله إلى صاحب الروم:

إني أدعوك إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فإن لم تدخل في الإسلام فأعط الجزية، فإن الله تعالى يقول: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يجرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون، وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية.

فأجابه إمبراطور الروم وقال:

إلى محمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع رسولك وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيراً لهم، ولوددت أبي عندك فأخدمك وأغسل قدميك<sup>(١)</sup>.

ومن وصاياهِ ﷺ إلى قواده وجنوده:

« انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللَّهِ، وَبِاللَّهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا

(١) راجع : كتاب منهاج الصالحين، لعز الدين بلقي .

فَانِيًا، وَلَا طِفْلاً وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغْلُوا، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا  
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»<sup>(١)</sup>.

- ومن وصايا أبي بكر في الحرب:

لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً،  
ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة،  
ولا تذبجوا شاة، ولا بقرة ولا بعيراً، إلا للمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا  
أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له<sup>(٢)</sup>.

### الإسلام دين جاذب:

من هنا نعلم أن الإسلام دين قوي وجاذب، والقرآن الكريم والسنة المطهرة  
يخفلان بالعديد من الآيات والأحاديث التي تدل على إنسانية دين الإسلام الذي  
أرسله الله إلى العالمين كافة.

كيف لا وقد جاء ليكون وسطاً بين الأديان جميعاً، فلا هو أقر كل الشرائع  
السابقة، ولا هو ألغى كل الشرائع السابقة، بل أخذ منها ما كان صالحاً،  
وأضاف إليها ما كان ناقصاً، ثم قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ  
عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٤).

وما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى إلا وخضعت له أرض الجزيرة  
العربية، بل بعض البلاد المجاورة أيضاً.

(١) أخرجه أبو داود؛ راجع: فقه السنة للسيد سابق.

(٢) راجع: المرجع السابق.

ثم قام الخلفاء الراشدون من بعده، وأوصلوا رسالة الإسلام إلى خارج الجزيرة، حيث امتد الإسلام من المدينة المنورة إلى إسبانيا، وإلى قلب أفريقيا، والصين، والهند، وغيرها من أرجاء العالم.

ومما يجب أن نعلمه أن الإسلام لم ينتشر في أقطار الدنيا بقوة السيف، كما يقول أعداء الإسلام، بل لما يتمتع به من عدل وإنصاف ونشر للحرية، ولما كان يتمتع به رسول الإسلام ﷺ من قوة شخصية، وقدرة على الإقناع، وقد شهد له بذلك كل المنصفين.

هذا هو الدكتور " مايكل هارت "، وهو مفكر غربي، يقول:

«إن اختياري محمداً ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ربما أدهش كثيراً من القراء إلى حد قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقادي أن محمداً ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمي وأبرز في كلا المستويين، الديني والدينيوي.

لقد أسس محمد ﷺ أحد أعظم الأديان في العالم، وأصبح أحد الزعماء العالميين السياسيين العظام، ففي هذه الأيام وبعد مرور ثلاثة عشر قرناً تقريباً على وفاته لا يزال تأثيره قوياً عارماً»<sup>(1)</sup>.

ويقول الباحث الإنجليزي "مونتجمري وات":

«كلما فكرنا في تاريخ محمد وتاريخ أوائل الإسلام تملكنا الدهول أمام عظمة مثل هذا العمل، ولاشك أن الظروف كانت مواتية لمحمد فأتاحت له فرصاً للنجاح لم تتحها لسوى القليل من الرجال، غير أن الرجل كان على مستوى

(1) راجع كتابه : المائة الأوائل.

الظروف تماماً فلو لم يكن نبياً، ورجل دولة وإدارة، ولو لم يضع ثقته بالله، ويقتنع بشكل ثابت بأن الله أرسله لما كتب فصلاً مهماً في تاريخ الإنسانية.

ولي أمل أن هذه الدراسة عن حياة محمد يمكنها أن تساعد على إثارة الاهتمام من جديد برجل هو أعظم رجال أبناء آدم»<sup>(١)</sup>.

### سرّ جاذبية الإسلام:

نستطيع القول: إن سرّ جاذبية الإسلام يكمن في أنه لم يسن على الإكراه ولا على الخداع ولا على الظلم، بل على العدل والإنصاف والرحمة والتسامح. وها هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه يخرج من صلاة الفجر من المسجد ليجد على باب المسجد رجلاً طاعناً في السن يرتعد ويرتجف من البرد، فيسأله من أنت؟

فيقول: أنا فلان اليهودي، فيقول له عمر: وما الذي أتى بك ها هنا؟

فيرد اليهودي: الجوع والفقر والحاجة، فياخذ عمر إلى بيت المال وهو يقول: «والله ما أنصفناك لو أكلنا شبابك، ثم ظلمنا شيخوختك»، وأمر بعد ذلك بأن يجرى له راتب شهري.

ويقول المفكر الفرنسي المسلم " روجيه جارودي " : «لا يمكن أن نفسر ظاهرة انتشار الإسلام بعوامل خارجية كالضعف البالغ أو الانحلال، الذي انتاب الإمبراطورية الرومانية الشرقية والساسانية والفيزيقون في إسبانيا، ولا يمكن تفسيرها بعوامل عسكرية صرفة».

(١) راجع كتابه: محمد في المدينة.

ولكن الأسباب العميقة لذلك الانتشار أسباب داخلية تتصل بجوهر الإسلام وروحه، فعشية موت النبي وعلى مدى اثني عشرة سنة (من ٦٣٣ إلى ٦٤٥) تمت سيطرة العرب على فلسطين وسورية وما بين النهرين ومصر، ولم تقف في وجه الموجة الأولى إلا الحواجز الطبيعية كسلسلة جبال طوروس في آسيا الوسطى، وجبال شرق إيران، وصحارى ليبيا والنوبة في الغرب<sup>(١)</sup>.

نعم وتدافعت الأمم على اعتناق دين الإسلام، ولغة القرآن، عندما وجدوا أن هذا الدين جاء ليحرر رقابهم من نير الاستعباد، ويفتح أمامهم باب الحريات على مصراعيه، أليس عمر بن الخطاب هو القائل: «متى استعبدتم الناس وقد ولدكم أمهاتهم أحراراً»؟

ثم إن إلغاء نظام الطبقة جعل الناس يقتنعون بعظمة هذا الدين، فمتى كان الحاكم والمحكوم يتساوون أمام القضاء؟ ولكن نبي الإسلام ﷺ أعلن ذلك منذ أول يوم من الدعوة حيث قال: «وَأَيْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»<sup>(٢)</sup>.

وفي عرفات وأمام جموع الحجيج نادى عمر: أين القبطي المتظلم من ابن عمرو بن العاص والي مصر؟

فجاءه، وكان عمر قد أمر عمر بإحضار ابن عمرو بن العاص ووالده، ثم قال للقبطي: خذ درتي هذه واضرب بها ابن الأكرمين.  
وبعد أن اقتص القبطي منه قال له عمر ضعها على صلعة عمرو بن العاص، لأن الابن لم يتجرأ عليك إلا بفضل منصب أبيه.

(١) راجع كتابه: ما بعد به الإسلام.

(٢) أخرجه البخاري.

الله أكبر.. وهل من عدالة أكبر من هذه العدالة، ثم كيف لا تريد أن

ينجذب الناس إلى هذا الدين الذي يبني حكمه على الشورى لا الطبقية؟

وهاهو أبو بكر الخليفة الأول للرسول ﷺ يقول في أول يوم من حكمه: إني قد وليت عليكم ولست بخير منكم، إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني.. الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له الحق، إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق إن شاء الله.

هذا المنطق لا شك أنه يجعل دين الإسلام أكثر جاذبية من أي دين، لأنه لا يفرق بين جنس وجنس، ولا جنسية وجنسية، ولا لون ولون، إلا بالتقوى، والأكرم عند الله لا بالمال ولا بالجاه بل بالتقوى.

والتقوى ليست ثياباً تلبس، بل سلوكاً وممارسة إنسانية مع الناس والحيوان والجماد، وإن لم يكن كذلك فما الذي فضل بلالاً الحبشي وسلمان الفارسي على أبي لهب القرشي؟

وإلى ذلك أشار الشاعر:

عليك بتقوى الله فيما تريده      ولا تترك التقوى اتكالاً على النسب  
فقد رفع الإسلام سلمان فارس      وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

### هل بقي الإسلام قوياً؟

قلنا: إن الإسلام عندما انتشر وصارت الجزيرة وما حولها قوة واحدة متماسكة كالجسد الواحد، لم يكن ذلك بفضل التفوق العسكري، ولا التفوق الاقتصادي، ولا الزيادة السكانية، بل لأنه جمع الناس على عقيدة بالله الواحد والكتاب الواحد، والرسول ﷺ الواحد فكان أول ما فعله عندما أسس المجتمع



المدني هو: بناء المسجد، والمؤاخاة بين المسلمين، وكتابة الوثيقة.. ولكل من هذه الأسس مدلولاته الخاصة به.

فمن المعلوم أن الرسول ﷺ عندما قدم إلى المدينة وجد مجتمعاً مختلطاً من الأنصار والمهاجرين واليهود، وكان المجتمع شبيهاً بمجتمع اليوم، حيث لا مناص من الحياة مع هؤلاء أو مع غيرهم، فكان لا بد من أن يضع نظاماً للتعايش السلمي بحيث يضمن لكل منهم حقه في الحياة مع الاحتفاظ بالإسلام قوياً.

فبنى المسجد أولاً، والمسجد في ذلك الوقت يعني الجامعة، ووزارة الدفاع، والبرلمان، ومجلس الشورى، والنادي في يومنا هذا، وكانوا يلتقون فيه كل يوم خمس مرات ويقفون صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص، وهو القائد الذي يؤمهم.

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، وبذلك أذاب الطبقة والتمييز بسبب اختلاف الأجناس والألوان، فصارت القاعدة التي تجمع الكل هي: الوحدة والتعاون والتضامن والمساواة والعدل .

ثم كتب الوثيقة التاريخية التي كانت بمثابة دستور يضمن حقوق المسلمين واليهود العائشين في المدينة.

يقول ابن هشام: «إن الرسول ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وعاهدهم، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم».

كان هذا الكتاب عبارة عن (١٤) مادة، تتضمن كل مادة جانباً من جوانب الحياة التي يجب على المسلمين واليهود أن يراعوها، وبذلك وضع النظام، وأرسى دعائم العدل في المجتمع<sup>(١)</sup>.

(١) راجع السيرة النبوية للمؤلف.

ويقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : تدل هذه الوثيقة على أحكام مهمة منها أن:

- ١- الإسلام وحده القادر على تأليف وحدة المسلمين.
- ٢- ضرورة إقرار مبدأ التكافل و التضامن في المجتمع.
- ٣- ضرورة المساواة بين المسلم والمسلم، وبين الذكر والأنثى، بل إنصاف غير المسلم في الحقوق.
- ٤- ضرورة الرجوع إلى شريعة الله في حل الخصومات وشؤون الحياة<sup>(١)</sup>.

أقول: ويتضح من هذا أن الإسلام لم يكن مواد نظرية غير قابلة للتطبيق، ولم يكن مواد صماء، بل روحاً و مادة، مما أوجد للمجتمع توازناً وتماسكاً بين ما يعتقده وما يمارسه، وأوجد انسجاماً بين فئات المجتمع مما جعل كل فئاته تشعر بالراحة من هذا الدين الجديد، كيف لا وقد عانت من التفكك والانهيار والطبقية والظلم كثيراً.

يقول المؤرخ الإيطالي "كايتاني": «إن معادل المسيحية في الشرق قد تحاوت أمام المد الإسلامي بسبب تلك الجاذبية وسطوع مبادئه، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتقى في أحضان العرب، ولا عجب فقد منح الإسلام العبد رجاءً، والإنسانية إحاءً، وهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية»<sup>(٢)</sup>.

ويقول المفكر "برج": «ليس هناك من مجتمع غير المجتمع الإسلامي سجل له التاريخ من النجاح كما سجل للإسلام في توحيد الأجناس الإنسانية المختلفة مع

(١) راجع كتابه: فقه السيرة النبوية.

(٢) راجع كتاب: حوليات الإسلام.

التسوية بينها في المكانة والعمل، وهيئة الفرص للنجاح في هذه الحياة»<sup>(١)</sup>.  
 إذن هذه هي الأسس التي قام عليها الإسلام، وكان سر عظمته في تمسك أهله بمبادئه، والسير على نهجه القويم .  
 وما أن تراجع المسلمون عن هذه المبادئ حتى تراجع تفوقهم أيضاً، فصاروا يسجلون أرقاماً تنازلية، رغم أنهم بقوا يظنون بأنهم مازالوا أقوياء، فصاروا يفاخرون الآخرين بعظام الآباء والأجداد في حين أن أعمالهم تكذب واقعهم، ما ذلك إلا لأنهم كانوا متوهمين وما زالوا.

### لماذا تأخر المسلمون ؟

قبل أن نبحث عن أسباب تأخر المسلمين يجب أن نذكر أنفسنا بأسباب تقدمهم، فالإنجازات التي سجلها الإسلام عبر عصوره الذهبية لم تكن كأي ثقافة، وإنما كانت شريعة، لذلك فإنها ظلت حضارة باقية وستبقى حتى لو فني أهلها.  
 أما لو كانت مجرد ثقافة ذهنية فكان من الممكن أن تدرس كما تدرس أي ثقافة مع اندراس أهلها .

يقول الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، رحمه الله:

«أكثر الباحثين العرب خصص اصطلاح الثقافة لمفهوم الرقي في الجوانب الروحية والأدبية من دين وأخلاق وفلسفة ولغة وفنون ، وخصص اصطلاح المدنية لمفهوم الرقي في الجوانب المادية من علوم طبيعية وهندسية واختراع واكتشاف.. ومن الثقافة والمدنية تتكون الحضارة، وهي لها تعاريف عدة عند

(١) راجع كتاب: الرسول في الدراسات الاستشرافية المنصفة، لمحمد شريف الشيباني.

العلماء، وقد عرفها المعجم الوسيط بأنها مظاهر الرقي العلمي والفني والاجتماعي في الحضرة».

ثم يقول الأميري: «أما في فهمي الخاص بالحضارة هي تحقيق غرض الوجود البشري في إعمار الأرض ومن نواميس الله بأسمى شكل تتجلى فيه إنسانية "الإنسان الخليفة"، والدين هو الدستور العام للوجود الإنساني»<sup>(١)</sup>.

وبالمناسبة يقول الكثيرون عن حضارتنا إنها حضارة عربية، وإنني لا أوافق على ذلك، لأن الحضارة العربية لا قيمة لها إذا لم تقترن بالإسلام، والعلاقة التي بين العروبة والإسلام كالعلاقة التي بين القشرة واللب.

نعم.. إن العرب أعزهم الله بالإسلام، وجوهر الإسلام هو هذا القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين، فالإسلام هو القرآن، والقرآن هو الإسلام.

والقرآن لم ينزل للعرب وحدهم، بدليل أن محتواه من الأحكام والقيم موجه إلى الناس كافة، وهو لم يهمل مبدأ الإنسانية التي تلتقي تحتها كل الأجناس وكل الألوان، بجانب تركيزه على القيم الأخلاقية، وبها أسقط التفاخر بالأنساب والمناصب.

وهذا يعني أن صهيب الرومي أفضل من أبي لهب القرشي، وبلال أفضل من أبي جهل القرشي، والسبب هو الإسلام.

أما في الجاهلية فلم يكن الأمر كذلك، بل كان فلان من الناس يكرم لأنه من القبيلة الفلانية، وفلان يهان ويهضم حقه لأنه من القبيلة الفلانية، وقد ورد

(١) راجع الإسلام وأزمة الحضارة للمؤلف.

في كتب الأدب قول الشاعر :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنوا اللقيطة من ذهل بن شيبانا  
ويقول آخر:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً و طينا  
أما في الإسلام فإننا نجد أن الرسول ﷺ يقول لرجل قد دخل عليه مرة وقد  
أخذته الهيبة: «هَوْنٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِئِمَّا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ  
الْقَدِيدَ»<sup>(١)</sup>.

ويجد الأعرابيُّ عمرَ رضي الله عنه، وهو أمير المؤمنين، قد نام تحت شجرة،  
واتخذ من التراب وسادة له، فيسأل الأعرابي: أهذا هو أمير المؤمنين؟

فيقال له نعم، فيقول مخاطباً إياه: حكمت فعدلت، فسلمت، فنمت يا عمر.  
إذن هيبة الرسول ﷺ ليست في أنه قرشي النسب، وهيبة عمر ليست في أنه  
أمير المؤمنين ، بل لأنهما وعاءان لمكارم الأخلاق التي لا يمكن أن يظلم أحد  
أحداً في ظلها.

من أجل ذلك فإن سياسياً بارزاً مثل شارل ديغول يقول: «إن مجتمعاتنا  
الأوروبية فقدت شيئاً ثميناً جداً تحت وطأة تقدمها الضخم، ألا وهو الإنسانية،  
وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا».

ومن المعلوم أن ديغول كان يميل إلى الاقتراب من العالم العربي والإسلامي  
كثيراً، وعندما سئل عن السر قال: «أعتقد أن اتصالنا بالمجتمعات العربية

(١) أخرجه ابن ماجه.

والإسلامية التي حافظت على تلك الروح الإنسانية التي فقدناها سينقذنا من مغبات حضارتنا».

أقول وما أحوج العالم الغربي إلى زعيم أوروبي مثل ديجول ليتكلم بالعدل والإنصاف في هذا اليوم الذي تكالبت الأمم على العرب والمسلمين ، ويتهموهم بكذا وكذا وهم ليسوا كذلك.

وإننا في حاجة إلى اعتراف مثل اعتراف الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون عندما قال: إننا نبجد أنفسنا أثرياء في البضائع ، ولكن ممزقين في الروح ، ونصل بدقة إلى القمر ، وأما على الأرض فتتخبط في متهات<sup>(١)</sup> .

### الإسلام يدعو إلى العلم:

رأينا أيضاً أن الإسلام دعا إلى إعمال الفكر والعقل، وقال: إن الحكمة ضالة المؤمن ، لذلك فإن العلماء في صدر الإسلام لم يجدوا باباً إلا طرقوه، ولا فناً إلا وضعوا قواعده وأسسها، وصارت كتبهم فيما بعد حقولاً للغرب التي انتبعت من غفلتها بعد أن نامت الشرق .

يقول الدكتور عباس محجوب: عبثاً نسب علماء الغرب أصول المنهج العلمي إلى اليونان، مع أن الإسلام وضع إطاراً علمياً متكاملماً مبنياً على أساس: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وانعكست آثار هذا العلم في بحوث علماء المسلمين أمثال الحسن بن الهيثم الذي تنسب طريقته العلمية في فلسفة العلم إلى (بيكون)، والنظرية الجسيمية للضوء في الفيزياء إلى (نيوتن)؛

(١) راجع: الإسلام وأزمة الحضارة، لعمر بهاء الدين الأميري.

وجابر بن حيان صاحب النظرية الجزيئية في الكيمياء والتي تنسب إلى  
(دالتون)؛

والخازني صاحب الفكرة الجاذبية المنسوبة إلى (نيوتن)؛

وابن يونس صاحب البندول المنسوبة إلى (جاليلو)؛

والبيروني صاحب مركزية الشمس في الفلك والمنسوبة إلى (كوبرنيكوس)؛

وثابت بن قره صاحب نظرية التفاضل والتكامل في الرياضيات والمنسوبة إلى  
(نيوتن ليتنتز)؛

وابن النفيس صاحب الدورة الدموية في الطب والمنسوبة إلى (هارفي)؛

وابن القيم صاحب التولد الكلي في الحيوان والمنسوبة إلى (دارون)؛

وابن خردازبه مكتشف كروية الأرض المنسوبة إلى (ماجلان)،

والغزالي مكتشف الاستجابات المحفوظة في علم النفس والمنسوبة إلى  
(بافلوف)<sup>(١)</sup>.

إذن كان سبب تقدم المسلمين أن وظفوا العلم في سبيل إقامة هذه الحضارة  
المتدة من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

وهذا هو رجاء الله جارودي الذي بدأ حياته ملحداً ثم اعتنق الإسلام باقتناع  
يؤكد أن حضارة الإسلام هي التي تصلح لإرث الأرض، والسبب أنها توطد  
عقيدة التوحيد، وتوفق بين الإيمان والعلم، ولا تقيم حاجزاً ولا وسيطاً بين العبد

(١) راجع: تقديم د.عباس محجوب لكتاب أساليب التربية والتعليم في الإسلام للدكتور الشيخ الأمين محمد عوض الله.

وربه، وتحفظ كرامة الإنسان، وما يحققها من العدل والحرية والشورى<sup>(١)</sup>.

ويقول الشيخ طنطاوي جوهرى: «إني أدعو جميع أمم الإسلام، في مشارق الأرض ومغاربها، أن يمعنوا النظر في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الفتح: ٢٨)، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).. وكيف يظهره إذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية ولم نمعن في العجائب الكونية؟ ومن المعلوم أن الديانات كلها لا تتعرض لعلوم الكائنات، في حين أن الإسلام يدعو إليها ويأمر بها».

ثم يقول: «والأحكام الشرعية التي تدرس في بلاد الإسلام آياتها محدودات، أما آيات العلوم الكونية فإنها تبلغ نحو ٧٥٠ آية، كلها في عجائب هذا الكون ومنافعه وغرائبه<sup>(٢)</sup>».

والقرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي لا تتعارض آياته مع ما أقره الحديث، كما يقول الفرنسي المسلم "موريس بوكاي"<sup>(٣)</sup>.

إذن الدين ليس صلاة فقط تؤدي في المساجد، بل صلاة وإعمال فكر في ملكوت الله، وابتكارات في حقول العلم والمعرفة ويتجلى هذا في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ١).

ثم إن الإسلام دين الجماعة، ولقد دعا إلى الاتحاد والتعاون ونبذ الخلاف والاندماج والتكامل، وجعل القرآن العظيم هو محور التلاقي، وصلة الربط بين

(١) راجع: الإسلام وأزمة الحضارة، لعمر بهاء الدين.

(٢) راجع: الجواهر في تفسير القرآن الكريم حول سورة الفاتحة.

(٣) راجع: الإسلام كبديل للكتنور مراد هوفمان، نقلاً عن كتابه: الإنجيل والقرآن والعلوم الطبيعية.



الجنسيات المتعددة والأهواء المختلفة، قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران: ١٠٣).. وقال أيضاً: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢).

وقال الرسول ﷺ: «...مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ»<sup>(١)</sup>.

### في الإسلام القدوة الحسنة:

من أسباب تقدم المسلمين الأوائل أيضاً أنهم كانوا قدوة حسنة لمن خلفهم، فعندما فضلوا شظف العيش على التنعم جعلهم ذلك موضع احترام العالم الذي جرى وراء الرفاهية، وقد فعلوا ذلك اقتداءً بنبيهم.

يقول الإمام أحمد بن حنبل، رحمه الله: «إذا أراد أحدكم أن يحفظ أحاديث الرسول ﷺ فليعمل بها».

ثم يقول: وإنني قرأت ذات يوم أن الرسول ﷺ احتجم ثم أعطى للحمام ديناراً، فذهبت إلى السوق واحتجمت وأعطيته ديناراً عملاً بالحديث الشريف». ورؤي الإمام الجنيد، رحمه الله، في المقام فقيل له: ما فعل الله بك يا أبا عبد الله؟ قال: «لقد ذهبت تلك العبارات، واختفت تلك الإشارات، ولم ينفعنا إلا ركيعات كنا نركعها وقت السحر».

إذن لم ينل المسلمون الأوائل ما نالوا إلا بالجد والسهر، لعلمهم أن الجنة حُقَّتْ بالمكاره، وحُقَّتْ النار بالشهوات، فهل انتبه المسلمون اليوم لهذا؟

(١) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

نعم.. ظلت الأمة العربية والإسلامية برهة من الزمن تحافظ على هذه الركائز والقيم والسلوكات، واستطاعت أن تفرض هيبتها على الدول، وكم كانت الدول الكبرى آنذاك تحسب لها الحساب، وتعلم أنها أمة العلم والعمل، وأمة الجد والتضحية والفداء.

يروى أن هرقل عظيم الروم أرسل إلى أحد حكامه في القرن السابع رسوياً يعترفه لعجزه عن صد جيوش المسلمين، فرد عليه الحاكم قائلاً: إنهم أقل منا عدداً، ولكن عربياً واحداً يعادل مئة من رجالنا، ذلك أنهم لا يطمعون في شيء من متاع الدنيا، ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط.. هذا في الوقت الذي يرغبون في الاستشهاد لأنه أفضل طريق إلى الجنة، في حين نتعلق نحن بأهداب الحياة، ونخشى الموت ياسيدي الإمبراطور<sup>(1)</sup>.

وبالمقابل تعال وانظر لترى اليوم الأمة الإسلامية كيف تعيش في أبشع صورة من التخاذل والضعف والهوان، حيث نراهم يتعاطون الموبقات ولا يتغير لها وجه أحد منهم، وتستباح بلادهم وأعراضهم فلا نجد فيهم صاحب نخوة أو غيره أو مروءة، وما أجمل قول الشاعر في أمثالهم .

مررت على المروءة وهي تبكي فقلت علام تنتحب الفتاة

فقال كيف لا أبكي وأهلي جميعاً دون خلق الله ماتوا

إننا اليوم ينطبق علينا حديث الرسول ﷺ: «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى

عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةِ نَحْنُ يَوْمئِذٍ؟ قَالَ:

(1) راجع تاريخ التربية للدكتور شفيق منير سليمان.

بَلْ أَنْتُمْ يَوْمٌ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَثُفَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ  
عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْدِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ:  
يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»<sup>(١)</sup>.

## كيف ننهض ثانية؟

بدأ الإسلام ضعيفاً ثم اكتسب قوة، ولم يكن يقوى لولا أن المسلمين أخذوا  
بأسباب القوة والنصر.

واليوم ما نرى من ضعف وتشتت وهوان ليس الإسلام سبباً فيه، بل نحن  
المسلمين ، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى ضمن لنا العزة والنصر كما ضمن  
لأسلافنا حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون: ٨)،  
وقال أيضاً: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧).

لكن يا ترى هل نحن اليوم أهلٌ للنصرة أم لا ؟

إذا قلنا لا فإن المطلوب أن نغير موقفنا ونعود إلى رحاب التقوى ، لأن الله  
يقول: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ولن نكون مؤمنين مادامنا نعظم غير الله أكثر من الله، ونحب الدنيا أكثر من  
الآخرة، وندعي الإسلام ولسنا بمسلمين.

إذن لا ينتظر أن تفتح أبواب السماء ما لم تستجب الأرض لنداء الباري،  
قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١).

(١) أخرجه ابوداود واحمد.

ولقد أحسن الداعية الإسلامي العلامة أبو الحسن الندوي، رحمه الله، عندما قال: «إن رسالة الإسلام واضحة، والعالم الإسلامي اليوم لا ينهض إلا بالرسالة الأولى التي حملها المسلمون في فتوحهم الأولى».

إذن لابد من الاستعداد الروحي، والاستعداد الصناعي والحربي، والتنظيم العلمي الجديد ثم يقول: «وبرغم كل ما أصيب به المسلمون من علة وضعف فإنهم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تنافس الأمم الغربية في قيادة العالم، والتي يعزم عليها دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها، وأن تقودها إلى الفضيلة والتقوى، وإلى السعادة والفلاح»<sup>(1)</sup>.

من هنا أقول: علينا نحن المسلمين أن نخطط عدة خطوات إذا أردنا أن تعود إلينا العزة والكرامة.

أولاً: يجب أن لا يداخلنا الشك في نصره الله لنا متى تمسكنا بالدين من ألفه إلى يائه، ذلك أن الشك يخرجنا من دائرة الإيمان، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

ثانياً: يجب أن نعد للنصر بالمال والعتاد، إذ لا يكفي المال وحده، ولا السلاح وحده.

والمال يجب أن يوجه حيث الاستثمار الأفضل، والسلاح يجب أن يكون من جنس سلاح العصر، لا أن نربي خيولاً ونحمل خناجر، ونظن أنهما وسائل الحرب، نظراً لأنهما كانا كذلك في صدر الإسلام.

(1) راجع: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للعلامة أبي الحسن الندوي، رحمه الله.

ثالثاً: يجب أن نتعاون فيما بيننا نحن المسلمين، وننسى الخلافات حتى تتلاشى الحدود الجغرافية، والفوارق الطبقية.

والحدود الجغرافية ما وجدت إلا لتكون بوابات تحجز بعضنا عن بعض، فلا تواصل ولا تراحم ولا تناصر، ولو كانت الحدود الجغرافية قائمة قديماً كما هي اليوم لما هب المعتصم لنجدة المرأة التي استغاثت به قائلة: وامعتصماه. ثم إن التعاون والتناصر يجب أن يتجلى في أوقات السلم أولاً وإلا لن تجد له أثراً في أوقات الحرب.

ومما يروى عن تناصر الأجانب بعضهم لبعض ما يرويه الأمير شكيب أرسلان حيث يقول: حدثني رجل ثقة أنه يعرف إنجليزياً ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل إنجليزي في البلد الذي هم فيها.

فجاءه الخادم مرة بجدول حساب وفر عليه به ٢٠ جنيهاً في الشهر، فسأله الإنجليزي كيف وفرت هذا؟ قال الخادم: تركنا دكان الإنجليزي الذي كنا نشترى منه، وصرنا نشترى من دكان أحد الأهالي من العرب.

فقال له الإنجليزي: ارجع إلى دكان الإنجليزي الذي كنا نشترى منه.

فقال الخادم: إنه يبيع بأعلى.

قال الإنجليزي: ولو كان ذلك.

رابعاً: يجب أن نكافح الجهل ونقبل على تعلم العلوم التي بها انتصر الغرب علينا، رغم أن الكنيسة وقفت تؤيد الجهل ضد العلم.

أما نحن المسلمين فقد دعانا ديننا منذ بزوغ فجره إلى القراءة وطلب العلم، قال تعالى: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق: ١-٥).

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر: ٢٨).

نعم.. ولن نستطيع أن نحقق أي تقدم علمي إذا وقفنا بين جاحد وجامد، لذا فإن المطلوب أن نحرر الفكر ولا نعقد الحياة ونحن نعلم أن الرسول ﷺ قال ذات مرة: « أَنتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ »<sup>(١)</sup>.

ثم إن تراثنا الإسلامي مليء بالنصوص التي تدل على أن الإسلام يقبل التطور، فحديث مثل: « تَدَاوَوْا عِبَادَ اللَّهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُنَزِّلْ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ مَعَهُ شِفَاءً إِلَّا الْمَوْتَ وَالْهَرَمَ »<sup>(٢)</sup>، ألا يعني هذا الحديث وغيره أن الدين مرن في تعامله مع الحياة<sup>(٣)</sup>.

خامساً: يجب أن نستعيد الثقة بأنفسنا، وإنني أسمع الكثيرين يقولون: لقد سبقنا الغرب بعشرات من السنين، ولا جدوى من محاولة النهوض.

أعتقد أن هذا هو اليأس بعينه، وفي ظله لا يمكن أن تكون هُضبة أو حياة.

لذلك فإننا يجب علينا أن نستلهم من أسلافنا روح العمل، ونردد قول

ابن الوردي :

لا تقل قد ذهب أربابه كل من سار على الدرب وصل

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه أحمد.

(٣) راجع من أجل صحوة راشدة للدكتور القرضاوي.

والثقة بالنفس لا أعني بها الاتكال، بل التوكل على الله أولاً، ثم الاعتداد بالنفس وهو من قبيل الأخذ بالأسباب.

ولكي نستعيد هذه الثقة بأنفسنا يجب أن نبذل منظارنا الأسود، ولا ننظر إلى العالم نظرة احتقار، ولا نختار الدرب الأصعب، وصدق الشيخ القرضاوي إذ يقول: الإسلام الذي ننشده هو الإسلام الأول، إسلام القرآن والسنة، إسلام التيسير لا التعسير، والتبشير لا التنفير، والرفق لا العنف، والتعارف لا التناحر، والتسامح لا التعصب، والجوهر لا الشكل، والعمل لا الجدل، والعطاء لا الادعاء، والاجتهاد لا التبلد، والتجديد لا الجمود، والانضباط لا التسيب، والوسطية لا الغلو ولا التقصير.

سادساً: يجب أن نستعد للفداء، إذ لا يمكن أن نسجل أي انتصار ما لم نقدم تضحيات مادية وبشرية.

وإن الذي لا يضحي بالنفس والنفيس ومع ذلك يرجو السلامة مثله مثل الثور الذي ضحى بالثورين الأبيض والأحمر ظناً منه أنه سوف ينفرد بالمرعى ويسيطر سلطانه على الحياة.. ولكن عندما رأى الذئب التي هاجمت الثور الأبيض والأحمر هاجمته في النهاية قال: أكلت يوم أكل الثور الأبيض.

ويعني بذلك أنه كان من الواجب أن يخاطر بنفسه ويدافع عن الثور الأبيض منذ اللحظة الأولى، وقبل فوات الأوان، لعله إذا أنقذه ينقذ نفسه أيضاً، ولكنه لم يفعل تهاوناً منه فدفع الثمن غالياً، وإنما سوف ندفع الثمن غالياً.. أليس كذلك؟

## الخاتمة

استعرضنا في هذا الموجز كيف بدأت النبوة الأولى وكيف انتهت إلى النبوة الخاتمة، والنبوة الخاتمة كيف انطلقت قوية من قلب الجزيرة العربية إلى العالم كافة لتحمل إلى البشرية وسطية الإسلام.

فالوسطية الأولى كانت عندما اختار الله الكعبة قبة العالم إلى الأبد. والوسطية الثانية عندما اختار الله الإسلام ديناً خاتماً للأديان السماوية. والوسطية الثالثة: اختيار الله محمداً ﷺ من العرب، ونبياً خاتماً للأنبياء والمرسلين. إذن تبقى حمل أمانة الرسالة الخاتمة مسؤولية العرب بالدرجة الأولى، لأن الله اختارهم أهلاً لحمل هذه الرسالة.

ولكي يبقى الإسلام ميثاق الشرف لأبناء الجزيرة العربية الذين انتهت إليهم الخلافة الإسلامية، يجب عليهم أن يكونوا أوفياء لهذا الميثاق، لأن فيه عزهم وكرامتهم، وهم المعنيون بالحديث القائل: «إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ فِي قُرَيْشٍ، لَا يُعَادِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا كَبَّهُ اللَّهُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ، مَا أَقَامُوا الدِّينَ»<sup>(1)</sup>.

إذن ليس من قبيل الصدفة أن نرى أنظار العالم تتجه إلى هذه البقعة من الأرض، بل لعلمهم بأهمية الدور الذي سوف تلعبه شبه الجزيرة العربية في إدارة العالم.. إنها موطن أقدس مقدسات العالم، ومهبط أفضل الخلق على الإطلاق، وفيها تكمن أغنى مناطق العالم من حيث الثروة البترولية التي من أجلها تكالبت علينا الأمم اليوم.

فلنكن إذن كما أراد الله منا، وما علينا من تقلبات الزمن، فالله متم نوره ولو كره الكافرون.

(1) أخرجه البخاري.



## السبيل لمعاودة الدور الرسالي

(\*) الدكتور عبد الرزاق خليفة الشايجي

السبيل إلى معاودة الإخراج من حديد يتطلب: إعادة البناء الفكري، والاهتمام بالعربية والبحث العلمي، وتحقيق التوحد بين أبناء المنطقة، والحفاظ على ثرواتها، وتفعيل نظامها السياسي والإداري والقضائي، وتبني سياسة الاستراتيجيات، والحاسبة وفق أصولها وقواعدها، وإبراز دورها الحضاري والتواصل مع (الأخر).

بعد تصوير الواقع الذي تعيشه منطقة الجزيرة العربية اليوم ، وتقييم هذا الواقع في ضوء المنهاج الرباني، وأحوال العالم من حولها، وبعد تصوير العقبات والمعوقات التي تقف حجر عثرة في سبيل عودة هذه المنطقة لأداء دورها الرسالي، والحضاري، فتسعد، وترحم غيرها من العالمين، بعد هذا كله يأتي الحديث عن سبل خروج المنطقة من محتتها، وبعثها لأداء الدور الريادي والحضاري المنوط بها.

وتتلخص هذه السبل فيما يأتي:

---

(\*) العميد المساعد للشؤون الأكاديمية والدراسات العليا في جامعة الكويت (سابقاً)، رئيس مجلس إدارة مركز المشكاة للبحوث والاستشارات (دولة الكويت).

## السييل الأولى: إعادة البناء الفكري:

وذلك يقتضي الإمام بفروع عدة من الفقه، نذكر منها:

- ١- فقه الواقع .
- ٢- فقه التمكين .
- ٣- فقه الموازنات .
- ٤- فقه الأولويات .
- ٥- فقه المقاصد .
- ٦- فقه السُّنن النفسية .
- ٧- فقه السُّنن الاجتماعية .
- ٨- فقه الدعوة والإعلام .
- ٩- فقه التربية والتأديب .
- ١٠- فقه الحركة .
- ١١- فقه الخلاف والاختلاف .
- ١٢- فقه المكائد والمؤامرات .
- ١٣- فقه الحذر والحيطه .
- ١٤- فقه الجنديّة والقيادة .
- ١٥- فقه التزكية والسلوك .
- ١٦- فقه الاجتهاد .

- ١٧- فقه الجهاد .
- ١٨- فقه العلاقات العامة .
- ١٩- فقه تنمية التفكير .
- ٢٠- فقه الإبداع والنجاح .
- ٢١- فقه الاستراتيجيات واستشراف المستقبل .
- ٢٢- فقه العولمة.

إلى غير ذلك من فروع الفقه.

إن إعادة البناء الفكري لأبناء المنطقة على كل ما ذكر آنفاً، من شأنه أن يسهم في رسم معالم الشخصية الجامعة بين الأصالة والمعاصرة، والقادرة على الخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة.. ولا شك أن هذا مطلب يحتاج إلى تفاعل كل المحاضن، من البيت والمدرسة، والمجتمع والدولة، وتكاتفها مع بعضها بعضاً، والانتفاع بأحدث أساليب التعليم، والتدريب، وطول النفس، مع الصبر والتحمل، والعمل بأمانة، وصدق، وجدية، والضراعة الدائمة إلى الله أن يمنح التوفيق والسداد، والهدى، والرشاد .

### السبيل الثانية: إعادة البناء النفسي:

وذلك بصورة تسهم في الخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة:

إن البناء النفسي الصحيح على أساس من قيمنا الأصيلة، التي لا ترفض كل جديد لا يتعارض معها، إنما هو ضرورة لا بد منها للخروج من المحنة واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة.

غير أن إعادة هذا البناء ليست بالأمر الهين، ولا بالأمر اليسير، في ضوء عقبات ومعوقات الطريق، ومن أبرزها موروثات فكرية بالية عن المرأة، ودورها في الحياة، وكذلك عن الأقليات في الدولة الإسلامية، وحقوقها، وواجباتها، ثم هذه الثقافات الوافدة علينا، وما فيها من سقوط وانحراف، وتدخل غيرنا في حياتنا، وإصراره على أن يكون البناء النفسي لدينا وفق منهجه ومنظومته، ثم طبيعة النفس البشرية وما تنطوي عليه من ضعف، وتقلب، وكذلك شياطين الإنس المتربصين بالناس، والقاعدين لهم بكل طريق، وأيضاً أصدقاء السوء وما يلحقونه بنا من انحراف عن الطريق السوي، وكذلك والدنيا وما أقدمت به علينا من ثروات، وترف ورفاهية.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا بد من إحياء منهج التربية النفسية في العصر النبوي، مع الاستفادة من تجارب المريئ في الدولة الإسلامية، المعروفين بالتوسط، والاعتدال، وسعة الأفق، وبعده النظر، وشمولية التفكير، كمحمد بن الحسن الشيباني، وابن جرير الطبري، وأبي الحسن القابس، ومحمد بن الحسن العامري، وحسن البناء، وأبي الحسن الندوي، وغيرهم، وغيرهم.

يضاف إلى ذلك مراعاة التدرج في هذا البناء، والمعاشية، والسير بحكمة وعلى بيئة وطول النفس كذلك، والصبر والتحمل، والصدق، والجدية في ذلك، ودوام الدعاء أن يُخرج الله هذه النفوس من الظلمات إلى النور، وأن يثبتها على الطريق حتى تصل سالمة إلى برّ السلامة، وشاطئ الأمان. على أن تشارك كل المحاضن في هذه العملية من البيت إلى المدرسة، إلى المجتمع، إلى الدولة، ويكون بينها تعاون وثيق، وتكافل تام.

## السبيل الثالثة: إعادة البناء السلوكي:

على نحو يسمح بالخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة:

ذلك أن السلوك في كل أمة هو عنوانها ، وقد جاء في كتاب الله عزَّ وجلَّ قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣)، ومعلوم أن مقتضى الشهادة أن نكون مستقيمين، وإلا فكيف تقبل الشهادة من فاسق أو فاجر؟

إذن لا بد أن يعاد البناء السلوكي لأهل هذه المنطقة بحيث يعودون قدوة كريمة، وأسوة طيبة في أعين العالمين كما كانوا أول مرة.. ولاشك أن هذا سيكلف الكثير والكثير، خاصة في جو انفتاح الدنيا عليهم، وإحاطتها بهم من كل جانب، إن ذلك يقتضي مجاهدات من الورع، والتوسط في تعاطي المباحات، وحمل مسؤولية العمل بالنفس بدل هذه العمالة المستوردة التي علمت الناس الكسل والاسترخاء، ولقحت العقول والسلوكيات بأفكار وثقافات ما أنزل الله بها من سلطان .

ولا بد كذلك من العمل بكل الأساليب والوسائل على تصدير هذه السلوكيات المنشودة لأهل الأرض جميعاً، خاصة في موسم الحج، وأثناء الأسفار والرحلات إلى بلدان العالم الخارجي، ومن خلال وسائل الإعلام الحديثة الممثلة في الصحافة والفضائيات والإنترنت، لتتغير الصورة التي استقرت في أذهان الآخرين عن أبناء هذه المنطقة من أهم عشاق النساء، والكأس، ومرتادوا صالات الأوراق، والقمار.

ولعمري إن تحقيق ذلك يتطلب إحياء دور البيت، والمدرسة، والمجتمع، والدولة لتعمل جميعاً متعاونة مع الجهد، والمثابرة، والصبر، وطول النفس، والمحاسبة، والمتابعة، والجزاء، ثم الاستعانة بالله العليّ الكبير أن يحسّن السلوك كما حسّن الخلق، إذ كان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خَلْقِي...»<sup>(١)</sup>.

وكان من دعائه كذلك: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَهْوَاءِ...»<sup>(٢)</sup>.

ولا بأس من التذكير: أن حُسن الخلق، واستقامة السلوك ستحمّل الآخرين على التأثر والتأسي، فيكون الأجر المضاعف انطلاقاً من قوله ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً...»<sup>(٣)</sup>.. ومن قوله ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أُجْرِ فَاعِلِهِ»<sup>(٤)</sup>.

### السبيل الرابعة: إحياء البناء الاجتماعي:

وذلك بصورة تؤدي للتماسك والترابط، ويكون معها الإسهام في الخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة:

ذلك أن إحياء البناء الاجتماعي القائم على بر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والأرملة، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، ومعرفة حق العلماء، وتفقد الغائب، وتوديع المسافر، وحُسن استقبال القادم، والمواساة في الشدة، والتهنئة بالنعمة، والثبیت، وحفظ أسرار الناس، ورعاية

(١) أخرجه أحمد.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه مسلم.

حرمة الدماء، والأموال، والأعراض، كل ذلك سيؤدي حتماً، وبمرور الزمن إلى الترابط والتماسك، وحينئذ يمكن الإسهام في الخروج من المحنة، واستعادة الدور الرسالي المنوط بالمنطقة.

ولا شك أن هذا سيكلف كثيراً من الجهد والوقت والمال، لا سيما بعد أن انفكت عرى هذا البناء بفعل الثقافات الوافدة، والجهل، والاسترخاء، وغياب التنبيه، والتذكير، حتى غدت المنطقة وكأنها ليست مهد الرسالة الخاتمة، وموئل الحضارة التي أنارت السبيل، وأزاحت دياجير الظلام التي كانت سائدة في العالمين من قديم، أجل إنه سيكلف الكثير والكثير، ولكنه ضرورة لا بد منها للخروج من المحنة، واسترداد الدور الرسالي المنشود، من باب:

لا تحسبن المجد تماًراً أنت آكله      لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وهذا يقتضي كذلك تفاعل المحاضن من البيت، والمدرسة، والمجتمع، والدولة، وتعاونها وتكاتفها مع التدرج، والصبر، وطول النفس، والمحاسبة، والمتابعة، والجزاء، والتذكير الدائم، والدعوات التامات أن يقوي الله العزائم، ويُعلي الهمم، ويسمو بالإرادات حتى يقوى هذا البناء، ويتماسك، ويكون معه تحقيق المبتغى والهدف.

ولدينا من فضل الله مرغبات ومحفزات ليست لدى أي أمة أخرى، وحسبنا

قول الله عز وجل: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: ٧٧)،

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ (المائدة: ٤٨)، ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾

(آل عمران: ١١٥).

وقول النبي ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ...»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه البخاري.

## السبيل الخامسة: الاهتمام باللغة العربية:

وذلك لكونها وعاء ثقافة المنطقة وأبرز ما يميزها عن غيرها من الأمم من

قلم:

لقد عرفت هذه المنطقة عرفت بين بلاد العالم بالفصحى، لغة الضاد، وبها

نزل القرآن الكريم، وعليها بعث النبي الأمين محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠١﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٠٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٠٣﴾ بِلسان

عربيّ مُبين ﴿١٠٤﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ- لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴿٤﴾

(إبراهيم: ٤).

وقد عانت العربية في هذه المرحلة من إهمال شديد ، بسبب الهجرات غير

العربية، والتأثر بثقافات الأمم الأخرى ولغاتها، لسبب أو لآخر.

واليوم، لم يعد هناك مجال لهذا الإهمال، بل لابد من العمل وبسرعة وجدية

على إحياء الفصحى من خلال البيت، والمدرسة، والمجتمع، ومؤسسات الدولة،

والحرص على تقريب العلوم العلمية في الطب، وفي الهندسة، وفي الفلك،

والارصاد، وطبقات الأرض، ونحوها، وأن تكون أساس التوظيف والعمل لدى

الجهات الرسمية، وغير الرسمية، وأن يصحبها التشجيع بالجوائز السخية،

والمكافآت المحزية، وأن يشغل الناس بكتاب الله تلاوةً وحفظاً، وفقهاً، وتدبراً،

وعملاً وتطبيقاً، وكذلك بسنة النبي الأمين محمد ﷺ وسيرته، فإن هذين

المصدرين هما أحسن ما يعيد للعربية عافيتها، ويضفي عليها النضرة، والحيوية،

والشباب، كما أنه لابد من الاشتغال بالتراث الأدبي لهذه المنطقة، وهو تراث



غني للغاية، من تحقيق مخطوطه، ودرس مطبوعه، واستخراج جواهره، ودفائه، بصورة تسهم في خدمة العربية، وإحيائها من جديد.

ولعمري أن الجِدِّ والمثابرة، وصدق العزيمة، والصبر الطويل، والاستعانة بالله، كل هذا يؤدي إلى ثمرات طيبة، فيظهر من جديد كعب بن مالك، والفرزدق، وأبو تمام، والبحثري، والمتنبي، وأبو فراس الحمداني، والكسائي، والفراء، والجاحظ، كما تظهر عائشة الصديقة، وهند بنت النعمان، وسكينة بنت الحسين، وهلم جرا .

وحين يعود هؤلاء إلى الظهور من جديد، يمكنهم أن يخطفوا الأبصار إلى المنطقة ، فتخرج من المحنة، وتعود منارةً للعالمين، كما كانت أول مرة .

### السبيل السادسة: السعي نحو خطوات أكبر لتحقيق الوحدة:

لا شك أن المنطقة لا تستطيع الخروج من المحنة وأداء الدور الرسالي المنوط بها في جو التشردم، والفرقة، بل لا بد من الوحدة، في الأفكار والمشاعر، والصدور عن رأي واحد وإن تعددت منها الأجساد، وتنوعت الأقاليم، ولا شك أن المنطقة قطعت شوطاً لا بأس به من خلال مجلس التعاون الخليجي، والأمن المشترك، والدفاع المشترك ، ونحوها.

إلا أن الأمر يقتضي المزيد.

وأول ذلك: تفعيل المؤسسات المنوط بها الاضطلاع بهذا الدور، بحيث تصبح واقعاً حياً فاعلاً لا حبراً على ورق؛ ثم العمل على توحيد مناهج التعليم، أو على الأقل: المنطلقات والسياسات والتبادل الثقافي.

وكذلك إنشاء سوق مشتركة للتبادل بكل أشكاله وصوره، وتوحيد سياسة

الاستيراد والتصدير بحيث تكون الأولوية للبلدان العربية الأخرى، ثم الإسلامية، ثم ما وراء ذلك من سائر بلاد العالم، ثم قدح الذهن لابتكار ميادين أخرى تنتهي إلى تعميق الوحدة بين أبناء المنطقة.

ولاشك أن عنصر النجاح في ذلك كله يتطلب صفاء القلوب، وطهارة النفوس، والارتواء من هدي النبوة.

ولا يتحقق ذلك إلا بالتقوى والصبر واليقين، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٩٠)، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِبَايَعَتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ٢٤).

إن الاشتغال بالتقوى، والصبر، واليقين، ليورث محبة الله، وإذا صحَّت محبة الله، صحَّت محبة الناس .. جاء في الحديث القدسي: « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالتَّوَافُلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْتَطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ...»<sup>(١)</sup>.

ولقول النبي ﷺ: « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحَبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبُوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ...»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق.

(٢) أخرجه البخاري.

## السبيل السابعة: إبراز الدور الحضاري للمنطقة على مدار التاريخ:

لا شك أن تاريخ أيّ أمة جزء من تكوينها، تنتفع بإيجابياته، وتتقى سلبياته ولدى هذه المنطقة تاريخ مشرق، ودور حضاري فاعل وبناء، حسبها أنها مهد الرسالة الخاتمة، ومنها انطلق قبس النور إلى كل أنحاء الأرض، فأضاء فيها كل جوانب الحياة .

وحسبها هذه الجوانب الحضارية: سياسية، وفكرية، وقضائية، واقتصادية، واجتماعية، وجهادية، ودعوية، وتربوية، وحسبها أولئك الأعلام الذين كانوا مشاعل على الطريق: رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، رعاة ورعية، قادة وجنوداً، وحقّ الأجيال أن تتعرف على كل ما تقدم حالياً من أي تناقض وتشويه وتحريف، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بالعناية التامة من خلال المعاهد، والجامعات، ومؤسسات البحث العلمي، وتحقيق التراث، وإخراج إصدارات تتضمن ذلك، واتخاذ مواقع ثابتة على شبكات الإنترنت، وتوظيف الفضائيات في خدمة هذا الهدف.

إن ذلك لو تمّ على النحو المذكور آنفاً، وبهذه الآليات، وغيرها، سيعطي أبناء المنطقة اليوم زاداً من الإيمان، ويفجر لديهم طاقات كامنة، وقوى خفية تدفعها إلى مواصلة المسيرة إلى نهايتها، فضلاً عن منحها قدراً كبيراً من عزّة النفس، والإباء، وعدم قبول الدنيّة، أو الإذلال من أعداء هذه المنطقة، والمتربصين، إذ كل واحد سيفاخر أنه حفيد أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، وذو النورين عثمان، وعليّ الإمام، وخالد القائد، ومعاوية الأمير، وعمرو داهية العرب، وفتح أفريقيا ابن أبي السرح، وغيرهم ممن أسهم في أن تصل رحمة الله

للعالمين أجمعين، كما أن كل واحد سيملك ما يرد به على المتربعين على عرش البشرية اليوم، الذين سرقوا ميراثنا العلمي، وعملوا على تنميته ثم وظفوه لتدمير البشرية، وكل مظاهر الحياة، وتدمير أنفسهم بعد ذلك.

بل أكثر من ذلك، سنجد في حضارة هذه المنطقة دفائن لم تعرفها البشرية حتى اليوم لا سيما في مجال الدراسات النفسية، والتربوية، والاجتماعية، بل والعلمية التجريبية، حينئذ سيُدرك العالم كله الدور الريادي، والحضاري، والقيمي للمنطقة، فيلتنفث إليه التفاتة اقتداء، وتأسّي، وتواضع، ومتابعة، لا سياسة استعلاء، وغطرسة، وتكبر، بل إذلال، واحتقار، وإهانة ومحاولة السيطرة على خيراتها، وثرواتها، والحيلولة دون الانتفاع بها.

**السبيل الثامنة: الاهتمام الشديد بالبحث العلمي، خاصة التجريبي التقني:**

لقد وضع الشرع الحنيف أصول متابعة البحث العلمي بقوله سبحانه:

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

ومن خلال تطبيقاته ﷺ المتمثلة في إنشاء دار لتنمية الصناعات الجهادية، وأخرى لتنمية الصناعات المدنية، وقد وعى أصحاب النبي ﷺ فمن بعدهم، إلى عصور الضعف والتأخر، ذلك، وأولويات عمر الفاروق فسي سائر الميادين لا سيما العسكرية معروفة، وتحضير معاوية للدولة لا ينكره إلا جاهل أو حاقد، وتنمية عبد الملك بن مروان لما بدأه معاوية دليل صدق على ما نقول .

وإذا كانت المنطقة قد أتى عليها حين من الدهر أصابها فيه سبات عميق فتوقف فيها البحث العلمي، وصارت عالّة على غيرها، فقد آن الأوان أن تعود إلى ذلك من جديد سيّما ولديها إمكانات تؤهلها لذلك، وفي مقدمة ما ينبغي

عمله استقدام أمهر المتخصصين خاصة في العلوم التجريبية التقنية، وتوفير الحياة الكريمة لهم، على أن يكون في صدر هؤلاء: العلماء المسلمون العرب، فالمسلمون من غير العرب، فغير المسلمين، وأخذ خلاصة ما عند هؤلاء، وتفعيل نتائج البحث العلمي إلى تقنيات تثري الحياة، وتحرك بها إلى الأمام، على نحو ما صنع أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، حين فكر في إنشاء الأسطول الإسلامي، فقد سأل عن أمهر الناس في صناعة السفن، فدل على أقباط مصر، فاستقدمهم إلى بلاد الشام، وبذل لهم أعلى الرواتب، وكان يطلب منهم أن يقوموا بأمرين: صناعة السفن، وتعليم أبناء المسلمين هذه الحرفة حتى يأتي يوم يتحقق للدولة فيه الكفاية، وكذلك ينبغي أن يكون العمل، فإن عزَّ استقدام طائفة العلماء، والباحثين المتخصصين، وما أظن ذلك يحدث، فلنرسل السابحين من أبناء المنطقة إلى البلد الذي فيه حاجتنا، بدءاً بالبلاد العربية والإسلامية ثم الإسلامية غير العربية، ثم بلاد غير المسلمين، ولا يتم إرسال هؤلاء إلا بعد الحصانة الفكرية، والاطمئنان على دينهم وعفتهم، وتهيئ الدولة لهم محاضن خاصة ترعاهم في غربتهم لتلا ينحرفوا عن الطريق، وعند عودتهم يجدون من العناية والتقدير، وتيسير سبيل العيش ما يرغبهم البقاء في خدمة وطنهم، دون الرحيل عنها إلى بلدان أخرى.

إن ذلك لو تم على النحو المذكور، ليكوننَّ خطوة جادة على طريق تحرير المنطقة من السيطرة عليها، والمضيّ قُدماً في أداء الدور الرسالي المنوط بهذه المنطقة.

## السبيل التاسعة : تعميق التواصل الحضاري مع الأمم الأخرى:

شهد الواقع أن المرء قليل بنفسه، كثير بإخوانه، وكذلك الأمم، كل أمة قليلة بنفسها، كثيرة بالأمم الأخرى، وقد فتح النبي ﷺ الباب لذلك حين أخذ من الحضارة الفارسية: نظام الخندق، وصنع المنجنيق "الدبابة"، وحين أخذ من الحضارة الرومانية: نظام الخاتم ليختتم به على الكتب منعاً للتزوير. ومضى المسلمون في كل عصور التاريخ يفيدون الأمم الأخرى، ويستفيدون منها، شريطة ألا يتعارض ما يفد إليهم من الآخرين مع مبادئ الشرع الحنيف.

والمنطقة وإن كانت تتعامل مع الأمم الأخرى، وتفيد منها، لكن ما زالت المسألة في بدايتها، ولا زالت سطحية، ودون تخطيط. والأمر يقتضي: النظر فيما لدينا أولاً، وما نحن بحاجة إليه، ووضع سياسة لكيفية تحصيل ذلك دون المساس بقرارنا، ثم تأتي مرحلة ثانية، وهي معرفة ما عند هؤلاء مما لسنا بحاجة إليه اليوم وإن كنا نحتاجه غداً، ثم وضع سياسة كذلك لاستيراده دون التأثير على قرارنا.

وحتى نكون أحراراً في قرارنا فلا بد أن تكون لدينا أوراق رابحة في هذا المجال وفي غيره يمكن المساومة عليها، والدنيا من أولها إلى آخرها مساومات.

ولا ننسى أن يكون هذا التواصل في كل ميادين الحياة لا في مجال بعينه بحيث يشمل: الزراعة، والصناعة، والتجارة، والمحاسبة أو الموازنة، والإعلام، والمناهج، والتربية، والمواصلات، والأمن والدفاع، والتخطيط، ونحوها، فيكون هناك إثراء للمسيرة، والعودة إلى الدور الرسالي المنوط بالمنطقة.

ولا يتم ذلك إلا بالجد، والمثابرة، والصبر، وطول النفس، وتقوى الله حتى تميز الخبيث من الطيب، وحتى يرزقنا الله فرقاناً تفرق به بين الحق والباطل، كما قال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ (الأنفال: ٢٩).

هذا مع التدرج، والتأني، بحيث تغالب قدر بقدر وتكون قادرين على تسخير السنة الإلهية الخاصة بهذا الشأن، لا أن تصادما ونقف ضدها، حتى يبلغ الكتاب أجله، وصدق الله الذي يقول:

﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٣).  
ويقول: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

**السبيل العاشرة: الحفاظ على ثروات المنطقة، وعدم تعريضها للضياع:**

دعا رب العزة سبحانه إلى الحفاظ على المال بعدم وضعه في أيدي السفهاء، الذي لا يحسنون التصرف، مبيناً أنه واحد من المقومات الأساسية التي تقوم عليها الحياة، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْوُفًا﴾ (النساء: ٥).

كما أكد إنفاقه وسطاً دون إسراف وتبذير، ودون شحٍ وتقتير، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).  
وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسِطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩).

ونعى على المبذرين والمسرفين، فقال: ﴿وَلَا بُذْرَ بَذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ (الإسراء: ٢٦-٢٧).

وقد امتنَّ الله على هذه المنطقة بثروات ضخمة في باطن الأرض من النفط ومشتقاته، وعلى سطحها من الزروع، والثمار، وأعطاهما مخازن الرزق من الجبال، والبحار، والعيون والآبار، وواجبها الحفاظ على هذه الثروة بتوظيفها فيما خلقت له، وعدم تعريضها للضياع .

وهذا لا يتأتى إلا بسياسة مالية حكيمة تستهلك جزءاً لا مفر منه في حاجة أبنائها الضرورية والحاجية دون التحسينية والترفيهية، ثم تستثمر جزءاً ثانياً في إنشاء صناعات وطنية تستغني بها المنطقة في مستقبل حياتها، ومن أبرز ذلك: صناعات المياه المعدنية، والنفط والذهب، والحديد، وسائر المعادن، والتوسع في الزراعة، والتجارة، وتشجيع التصدير، والتقليل من الاستيراد إلا في حدود الضرورة القصوى، وحمل أبناء المنطقة على الخشونة في العيش، والزهد في الدنيا، ليشاركوا بأنفسهم في الخروج من المحنة، وأداء الدور الرسالي المنوط بهم، كما لا ينسوا حفر الآبار، وإقامة السدود للانتفاع بمياه الأمطار.

ثم تُبقي جزءاً ثالثاً للأجيال اللاحقة ، يحملهم على الدعاء لنا بعد الممات، انطلاقاً من قوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (الحشر: ١٠).



## السبيل الحادية عشرة: تفعيل النظام السياسي، والإداري، والقضائي في المنطقة:

لا شك أن للنظام السياسي والإداري والقضائي لكل أمة دوراً كبيراً في هوضها، أو انحطاطها، فإذا كان محكماً فاعلاً فإنه ينتهي بالأمة إلى النهوض والتقدم، وإلا كان الانحطاط والتأخر.

وحى تتحقق هذه الفاعلية، فإنه لا بد في النظام السياسي من إحياء مبدأ الشورى إحياءً حقيقياً، وأن يكون اختيار أعضائها اختياراً أميناً على أساس من الكفاية والتقوى، وأن تكون نتائجها ملزمة، لا معلمة.

كما أنه لا بد في النظام الإداري من وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأساس ذلك أيضاً الكفاية والتقوى.

وأن تكون الرقابة الإدارية، والمحاسبية، فلسنا بأحسن من رسول الله ﷺ الذي كان يختار عماله، ويحاسبهم، وكذلك كان يصنع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومع هذا فإنه لا بد من توفير الكفاية لهم ولأهلهم وذويهم بحيث لا تتطلع قلوبهم وأعينهم إلى ما في أيدي الناس.

أما النظام القضائي فيجب أن يكون أميناً على دين الأمة، وأبنائها، فيتحرى العدالة، ويطبق الأحكام دون تمييز بين غني وفقير، شريف وبسيط، ويكون القضاة على درجة من الفقه تؤهلهم للاجتهاد، على الأقل، في المسائل التي يقضون فيها، ويكون لهم مجلس أعلى للقضاء يتشاور في استخراج الأحكام لكل طارئ، وجديد، وأن تكون أحكامهم نافذة، على أن يوفر لهم أعلى حدود الكفاية، فلا تميل نفوسهم عن الحق طمعاً في دنيا، أو وجاهة، أو رئاسة، وأن تكون لهم

الحصانة التي تحملهم على الجهر بالحق دون أن تأخذهم في الله لومة لائم .  
 هذا ولا جرم أن نشير إلى أن تحقيق المقترحات المذكورة آنفاً بحيث تكون  
 فاعلة إنما يبدأ بالإصلاح الفكري، والنفسي، والسلوكي، لقوله سبحانه: ﴿قَدْ  
 أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿ (الأعلى: ١٤-١٥)، وقوله تعالى:  
 ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿ (الشمس: ٩-١٠)  
 ثم التذكير المستمر بخطر الإمارة، والولاية، وضخامة التبعة بين يدي الله  
 عز وجل غداً يوم نلقاه .

ولقد نبه النبي ﷺ بعض من طلب الولاية لعنه العباس وأبي ذر رضي الله  
 عنهما بخطر الإمارة، « وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ  
 أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا »<sup>(١)</sup>.

السبيل الثانية عشرة: تبنّي سياسة الاستراتيجيات أو استشراف المستقبل:

المستقبل غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل، لكن هذا لا يمنع أن تكون هناك  
 أهداف كبرى بعيدة المدى، يسعى الأفراد والجماعات، والدول في التخطيط،  
 والتنفيذ، والجدد، والمثابرة للوصول إليها، وعليهم أن يستخدموا المعطيات التي في  
 أيديهم، والظروف المحيطة بهم في استشراف المستقبل، والاستعداد له، ومباغتته  
 قبل أن يباغتهم .

لقد توقع الصديق هجوم المشركين بمعونة المنافقين على المدينة، عقب  
 موته ﷺ مباشرة، فاستعد لذلك بتجهيز فرقة عسكرية يرأسها بنفسه لحماية

(١) أخرجه مسلم.

المدينة، وكان ما توقع، فقد أغار المشركون فجر اليوم الثالث لوفاته ﷺ على المدنية، فتصدت لهم هذه الفرقة حتى أجلتهم عن المدينة إلى مكان بعيد خارج المدينة يعرف بـ "ذي القصة"، وهناك عسكر بفرقته للدفاع عن المدينة.

ولهذا الأنموذج نظائر كثيرة في تاريخنا، وتاريخ الأمم المحيطة بنا، سيما في العصر الحاضر حتى صار هناك علم يسمى علم الاستراتيجيات، أو استشراف المستقبل.. ولا ينبغي أن تهمل هذه المنطقة هذا العلم، سيما والطامعون فيها كثير، لموقعها الجغرافي، وثرواتها، وسعة أراضيها، وعمقها الحضاري، ومنهاجها المعصوم.

وأهم ما ينبغي التركيز عليه، والتخطيط له، إنما هو خروجها من محتها الحالية، واستعادة دورها الرسالي المنوط بها من الشهادة على العالمين، والأخذ بأيديهم لإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ولا يتحقق للمنطقة ما تصبو إليه إلا إذا تصور الناهون من أبنائها هذا العلم بكل أبعاده، ومعالمه، ثم هضموه وأخرجوه شهداً جنيّاً، وعسلاً مصفىً .

ولابد من التنقيب في ميراثنا الفكري، وممارساتنا الحضارية عن أصول هذا العلم، وإنا لو وجدون ذلك إن شاء الله، وهذا لا يمنع الأخذ بما اهتدت إليه الأمم الأخرى في هذا المجال، فالكلمة الحكمة ضالة المؤمن، أئنّى وجدها فهو أحق الناس بها، على أن يكون ذلك مضبوطاً بضوابط الشرع الخفيف، موقنين أن الأخذ بهذا العلم سيجعل أبناء المنطقة في جهاد مستمر إلى قيام الساعة، فضلاً عن النجاح، والوصول إلى الهدف المنشود.

السبيل الثالثة عشرة: التفكير بعيداً عن الأضواء، وبصوت غير مسموع:

شهد الواقع: أن التفكير وسط الأضواء، وبصوت مسموع يسمح للمتربصين بالاختراق، والقضاء على الخطط، أو على الأقل إجهاضها لذا كان من هديه ﷺ خدعة أعدائه تطبيقاً لقوله: «الحرب خدعة»<sup>(١)</sup>.

وأبرز صور هذه الخدعة: الصمت، ودقة الحركة، والتورية، وكانت النتيجة: النجاح في كل ما قصد وأراد.

والمنطقة لا ينبغي - في خروجها من المحنة، واسترداد الدور الرسالي المنوط بها- أن تغفل هذا الجانب، فتحسن اختيار مفكريها، وصناع القرار، وتلزم هؤلاء التفكير بعيداً عن الأضواء، وتدرهم على أن يكونوا حكماء، وعلى بينة وبصيرة، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥). وقال تعالى: ﴿قَدْ هَدِينَا سَبِيلَ آدَعُوْا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي﴾ (يوسف: ١٠٨).

وتعلمهم أسلوب التعريض، والتورية، إذ في المعاريض مندوحة عن الكذب. ولا يتأتى لأبناء الأمة استيعاب هذه المضامين إلا بالتعليم، والتربية، والتدريب، وفي تاريخنا روائع تخدم هذه المضامين، كما أن في عصرنا اهتماماً كبيراً بها، حتى صارت هناك كليات ومعاهد أمنية منتشرة في كل أنحاء العالم.

وعلينا الإفادة من ذلك، لكننا نزيد على غيرنا أننا نتعلم ذلك ونتربى عليه، ونتدرب امتثالاً لأمر الشرع الحنيف، إذ يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا جِذْرَكُمْ فَاُنْفِرُوا يَنْفِرُوا جَيْهَاتِهَا﴾ (النساء: ٧١)،

(١) أخرجه أبو داود : الجهاد رقم (٢٦٣٦، ٢٦٣٧).

ويقول: ﴿وَحَدُّوا حُدُوكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٠٢)،

ويقول: ﴿وَأَحْذَرْتَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: ٤٩).

ونطمع أن نحصل من وراء ذلك على الأجر والثواب، إذ في الحديث: «الأعمال بالنية ولكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»<sup>(١)</sup>

السبيل الرابعة عشرة: تبني سياسة المحاسبة وفق أصولها، وقواعدها: معلوم بدهاءة: أن المرء إذا أيقن أن وراءه من يراقب عمله فيحاسبه على هذا العمل، مطلعاً إياه على إيجابياته، وسلبياته، كي ينمي هذه الإيجابيات ويعمل على التخلص من السلبيات، وكانت هذه المحاسبة خالية من أي مجاملة أو حيف، إذا أيقن المرء ذلك كله عمل بيقظة، وانتباه، ودقة، وأمانة، الأمر الذي يشمر نمو العمل بسرعة، ورفيقه ونجاحه.

وقد دعا ربُّ العزة المؤمنين إلى إتقان العمل في الدنيا وتجويده عن طريق محاسبتهم أنفسهم قبل أن يحاسبوا غداً بين يديه في يوم العرض الأكبر، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر: ١٨).

كما دعا النبي ﷺ إلى ذلك حين قال: «الكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن.

وكان ﷺ يحاسب عماله، وحين يطَّلَعُ على خلل لا يسكت، من ذلك أنه اسْتَعْمَلَ ابْنَ الْأَثَبِيَّةِ عَلَى صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ فَلَمَّا جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَاسِبُهُ قَالَ: هَذَا الَّذِي لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَهَلَا جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَبَيْتِ أُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَحَظَبَ النَّاسَ وَحَمِدَ اللَّهَ وَأَنْتَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي اسْتَعْمَلُ رِجَالًا مِنْكُمْ عَلَى أُمُورٍ مِمَّا وَلَا يَنِي اللَّهُ فَيَأْتِي أَحَدُكُمْ فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي، فَهَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَبَيْتِ أُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا، فَوَاللَّهِ لَا يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا بَعِيرٍ حَقَّهُ إِلَّا جَاءَ اللَّهُ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلَا فَلَا عُرْفَنَّ مَا جَاءَ اللَّهَ رَجُلٌ بِبَعِيرٍ لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بِبَقْرَةٍ لَهَا خَوَارٌ أَوْ شَاةٍ تَيْعَرُ، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ بَيَاضَ إِبْطِيهِ: أَلَا هَلْ بَلَغْتُ» (١).

وانطلاقاً مما تقدم، فإن المنطقة إذا أرادت تحقيق ما ذكر آنفاً في هذه الرؤية المستقبلية بدقة وسرعة، ونجاح، فإنه لا بد لها من تبني سياسة محاسبية يراعى فيها:

الكفاية، بحيث يمكن اكتشاف جوانب الخلل التي لا يقف عليها سوى ذوي الخبرة الفائقة، والمهارة العالية، ومعالجتها، وهي لا تزال في أوائلها قبل أن تستفحل وتستشري، ثم مع الكفاية التقوى بحيث يشعر كل واحد في الأمة أن الأمر يسير وفق قواعد الشرع الحنيف، فلا ظلم، ولا مجاملة، ولا تغاضي عن

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام.

الخلل مهما كانت مزلة مقترفه، وألا تكون هذه السياسة في يد فرد بعينه، وإنما لها مؤسسة خاصة بها، وفيها درجات من القائمين على هذا الأمر يراجع بعضهم على بعض، فإن مر خلل من أحدهم لم يفتن إليه أدركه من بعده، وهكذا. إن هذه السياسة لو نفذت وفق القواعد المذكورة أثمرت النجاح والرقى بسرعة وبلوغ الهدف المنشود.

السبيل الخامسة عشرة: جدية التنفيذ لكل ما تقدم مع الاستمرار وعدم الانقطاع:

وينبغي ألا يغيب عن البال أنه لا بد من جدية التنفيذ، وإتقانه، إذ جاء قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلِيُحَدِّثْ أَحَدَكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِخْ ذَبِيحَتَهُ»<sup>(١)</sup>.

كما أنه لا بد من الاستمرار، وعدم الانقطاع، إذ قليل العمل مع الاستمرار وعدم الانقطاع، أبرك، وأعود على المنطقة بالخير من كثير منقطع، إذ قالت عائشة رضي الله عنها: «وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا دَامَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»<sup>(٢)</sup>.

ولا يتأتى تحقيق ذلك إلا إذا أيقن كل واحد من أبناء هذه المنطقة أنه مسؤول بين يدي الله غداً عن كل نعمة أنعم بها عليه، إذ يقول سبحانه: ﴿تَسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ٨).

ويقول: ﴿فَرَبِّكَ لَنَسْتَأْتِنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢-٩٣).

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري.

ويقول ﷺ: «لا تَزُولُ قَدَمًا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ: عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»<sup>(١)</sup>.

إن اليقين بهذه المسؤولية سيولد الطاقات الكامنة في النفس، وسيبرز القوى الخفية، فيظل كل واحد يعمل على النحو المرسوم حتى يلقي الله، وهنا يمكن للمنطقة الخروج للناس، ومعاودة الإحياء والبعث لأمة الرسالة، لإحقاق الرحمة بالعالمين، وثقتنا في ربنا أنه لن يتخلى عنا، ولن يخذلنا أبداً، إذ يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧)، ويقول: ﴿وَلْيَنْصُرْكَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ (الحج: ٤٠).

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين!

(١) أخرجه الترمذي، وقال هذا حديث حسن صحيح.



## الإمكانات المذخورة

الدكتور عبد الغفار محمد الشيزاوي (\*)

إن العالم اليوم منتظر ومتربح لحضارة من نوع جديد، لأنموذج إنسانٍ وليبدأ ينشئ إنسانية سعيدة، ورسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الأمم، متعاونة، شاملة لنواحي الحياة، وهذه الرسالة محتاجة إلى أمة نستطيع تحملها والاضطلاع ببعثها والتبشير لها، إنها الأمة العربية التي أعزها الله بالإسلام، والتي حدد مسؤوليتها بقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ لِرُؤُوسِكُمْ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

### المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

لقد نشأ المجتمع الإسلامي الأول حينما انتقل الناس في أرض انبعاث الوحي والنبوة والرسالة من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك، مهتدين بهدي

(\*) باحث.. أكاديمي تربوي (سلطنة عمان).

رسولهم محمد ﷺ، منظمين حياتهم على أساس هذه العبودية لله والاهتداء برسوله تحت شعار: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، اتباعاً كاملاً بلا تردد: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر: ٧).

فقام هذا المجتمع تحت راية الإسلام ورابطة العقيدة الإسلامية، راية جمعت الأسود والأبيض، والأحمر والأصفر، والعربي والرومي، والفارسي والحبشي، وسائر أجناس الأرض في أمة إسلامية واحدة، الأكرم فيها هو الأتقى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ (الحجرات: ١٣).

تشكل هذا المجتمع المسلم على الأصول والقيم الإلهية الثابتة والمنهج والنظام والقانون الذي أقام حضارة عالمية تقوم على سيادة القيم الإنسانية النبيلة، التي تنمي إنسانية الإنسان وحرمة الأسرة والخلافة في الأرض القائمة على تحكيم منهج الله وشريعته في شؤون الحياة.

وهنا ينشأ التساؤل عن أولئك الذين أقاموا هذا المجتمع وهذه الحضارة العالمية، والذين كانوا أول المستجيبين لدعوة الإسلام الخالدة، ما أصولهم؟ وما مكوناهم؟ وما أحوالهم؟ وما استعداداتهم؟ وما طبيعتهم الاجتماعية؟ وما لغاتهم ولهجاتهم؟ وهل يجمعهم تاريخ مشترك وعادات وتقاليد متجانسة؟

وقبل أن تتم الإجابة على هذه الأسئلة، يود الباحث أن ينوه إلى أن هذا البحث يأتي تلبية لمطلب من مركز البحوث والدراسات التابع لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، لاعتزامه إعداد كتاب حول: «البعد الرسالي لمجلس التعاون: من استشراف الماضي إلى إِبصار المستقبل» وذلك بمناسبة انعقاد الدورة الثالثة والعشرين للمجلس الأعلى لمجلس التعاون لدول الخليج العربية في دولة قطر.

فجاء هذا البحث محتوياً على أهم الباحث في المحور الثاني: الإمكانات المذخورة، التي تتناول الإمكان التاريخي، والإمكان الثقافي والاجتماعي، والإمكان الاقتصادي. تضمن الإمكان التاريخي: الجزيرة العربية أرض الوحي والنبوة، والتجربة الحضارية التاريخية للإسلام المنبعث من أرض الجزيرة. أما الإمكان الثقافي والاجتماعي فقد تضمن علمية الرسالة وإنسانيتها، والطاقة الروحية العالمية لقبلة المسلمين، كما تضمن عوامل التجانس بين أبناء الخليج والجزيرة العربية، الذي اشتمل على:

أولاً: أثر العقيدة والقرآن في حياة أبناء الخليج والجزيرة العربية؛

ثانياً: لغات ولهجات أبناء الخليج والجزيرة العربية؛

ثالثاً: تاريخهم المشترك؛

رابعاً: عاداتهم وتقاليدهم؛

خامساً: سكان الخليج والجزيرة العربية وطبيعتهم الأسرية والقبلية؛

سادساً: الظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة العربية.

وأخيراً الإمكان الاقتصادي، الذي ورد فيه تمهيد لتوزيع الثروة بين الناس في نظر الإسلام، والتجارة ومصادر الثروة في الخليج في العصور المختلفة.. وختم البحث موضوعاته بموضوع النفط باعتباره مصدر الثروة الأكثر أهمية لاقتصاد دول الخليج العربية.

## أولاً: الإمكان التاريخي

### ١- الجزيرة العربية أرض الوحي والنبوة:

#### حاجة العالم إلى منقذ:

أثبتت النصوص والآثار والروايات التاريخية أن العالم كان قد فسد في القرن الذي ولد فيه الرسول محمد ﷺ، وعاش العالم في ضياع أفراداً وجماعات، وحيثما التفتنا وأن قلبنا وجوهنا في جهات العالم الأربع فسوف لن نعثر إلا على الفساد والمضايح.

ومروراً بالتجارب والممارسات الدينية والاجتماعية والسياسية والثقافية؛ لا نجد

إلا السوس ينخر في بنيان المجتمعات فيفسد كل شيء في حياتها.

إن العالم الذي بُعث فيه محمد ﷺ، عالم في أمس الحاجة إلى منقذ، وهو يفسر

بوضعه الراهن ذاك، لماذا جاء الرسول ﷺ في ذلك العصر بالذات، إن القرآن الكريم

ذكر طبيعة تلك الحقبة حينما قال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي

النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

#### الهزة الوجدانية لشعار (لا إله إلا الله):

ما لبث الوحي الأمين أن جاء في اللحظة المناسبة والمكان المناسب، الذين اختارتهما

العناية الإلهية لإرسال محمد ﷺ إلى الناس كافة، محمد الذي لم يكن يعرف حتى هذه

اللحظة المصير الذي ينتظره والدور الذي سيكلف بأدائه إزاء الإنسان والعالم.

وما أن اطمأن الرسول ﷺ إلى صدق رسالته في أعقاب تأكيدات خديجة

رضي الله عنها وابن عمها ورقة بن نوفل وإثر تكرار نزول الوحي عليه، حتى بدأ

بأمر من هذا الوحي بالعمل، فكان عليه أن يدع مرحلة العزلة والانقطاع وأن يمزق

دثار الخوف والقلق والشك، وأن ينطلق ليبدأ أولى اتصالاته من أجل بناء الحلقات

الأولى من الدعاة، أولئك الذين كتب عليهم أن يتحملوا شرف الانضواء إلى أول قاعدة بشرية للدعوة الإسلامية في تاريخها الطويل.. وإذا كانت الدعوة الجديدة تتحرك تحت شعار (لا إله إلا الله) بكل أبعاده الشاملة وآفاقه الرحبة، فقد كانت تمثل رداً حاسماً على كل القيم الجاهلية.

وكان القرآن الكريم يتنزل خلال ذلك مؤكداً قضية واحدة وأمرأً واحداً لم يتجاوزها إلى المسائل الأخرى إلا قليلاً، تلك هي قضية (العقيدة) التي راح القرآن يحبك بأسلوبه المعجز وآياته البينات جوانبها الشاملة وبناءها المتشابك في نفوس أتباعه وعقولهم وضمائرهم، ويحيلهم واحداً بعد الآخر ويوماً بعد يوم إلى شخوص حية تتحرك بالقرآن، فتكون حركتها تعبيراً حيويًا واقعيًا عن التصور الجديد الذي طرحه القرآن.

إن التركيز والعمق الذي تميز به كل واحد من هؤلاء، جعل المنتمين إلى الإسلام قادرين بعد قليل على تحمل الضغوط الوثنية القاسية التي ستصب عليهم من أجل فنتهم عن دينهم: تعذيباً واضطهاداً وقتلاً ونفيًا وسخرية وقطيعة واحتقاراً، وعلى تجاوز المحنة السوداء وهم أصلب عوداً وأعمق ثقة وأشد إيماناً.

كم من المسلمين قادتهم إلى الإسلام تلك الهزة الوجدانية التي أحدثتها آيات القرآن الكريم الساحرة المعجزة وهي تتلى عليهم، فتغسل ضمائرهم وتزيل ران قلوبهم وتعيد ألق الذكاء إلى عقولهم، ونور اليقين إلى بصائرهم وأفئدتهم<sup>(١)</sup>.  
ما الذي دفع عثمان رضي الله عنه وهو في قمة قريش غنى ومكانة وأماناً ومحبة وجاهاً إلى أن يتمرد على جاهليته؟

وما الذي دفع أبا بكر رضي الله عنه وعشرات غيره إلى أن ينفقوا من أموالهم الخاصة التي سهروا وكدحوا على جمعها وتنميتها لينفقوها حتى آخر درهم؟

(١) عماد الدين خليل، دراسة في المسيرة، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٨م، ص ٩٧-١٠٦.

وما الذي دفع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الغني المدلل إلى أن يرفض  
توسلات أمه وقد أوثقته رباطاً من أجل أن يرتد عن دينه، قائلاً لها: والله يا أم لو رأيتك  
تموتين مائة مرة ثم تعودين ثانية إلى الحياة ما ردي ذلك عن ديني؟  
إن شعار (لا إله إلا الله) الذي أمر محمد ﷺ برفعه في وجه الجاهلية، جاء انقلاباً  
شاملاً، على كل المستويات الإيمانية والفكرية والنفسية والأخلاقية والسلوكية  
والاجتماعية والسياسية.

### أحكام القرآن تصوير لجوهر الإسلام:

يصف الوحي نفسه بأنه رسالة تبين الدين والقيم، وقد عرض الوحي فكرته  
الأساس أو جوهره، أي التوحيد، على أنه شهادة الله بأن لا إله إلا هو..  
أما بخصوص البشر فإن الإسلام يرى نفسه دين الفطرة أو الديانة الطبيعية التي فطر  
الله الناس عليها لما وهبهم من القدرات العقلية التي يميزون بها قوانينه أو أنساقه  
في جميع ميادين الحياة والعمل.

مع أن القرآن الكريم هو في الحقيقة تصوير فكري لجوهر الإسلام، الذي وضع في  
عبارة عربية نفيسة، فليس كل كلمة في نصه تعود إلى ذلك الجوهر بنفس الدرجة أو  
على نفس المستوى من الأفضلية، فاختلاف الأهمية بين عناصره المكونة لصوره الفكرية  
يعود بشكل جزئي إلى شموليته: ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨).

وإذا كان الكتاب يشمل كل شيء فيجب أن يرتب تلك الأشياء بشكل مختلف؛  
لأنها بطبيعتها لا تنتمي إلى المرتبة نفسها، ثم إن القرآن الكريم يحتوي على أسس  
الدين والأخلاق، إضافة إلى تشريعات تعالج الحياة اليومية، وبعض هذه التشريعات  
لها مكان في القرآن بسبب الأهمية البالغة لمحتواها في الخطة الإلهية الشاملة، وهذه  
التشريعات القرآنية التي تخص الزواج والطلاق والإعالة والميراث، وهذه التشريعات

التي تهتم بالعائلة، وهي مؤسسة يعاملها الإسلام بمجدية كما لو كانت تتصل بجوهر الحياة البشرية، وبما أن الحياة البشرية غير ممكنة من دون مؤسسة العائلة فإن التعليمات التي تحكم تكوينها ونموها وفعاليتها هي من ذلك الجوهر أيضاً، وهناك تشريعات قرآنية أخرى توضح التشريع الذي يسنه الإنسان بناءً على أسس يحددها القرآن، مثال ذلك، تلك التشريعات التي تتصل بتنظيم المجتمع ومن ذلك الجوهر يتحقق تنظيم المجتمع والنظام الاجتماعي والعلاقات البشرية بعدالة ومساواة بين الجميع، لكن الأشكال التي يتخذها النظام الاجتماعي يمكن أن تتغير، وهي تتغير فعلاً، والأحكام التي يصدرها القرآن بهذا الخصوص تعتمد على الأحوال، خلافاً لبعض المبادئ الأساسية مثل التوحيد والعدل والحرية الإنسانية والمسؤولية وغير ذلك من الأمور القطعية والشاملة<sup>(١)</sup>.

### جمال النص القرآني:

القرآن الكريم جميل دون شك، والواقع أنه أجمل نص أدبي عرفته اللغة العربية، وجماله ليس نتيجة الإيمان به، بل هو بعينه سبب الإيمان.. والحكم الجمالي له أن القرآن جميل بل جليل ليس تعبيراً عن الإيمان فقط، إنه حكم نقدي تم بلوغه بالتحليل الأدبي، لذا فإن جمال القرآن لا يعتقد به المسلمون وحدهم بل غير المسلمين كذلك من المتمرسين بالجماليات الأدبية في اللغة العربية.

والقرآن الكريم تنزيل من الله حقاً، يتعلق بخيط واحد هو جمال النص القرآني، كان محمد ﷺ يقول، ويدعمه القرآن في ذلك، بل يملئ عليه أن يقول إن القرآن جميل إلى حد لا يمكن تقليده بل إنه يبلغ حد الإعجاز، لذلك فالقرآن ليس من كلام البشر وإنما هو كلام الله، وهذه الخصيصة في القرآن تسمى (الإعجاز).

(١) إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ١٩٩٨، ص ١٧٢ - ١٧٤.

وإذا كان شعراء مكة وأدباؤها قد فزعوا من نتيجة مثل هذه المنافسة فإن زعامة مكة لم تفزع فاستدعي الشعراء والأدباء من أنحاء بلاد العرب لينقذوا الموقف ووعدوا بأجزل العطايا لقاء ما يؤلفون، وقام أحدهم وهو الوليد بن المغيرة يصغي إلى القرآن يتلوه النبي ﷺ فأخذه الإعجاب به، فجاء إليه أبو جهل وهو من زعماء مكة ليدعم مقاومته ووعدته بثروات مكة فأصغى الوليد إلى التلاوة ثانية وهتف دون تردد: ليس فيكم من هو أعلم مني برجز الشعر وقصيده، والله ما هذا القرآن من صنع بشر ولا جن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمشرق أعلاه، منير أسفله، يفوق كل ما قيل أو عرف<sup>(١)</sup>.

لقد بقي القرآن الكريم موضع إجلال عظيم واحترام وتقديس عند المسلمين لأنه كلام الله الحرفي، فحملة كل مسلم واقتناه وحفظه وتلا آياته، وفسر جملة وفهم معانيه، واجتهد على العمل بما جاء في هديه وتشريع.

### فرضية الدعوة إلى الله:

إن الدعوة في حق الجاحدين والمعاندين تعريف وبلاغ، وفي حق المستجيبين من أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة بناء وتكوين، فإذا حاولنا مع الجاحدين والمعاندين البناء والتكوين بعد التعريف والبلاغ فقد تجاوزنا بالدعوة حدودها وعرضناها للبعث والضياع، وإذا وقفنا بها مع المستجيبين من أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة عند حد التعريف والبلاغ، ولم نتخط ذلك إلى البناء والتكوين، فقد حجرنا واسعاً وعرضناها مع أولئك إلى الدمار والزوال<sup>(٢)</sup>.

ولعل ذلك هو ما ينطق به قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّايَ رَبِّنَا وَعَلَّمَهُمْ

(١) المرجع السابق، ص ١٦٦-١٦٩.

(٢) السيد محمد نوح، من أساليب الدعوة إلى الله: الدعوة الفردية، جمعية الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩١م، ص ٧.



يَتَّقُونَ ﴿ (الأعراف: ١٦٤)، ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَانُ ﴾ (المائدة: ٩٩)، ﴿ إِنْ عَلَيْنَا إِلَّا أَلْبَانُ ﴾ (الشورى: ٤٨)، ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

والدعوة إلى الله تعالى مشروعة على سبيل الفرض والإيجاب لا يصح إهمالها أو التواني والتفريط فيها، وذلك للأوامر الواردة في هذا الشأن مباشرة أو غير مباشرة، صريحة أو ضمنية، فمن الأوامر المباشرة قوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، وقوله ﷺ: «... لِيُبَلِّغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يَبْلُغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ»<sup>(١)</sup>. وقوله: «... بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»<sup>(٢)</sup>، فهذه جميعاً أوامر، والأمر إذا أطلق يفيد معنى الوجوب والإلزام ما لم تكن قرينة تصرف عن الوجوب إلى غيره، ولا قرينة هنا، ومن الأوامر الصريحة غير المباشرة قوله تعالى: ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَعْرَظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّدْ لَهُمْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)، ﴿ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الحج: ٦٧).

وقد بلغ النبي ﷺ في حياته بكل الأساليب والوسائل التي أتاحت له من الكلمة شفاهاً ومكتوبة، مباشرة أو بواسطة رسله، وكذلك بالسلوك التطبيقي، إذ هو الأسوة والقدوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً، وبلغ الدعوة أصحابه من بعده، وتتابع المسلمون في تبليغ الدعوة الإسلامية، فيجب أن يبقى الأمر على هذا النحو ما بقيت الحياة لا سيما ما يأتي زمان إلا وما بعده شر منه، والشر لا يواجه

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري.

بالسكوت وإلا لتحولت الأرض إلى بؤرة من الشر والفساد<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ (البقرة: ٢٥١).

## ٢- التجربة الحضارية التاريخية للإسلام:

### عرب الجزيرة حملة الفكر الإسلامي:

الحالة الجديدة التي دخل فيها العرب في الحياة الإسلامية أعطتهم التصور الواسع والدقيق عن الكون والحياة والإنسان، وأمدتهم بالحضور في مواقع الأحداث ليكونوا هم صانعيها، إن هذه الحالة هي الفكر العربي الإسلامي، وهي حالة لم تأت نتيجة تطور اجتماعي أو اقتصادي أو ثقافي أو فلسفي أو عسكري، وإنما جاءت عطاء من عند الله تعالى على غير موعد، منحة غير متوقعة ونعمة كبيرة لهذه البشرية النائية.. لقد كان دور الإنسان في هذا الفكر دور التلقي والأخذ، ثم الوعي والفقهاء، ثم العطاء والبذل، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ <sup>(١٦)</sup> **﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾** <sup>(١٧)</sup> **﴿فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبَحْ تُرْبَهُ أَنَّهُ﴾** <sup>(١٨)</sup> **﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾** (القيامة: ١٦-١٩)، فلقد تكفل الله بإقراءه الفرد وإن كان أمياً، وتكفل بحفظه في الصدور، وتكفل ببيانه.

وقد نتساءل: من هم أولئك الذين حملوا هذا الفكر واستجابوا له، وكانوا أول المستجيبين له؟ ما أصولهم؟ وما مكوناتهم؟ وما درجة استعدادهم؟ وكيف كان حالهم عشية نزول القرآن عليهم؟.

إنهم قوم لم تكن لهم دولة ولا حضارة، وكانوا يعيشون على أطلال ذكريات تربطهم بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهم نسب وصهر لهذين النبيين الكريمين، جمعوا في أنفسهم وفطرتهم بين نقاء الأصل وكرم المعدن وعظمة الاستعداد من جهة،

(١) السيد محمد نوح، مرجع سابق، ص ١٣-١٤.

وبين ضياع الهدف وجاهلية السلوك والاعتقاد والتشريع من جهة أخرى، وكانوا يتحركون بين هذين النقيضين، فتارة يشهد لهم كرم الأصل ونقاء الفطرة، وطوراً يقعون في حمأة الجاهلية وأرجاسها إلى أن جاء الإسلام، فخلصهم من أرجاس الجاهلية، وكشف عن استعداداتهم الكامنة ومعادهم الكريمة.

إن العرب لم يصابوا بعيوب الحضارة بل كانوا في جزيرتهم كالأرض البكر التي لم يجر عليها المحراث، ولم تزرع، حتى جاء أوان الحرث والزرع فكان الزارع نبياً رسولاً، علمه ربه تبارك وتعالى كيف يحرث وكيف يزرع: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُسَبِّحًا يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٢٩).

لقد التقى الإسلام بعقيدته الواضحة وشريعته الكاملة مع العرب، الذين لم يخوضوا تجارب حضارية معقدة قبل ذلك، فكان اللقاء لقاءً فجر طاقات تلك الأمة الوليدة الجديدة.

### صفات تأهيلية:

على الرغم مما كان عليه العرب من فساد في التصور وبعض الخلق إلا أنهم كانوا يمتازون من بين سائر الأمم بصفات تؤهلهم لحمل هذه الرسالة العظيمة، فقد كانوا مشهورين بالصدق، وكانوا مشهورين بنصرة الجار وإغاثة اللفهان، وبلغ من نصرتهم للحجار أن وقعت فيهم حرب البسوس.

كما تميز العرب قبل الإسلام بخلق يعتبر بمثابة القيم المعنوية التي يجاهدون لتحقيقها، فمكارم الأخلاق والمروءة هي مناط المدح والذم، والفخر والهجاء،

فالعربي لم يكن مادياً مهالِكاً على اللذة، ولا أنانياً شهوانياً، وهو على قلة القوت في أرضه وشح الطبيعة فيها لا يبيع شرفه ليأكل، وليس الطعام والشراب غاية حياته، حتى أنه يفضل الجوع مع العزة على الشبع مع الذلة وتحمل المنة، قال عنتره:

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أكرم منزل

لقد كان العربي قبل الإسلام يتجه نحو المثل العليا، ولا شك أن هذه المثالية في النزعة والاتجاه والدافع كانت تظهر في الوفاء والنجدة والإباء والشمم والكرم وحسن الحوار وغيرها من المكارم، وإن كانت كثيراً ما تضل طريقها حتى تذهب إلى إتلاف المال باسم الكرم، وإزهاق الروح وقتل الولد خوفاً من العار وحفظاً للشرف.

وهكذا انتقل عرب الجزيرة في فترة قصيرة من الزمن إلى أمة موحدة منسجمة، استبدلت بالتوزع إلى مجموعات قبلية وحدة مشتركة في العقيدة وفلسفة الحياة والسلوك، وبأفق القبيلة الضيق صعيد الإنسانية الرحب، وبدوافع الكسب والشرف بمفهومه القبلي دوافع وغايات بعيدة هي تحرير الإنسانية من الخضوع لغير الله وتحقيق العدالة بين الناس جميعاً على أساس من الإيمان بالله، وجعلت فوق روابط الدم والقرباة روابط الخضوع لله وحده، أي روابط الأخوة الإنسانية، وبدلاً من الغزو في سبيل العيش أو في سبيل كرامة القبيلة، أصبحت العرب تجاهد في سبيل الله، أي في سبيل الحق والخير وكرامة الإنسانية<sup>(١)</sup>.

إن العالم اليوم منتظر ومتربح لحضارة من نوع جديد، لنموذج إنساني ولبدأ ينشئ إنسانية سعيدة، ولرسالة قابلة للتعميم تجتمع عليها الأمم، متعاونة شاملة

(١) إبراهيم زيد الكيلاني وآخرون، دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٨م، ص ١٠-٣١.

لنواحي الحياة، وهذه الرسالة محتاجة إلى أمة تستطيع تمثلها والاضطلاع ببعثها والتبشير بها، فهذه الأمة قد اختيرت منذ الأزل، إنها الأمة العربية التي أعزها الله بالإسلام، والتي حدد الله مسؤوليتها بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٤)، وبقوله: ﴿لِنَعْلَمَ كُفْرًا شُهُدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣).

### الإسلام منهج للحياة:

المجتمع المسلم ينشأ من انتقال أفراد ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله إلى العبودية لله وحده بلا شريك، ثم من تقرير هذه المجموعات أن تقيم نظام حياتها على أساس هذه العبودية، وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد مشتق من المجتمع الجاهلي القديم ومواجه له، بعبقيرة جديدة ونظام للحياة جديد يقوم على أساس هذه العقيدة، وتمثل فيه قاعدة الإسلام الأولى بشطريها، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله إلى المجتمع الإسلامي الجديد وقد لا ينضم، كما أنه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه وإن كانت السنة جرت بأن يشن المجتمع الجاهلي حرباً لا هوادة فيها على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه - وهو أفراد أو مجموعات- أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلاً، وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية منذ نوح عليه السلام إلى محمد ﷺ بغير استثناء.

فما الأصل الذي ترجع إليه الحياة البشرية وتقوم عليه؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة؟ أم هو الواقع البشري أياً كان؟

إن الإسلام يجيب على هذا السؤال إجابة حاسمة لا يتلعم فيها ولا يتردد لحظة، إن الأصل الذي يجب أن ترجع إليه الحياة البشرية بمجملتها هو دين الله ومنهجه للحياة، إن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، التي هي ركن الإسلام الأول، لا تقوم ولا تؤدي إلا أن يكون هذا هو الأصل، وأن العبودية لله وحده مع التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله ﷺ لا تتحقق إلا أن يعترف بهذا الأصل ثم يتبع اتباعاً كاملاً بلا تلعم ولا تردد: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ (الحشر: ٧)، ثم إن الإسلام يسأل: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٤٠)، ويجيب: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: ١٩)، ﴿ وَمَا أَوْفَيْتُمْ مِنَ الْعَلِيمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٨٥).

ودين الله ليس غامضاً، ومنهجه للحياة ليس مائعاً، فهو محدد بالشرط الثاني للشهادة: محمد رسول الله، فهو محصور فيما بلغه رسول الله ﷺ من النصوص في الأصول، فإن كان هناك نص فالنص هو الحكم ولا اجتهاد مع النص، وإن لم يكن هناك نص، فهنا يجيء دور الاجتهاد وفق أصوله المقررة في منهج الله ذاته لا وفق الأهواء والرغبات: ﴿ فَإِنْ لَنْتَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (النساء: ٥٩).

إن التصور الإسلامي يقوم على أساس أن هذا الوجود كله من خلق الله، اتجهت إرادة الله إلى كونه فكان، وأودعه الله سبحانه قوانينه التي يتحرك بها، والتي تتناسق بها حركة أجزائه فيما بينها، كما تنسق بها حركته الكلية سواء: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (النحل: ٤٠)، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢)، إن وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره، وقدراً يحركه، وناموساً ينسقه<sup>(١)</sup>.

(١) سعيد حوى، الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٦٩، ج ١، ص ٣٦-٤٢.

## العقيدة رابطة التجمع:

المجتمع الإسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الأساسية، والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الأسود والأبيض، والأحمر والأصفر، والعربي والرومي، والفارسي والحبشي، وسائر أجناس الأرض، في أمة واحدة، ربها الله، وعبوديتها له وحده، والأكرم فيها هو الأتقى، والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم، ولم يشرعه أحد من العباد، إنسانية الإنسان هي القيمة العليا في المجتمع، والخصائص الإنسانية فيه هي موضع التكريم والاعتبار.

والحضارة الإسلامية يمكن أن تتخذ أشكالاً متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي، ولكن الأصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة، لأنها هي مقومات هذه الحضارة، العبودية لله وحده، والتجمع على أصرة العقيدة فيه، واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة، وسيادة القيم الإنسانية التي تنمي إنسانية الإنسان لا حيوانيته، وحرمة الأسرة والخلافة في الأرض على عهد الله وشرطه وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة<sup>(١)</sup>.

إن صور الحضارة الإسلامية التي تقوم على تلك الأسس الثابتة لها مرونة التأثير بدرجة التقدم العلمي والتكنولوجي في كل بيئة ومجتمع، ومن ثم لا بد أن تختلف صورها لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمجتمعات والمستويات والتكيف معها بالقيم والمقومات وفق الإطار والمنهج الإسلامي للحياة.

## مظاهر الحضارة الإسلامية :

الحضارة الإسلامية هي مجموعة القيم والاتجاهات المستمدة من الوحي الإلهي، التي تحكم النشاط المعنوي والمادي في المجتمع الإسلامي.. ومظاهر النشاط تبرز في الآتي:

(١) للمرجع السابق، ص ٤٩-٥٧.

١- المظهر العلمي: العلم عند الأمم إنما يكون لغايات معيشية دنيوية، وأما في الإسلام فأهميته تنبع من أنه السبيل إلى معرفة الله تعالى وحسن عبادته، وبه تصلح الدنيا والآخرة .

٢- مظهر الحفاظ على المنجزات الإنسانية: تعاملت هذه الحضارة مع منجزات الأمم الأخرى والحضارات السالفة من خلال أن الحضارة الإسلامية لم تبدأ من الصفر بل سبقتها حضارات، وأن الحكمة ضالة المؤمن، وأن التراث الإنساني هو ملك للبشرية جمعاء.

٣- مظهر الحفاظ على البيئة: البيئة الطبيعية تتكون من الماء والهواء والتربة والمعادن ومصادر الطاقة والنباتات والحيوانات، وجميعاً تمثل الموارد التي أتاحتها الله للإنسان كي يحصل منها على مقومات حياته.

٤- مظهر حقوق الإنسان: جاء الإسلام لينقذ الإنسانية من قيود الطبقية والتمييز العنصري، وقد جاء هذا الإعلان في الصيغة الربانية، حيث قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَانَكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣).

٥- مظهر الإدارة والسياسة: في الإسلام تنظيم لشؤون الناس في المجتمع المسلم ورعاية أمرهم وفق شريعة الله تعالى والسياسة كذلك، وقد عرفت السياسة الشرعية بأنها حراسة الدنيا بالدين.

٦- المظهر الجهادي: الجهاد هو بذل أقصى الجهد لتحقيق غاية معينة، والقتال نوع من أنواعه، والكلمة نوع من أنواعه كذلك، والجهاد يكون لدعوة الناس إلى الإسلام، ونصرة المظلومين والمستضعفين، وإرهاب العدو المتربص بالامة.



## ثانياً: الإمكان الثقافي والاجتماعي

### ١ - عالمية الرسالة وإنسانيتها:

#### الغرض السامي للرسالة:

لقد ظهرت أمة حضارية في جزيرة العرب، ووجد نوع جديد من البشر في هذه البقعة من الأرض، وهنا ينشأ تساؤل:

أي داع إلى ظهور أمة جديدة، والأمم على وجه الأرض كثيرة منتشرة، وما شغل هذه الأمة الحديثة؟ وما مهمتها في العالم؟

إذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للزراعة وعماراة الأرض، فقد كان في فلاحي الطائف وأكاري مدينة يثرب وزراع وادي الفرات والنيل وربوع الجانج غنى عن أمة زراعية جديدة، فقد أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبناً وعسلاً، وإذا كان المسلمون إنما بعثوا ليشغلوا بالزراعة فقط، فلماذا لم يعثوا في العراق وفي مصر والهند وهي بلاد خصبة وزراعية، ولماذا كان مبعثهم في واد غير زرع؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للتجارة، فقد كان في يهود يثرب وفي أنباط الشام وفي أقباط مصر وتجار الهند كفاية، فقد أحكموا فن التجارة وانتشروا في العالم، وإذا كانوا قد بعثوا ليشغلوا بالتجارة حقاً فلماذا لم يعثوا على طريق القوافل التجارية وبقر من أسواق التجارة الكبرى؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما بعثت للصناعة وأعمال اليد، فقد كان في مراكز البلاد المتمدنة وأصحاب الصنائع والحرف غنى وكفاية!

ما هو الجواب؟ إذا كان الجواب في الإثبات، وإذا كان مبعث هذه الأمة في الحقيقة بشيء مما ذكرناه ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة في العالم ورسالة خاصة إلى الأمم كانت هذه الأمة حقاً من فضول الأمم، ومن المتطفلين على مائدة العالم.

لقد كان مبعثها لغرض سام جداً، لمهمة غريبة طال عهد الإنسانية بها، وتشاغلت أمم الأنبياء عنها حتى نسيتها، وذلك ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، فنبه على أن هذه الأمة ليست نابتة نبتت في الأرض كأشجار برية أو حشائش شيطانية، بل إنها أمة أخرجت ولأمر ما أخرجت.. وأنها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر الأمم بل إنها أخرجت للناس، وذلك ما يمتاز به الأمة في التاريخ، فما من أمة إلا وهي وليد أغراضها ورهين بطنها وشهواتها تعيش لأجلها وتموت في سبيلها، أما الأمة الإسلامية فهي أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وتجاهد في سبيل الله.

بهذه الرسالة انبث عرب الجزيرة في العالم وحملوها إلى الملوك والسوقة ومختلف الألوان والأجناس، وفي سبيل ذلك هاجروا وجاهدوا، ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعثون من الله إلى الأمم وحاملو راية الإسلام في العالم. إن عرب الجزيرة قد انتشروا في عواصم الجاهلية الأولى، ومراكزها الكبرى يقولون: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

لقد خلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأحبار والرهبان والملوك، وخلصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض، والأمة الهندية من عبادة البقر، لقد أخرجوا تلك الأمم إلى عبادة الله وحده، وأخرجوها فعلاً من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، والعالم ينتظر منذ زمان رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية يهتفون: الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن إلى عبادة الله وحده،

ومن ضيق عالم التنافس والأثرة والجشع المادي إلى سعة عالم القناعة والإيثار والزهد ونعيم الروح وطمأنينة القلب، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية إلى عدل الإسلام<sup>(١)</sup>.

فهل يسمع أبناء الجزيرة العربية - التي أشرقت منها شمس الإسلام - مرة أخرى صراخ الإنسانية وعويلها وأنين الثكالى والمستضعفين في الأرض، فيهبوا من نومهم العميق وسباتهم الطويل حالياً، لينشروا الهدى ويخرجوا الناس من الظلمات إلى النور؟

**حقائق إنسانية في الرسالة:**

يؤمن المسلم بأنه مكلف بدعوة الناس كافة إلى الإسلام، وأن هدف حياته يتمثل في هداية البشرية جمعاء إلى حياة يكون فيها الإسلام دين الله بما فيه من علوم الدين والشريعة والأخلاق والفرائض، هو دين البشر جميعهم، وقد جاء هذا التكليف للمسلم في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ آدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّدْ لَهُم بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥).

## ٢ - الطاقة الروحية العالمية لقبلة المسلمين:

### اختيار إبراهيم عليه السلام مكان البيت:

نتساءل: لماذا اختار إبراهيم هذه البقعة النائية الجرداء لترك فيها طفله وأمه؟ ألم يكن هناك موضع آخر يليق بهما؟

لقد كانت الأماكن الخصبية الأهلة بالسكان مستعدة لاستقبال هذه الأسرة الصغيرة، ومقتضى التفكير العادي المستقل يقضي أن يتجه إبراهيم بقلده إلى المكان الخصيب المونس حتى يطمئن عليه، فما الذي دفعه إذن إلى هذا المكان المقفر؟

(١) أبو الحسن على الحسنى الندوي، إلى الإسلام من جديد، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨م، ص ٨-٢٢.

لا نستطيع أن نقول: إنها محض المصادفة، ولا نقول إنها نتيجة تفكير في اختيار المكان المناسب، فلم يبق إذن إلا أن يكون توجيه الله المحض، خضع له إبراهيم ونفذه، وكان إبراهيم أمة قانتاً يخضع لتوجيهه ولو كان ذلك في ذبح ولده، وإنما لنجد تصديق هذا فيما رواه البخاري قال: بعد أن روى تعلق هاجر بإبراهيم عند تركه لها بمكة، وقولها له: أين تذهب وتركننا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس؟ قالت ذلك مراراً، وهو لا يلتفت، فقالت أخيراً له: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم! فقالت: إذن لا يضيعنا.

ونتساءل: هل هذا المكان (مكان البيت) كان معروفاً ومقدساً لدى إبراهيم عليه السلام؟ يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، يتضح من قول إبراهيم: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أن إبراهيم كان يعرف أن هناك مكاناً مقدساً سماه بيت الله الحرام، وجعل الغرض من الحج إليه والفائدة من إسكان أسرته بجواره أنهم يقيمون الصلاة ويعبدون الله، فلا بد إذن أن تقديس هذه البقعة كان معروفاً على الأقل عند إبراهيم، وأن تقديسها سابق على عهده<sup>(١)</sup>.

وهكذا وضع إبراهيم عليه السلام نواة الحج إلى هذا البيت الكريم هو وابنه إسماعيل عليهما السلام، وتابع العرب من بعدهما الحج إلى بيت الله، لم ينقطعوا عنه في أي عهد بل بقي مكان حجهم وموضع تقديسهم برغم الخلط الذي طرأ على عبادتهم حين أشركوا بالله واتجهوا إلى الأصنام، ثم جاء الإسلام الحنيف فأحيا لهذه البقعة المحرمة

(١) عبد المنعم النمر، بين يدي الحج والعمرة، رسالة الحج، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ١٩٦٩م، ص ٦-١٠.

روحها، وأعاد إليها شعائرها ومناسكها السليمة، ومكانتها وقدسيتها لدى المسلمين، وفرض عليهم حجها لمن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

### الجزيرة العربية مركز الإسلام الأول:

الحج رمز ارتباط هذه الأمة الإسلامية بأبيها إبراهيم عليه السلام، حيث يحيي المسلمون شعائره ويطوفون بالبيت الذي بناه.

وهو رمز على وحدة الأمة الإسلامية، بصرف النظر عن الأجناس والألوان والأوطان، فوحدة المسلمين نابعة من عقيدتهم ودينهم وشريعتهم.

والحج مظهر عملي لكثير من قواعد الإسلام، فهو مظهر عملي للأخوة الإسلامية، ومظهر عملي للمساواة بين الشعوب الإسلامية، ومظهر عملي للجهد والصبر والعبادة واللطف مع المؤمنين، وإجماع النزوات، والبعد عن القسوة، والتعود على الإنفاق في سبيل الله، وتعظيم شعائر الله<sup>(١)</sup>.

كما أن الحج عودة بالمسلمين إلى حواضر الإسلام الأولى بالجزيرة العربية حيث شعائر إبراهيم ومحمد عليهما السلام، فتقوى في المسلم رابطته بهذه الحواضر على أنها وطنه الروحي وقبلته الوحيدة ووجهته العبادية ومنطلق تطلعاته وآماله المرجوة والمستحابة، فيرجع منه وقد تغير كثير من معالم وصورة الحياة لديه، فبعد أن كان ارتباطه بهذه الحواضر نظرياً، أصبح الارتباط حقيقة وواقعاً وحساً وعملاً.

فيخرج المسلم من هذه الرحلة وكأنه ولد من جديد: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرُقْثُ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»<sup>(٢)</sup>.

(١) سعيد حوى، مرجع سابق، ص ١٧٦-١٧٨.

(٢) رواه السنة إلا أبو داود.

## الحج مؤتمر عام للمسلمين:

الحج أوسع وأروع مؤتمر اجتماعي وسياسي عرفه العالم، ففيه يجتمع مئات الألوف بل الملايين من البشر القادمين من قرى ومدن لا تحصى يمثلون أوسع تنوع ممكن من الأعراق واللغات والثقافات والعادات والآراء التي تتفاعل مع بعضها بعضاً، وحين ينوي الحجاج بالحج فإنهم يتخلصون من تلك الحياة اللاهية التي ألهتهم عن التزاماتهم وتمسكهم بتعاليم الإسلام، التزاماتهم الخالصة لله تعالى وحسن عبادته، ولا عجب أن الحج كان له مثل هذا الدور الكبير على الدوام، فهو وسيلة تربية وإعلام وتوصيل وتوفيق بين الملايين على أوسع نطاق.

والحج فرصة اجتماع عام لعدد كبير من المسلمين على مختلف المستويات في جو من الروحانية الخالصة، فلو اجتمعت قوى الأرض على أن توفر مثله ما استطاعت، وهو اجتماع سنوي تتغير فيه الأشخاص والأجناس ويصل تعدادها إلى مئات الألوف كل عام.

كما أنه في هذا الجو الروحاني يمكن لقادة المسلمين ومسؤوليهم وعلمائهم أن يضعوا خططاً ومشروعات لتوجيه المسلمين التوجيه النافع لهم إيمانياً وروحانياً وإعلامياً وثقافياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

### ٣- عوامل التجانس بين أبناء الخليج والجزيرة العربية:

التجانس البشري بين أبناء الخليج والجزيرة العربية ناتج من التشابه في النظم الاجتماعية والعادات والتقاليد، أما الاختلاف في نمط العيش فإنه ناتج من اختلاف البيئة الجغرافية وتضاريسها ومناخها الذي طبع سكانها بطابعها وقدرتهم على التكيف والتعايش معها.

وسوف نجد أن القبائل والتجمعات البشرية التي عاشت على السواحل البحرية من الخليج العربي والجزيرة قد تكيفت مع محيط البحر ومستلزماته المعاشية.

والأقوام التي عاشت في المناطق الصحراوية والجلبية من الخليج والجزيرة العربية قد عاشت عيشة متنقلة مترحلة تبحث عن قوت الحياة والتكيف مع قسوة الصحراء ووعورة الجبال بحثاً عن الماء والكأ ورعي الغنم والإبل، سواء أكانوا بدو الصحراء أم سكان الجبال.

أما الأقوام التي عاشت في الوديان والسواحل الموجودة في أسفل الجبال فإنها اكتسبت معيشتها من الزراعة في السهل وصيد السمك في البحر وهي أكثر استقراراً من الأقوام التي تعيش في الصحراء والبادية.

فهناك تنوع في نمط المعيشة وليس في العرق والقومية والدين، بل جميع أبناء الخليج العربي بقباثلهم وتجمعاتهم تدين بالدين الإسلامي الحنيف، وتكلم اللغة العربية بلهجاتها المحلية، ولها عاداتها وأعرافها المتجانسة في علاقاتها الاجتماعية وتكوينها الأسري والعشائري ومصاهراتها وأكلها وشرابها وثقافتها وآدابها وقضائها لأوقات فراغها.

وعند ظهور النفط حصل تجانس أكبر واندماج أكثر وتكامل في مختلف النواحي الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والتعايش مع طبيعة الحياة الحديثة، فتبدلت المهن وزاد الدخل وارتفع مستوى المعيشة لدى أبناء الخليج، وتحولت كثير من الأعمال التقليدية إلى أعمال ومهن ووظائف متحضرة ذات اتصال ثقافي وتكنولوجي وتجاري متصل بالعالم الخارجي من خلال الشركات والمصانع والتنظيمات والمؤسسات العالمية المختلفة.

تلك هي أهم العوامل التي كان لها أدوارها المتميزة في التجانس والتشكيل المشترك بين أبناء الخليج والجزيرة العربية والتي تؤهلهم فعلاً للدور الرسالي وانبعث الأمة العربية والإسلامية من جديد.

وبناء على هذا.. سوف نعرض بالتفصيل لبعض عوامل التجانس بين أبناء المنطقة والتي تتمثل في: العقيدة الإسلامية والقرآن الكريم، ولغة ولهجات أبناء الخليج والجزيرة

العربية، والتاريخ المشترك، والعادات والتقاليد، وسكان الخليج والجزيرة العربية وطبيعتهم الأسرية والقبلية، والظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة العربية.

## العامل الأول: العقيدة والقرآن:

### دور العقيدة في تفجير طاقات أبناء الخليج والجزيرة العربية:

لعبت العقيدة الإسلامية دوراً مهماً في حياة أبناء الخليج والجزيرة العربية، بل نجدها تصوغ المجتمع صياغة جديدة، وتؤدي إلى تغيير كثير من مفاهيمه وطباعه ومثله وقيمه واتجاهاته وعاداته بل وتطلعاته، فإذا بأبناء الجزيرة العربية تتفجر طاقاتهم التي كانت الصحراء المحرقة تمتصها، وتتوجه نحو هدف عظيم وغاية نبيلة.

انطلقت هذه الأمة تحت راية العقيدة الجديدة التي آمنت بما تخترق الحدود المقفلة في وجهها، وتحطم الحواجز التي تفصل بينها وبين دولتي فارس والروم، وقبل أن تصحو هذه الدول من هول المفاجأة، إذا بالرايات التي تعودت ألا تنتكس أبداً تموي صريعة مخضبة بالدماء تحت أقدام أولئك الذين حملوا لواء الإسلام شاقين طريقهم عبر الوهاد والصحارى والأهوار، يعرضون مبادئهم التي دفعتهم إلى هذا الانطلاق<sup>(١)</sup>.

لقد كان المؤثر الأول لهذه الأمة هو القرآن الكريم، النور والهدى الذي كان الرسول الأمين ﷺ يتلوه عليهم صباح ومساء، فيفتح عيونهم وآذانهم وقلوبهم على ما لم يسمعوا به من قبل من عقيدة تتلاءم مع طبيعة الفطرة، يقودهم القرآن إليها بالحجة والبرهان والنظر والوجدان، فتطمئن نفوسهم وتدفعهم إلى الإيمان برسالة الإسلام وتزيدهم يقيناً بحمل رايتهما إلى البشرية وتبشرهم بإحدى الحسينيين، إما النصر وإما الشهادة في سبيل الله ونيل الجنة.

(١) أحمد على الملا، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية دار الفكر المعاصر بيروت، ١٩٩٦م، ص ٤٧ - ٤٨.



فالعرب في الخليج والجزيرة، بعد مجيء الإسلام، أصبحت لهم عقيدة واضحة ثابتة في التوحيد، حررت ضمائرهم ونظفت أسس تفكيرهم من كل ما لحق بالبشرية من أوزار الشرك والتعدد والانحراف، فليس هناك أمة في الدنيا من أهل الأديان السماوية كانوا أم من أهل الأفكار الأرضية ممن يؤمنون بوجود إله خالق يعتقدون بالتوحيد المطلق النزيه، ويثبتون لله جميع صفات الكمال دون تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تأويل كآمتنا الإسلامية المحيدة<sup>(١)</sup>.

### دور العقيدة الإسلامية في تجانس أبناء الخليج والجزيرة العربية:

تعتبر العقيدة الإسلامية الأساس الأول لبناء المجتمع، وعلى هذا الأساس ربي رسول الله ﷺ أصحابه، فأوجد المجتمع الفاضل في المدينة المنورة ومكة المكرمة وجزيرة العرب، فتكونت الأمة الإسلامية التي دانت لها الدنيا من مشرقها إلى مغربها. وسر توحيد العقيدة للمجتمع أنها تقوم على التوحيد المطلق لله في كل شيء، فالرب واحد، والرسول واحد، والرسالة واحدة، والقبلة واحدة، واللغة واحدة، والأهداف واحدة، والآمال واحدة، فلا بد معها أن تكون الأمة واحدة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

وقد أدت عقيدة التوحيد إلى تجانس أفكار أبناء الخليج والجزيرة العربية واتحاد مشاعرهم وبناء وحدتهم وتماسكهم بل وشعورهم بالمصير المشترك، مما زادهم ترابطاً وتكاملاً خاصة في الآونة الأخيرة من هذا العصر الموصوف بعصر التكتلات بين أصحاب المصالح المشتركة.

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تبنى مجتمعاً عالمياً، فكيف بهذه البقعة من أرض الجزيرة العربية، مهد الإسلام ومنبع هذه العقيدة التي ليست مقصورة على أرض أو فئة من البشر، فهي في رسالتها لا يحدها زمان ولا مكان؟

(١) محسن عبد الحميد، حركة التغيير الاجتماعي في القرآن، وزارة العدل والشؤون الإسلامية والأوقاف، دولة الإمارات العربية المتحدة، د.ت، ص ١٢٩.

## العامل الثاني: اللغة واللهجات:

### بين عربية جنوب الجزيرة وشمالها:

اللغة العربية هي إحدى اللغات السامية تكلم بها العرب في جزيرتهم منذ أن حلها قحطان رأس قبائل اليمن، ويسمون في التاريخ بالعرب العاربة لأصالتهم في العربية، ومن قبائل اليمن قبيلة (جرهم) التي سارت إلى مكة قبل أن يردها إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، فلما جاءها إسماعيل صاهرهم وأقام معهم، وكثر بنوه بمكة، وأخذ إسماعيل لغة العرب عن جرهم الذين عاشرهم، وإسماعيل وذريته يسمون في التاريخ بالعرب المستعربة، بسبب دخولهم في الأقوام العربية بالمصاهرة التي ليس أصلهم منها<sup>(١)</sup>.

واللغة العربية الجنوبية بلهجاتها المتعددة قديماً تختلف عن اللغة العربية الشمالية -التي هي المقصود بالعربية الفصحى- اختلافاً جوهرياً أساسياً في القواعد النحوية، والمظاهر الصوتية، والدلالات المعنوية، فمثلاً ورد في النقش السبئي العبارة التالية: «عمقم مراهيمو عشر شتر قرن واشمشهو والال تممو وباخيل ومقيمت خميس»، ومعناها «معجد سيدتم عشترت المشرقة وآلهتهم الشموس وسائر الآلهة وبحول وقوة الخميس (الجيش)»<sup>(٢)</sup>.

إن لهجة قريش ذات الأصل العربي الشمالي التي لعبت مختلف العوامل: السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية في الجزيرة العربية في إبرازها وتبوتها المكانة العالية واعتبارها اللغة العربية الفصحى باعتراف جميع القبائل العربية، والذي اتضح من خلال إنشادهم للأشعار وإبرازهم للخطب في نواديهم وأسواقهم الأدبية المعروفة، كانت أيضاً أغزرها مادة وأرقها أسلوباً وأغناها ثروة لفظية وأقدرها على التعبير

(١) محمد الخضري، محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، دار الفكر، دت، ج١، ص٤٤-٤٥.

(٢) صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م، ص٥٢-٦٧.

البلاغي الجميل في أفانين الأقوال والآداب المختلفة، لذلك ارتفعت في الفصاحة والمنزلة عن غيرها من لهجات القبائل العربية في ذلك الوقت.

### اللغة العربية لغة الحضارة الإسلامية:

اللغة العربية هي لغة الدين الإسلامي، التي يستعملها مليار مسلم أو يزيد في جميع أنحاء العالم، يتلون بها صلواتهم اليومية وكتابهم المقدس (القرآن الكريم)، وهي كذلك لغة القانون الإسلامي الذي يهيمن على حياة المسلمين كافة على الأقل في مجال الأحوال الشخصية، فهي لغة الحضارة الإسلامية التي تدرس في ألوف المدارس خارج العالم العربي، من أقصى بلاد غرب أفريقيا إلى أقصى بلاد جنوب شرق آسيا، بوصفها وسيلة التعلم أدباً وفكراً في ميادين التاريخ والأخلاق والشريعة وعلوم القرآن والحديث الشريف.

هذه اللغة هي لغة أهل الجزيرة العربية وما اتصل بها من أراضي الهلال الخصيب طوال ألف عام قبل ظهور الإسلام.

واللغة العربية تطورت واكتسبت عدداً كبيراً من الكلمات الفارسية والرومية والمصرية والسانسكريتية، لكنها استوعبت تلك الكلمات والمصطلحات فعربتها<sup>(١)</sup>.

والإسلام محتواه عقيدة وعبادة وسلوك، واللغة إنما هي تعبير عن هذا المحتوى، فهي وسيلة لا غاية، لذلك أرسل كل نبي بلغة قومه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا يَلْسِنًا قَوْمِهِ لِئَلْبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤)، وقد ذكر الله في القرآن الكريم أن من آياته اختلاف الألسنة والألوان: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَنَاقِرُ﴾ (الروم: ٢٢)، فشيء عادي إذن تعدد اللغات، غير أن رسالة الإسلام كانت بلغة العرب، وأن العالم كله مكلف بهذه الرسالة التي يتوقف فهمها

(١) إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي، مرجع سبق، ص ٥٨-٥٩.

على تعلم اللغة العربية، إذن فلا بد للمسلمين من تعلم هذه اللغة، يقول الشافعي رحمه الله: «إن الله تعالى فرض على جميع الأمم تعلم اللسان العربي بالتبع لمخاطبتهم بالقرآن والتعبد له».

والاهتمام باللغة العربية لا يعني هذا إثارة عصبية، بل إن تعلم اللغة العربية آت من فهم المسلمين للدين الإسلامي وعقيدته ومنهجه ونظمه وشرائعه، فدينونة المسلمين للإسلام يعني نطقهم باللسان العربي المرتبط بدينهم لا بقوميتهم أو تعصبهم بجنسهم<sup>(١)</sup>. من هنا نجد أن مختلف الشعوب والأقوام الذين كانوا يقطنون أنحاء من الجزيرة العربية وخاصة في منطقة الخليج (شرق الجزيرة) والذين كانوا يتكلمون بلغات أقوامهم، بدخولهم الإسلام انصهروا في لغته، وقد ذكر التاريخ الإسلامي أن دخول أهل شرق الجزيرة في الإسلام كان طواعية ورغبة، مما حدا بهم إلى حب الإسلام ولغته، فامتزجوا جميعاً في بوتقته مشكلين شعباً واحداً متجانساً اجتماعياً وثقافياً، لغتهم الرسمية هي اللغة العربية الفصحى ولسانهم المحكي اليومي هو لهجاتها المحلية الدارجة.

### سكان الخليج واللغة العربية:

في العصر الحالي اللغة العربية بمختلف لهجاتها هي اللغة الوطنية، واللغة العربية الفصحى هي اللغة الرسمية لسكان الخليج العربي وأرض الجزيرة، بجانب لغات أخرى مثل الإنجليزية، والمهندية، والأوردو، والكورية، والفلبينية، والبشتو، والفارسية، والسمهالية، والملايية، كل هذه اللغات يتكلم بها أهلها الذين يفدون إلى الخليج والجزيرة من أجل العمل، وتعتبر اللغة الإنجليزية إحدى اللغات الشائعة بسبب استخدامها في التجارة والمصارف والاتصالات والشركات والعلاقات الدولية، كما أنها لغة وسيطة بين مختلف المجموعات الوافدة إلى الخليج للعمل.

(١) انظر: سعيد حوى، مرجع سابق، ص ١١٤.

وعموماً ما يمكن القول: إن هناك ثلاث لغات تعمل في الخليج العربي، بصفتها لغات ربط واتصال، هي: اللغة العربية الفصحى، اللغة الرسمية، ولهجاتها المحلية هي المحكية والرابطة بين شعب الخليج العربي؛ واللغة الإنجليزية بالرغم من عدم تطبيقها قانوناً إلا أنها الفارضة لنفسها بشكل واسع كلغة ربط واتصال في المعاملات للمؤسسات والهيئات والمنظمات والشركات الدولية العاملة في الخليج؛ واللغة الهندية بلهجاتها المختلفة كالأوردو تعتبر لغة ربط بين الهنود والباكستانيين العاملين في دول الخليج العربي.

والناظر إلى طبيعة اللغات المستخدمة في دول الخليج العربي وأرض الجزيرة، يجد أن هناك تزامناً بينها في الاستخدام والربط والاتصال وتنافساً في المكانة والنبوؤ والأهمية، مما يدعو إلى الاهتمام باللغة العربية الفصحى، لأن تأخذ المكان اللائق بها في الاستعمال والاتصال والربط، وقد كان من غير الناطقين بالعربية ممن اعتنق الإسلام ينصرفون إلى تعلمها بكل ما يقدرون عليه من جهد، ولذلك تفوق الكثير منهم قديماً وحديثاً في إتقانها، وهكذا أبرزت كثيراً من الشعراء والأدباء والكتاب والباحثين في مختلف العلوم الشرعية والعربية، فساهموا مساهمة كبيرة في تطوير الحياة في نواحيها المختلفة.

وإذا كان أبناء الجزيرة العربية قد ساهموا قديماً في نشر لغتهم من واقع حرصهم على نشر الإسلام ودعوته في بقاع الأرض خارج الجزيرة، فعم بما النور والهدى، وإذا كانت هذه اللغة (لغة القرآن) قد وهدت طوائف الخليج وسكانه منذ فجر اعتناقهم الإسلام.. فإنه حري بأهل الخليج والجزيرة في هذا العصر أن يهتموا بما يتمسكهم بالإسلام وهدى القرآن، هذا الدافع هو الذي سيحملهم على حفظ اللغة العربية والاعتزاز والارتفاع بها على بقية اللغات التي تراجعت، كما أن استعمالها في الحديث اليومي مع مختلف الأجناس والأقوام في مختلف المعاملات والاتصال والمناسبات وزيادة معرفتهم بمصطلحاتها ومفرداتها وصيغها وأساليبها البلاغية، يجعلهم يتذوقونها ويجسسون بجمالها فيفخرون بها في مختلف الأماكن والمحافل.

## العامل الثالث: التاريخ المشترك:

### انتشار الإسلام في الخليج والجزيرة العربية:

الدعوة الإسلامية لم تخص - كما أسلفنا - أهل مكة وحدهم، فلم تكن دعوة قبلية، ولم تخص الحجاز وحده، فلم تكن دعوة إقليمية، ولو كانت كذلك لاكتفى رسول هذه الدعوة عليه الصلاة والسلام بعد أن اتخذ من المدينة المنورة قاعدة لدولته الناشئة.. كما لم تكن دعوة عربية، ولو كانت كذلك لاكتفى الرسول ﷺ بانتشار الإسلام في قلب الجزيرة العربية، وعلى أطرافها في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين، لذلك فقد تجاوزت حدود الجزيرة العربية في حياة الرسول ﷺ والخلفاء من بعده، انسجاماً مع أمية هذه الدعوة وعالمية هذه الرسالة؛ بأنها للناس أجمعين على اختلاف ألوانهم وأجناسهم: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ إِنْ أَرَادُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ مَلَكُوتٌ فَلْيَكُونُوا لِلدِّينِ عَدُوًّا وَإِلَى الْكُفْرَانِ وَلَئِنَّ الْكُفْرَانَ كَذَبٌ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨).

كما أن الرسول ﷺ عبر عن سياسته في تعميم نشر الدعوة الإسلامية بين العالمين من خلال الكتب والرسائل التي وجهها إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، وإلى ملوك وحكام العالم المعاصر آنذاك.

إن سرعة انتشار الإسلام في الخليج، في كل من منطقتي عمان والبحرين، كان مرجعه إلى الآتي:

١- ارتباطه بانتشار الإسلام في الحجاز في أعقاب صلح الحديبية، إذ أتاح ذلك للقيادة الإسلامية في المدينة المنورة التفرغ لمواجهة يهود خيبر في شمال الحجاز، وهذا الصلح وما ترتب عليه من فتح مكة وغزو الطائف وسيادة الإسلام لأول مرة على إقليم

الحجاز منذ السنة الثامنة للهجرة، أتاح للرسول ﷺ أن يوجه الدعوة إلى قلب الجزيرة العربية وأطرافها بما في ذلك عمان والبحرين، وإن سلسلة الانتصارات التي حققها المسلمون كانت مصدر قوة للإسلام والمسلمين في كل بقعة من الجزيرة العربية.

٢- ارتباطه بإرهاصات ظهور نبي جديد من قبل بعض سكان البحرين بحكم الاتصال الحضاري وملتقى كثير من الديانات كالنصرانية واليهودية والمجوسية على سواحل الخليج، وما ترتب على ذلك من أن بعض السكان أصبح على استعداد نفسي لاستقبال دين جديد.

فانتشار الإسلام في عمان تم حين أوفد الرسول ﷺ عدداً من الرسل محملين برسائل إلى أمراء أطراف الجزيرة العربية، بعد فتح المسلمين لمكة في السنة الثامنة للهجرة، وقد أوفد الرسول ﷺ عمرو بن العاص السهمي وأبا زيد الأنصاري إلى جيفر وعبد ابني الجلندي ومعهما كتاب يدعوهما به إلى الإسلام جاء فيه «بسم الله الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي، أما بعد: فأني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فأني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فإن أسلمتما وليتكما، وإن أبيتما فإن ملككما زائل، وخيلي تطئ ساحتكما، وتظهر نبوتي على ملككما»<sup>(١)</sup>.

أما انتشار الإسلام في البحرين فإنه لم يكن بنفس الشمول والدرجة التي حدث بها في عمان، وأول رسول أرسل إلى سكان البحرين لدعوتهم للإسلام هو العلاء بن عبد الله الحضرمي، حليف بني عبد شمس، سنة ثمان للهجرة، وقد حمل رسالة من الرسول ﷺ إلى المنذر بن ساوي التميمي وإلى سييخت مرزبان هجر يدعوها إلى الإسلام أو الجزية، وكان نص الرسالة الموجهة إلى المنذر بن ساوي «بسم الله الرحمن

(١) محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية بدار الفكر اللبناني، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م، ص ٥٧.

الرحيم: من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام على من اتبع الهدى،  
أما بعد: فإني أدعوك إلى الإسلام، فأسلم، تسلم، أسلم يجعل الله لك ما تحت  
يديك، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر»<sup>(١)</sup>.  
قانون الإبتلاء للأمة:

لقد نعم أهل الخليج والجزيرة العربية بالعزة والقوة والوحدة تحت راية الإسلام  
الحنيف المتمثل في دولة الخلافة الإسلامية التي تعاقبت على حكم الأمة الإسلامية،  
ابتداءً من عهد الرسول ﷺ ثم عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ثم عهد  
الخلافة الأموية وتلاها عهد الخلافة العباسية، فكان الخليج العربي وبالذات سواحله  
وعمان الداخل بين الولاء الكامل لهاتين الخلافتين وبين محاولة الخروج عن هذا الولاء  
والحكم الذاتي، فكانت بين قرب وابتعاد، إلى أن جاءت الخلافة العثمانية، فأعدت  
القوة مرة أخرى إلى العالم الإسلامي وبقي الخليج العربي ضمن هذه القوة.  
إلا أن طبيعة الاستعباد الذي ابتليت به الأمة الإسلامية، خاصة في فترات  
الضعف التي أصابت هذه الخلافة الأخيرة، الاستعباد للشعوب المسلمة من حكامها  
في مختلف الأرجاء من البلاد العربية والإسلامية ومنها منطقة الخليج العربي، مما مهد  
لاستعباد أشد هو استعباد المستعمرين الأوربيين الأجانب.

لقد عبر عن ذلك العلامة أبو الأعلى المودودي قائلاً: إن الاستعباد الذي ابتلينا  
به في القرن الماضي إنما كان نتيجة محتومة لانحطاطنا الديني والخلقي والفكري الذي  
كنا متردين فيه من قرون عديدة، إذ كان قد بلغ بنا الأمر من الضعف والتقهقر  
والانحطاط، حيث لم يعد من الممكن أن يقر لنا قرار أو أن نثبت على أقدامنا  
بأنفسنا، ففي مثل هذا الوضع كان من المحتوم أن تحمل بنا نازلة من النوازل، فها هي

(١) المرجع السابق، ص ٦٤.



ذي قد نزلت في صورة الاستعمار الأوربي وفقاً لقانون الطبيعة<sup>(١)</sup>، فهذا القانون مقدر من الله تعالى على عباده: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا فَنَفْسَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحَكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

### سوء الأوضاع السياسية في العالم الإسلامي ومنطقة الخليج:

شهدت منطقة الخليج والجزيرة العربية في مطلع القرن السادس عشر تطورات تاريخية بالغة الأهمية، حيث يعد قدوم البرتغاليين إلى الخليج بداية للعصر الحديث في المنطقة، فقد فتح البرتغاليون بقدومهم إلى المحيط الهندي الباب أمام الدول الأوروبية الأخرى التي أخذت منذ ذلك التاريخ في البحث عن موضع قدم لها في المناطق المطلة على سواحل هذا المحيط.

ومما زاد الأوضاع سوءاً تلك الحالة السياسية التي كان عليها العالم الإسلامي آنذاك، فقد كانت هناك ثلاث دول إسلامية كبرى تتصارع فيما بينها من أجل السيطرة على المشرق الإسلامي: المماليك في مصر، والصفويون في إيران، والعثمانيون في آسيا الصغرى.

أما على الساحة الخليجية فلم تكن الأوضاع السياسية بأفضل من غيرها من المناطق الإسلامية، ففي عمان كان النبهانيون يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وفي الخليج (البحرين) فإن إمارة بني جبر لم يكن بمقدورها فعل شيء تجاه هذه المتغيرات الإقليمية لعدم مواكبتها التطور الذي شهده ذلك العصر، أما مملكة هرمز في جنوب

(١) أبو الأعلى المودودي، واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، السعودية، ١٩٨٥م، ص ١٣١.

الخليج، والتي كانت أهم تلك القوى المحلية، فهي الأخرى اتمارت قواها العسكرية بعد أن سيطر البرتغاليون على حركة الملاحة والتجارة في المحيط الهندي، الركيزة التي كانت تعتمد عليها مملكة هرمز<sup>(١)</sup>.

## العامل الرابع: العادات والتقاليد

### تجانس العادات بين المسلمين:

تميز الأمة الإسلامية بتجانس وتقارب في العادات والتقاليد والسلوك والآداب، لأن كل مسلم له في الرسول ﷺ أسوة حسنة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: ٢١).

فالمسلمون جميعاً يأكلون على هيئة واحدة، وينامون على هيئة واحدة، وحتى دخولهم الحمامات فإن لهم أدباً واحداً فيها، وآدابهم في السلام والزيارة والعبادة والجلوس والعطس.. وغيرها من الآداب، فإن لهم فيها تجانساً وتشابهاً واحداً.. ونجد ذلك التجانس واضحاً في المجتمع الخليجي المسلم في مختلف عاداته وتقاليده وأنماط سلوكه.

ويدعو الإسلام إلى بناء المجتمع الفاضل، الذي تسود فيه القيم الأخلاقية التي تضبط سلوك الإنسان، وتبقيه في إطار إنسانيته، وتحول بينه وبين الوقوع أسيراً بين غرائزه وشهواته التي تؤدي إلى انحراف المجتمع.

لقد وضع الإسلام لذلك نظاماً أخلاقياً ينسجم مع الفطرة السليمة، ويعالج الانحرافات السلوكية التي تقع نتيجة لتغلب النزعة الحيوانية على النزعة الإنسانية، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (الأعراف: ٣٣).

(١) مجموعة من أساتذة جامعة الإمارات العربية المتحدة، دراسات في مجتمع الإمارات، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٩٧م، ص ٣٨ - ٣٩.

ولم يقف الإسلام عند حدود المواعظ والتوجيهات والتحريم المجرد، بل وضع لذلك مخططاً تربوياً عملياً دقيقاً في سبيل الوصول إلى المجتمع الفاضل، يتلخص فيما يأتي:

- ١- الاعتراف الكامل بدور الغرائز في الحياة، والدعوة إلى صقلها وتهذيبها.
- ٢- اللجوء إلى التربية في المؤسسات الاجتماعية، كالأُسرة والمدرسة وجمعيات الرعاية المختلفة.
- ٣- تهيئة الجو الملائم للقضاء على الأسباب التي تؤدي إلى الانحرافات، فكل ما أدى إلى الحرام فهو حرام.
- ٤- شرع الإسلام نظاماً عقابياً يتعمق إلى جذور المشكلات.

### التجانس الاجتماعي بين أهل الخليج العربي:

البناء الثقافي أقوى البنيان في صياغة المجتمع الخليجي، لأنه يحتوي على المقدرات البشرية والتنظيمية والفكرية التي تعمل على المحافظة على تماسك المجتمع وعدم انحرافه، من خلال التوجيهات والتعاليم ذات الأصول العربية التي هذبها الإسلام بمفاهيمه السماوية، برغم التطور الذي حدث في المجتمع الخليجي بسبب المورد الاقتصادي (النفط) الذي غير من طبيعة حياتهم نحو الحياة العصرية، ومحاوله تأثر بعضهم بالحياة الغربية، إلا أن العادات والتقاليد الخليجية والمعتقدات ظلت سائدة، كطراز الأزياء وطريقة العيش في المسكن والمأكل ومراسيم الزواج والولادة والروابط الأسرية والقرابية والتنظيمات القبلية.

لقد حدثت بعض التغيرات في الحياة المادية والتقنية والعمرانية، بالذات في المدن والمراكز السكانية الكبيرة في المجتمع الخليجي، ووفد إليها العديد من الأجناس من المجتمعات غير العربية، وبعضهم من المجتمعات غير المسلمة الأوروبية والآسيوية،

فأحدثت تأثيراً في اللغة واللهجة المحلية، وتغيراً في بعض أساليب التنشئة الأسرية عن طريق المربيات والخادמות في كثير من البيوت الخليجية، لكنه على الرغم من ذلك بقي بناء المجتمع الخليجي بناءً عربياً مسلماً في تركيبته وتعاملاته، محافظاً على مفاهيم وقيم وعادات الصحراء والبحر والقبيلة والأسرة الخليجية.

ويبرز التحانس الاجتماعي في التشابه الكبير في النظم الاجتماعية، وفي العادات والتقاليد والأعراف، فبالرغم من اختلاف أنماط المعيشة في المدن والقرى والبادية في الخليج العربي، إلا أن هنالك قاسماً مشتركاً أعظم في العادات والتقاليد والأعراف، وهذا لا ينفي أن أهل البادية هم أكثر تمسكاً ومحافظاً على العادات والتقاليد العربية التي ترجع في أصولها القبلية الأولى إلى قلب الجزيرة العربية وجنوبها، ويظهر التشابه في الأهمية التي يوليها أبناء المجتمع الخليجي للأسرة وللجماعة القرابية (القبيلة) بعامه.. كما يظهر التشابه في عادات وتقاليد المناسبات الاجتماعية المختلفة، كالزواج والميلاد والوفاة والاحتفال بالأعياد والأحداث والمناسبات الدينية والوطنية.

### التكافل الاجتماعي في الخليج العربي:

نظام التكافل الاجتماعي في الخليج العربي مستمد من الأصول العربية القديمة ومن الدين الإسلامي الحنيف، خاصة وأن طبيعة سكان المنطقة يعيشون في إطار الأسرة والقبيلة التي من سماها التكافل والنصرة، أما الدين الإسلامي فإن نصوصه تدعو إلى التكافل الاجتماعي والحث على التعاون والمساعدة والإنفاق، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا أَصَدَقْتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَعْلُومِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَدِيرِمْ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠)، ويتضح هذا النظام التكافلي في: الزكاة، والنفقة، والصدقة، وإسعاف الجائع والمحتاج، ومساعدة الداخلين في الإسلام والغارمين، والفقراء، وبذل

المال للمجاهدين في سبيل الله وطلبة العلم، والإيثار، والوصية والهدية، والإعارة، والرهن، والوقف، والضيافة.

وتسعى أغراض السياسة الاجتماعية في الدول الخليجية عامة إلى<sup>(١)</sup>:

١- رفع المستوى المعيشي لأفراد المجتمع عن طريق تقديم الخدمات الصحية والتعليمية والخدمات التنموية.

٢- العمل على حل المشكلات الاجتماعية والصحية والاقتصادية عن طريق إشباع أكبر قدر من الحاجات.

كما سعت دول الخليج العربي أن تقدم الضمان الاجتماعي والرعاية الاجتماعية لأبنائها عن طريق الآتي:

١- تقديم الخدمات الاجتماعية تلبية للحاجات الأساسية للمواطنين، مثل الرعاية الصحية، والاهتمام بالتعليم من خلال فتح المدارس الحكومية.

٢- توسيع مفهوم الرعاية الاجتماعية من تقديم المساعدات العينية والمادية إلى الأخذ بالأساليب الوقائية والتنموية لدعم أفراد المجتمع.

٣- وضع قوانين وتشريعات للتكافل والرعاية الاجتماعية تستند على التعاليم الإسلامية والأصول والعادات والتقاليد والأعراف العربية.

٤- السعي إلى تقديم خدمات اجتماعية حديثة، وتقوية العلاقة بين المواطنين والدولة.

٥- طبع أنشطة التكافل والرعاية الاجتماعية بطابع مؤسسي حكومي وشعبي عبر المؤسسات والوزارات والجمعيات المختلفة.

٦- إفساح المجال للمنظمات الدولية في تقديم الرعاية الاجتماعية من خلال الدعم للمشروعات الاجتماعية.

(١) معن خليل عمر، مجتمع الإمارات والمفاعيل العملاقة، دار الكتاب الجامعي، العين، دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠١م، ص ٣٥٢.

## العامل الخامس: الطبيعة الأسيية والقبليية

### سكان الخليج والجزيرة العربية:

استقر العرب منذ القديم في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية، وفي منطقة عمان والساحل الغربي للخليج العربي، ويذهب بعض العلماء والباحثين في أصل الأجناس والسلالات إلى أن العرب هم الأصل للعرق السامي، ومن أرومتهم تفرعت الأقبام الأخرى، كما يرى بعضهم أن الجزيرة العربية هي المهد الأول للساميين، ومنها تعاقبت الهجرات إلى الهلال الخصيب منذ منتصف الألف الرابع قبل الميلاد، ثم تلاها هجرات إلى بلاد الشام، حتى أن الجزيرة العربية شُبهت ببحر يرسل أمواجاً بشريية متتابعة، في حقب متعاقبة، أو بخزان زود الهلال الخصيب بالسكان.

ورغم أن نظام الحياة العربية كان قبلياً إلا أن ذلك لم يمنعهم من إنشاء أنظمة اجتماعية، وتأسيس ممالك وأسر حاكمة، ولا سيما في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية، حيث قامت الدولة المعنية والسبئية والحميرية، حتى أن هذه الدول بسطت نفوذها في الشمال بما أنشأت من مراكز تجارية.

ويذهب بعض الباحثين إلى أن من أولى الأقبام التي نزحت إلى شواطئ الخليج حين طرأ الجفاف على أواسط شبه الجزيرة العربية الكنعانيين، ولعل ذلك كان في الألف الثالث قبل الميلاد، وقد استطاب الكنعانيون الإقامة على بعض الينابيع في جزيرتي (تاروت) و(آراد) من جزر البحرين، ثم انتشروا على الساحل، ثم ما لبثوا أن رحلوا في وقت لاحق إلى سوريا، ومنهم تفرع الفينيقيون الذين امتدت أسفارهم إلى البحر الأحمر، فاحتكروا تجارته وتجارة بلاد العرب وسواحل الخليج العربي.

## أصل عرب الجزيرة :

لقد صنّف عرب الجزيرة إلى قسمين رئيسين هما :

- العرب البائدة: وهي القبائل التي انقرضت ومنها: طسم وجديس وعاد وثمود.

- العرب الباقية: وهما قسمان:

- العرب القحطانية: وهم في الأصل من اليمن، ويطلق عليهم العرب العاربة،

وقد تشعبت قبائلهم وبطونهم من سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، فكان منه بطون حمير، وأشهرهم: زيد الجمهور، والسكاسك، ومنهم بطون كهلان، وأشهرهم همدان، وأثمار، وطيء، ومذحج، وكندة، ولخم، وجذام، والأزد الذين منهم الأوس والخزرج، وأولاد جفنة ملوك الشام<sup>(١)</sup>.

- العرب العدنانية: وهم من عرب الحجاز وقحمة، ويطلق عليهم العرب

المستعربة، وقد تشعبت قبائلهم وبطونهم من عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام، والذي جاء إلى مكة وساكن جرهم وصاهرهم، وقام ببناء البيت الحرام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٧)، ولم تنزل أبناء إسماعيل بمكة تتناسل حتى كان منه عدنان وولده معد ومنه حفظت العرب العدنانية أنسابها، ويقال لبطون هذا الشعب المعدية والنزارية<sup>(٢)</sup>.

ومن أولى القبائل العربية البائدة التي استوطنت منطقة الخليج هي طسم،

كما امتد سلطان جديس حتى شمل اليمامة، ويجمع طسم وجديس أصل واحد.

(١) محمد الخضري، مرجع سابق، ص ١١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤.

وأما العرب الباقية، فإن عرب الشمال العدنانية أول من سكنت بطونها البحرين، وتعد قبيلة قضاة، وهي فرع من القبائل العدنانية، أول من نزع إلى هذه المنطقة في أوائل القرن الأول للميلاد، وقد حدث في هذه الفترة هجرة بعض القبائل إلى هذه المنطقة تنزعها قبيلة الأزدي فانضموا إلى قضاة، ثم أصبح يطلق على القبيلتين اسم تنوخ وهي مزيج من قضاة والأزد، ويبدو أيضاً أن مجيء إياد إلى البحرين تزامن مع وجود الأزدي فيها وقد استقروا في أوال جزيرة البحرين الحالية.

كما أن بطون عبد القيس من العرب العدنانية انتشرت في أكثر أجزاء البحرين، وقد برز منها الشعراء والخطباء، فبرز منهم طرفة بن العبد صاحب المعلقة المعروفة التي مطلعها:

لمية أطلال بريقة ثمهد      تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ومن القبائل التي سكنت منطقة الخليج بكر بن وائل التي استوطنت هذه المنطقة قبيل الإسلام.

وأما قبيلة بني تميم فتعد من أكبر القبائل العربية التي استوطنت هضبة نجد وامتدت سيادتها من الحجاز إلى الأطراف الشرقية للجزيرة العربية، وأصلها يعود إلى مضر وعدنان.

وتشير بعض الروايات إلى أن الأزدي خرجت من اليمن بعد انهيار سد مأرب، ومن بطونهم التي توجهت نحو عمان: ربيعة وعمران بنو عمرو بن عدي بن حارثة ابن عمر بن عامر، ومن عمان انتشروا بالبحرين وهجر، أما روايات أخرى فتشير إلى أن الأزدي أقاموا بستهامة، ثم وقعت الفرقة بينهم فصار كل فخذ منهم إلى بلد، فمنهم من قصد عمان، ومنهم من قصد اليمامة والبحرين<sup>(١)</sup>.

(١) محمد أرشيد العقيلي، مرجع سابق، ص ٣٣-٤٠.



## هجرات أهالي الجزيرة العربية:

كان أهالي الصحراء العربية يهاجرون إلى الهلال الخصيب في الشمال منذ أقدم العصور، وكانوا يرحلون سيراً على الأقدام أو على ظهور الجمال والحمير في طريق يدور حول الأصقاع الشمالية من الجزيرة العربية، وكانت الأقسام الغربية من الجزيرة هي الأكثر ازدحاماً بالسكان، ومن تلك المنطقة كان طريق الهجرة يتجه بشكل طبيعي نحو الشمال قدماً باتجاه الأردن وسوريا، ثم ينحرف شرقاً إلى الذروة الشمالية من حدة الجزيرة، وينحدر إلى الجهة الغربية من بلاد ما بين النهرين نزولاً إلى الخليج العربي. ولم تكن حركة السكان مقصورة على الهجرة من الصحراء إلى الهلال الخصيب في الشمال، فقد حدثت هجرة مشابهة في الاتجاه المعاكس<sup>(١)</sup>.

وبعد الإسلام حدثت هجرات لأهالي الخليج والجزيرة العربية إلى بلدان مختلفة في العالم لنشر الإسلام، فقد هاجرت جماعات كبيرة وقبائل مختلفة من الخليج والجزيرة العربية إلى البلاد المجاورة وما تلاها من البلدان، وساعدت هذه الهجرات على انتشار الإسلام في مختلف بلاد العالم حتى إندونيسيا والفلبين.

أما الهجرات العربية إلى شرق أفريقيا فقد مرت بمراحل ثلاث هي<sup>(٢)</sup>:

الأولى: رحلات من الخليج والجزيرة العربية إلى شرق أفريقيا طلباً للتجارة.

الثانية: مرحلة الإقامة بالجزر الساحلية كمحطات في الطريق.

الثالثة: مرحلة إنشاء المدن الإسلامية على ساحل شرق أفريقيا.

وهناك طرق أخرى سلكها أهل الخليج والجزيرة العربية لنشر الإسلام في عموم

أفريقيا هي :

(١) إسماعيل راجي الفاروقي ولويس لمياء الفاروقي، مرجع سابق، ص ٤٣.

(٢) عبدالرحمن حميدة وآخرون، الجغرافية الإقليمية للعالم الإسلامي، الصف الثالث الثانوي، وزارة المعارف، المملكة العربية السعودية، ١٩٧٧م، ص ٣٠.

- ١- طريق برزخ السويس.
- ٢- طريق الواحات عبر الصحراء حتى غربي القارة.
- ٣- طريق القوافل من تونس وجنوب الجزائر والمغرب إلى شمال نيجيريا.

٤- طريق بلاد اليمن وحضرموت إلى الصحراء الشرقية ووادي النيل.

### الأسرة والقبيلة في الخليج والجزيرة العربية:

النظم الاجتماعية ظاهرة إنسانية عامة إلا أن طبيعتها وأهميتها وعلاقتها قد تختلف من مجتمع لآخر ومن وقت لآخر، ومن أهم النظم الاجتماعية التي عرفت في منطقة الخليج والجزيرة العربية النظام الأسري والقبلي: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ (الحجرات: ١٣).

فتعد الأسرة والقبيلة عصب الحياة الاجتماعية والسياسية في مجتمع الخليج والجزيرة العربية.

وتتسم الأسرة والقبيلة بالتضامن الاجتماعي والترابط والتآزر والاحترام المتبادل. وتمثل الأسرة الوحدة الأساسية للنظام القبلي، ومجموعة الأسر تكون عشيرة أو فخذاً، ومجموعة العشائر (الفخوذ) تكون قبيلة، ومجموعة القبائل تكون حلفاً قبلياً كبيراً، ويزداد النظام القبلي صرامة وتمسكاً به أكثر في الصحراء والبادية من أرض الجزيرة العربية.

لقد طرأت بعض التغيرات في النظام الأسري والقبلي في الوقت الحاضر في دول الخليج العربي، من ذلك:

- ١- قيام مؤسسات الدولة بالمشاركة في عملية التنشئة الاجتماعية، التي كانت في الماضي قائمة على الأسرة فقط.

٢- الاعتماد في تنشئة الأطفال والعناية بهم على المريات الأجنبية (الآسيويات) في كثير من بيوت الخليج العربي خاصة بيوت الموسرين منها، وكذلك بيوت فئات متوسطي الدخل فما فوق.

٣- زواج بعض أبناء الأسرة الخليجية من أجنبيات، خاصة من الدول الآسيوية وبعض الدول الغربية أحياناً، فوردت عادات وطبائع غريبة عن المجتمع، أثرت على الأبناء في الأسرة.

٤- انشغال الأب والأم بالعمل خارج المنزل أثر على رعاية الأبناء في الأسرة، لعدم وجود الوقت الكافي لرعايتهم من قبل الوالدين.

٥- بروز الاقتصاد والدخل عن طريق المؤسسات الحكومية والخاصة وانحسار وضعف الاقتصاد المهني الأسري.

٦- اعتماد الأسرة على التكنولوجيا الحديثة في تجهيزات المنازل كالغسالة والثلاجة والفرن الآلي وغيرها من الآلات والأدوات الميكانيكية والإلكترونية، مما أدى إلى توفير الوقت والجهد الذي كان يبذله أفراد الأسرة خاصة الأم.

### العامل السادس: الظروف الطبيعية والجغرافية للخليج والجزيرة:

#### حدود جزيرة العرب والخليج العربي:

يطلق العرب على قطعة الأرض التي نشأوا فيها (جزيرة العرب) مع أنها لم تتم إحاطتها بالماء، كما قال يا قوت الحموي في معجم البلدان نقلاً عن هشام بن محمد السائب عن ابن عباس: إنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر، وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد

العراق حتى وقع بناحية البصرة والأيلة وامتد إلى عبادان، وأخذ البحر في ذلك الموضع مغرباً مطيفاً ببلاد العرب منعطفاً عليها، فأتى منها على سفوان وكاظمة إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين وقطر وعمان والشحر، ومال منه عنق إلى حضرموت وناحية أبن، وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك، واستطال ذلك العنق فطعن في ثنائم اليمن بلاد فرسان وحكم والأشعرين وعك، ومضى إلى جدة ساحل مكة والجار ساحل المدينة، ثم ساحل الطور وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ القلزم فمصر وخالط بلادها وأقبل على النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر حتى دفع في بحر مصر والشام، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها وأتى صور ثم سواحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منحطاً على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق<sup>(١)</sup>.

أما حدود إقليم الخليج العربي فإنه يشكل الذراع البحري المتفرع من بحر العرب الذي يطوق الجزيرة العربية من الجنوب والمكمل للمحيط الهندي، ويتكون من خليج خارجي وهو خليج عمان وخليج داخلي وهو الخليج العربي، بالإضافة إلى مضيق هرمز الذي يصل الخليجين أحدهما بالآخر، ويصل عرضه إلى ٦٠ كيلومتراً، ويعتبر الخليج الغربي بحراً ضحلاً لا يزيد متوسط عمقه عن ٣٥ متراً، بينما يصل أقصى عمق له حوالي ١٠٠ متر بالقرب من مضيق هرمز، ويبلغ طول الخليج حوالي ١٠٠٠ كيلو متر، بينما يتراوح عرضه بين ٢٠٠ و ٣٠٠ كيلو متر، ويغطي مساحة تصل إلى ٢٢٦٠٠٠ كيلو متر مربع<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد الخضري، مرجع سابق، ص ٤-٦.

(٢) يحيى فرحان وآخرون، الجغرافية الإقليمية، الصف الثالث الثانوي الأبي، وزارة التربية والتعليم وشؤون الشباب، سلطنة عمان، ١٩٨٣م، ص ٢٥٢.

### الخليج العربي في العصور الإسلامية:

اكتسب الخليج العربي أهمية خاصة منذ الفتوحات الإسلامية، إذ أصبح الطريق الوحيد للتجارة بين الشرق والغرب، وترتب على ذلك أن انتهى التنافس الذي كان قائماً بين الخليج العربي والبحر الأحمر، إذ أصبحا بحرين في دولة إسلامية واحدة يكمل أحدهما الآخر، وظل الأمر كذلك إلى أواسط الحكم الأموي حين تدهورت الحركة التجارية بسبب حركات المعارضة الانفصالية المذهبية، التي كانت تسعى للانفصال عن الدولة الأموية، وقد نتج عن ذلك ركود حركة القوافل التجارية المارة عبر الخليج مما اضطر على إثر ذلك أن يعتمد الأمويون على البحر الأبيض المتوسط.

وظل الأمر كذلك حتى قيام الدولة العباسية، فاستعاد الخليج العربي أهميته التجارية العالمية من جديد، فازدهرت موانئ الخليج بسبب كثرة تردد القوافل عبرها، وبسبب كبر حجم المبادلات التجارية بين الهند وبلاد فارس والبلاد العربية.

بيد أن منطقة الخليج ما لبثت أن تعرضت مرة أخرى إلى فترة ركود كهزمة وصل في حركة المبادلات التجارية على أثر الغزو المغولي للعالم الإسلامي.. ولم يقتصر الأمر على ذلك، وإنما أصيبت حركة الملاحة والتجارة بشلل بسبب تعرض المنطقة للفوضى والصراعات المحلية فيها قرابة الثلاثة قرون، وبذلك ظل الخليج يمارس بعض النشاطات التجارية بشكل بطيء وعلى نطاق محدود حتى قيام الدول الاستعمارية في العصر الحديث بالتنافس على بسط نفوذها على مياه هذا الخليج.

### أهمية موقع الخليج العربي:

البيئة الجغرافية لمنطقة الخليج والجزيرة العربية توضح معالم تاريخ المنطقة وتحديد موقعها، والأقاليم التي تتألف منها، كما توضح أهميتها التاريخية والحضارية على اعتبار أنها معبراً بحرياً والجسر الذي يربط الشرق بالغرب، وانتقلت من خلاله حضارات العالم القديم.

إن نظرة عابرة إلى الإطار الخارجي لخريطة الجزيرة العربية تشير إلى أن مياه البحر الأحمر تحدها من الغرب ومياه بحر العرب تحدها من الجنوب، في حين أن مياه الخليج العربي تحتضنها من الشرق، وتتداخل شواطئ هذا الخليج مع البر تارة في حين يتداخل البر مع مياه هذا الخليج تارة أخرى، وكذلك فإن شواطئ هذا الخليج الشرقية تطل على بلاد فارس، وسواحلها من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. ولأهمية هذا الموقع قديماً فإنه قامت على شواطئه المراكز العالمية للملاحة والتجارة، حتى أنه نافس في كثير من الأحيان البحر الأبيض المتوسط من الناحية الاستراتيجية.. وإذا كان الخليج قد جذب الفاتحين قديماً بما تناثر في جنباته من اللؤلؤ والمرجان، فإن هذا الخليج يحرك اليوم شهوات الطامعين اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً، بما تفجر من سواحل تربته من ذهب أسود (النفط) يعد عصب الحضارة وعماد حياة البشرية في عالم الاقتصاد والإنتاج والتجارة والآلات والمصانع والتكنولوجيا الحديثة.

وتدخل منطقة الخليج العربي في إطار استراتيجية الدول العظمى، حيث الشرق الأوسط، وجنوب شرق آسيا، وغرب المحيط الهندي، والبحر الأبيض المتوسط، كل ذلك يشكل مسرحاً واحداً للعمليات الحربية وكياناً سياسياً واحداً، فالدوائر العسكرية الأمريكية وجدت في شمال بحر العرب أحد أهم النقاط الاستراتيجية...<sup>(١)</sup>. ويشكل النقل البحري، خصوصاً نقل إمدادات النفط من الخليج العربي، أحد أهم المعطيات الاستراتيجية في المحيط الهندي، وإذا أخذنا في الاعتبار أن إنتاج النفط في الخليج العربي يراقب بأكثرته من قبل الغرب، ندرك عندها أهمية نقل إمدادات

(١) انطوان متى، الخليج العربي من الاستعمار البريطاني حتى الثورة الإيرانية، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٩٣م، ص ٢٠.

نفت الخليج العربي وحرية تحرك ناقلات النفط عن طريق رأس الرجاء الصالح أو قناة السويس بالنسبة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية واليابان، لكن الموضوع الرئيس بالنسبة إلى العالم الحر، يكمن في حماية حرية الطرقات البحرية، فالأخطار البحرية التي يمكن أن تتعرض لها حركة نقل النفط تأتي من الغواصات أو الألغام البحرية العائمة أو ألغام ترميها طائرات حربية من الجو، أي أنه من الضروري ألا تتعرقل حركة النقل هذه من أي نزاع قد ينشب في الخليج العربي أو إمكانية سد مضيق هرمز، أحد أضعف النقاط على طريق النفط الخارج من منطقة الخليج، إذ من الممكن أن تتعرض ناقلات النفط خلال سيرها إلى تدخلات وعمليات هجومية.

إن ناقلات النفط التي تترك عمق الخليج تمر أولاً في عرض البحرين وقطر ثم بين إيران والإمارات العربية المتحدة لتخرج أخيراً من مضيق هرمز في اتجاه خليج عمان في خط مستقيم نحو المحيط الهندي، أو تتجه نحو بحر العرب لتمر في مضيق باب المندب فتدخل في البحر الأحمر وتنفذ من قناة السويس إلى البحر الأبيض المتوسط، لتصل إلى الدول الغربية.

وخطورة طريق النفط المتجهة من الخليج مروراً بالمحيط الهندي تطرح للدول الغربية تساؤلات، إجابتها أنها لن تقبل بأية عملية ابتزاز أو إنذار تهدف إلى تعطيل أو قطع خط النفط الحيوي أو المساس بمثل هذه المصالح وتهديدها، وكان ذلك بمثابة تهديد للدول نفسها ما دام اقتصادها وصناعاتها ومصادر الطاقة لديها غالبيتها قائمة على نفط الخليج، من هنا ندرك استراتيجية موقع الخليج وممراته البحرية لنقل النفط الخليجي إلى بلدان العالم.

## ثالثاً: الإمكان الاقتصادي لدول الخليج العربي

### توزيع الثروة بين الناس في نظر الإسلام :

بين الله عز وجل في القرآن الكريم أن حياة الناس لا تستقيم إلا بتفاضلهم في الرزق، فذلك سنة من سنن الله في خلقه للبشر قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ (النحل: ٧١)، وبين الحكمة في ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلُوا بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢)، فلولا أن يخدم الناس بعضهم بعضاً كل على قدر ما أوتي من طاقات، لتعطلت مصالح البشر.

وقد جعل الله عز وجل الغاية من توزيع الثروة في المجتمع الإسلامي ألا تكون بأيد قليلة، فذكر عز وجل العلة من توزيع قسم من الأموال على بعض الناس: ﴿كَئِن لَّا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ (الحشر: ٧).

فمن محاسن الإسلام وشمول شرعه وتكامل نظامه أن اهتم حتى بالثروة التي تكون في باطن الأرض (الركاز)، هل هي ملك عام أم ملك خاص؟ وفي عصرنا الحاضر فإن النفط والمواد الخام الموجودة في باطن الأرض هي مما يسمى عند الفقهاء (الركاز) أي ما ركز في الأرض خلقة أو بسبب.

### التجارة ومصادر الثروة في الخليج في العصور المختلفة:

لقد ازدهرت التجارة في الحقب التي سبقت الميلاد في منطقة الخليج، ويرى الباحثون أن هناك صلة كبيرة بين الفينيقيين وبين النشاط التجاري في منطقة



الخليج قديماً، وأهم استقروا فترة في شواطئ الخليج، ثم انتقلوا إلى الساحل السوري، وأهم سمو مدينة صور على ساحل البحر المتوسط باسم مدينتهم الأولى صور على شاطئ عمان.

وقد شهدت منطقة الخليج منذ أوائل القرن الرابع الميلادي حركة تجارية واسعة، وقد مثل الفرس هذه الحركة بإقامتهم علاقات تجارية مع الهند والصين ومنافستهم لحركة الأحباش التجارية عبر البحر الأحمر.

وظل الخليج شرياناً حيويًا وهمزة وصل في حركة التجارة العالمية مع الصين والهند، وبقي التنافس قائماً بين الخليج في ظل السيادة الفارسية وبين البحر الأحمر في ظل السيادة الرومانية الحبشية قبيل الإسلام، ورغم ذلك كان للعرب على الخليج عدة موانئ وكانوا قادرين على حمايتها واستغلال الثروات المحيطة بها من ناحية البر والبحر معاً<sup>(١)</sup>.

واشتهرت منطقة الخليج في العصر الإسلامي بنوعين من الصناعة:

أولها: الصناعة التحويلية، وثانيها: الصناعة الخشبية والحديدية.

فالصناعة التحويلية يتم من خلالها تحويل صوف الأغنام وشعر الماعز ووبر الإبل إلى منسوجات متعددة الأشكال والألوان، وقد نسبت بعض الصناعات إلى البلد أو الأقاليم الذي نسجت فيه، فهناك الثوب الهجري الذي نسب إلى هجر، والقطري الذي نسب إلى قطر.. ومن أبرز الأنسجة في البحرين ومناطق الخليج: المناشف والملاحف والأحذية، والثياب والبرود والأردية.

أما الصناعة الخشبية والحديدية فهي صناعة السفن التي ساهمت في فعاليات

(١) محمد أرشيد العقيلي، مرجع سابق، ص ٢١٢-٢١٣.

حركة الملاحة عبر الخليج، فقد أشار الشاعر طرفة بن العبد في معلقته إلى سفن ابن يامن قائلاً:

عدولية أو من سفين ابن يا من      يجرور بها الملاح طوراً ويهتدي

وكان من أبرز صفات السفن الإسلامية في العصر العباسي الشراع المثلث.

والصناعة الحديدية في منطقة الخليج صناعة يدوية بسيطة تطلبتها احتياجات المنطقة محلياً في أعمال الفلاحة كصناعة المناجل والمساحي من قبل من امتهنوا أعمال الحدادة أو لغايات الحرب<sup>(١)</sup>.

وتتوفر في سواحل الخليج وبعض المناطق الداخلية منه المياه في جوف الأرض، وقد أدى ذلك إلى زراعة الخنطة والشعير فسي بعض جزر البحرين، كما زرع القطن والحناء على شطوط بعض الأنهار.

وتبقى شجرة النخيل على رأس قائمة المحاصيل الزراعية، وينتج ساحل الخليج من البصرة شمالاً إلى عمان جنوباً أنواعاً كثيرة من التمور، وقد أصبح تمر هجر مضرراً للمثل فقيل: «كمستبضع التمر من هجر»، فالتمر بأنواعه المختلفة يعد سلعة دخلت ميدان المبادلات التجارية محلياً وعالمياً.

كما يزرع الموز والليمون والعنب وبعض الخضراوات الموسمية في مختلف مناطق الخليج وسواحله.

واهتم أهل الخليج في العصور المتأخرة باستخراج اللؤلؤ من البحار من خلال الغوص في أعماق المياه الخليجية، فيواجهون بثنها متطلبات الحياة وتكاليف المعيشة من خلال هذا العمل الموسمي.

(١) المرجع السابق، ص ٢١٥ - ٢١٧.

كما احتوت سواحل الخليج على أنواع متعددة من الأسماك، ساعدت بعض السكان على امتهان حرفة الصيد منذ القدم.

### ٣- النفط مصدر الثروة الأهم:

دول الخليج العربي تتشابه إلى حد بعيد في هياكلها الإنتاجية، فاقتصاديات هذه الدول تعتمد بدرجة كبيرة على المصدر الأهم، أي إنتاج وتصدير النفط الخام والغاز وإيرادات المصادر الهيدروكربونية سواء في شكلها الخام أو المصنعة، فتشكل جزءاً كبيراً من صادرات هذه الدول، ومن إيرادات موازاتها العامة، ومن ثم من آلية تشغيل الاقتصاد المحلي في هذه الدول الخليجية.

وكان لاكتشاف النفط في حوض الخليج العربي الأثر الأكبر في تغيير معالمه الاجتماعية والاقتصادية، وتوزع عوائد النفط في تلك الدول بين الميزانية العامة بهدف تنفيذ المشروعات التنموية المختلفة وبين المواطنين بهدف رفع دخولهم والارتفاع بمستواهم المعيشي، ويسهم النفط بأكثر من ٨٥% من الميزانية العامة لدول الخليج العربي حتى يصح أن تسمى هذه الدول بدول النفط<sup>(١)</sup>.

لذا يمثل النفط مصدر الثروة الأهم حالياً بين المصادر الأخرى الضعيفة اقتصادياً، وقد ترتب على النفط ظهور طفرة عمرانية تتمثل في التجديد الشامل للمراكز العمرانية القديمة، والامتداد خارج أسوارها، والتمدد في ضواحيها، لإقامة مدن جديدة وحديثة العمران.

لقد جلب النفط الخير والنعم الوفيرة لدول الخليج العربي وسكانه، وأدى ذلك إلى تنفيذ الكثير من المشروعات التنموية في تلك الدول، إلا أنه بالمقابل يعتبر سلعة عالمية لاغنى لكثير من البلدان الصناعية الكبرى عنه، فهو شريان الحياة وتنفسها لدى

(١) يحيى فرحان وآخرون، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

البلدان الغربية اقتصادياً، وكل ما يؤثر على هذه المعادلة يهدد النشاط الاقتصادي الغربي بأكمله، فحلقة النفط (إنتاج- نقل- أسعار) تعرضت دائماً لأخطار النزاع العربي-الإسرائيلي، علماً أن مضاعفات هذا النزاع، شجعت تركز القوى الكبرى حول المنطقة بشكل كبير وكثيف.

وأخيراً يمكن التمييز بين مرحلتين من مراحل الدخل والإنتاج الاقتصادي لدول الخليج العربي: هما مرحلة ما قبل النفط ومرحلة ما بعده.

ففي المرحلة الأولى: كانت عناصر الاقتصاد الخليجي قائمة على استخراج اللؤلؤ وصيد الأسماك والرعي والثروة الحيوانية والزراعية والحرف التقليدية والتجارة. أما المرحلة الثانية: فقد ترتب على اكتشاف النفط وصناعته حدوث تغيرات جذرية في العلاقات الأساسية للحياة الاقتصادية والاجتماعية، وأدت ملكية الدولة في الخليج للثروة النفطية وازدياد دخلها إلى تعاضم دور القطاع العام في عملية التنمية. بمختلف جوانبها الاقتصادية والاجتماعية، وزاد متوسط نصيب الفرد منه مما أدى إلى تزايد المدخرات المحلية للدولة في تمويل الاستثمارات.

## السبيل لاسترداد فاعلية الأمة

الدكتور عبد اللطيف محمود آل محمود<sup>(\*)</sup>

أما وقد ثبت في الواقع، أن بلاد الجزيرة العربية والأمة المسلمة بشكل عام قد تخلّفت عن القيام بدورها الحضاري في الوقت الراهن، بعد أن كان لها دور غير منكور، فإن البحث ينبغي أن ينصب على الأسباب، ومواطن الخلل التي عطلتها، ولا يجوز لنا الاكتفاء بالقول: بأن ذلك من فعل الأعداء!

إنه لمن المسلمات في الحياة الإنسانية أن الأحكام والمبادئ والخصائص والمقومات لأي رأي أو فكر أو دين أو قانون، لا تؤتى ثماره ولا يجنى جناه إلا إذا وجد من يؤمن به ويعمل على تحقيقه، وتوجد البيئة الملائمة والظروف المواتية لتطبيقه. والأمة الإسلامية ليست بدعاً من الأمم، ولا استثناءً من قواعد الحياة، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٤﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَّكَبَرُونَ ﴿٣٥﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَنَّ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا ﴿٣٦﴾﴾ (الزخرف: ٣٣-٣٥).

(\*) باحث.. أكاديمي (مملكة البحرين).

قال الله تعالى :

﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ  
أنداداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ  
فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سِوَاءِ لِلسَّائِلِينَ ﴿فصلت: ٩-١٠﴾.

ولا يصلح القول: بأن الأمة الإسلامية لا يمكن أن تقوم بدور حضاري أو ليس لها مقوماته، لأنه قد كان لها دور حضاري على أرض الواقع، بدأ في مهبط الوحي في الجزيرة العربية، ونظقت به المعالم الأثرية الحضارية في جميع البلاد التي استقر بها المسلمون، وتزخر بها المكتبات، ونتج عنها العلوم النظرية والتطبيقية التي عرفها المسلمون.

ولا يجوز لنا الاتكاء على أن الأعداء قد عملوا لإخراج الأمة الإسلامية عن دورها الحضاري باستعمارها والسيطرة عليها والتصرف في مقدراتها وقوانينها بالقوة والهيمنة، فذلك شأن الصراع بين القوى، والغالب يفرض سلطانه ورأيه على المغلوب، طبقاً لأحكامه وقواعده وأخلاقه وسياسته ونظراته إلى الآخرين.

أما وقد ثبت في الواقع أن الأمة الإسلامية قد تخلفت في وقتها الراهن عن القيام بدورها الحضاري أمام الحضارات الأخرى، والغربية على وجه الخصوص، بعد أن كان لها دور غير منكور، فإن البحث ينبغي أن ينصب على الأسباب التي عطلتها عن ذلك.

ويمكن التأكيد على ما سبق قوله من أن الأفكار والآراء والأديان لا تأتي ثمارها إلا إذا وجدت ثلاثة أمور: أولها الإيمان .. وثانيها العمل على تحقيقها.. وثالثها: البيئة الملائمة للتطبيق.

أما الإيمان بالإسلام، فإنه لا بد أن نفرق بين الإيمان به كمتعقد شخصي، وبين الإيمان به كدين حضاري جاء من الله تعالى لتحقيق الحياة الطيبة للناس أجمعين في الدنيا، من آمن به ومن لم يؤمن به: قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ولتحقيق النجاة من عذاب النار ودخول الجنة يوم القيامة: قال الله تعالى: ﴿ فَمَن رُّحِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

المؤمنون بالإسلام اليوم في العدد كثير، منتشرون في الكرة الأرضية، أغلبية في دول وأقلية في دول أخرى، ولن ينتهي المسلمون من على سطح الأرض إلا عندما تأتي الريح اللينة في آخر الزمان فتأخذ أرواح المؤمنين، كما أخبر بذلك الرسول ﷺ.

لكن الإيمان بالإسلام درجات، مؤمن يمارس الإسلام في ذاته، عامل به في نطاق حياته وحياة من حوله. وهذا النوع من الإيمان نراه في سلوك عامة الناس وعوامهم، وهم الغالبية العظمى. وهذه الغالبية — في الإسلام وفي أي معتقد وحضارة ودين — يمكن أن تكون قوة معطلة لا يؤبه بها ولا تؤثر في الحياة، ويمكن أن تكون ذات فاعلية كبرى تغير الحياة وتؤثر فيها إيجاباً أو سلباً.

إنها تكون قوة معطلة لا يؤبه بها عندما ترتبط بلقمة عيشها، وتتبع شهواتها وأهواءها، وتضعف عاطفتها، ويكون همها أن تعيش لنفسها فحسب، ولا تجد القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي تربطها بالحياة وتطوراتها.

ولكنها تصير قوة ذات فاعلية إيجابية كبرى عندما ترتبط بلقمة عيشها وتسيطر على شهواتها وأهوائها، وتقوى عاطفتها، ويكون همها أن تعيش لنفسها ولغيرها على حد سواء، كما كان الصحابة الذين تربوا على عين النبوة ثم انطلقوا لحمل الرحمة للعالمين، وتجد القيادة السياسية والقيادة الفكرية التي توجهها إلى الحياة الإنسانية، وتربطها بها وتطوراتها.

كما أنها تصير قوة ذات فاعلية سلبية كبرى عندما تسيطر عليها الانتماءات اللغوية الإقليمية أو المكانية أو الزمانية أو الجنسية أو العرقية أو النسبية، وترى لها الفضل والأفضلية على بقية البشر، أو يشتط بها إيمانها بنفسها فتري أن الدنيا لها وحدها وغيرها إنما خلق خادماً لها ومحققاً لشهواتها، وهي تلك الدعوات العنصرية والجنسية والدينية.. وتصبح هذه النزعة طامة كبرى في الحياة البشرية عندما تجد قيادة سياسية وقيادة فكرية تزكي في نار التمييز والتميز وادعاء الأحقية على بقية البشر.

تلك درجة من الإيمان تجعل أصحابها غثاء كغثاء السيل.. ويمكن أن تتحول إلى قوة بناء، كالماء العذب يمر على الأرض الهامدة، فإذا بها قد اهترت وربت وأينعت وأنبتت وأثمرت كما ضرب الله بذلك مثلاً: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَائِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (الحج: ٥).



ودرجة أخرى من الإيمان بالإسلام، يعيش صاحبها في الحياة وهو يحمل هم الحياة وهمومها، ويفكر في طريق خلاصها، عاطفته جياشة لا تفتري، متزنة لا تحيد، وهو لا يعيش لنفسه فحسب وإنما يعيش لنفسه ولقومه وأمته، بل وللناس أجمعين ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، متأسياً بالرسول ﷺ وصحابته خير القرون؛ تراه يتعبد في محراب العمل، ومحراب المعاملة، ومحراب التعامل مع جميع الخلق، كما يتعبد في محراب الصلاة والصوم والحج لله رب العالمين.

هذه الدرجة من الإيمان إذا وجدت في القيادة السياسية والقيادة الفكرية الموجهة لعقول أبناء الأمة وطاقاتها كانت بركة على المسلمين وعلى البشرية أجمعين، وجعلت من المسلمين أنداداً لغيرهم من أصحاب الحضارات الأخرى، يعملون كما يعملون، ويتحجون كما يتحجون، ويتفاعلون مع الحياة كما يتفاعلون.

وأما العمل على تحقيق الإسلام في الحياة فهو ناتج من الإيمان بعالمية الإسلام وتنظيمه لشؤون الحياة كلها وشؤون البشرية جمعاء، من آمن به ومن لم يؤمن به، وإعطاء كل ذي حق حقه في توازن بين حق الفرد وحق الجماعة وحق الآخرين.

وهذا الوعي بين المسلمين، هو الذي نقل الإسلام من الحجاز إلى الجزيرة العربية كلها، التي تشكل فيها الأنموذج ثم نقل إلى ما حولها من أرض، شمالاً وشرقاً وغرباً وجنوباً، حتى وصل إلى معظم أنحاء العالم المعروف، ويصل أبنائه اليوم إلى العالم الجديد الذي لم يكن معلوماً لهم.

وأما البيئة الملائمة للتطبيق فتقوم على وجود الضوابط والحدود، التي تحفظ لكل مؤسسة، صغرت أو كبرت، قواعد حركتها، وحدودها، وحقوقها، وواجباتها، ومرجعيتها عند الاختصاص، وأسلوب عملها، فرداً أو أسرة أو سلطة تشريعية أو فكرية أو قوة إعلامية.

ولقد وجه الله تعالى هذه الأمة في أسلوب عملها فقال: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)، وإلى مرجعيتها فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩)، وإلى أسلوب التقويم في حياتها فقال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤)، وإلى تعلق القلوب بابتغاء مرضاة الله فقال: ﴿وَمَا أُمُورًا إِلَّا لِعِبَادُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ خُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ (البينة: ٥)، وإلى الالتزام بأحكام الإسلام فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٤٨)، وقال: ﴿وَأَن آحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: ٤٩).

هاهي أسباب عدم فاعلية الأمة في وقتها الراهن للقيام بدورها الرسالي،  
قد بانث وظهرت:

- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى القيادات السياسية وغياب البعد  
الرسالي عن واقع الكثير في الأمة المسلمة بشكل عام.

- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى الغالبية العظمى من عامة المسلمين  
بالدور الحضاري للأمة الإسلامية.

- ضعف العاطفة الإيمانية العقلية لدى بعض المفكرين المسلمين وعدم  
التصور العملي للبعد الرسالي.

- الانشغال بتنمية الكيانات الصغيرة للدول العربية والإسلامية،  
والانكفاء عليه، دون الاهتمام بالارتباط القومي والإسلامي.

- فقدان البعد الرسالي في بناء التعاون والتنسيق بين كيانات الدول  
العربية والإسلامية في جوانبها السياسية والاقتصادية والإعلامية  
والحضارية على وجه الخصوص.

- انتفاء سياسة العطاء الحضارية التي تقوم عليها الأمة الإسلامية وتدعو  
إليها خلال القرون الماضية والقرن الحالي (الإيمان بعملية الإسلام).

- عدم اعتبار مصادر الإسلام الصحيحة المرجع الأساس لأخذ القوانين  
والنظم التي تسوس الفرد والجماعة، ولاحتكام بين المسلمين  
فيما يتنازعون فيه.

- عدم وضع الاعتبار لقوة الشعوب في حركة الدول العربية والإسلامية  
بجيث تكون قوة مساندة لحكوماتهم وأنظمتهم في عطائهم الحضاري

الإسلامي، وفي دفاعهم عن حقوقهم ومقوماتهم أمام طغيان القوى المسيطرة عالمياً.

- اختلاط الاختصاصات بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، أو وحدة الهيمنة عليها، وسرعة إحداث التغيرات في قواعدها وقوانينها في كثير من الدول الإسلامية لتحقيق المصالح الفردية والآنية.

- التجاوزات للقوانين، وسد الأبواب على المتضررين عن الماضي في الطرق التي توصلهم إلى حقوقهم عند حدوث هذه التجاوزات.

- ضعف الرقابة، وضمور حسبة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطوير آلياتها، على الأداء الوظيفي للقطاع العام باعتباره القطاع الذي يسوس أفراد الشعب ومؤسسات الدولة، ويحوي ميزانية الدولة، التي يستفيد منها المجتمع بكامله، مع ما لقوته وعطائه من الأثر الأكبر في استقراره والثقة فيه، داخلياً وخارجياً.

- ارتباط حركة الدول بالأفراد الذين يتولون المسؤولية دون مؤسساتها، مما يجعل الدولة لا تستقر في حركتها، وتتغير سياستها وحركتها بتغير الأفراد الذين يتولون أمرها، ويؤثر ذلك في غالب الأحوال سلباً على مقوماتها وحركتها.. كما أنه في هذه الأحوال، غالباً ما يتمكن الطفيليون والمنافقون وأصحاب الأهواء والمصالح الخاصة من مصالح الدولة العامة، ويكثر الفساد الإداري، وتنتشر الرشوة والمحسوبية.

- انغلاق أصحاب الفكر المذهبي أو العلمي أو العلماني على أنفسهم، ومحاولتهم القضاء على الآخرين أو طمس أفكارهم أو ردهم إلى أضيق

السبيل في الحياة، مما يولد المعارضة التي تعطل الحركة، وتعمل على هدم المجتمع بالتعاون مع (الآخرين).

- عدم التأكيد على ثوابت المجتمعات الإسلامية، والعمل في مجال المتغيرات، وانصباب الحركات الأخرى على تغيير الثوابت الإسلامية، مما ولد صراعات لم تنته بعد.

### أزمة الحضارات الحالية وحاجتها إلى الرؤية الإسلامية:

لا بد من الاعتراف مسبقاً بما للحضارة العالمية الحالية من منجزات حضارية مادية، سواء في التقدم المدني، أو العلمي، أو التقني، أو وسائل الاتصالات، أو العمل التجاري، أو التنظيم الإداري، أو الاهتمام بالجسد البشري وبالنفس الإنسانية من خلال البحوث المكثفة والدراسات الميدانية والدراسات الموسعة.

ولا بد من الاعتراف ثانياً، أن هذه المنجزات الحضارية قد قامت في كثير من دوافعها وتطبيقاتها على أساس الانفصال بين الدين والحياة، وحصر الدين على أماكن العبادة والشؤون الخاصة للفرد، وجعل الحياة الاجتماعية واقعة تحت تخطيط الإنسان والنتائج التي يتوصل إليها انطلاقاً من تشريع الإنسان لنفسه.

ولا بد من الاعتراف ثالثاً، أن القائمين على هذه المنجزات قد تأثروا ببيئاتهم الثقافية، بما فيها من علوم وتاريخ وأساطير وأديان وخرافات ونظرة إلى النفس وإلى الآخرين.

ولا بد من الاعتراف رابعاً، أن الإنسان في طفولته الحياتية والثقافية والعلمية يرى أنه دائماً على الحق، وأن غيره مجاف للحق، ويود لو أن العالم تغير

إلى ما هو عليه .. ويصل به الاعتقاد إلى أنه يعجب كيف ولا يعرف الآخرون الحق الجلي الذي يعتقد، وكيف لا يعرفون الباطل — في رأيه — الذي هم عليه؟! ولا يخرج من هذه الطفولة إلا من نمي بثقافته وعلمه حتى وصل إلى مرحلة الرجولة والشيخوخة التي تعرف بأن الحق قد يكون متعددًا، وأحياناً أنه لا بد من التعايش مع ماهو باطل بكل المقاييس.

ولا بد من الاعتراف خامساً، أن الحضارة العالمية، رغم سماها الأوروبية والأمريكية وسماها المادية، إلا أنها لا تمنع الآخرين من الدخول إليها والعمل من داخلها للاستفادة منها والتأثير فيها بقوة البرهان والدليل، مع الاعتراف بأن هذا التأثير ليس بالأمر اليسير ولكنه ليس بالأمر المستحيل.. وتعمل على إشاعة القيم الديمقراطية والحرية والإخاء الإنساني وحقوق الإنسان ودولة المؤسسات والإعلام — المفتوح على كل شيء، بما له من سلطة فائقة حتى سمي بالسلطة الرابعة — لكل قادر أن يلج إلى تلك المجتمعات ويؤثر فيها، رغم ما سيحاوله الآخرون من عرقلة لتلك الجهود.

وإذا كان الإسلام يهتم بالجسد والروح، وبالمادة والقيمة، ويربط الإنسان بالكون وخالقه، ويعترف بالإنسانية جمعاء، فإن عمل المسلمين مع الحضارة العالمية الراهنة ينبغي أن يكون مكماً لها، ومصلحاً لا عوجاجها إن وجد، ودافعاً لمسيرتها حتى ترتقي إلى أن تكون إنسانية عالمية لا إنسانية أوروبية أمريكية غربية.

ولقد أتيح للمسلمين أن يثبتوا صدق معتقدات الإسلام وصحة طروحاته، سواء النفسية أو الروحية أو الاقتصادية، في البلاد الإسلامية، والبلاد الغربية،

لكن جهودهم ما تزال جهوداً فردية، إلا أن هذه الجهود الفردية تحتاج إلى أوقات طويلة حتى تؤتي ثمارها على المستوى الحضاري.. ويوم أن يكون للدول الإسلامية سياسة للعطاء الحضاري يتم إقرارها من خلال منظمة المؤتمر الإسلامي أو رابطة العالم الإسلامي، وتلتزم الدول الإسلامية بالعمل على تحقيقها داخل دولها أولاً، وثانياً من خلال الروابط الثنائية والمنظمات الإقليمية كمجلس التعاون لدول الخليج العربية، أو القومية كجامعة الدول العربية، أو المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، أو المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، فإن الوقت سيقصر، والتأثير سيكثر، والإنسانية ستستفيد من هذا التلاحق والتكامل الحضاري بين الإسلام والغرب والشرق.

ولا بد من أن يتم تحديد الموارد المالية لتطبيق هذه السياسة الحضارية من قبل الدولة داخلياً، ومن قبل المنظمات داخلياً وخارجياً. وقد تبين أن المشروعات الدولية التي تنشئها الدول الإسلامية لا تستمر بسبب العجز في الميزانيات العامة لهذه الدول، وأغلبها من الدول المتخلفة.

لذا أَدْعُو للعمل على إنشاء صناديق استثمارية وافية لهذه المنظمات، بحيث يتم تمويلها ذاتياً بدل الاعتماد على المخصصات السنوية من الدول المشاركة، رغم الحاجة إليها في أول الأمر لإنشاء هذه الصناديق الاستثمارية، بحيث لا تتعدى فترة العشر سنوات من إنشائها لتعتمد على نفسها.

وأظن أن الاضطلاع بالبعد الرسالي لدول مجلس التعاون، أو العمل الحضاري الإسلامي بشكل عام، لا تنهض به أحزاب أو جمعيات، بل لا بد أن تقوم به مجموعة الدول والشعوب الإسلامية، وإن أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة المسلمة بكل مؤسساتها وأفرادها، ينطلق من:

- ١- استشعار البعث الرسالي في حركة الأمة.
- ٢- تقوية العاطفة الإيمانية العقلية لدى القيادات السياسية وجمهير الشعوب الإسلامية.
- ٣- قيام دولة المؤسسات في الدول الإسلامية.
- ٤- الالتزام بقيم الشورى في حركة المجتمع، في كل مؤسساته.
- ٥- الالتقاء على ثوابت المجتمعات الإسلامية، والالتزام بأدب الحوار في المواضيع التي تمس تلك الثوابت.
- ٦- الانفتاح بين أصحاب الأفكار والمذاهب الدينية وغيرها.
- ٧- الاهتمام بالتربية والتعليم والثقافة، المعتمدة على مبادئ الإسلام وقيمه.
- ٨- الحرص على السلوك الأخلاقي والعقدي الذي يرعى الفرد والجماعة.
- ٩- وضع سياسة للعطاء الحضاري الإسلامي على المستوى الداخلي والدولي.

والله الموفق.



## منطلقات لتفعيل دورنا الحضاري

الدكتور علي أحمد الكبيسي<sup>(١)</sup>

لا يحسن لهذه الأمة وهي تواجه تحديات متعددة أن تسلخ من حاضرها وتفرض الطرف عن مستقبلها  
لنتغنى بماض عريق ومجد أئيل، بل هي مطالبة على وجه الوجوب أن تتأمل حاضرها، وأن تنظط  
لمستقبل أفضل يحفظ كيانها ويعزز مكانتها، لتصبح أمة متميزة قادرة على البقاء والنمو.

حظي القرن الحادي والعشرون باهتمام دول العالم، وأعدت دراسات  
تناولت عدد من قضاياها في التربية والتعليم والتكنولوجيا والاقتصاد والسياسة  
وغيرها، وكلها تهدف إلى الاستعداد له وتلمس معالم الطريق إلى ما هو أفضل  
وأحسن<sup>(١)</sup>.

(\*) عميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية - جامعة قطر (قطر).

(١) انظر:

- هكذا يصنع المستقبل. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠١م، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

وقد كان لأمتنا العربية الإسلامية نصيب في هذا الميدان فظهرت بعض الدراسات عن مستقبل التعليم والترجمة والثقافة والمعلومات وصناعة النشر<sup>(١)</sup>. ولا يحسن بهذه الأمة وهي تواجه تحديات متعددة أن تنسلخ من حاضرها وتغض الطرف عن مستقبلها لتتغنى بماض عريق ومجد أثيل، بل هي مطالبة على وجه الوجوب أن تتأمل حاضرها، وأن تخطط لمستقبل أفضل يحفظ كيانها ويعزز مكانتها لتصبح أمة متميزة قادرة على البقاء والنمو.

تأتي هذه المقالة لتعرض رؤية متواضعة حول أهم المنطلقات الضرورية من أجل تفعيل دورنا الحضاري، ولا يعني التركيز عليها إهمال غيرها مما هو ضروري أيضاً، لكنني أكتفي بما عن غيرها لشدة قناعتي بأنها في حاجة إلى مزيد من العناية والاهتمام.

الأمة العربية الإسلامية — ومجلس التعاون الخليجي جزء منها — أمة ذات رسالة سامية، وعليها واجبات مهمة، لا يمكن بأي حال وتحت أي ظرف

---

(١) انظر التعليم والعالم العربي، تحديات الألفية الثالثة. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠م، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

- تعليم الأمة في القرن الحادي والعشرين، الكارثة أو الأمل. تحرير سعد الدين إبراهيم، منتدى الفكر العربي، ١٩٩٠م، عمان، الأردن.

- الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢، ١٩٩٠م، تونس.

- الخطة القومية للترجمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥م، تونس.

- العرب وعصر المعلومات، د. نبيل علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، القاهرة.

- استشراف مستقبل الأمة، د. سهيل عناية الله، مجلة إسلامية المعرفة، العدد ١٧، السنة ٥، صيف ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

- صناعة النشر وتحديات القرن المقبل، د. محمد عنفان سالم، مجلة الكلمة، العدد ١٦، السنة ٤ صيف ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

التهاون في أدائها أو النكوص عنها. أما الرسالة السامية فهي الدعوة إلى دين الله بتلطف ولين عملاً بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥) ولا يدرك عظم هذه الأمانة إلا من علم أن الله قد اختص هذه الأمة بأن حملها أمانة الشهادة على الناس كافة أن قد بلغوا رسالات ربهم، قال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣). وأما الواجبات فهي كل عمل يحفظ لها كيانها، ويشد من أزرها، ويمنحها القوة التي تؤهلها لأداء تلك الرسالة. والواجبات نوعان: عامة لا تتقيد بزمن معين أو عصر محدد، وخاصة تفرضها متطلبات الحياة في زمن بعينه.

وإذا تحدثنا عن زماننا الذي نحن فيه متأملين واجباته الضرورية برزت لنا

المنطلقات الآتية :

### ١- العناية باللغة العربية ورعاية تعليمها:

منح القرآن الكريم اللغة العربية منزلة رفيعة وقديسة جعلتها محل اهتمام العرب والمسلمين في كل زمان ومكان، وتعددت صور العناية بها عبر العصور، وتواصلت الجهود، يكمل بعضها بعضاً من أجل خدمتها والمحافظة عليها، ومن يقرأ سير علماء العربية، ويطالع الكتب المؤلفة في علومها المتنوعة، يعرف بحق العناية الفائقة التي خصت بها.

ولست في حاجة إلى أن أتحدث عن تلك الجهود التي لم تنقطع حتى العصر الحاضر، ولعله من المفيد النظر في مدى عنايتنا بالمجالات الآتية: تعليم العربية لأبنائها، وتعليمها لغير أبنائها، وتعريب المحيط الاجتماعي.

#### أ- تعليم العربية لأبنائها:

يواجه تدريس اللغة العربية في المدارس والجامعات العربية عدة صعوبات تحول بينه وبين بلوغ أهدافه، ويعاني من قصور، لا يمكن معه إعداد متعلم متمكن من لغته حريص على توظيفها في حياته.

ومن أهم تلك الصعوبات مزاحمة اللهجات العامية للعربية الفصحى، والقصور في إعداد المعلمين، وبناء المناهج، وطرق التدريس. ولم تفلح محاولات التطوير والإصلاح، في تمكين المتعلم من إتقان مهارات العربية، وما زلنا نواجه السؤال الصعب: لماذا لم ننجح خلال اثنتي عشرة سنة في تعليم اللغة العربية لأبنائها؟ ويزداد هذا السؤال صعوبة وإحراجاً، إذا أضفنا إليه سنوات الدراسة الجامعية !!!

ويغلب على ظني، أن أهم سبب في ذلك هو ضعف الحافز الدافع إلى تعلم العربية، فلقد استقر في نفوس المتعلمين العرب عدم أهمية العربية في حياتهم، واتباعهم خوف شديد من تعلمها لكثرة ما وصفت به من صعوبة وعسر، فأدى ذلك إلى الانصراف عنها، وعدم الرغبة في تعلمها.

يضاف إلى ذلك خلو المناهج مما يغري بتعلمها، لكونها مواد غير مترابطة وغير قائمة على حاجات الدارسين، بل وصل الأمر إلى أن يُدرّس العربية غير المتخصص فيها.

وتعظم المهمة إذا علمنا أن اللغة وسيلة لاكتساب كل المعارف، وأن العربية على ارتباط وثيق بالإسلام، والتراث العربي الإسلامي. لهذا كله تبقى أهدافنا المستقبلية في هذا المجال رهناً بما نستطع تحقيقه عبر محاولتنا السابقة.

ولقد كثر الحديث عن مشكلات تدريس اللغة العربية، وعقدت المؤتمرات والندوات، وملئت الصفحات توصيات<sup>(١)</sup> وبقي العمل الذي يجب أن يحظى بكل اهتمامنا خلال السنين القادمة، وهو ذو ارتباط وثيق بما ينبغي الأخذ به من تغيير حقيقي، يؤدي بنا إلى التدريس الفعال لمهارات اللغة العربية، ولا بد من إعداد خطة عملية، تساعد على ذلك، ولعل من المفيد التركيز على:

— العناية بإتقان قراءة القرآن الكريم وحفظه، فهو الذي يقوم الألسنة ويصحح الأداء.

— تعليم العربية بطريقة سهلة ممتعة في مرحلة ما قبل المدرسة.

(١) انظر: ندوة مشكلات اللغة العربية على مستوى الجامعة في دول الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، نوفمبر ١٩٧٩م، الكويت.

- اللغة العربية والوعي القومي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، ١٩٨٦م، بيروت، لبنان.
- تعليم وتعلم اللغة العربية وثقافتها، د. المصطفى بن عبدالله بو شوك، ط٢، ١٩٩٤، الهلال العربية للطباعة والنشر، الرباط، المغرب.
- مؤتمر التدريس الفعال لمهارات اللغة العربية، جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين، ١٩٩٨م.
- اللغة العربية بين الموضوع والأداة، د. أحمد مختار عمر، مجلة فصول، المجلد ٤، العدد ٣، إبريل - يونيو ١٩٨٤م، القاهرة.
- مقدمة في علم تعليم اللغة العربية، د. نهاد موسى، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، السعودية، ١٩٨٤م.

— اختيار المعلمين المتخصصين الأكفاء، ولا يعلم العربية إلا من يجب تدريسها.

— وضع مناهج ذات محتوى يلبي الحاجات الفعلية للطلاب.

— اتباع طرق تدريس تعتمد على التدريب العملي والمواقف الحية والتدرج في إتقان مهارات اللغة.

— تعميق الوعي بأهمية اللغة العربية، ونشر ذلك بوسائل الإعلام المختلفة. وهذا التغيير الذي أشرنا إليه، هو جزء من التغيير الشامل المطلوب إجراؤه في منظومة التعليم ككل، الذي هو ضرورة ملحة، أكدها الكتاب الذي أصدره منتدى الفكر العربي بعنوان: ( تعليم الأمة العربية في القرن الحادي والعشرين.. الكارثة والأمل)، والخطة الشاملة للثقافة العربية، التي صدرت عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، وأخيراً تقرير التنمية الإنسانية العربية ٢٠٠٢م، الذي صدر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي.

ب- تعليم العربية لغير أبنائها:

أدى ارتباط العربية الوثيق بالإسلام إلى إقبال المسلمين، عرباً وغير عرب، على تعلمها، وهو الذي حمل العلماء من غير العرب، على دراستها والتأليف فيها، وأتاح لها أن تنتشر خارج جزيرة العرب لتصبح لغة الناس كافة في تلك البلاد، وبفضله ظلت لغة العلم والحضارة، حتى أواخر العصور الوسطى.

وحين برزت أهمية العالم العربي في العصر الحديث، وتوجهت الأنظار إليه أخذت العربية تفرض نفسها على الساحة الدولية، حتى صارت لغة عالمية، وازداد الطلب على تعلمها من جميع قارات العالم، وتعددت مظاهر هذا

الاهتمام عربياً ودولياً.. وللبلاد العربية جهود مشكورة في هذا المجال، فقد أنشئت المعاهد والمراكز والوحدات الخاصة بتعليم العربية لغير أبنائها، وعقدت الندوات والمؤتمرات<sup>(١)</sup> لتطوير تعليمها لهم، وقطع التعليم في هذا المجال شوطاً كبيراً، وأدى خدمات جليلة للعربية.

ومع هذا كله، فنحن مطالبون بالعمل على نشرها، والبحث عن أجدى الوسائل لتعليمها خارج البلاد العربية. ولعل من أولويات ذلك: العمل على توحيد الجهود، لإنشاء مراكز ثقافية عربية، تتولى هذه المهمة، ويتعاون في دعمها البلاد العربية، والبلد المضيف، إضافة إلى الجمعيات الخيرية، والقطاع الخاص، انطلاقاً من اعتبار ذلك التوجه مشروعاً إسلامياً، وواجباً عربياً، يلزم مسانדתه. ومن الضروري أيضاً التنسيق مع الجامعات غير العربية، التي تهتم بتدريس اللغة العربية ومساعدتها في هذا المجال بكل الوسائل الممكنة.

### ج- تعريب المحيط الاجتماعي:

يقصد به استعمال اللغة العربية في مختلف مجالات المحيط الاجتماعي، والدافع إليه الرغبة في إحلال العربية محل غيرها من اللغات المستعملة في ذلك المحيط. وقد تبنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم مشروعاً يهدف إلى

(١) انظر:

- السجل العلمي للندوة العالمية الأولى لتعليم العربية لغير الناطقين بها، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، السعودية، ١٩٨٠م.
- وقائع ندوات تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، السعودية، ١٩٨٥م.
- برامج تعليم العربية للمسلمين الناطقين بلغات أخرى في ضوء دوافعهم. د. محمود كامل الناقه، معهد اللغة العربية، جامعة أم القرى، السعودية، ١٩٨٥م.

التعرف على واقع التعريب في البلاد العربية، لكن نتائجه لم تنشر حتى الآن، حسب علمي<sup>(1)</sup> ومهما يكن من أمر فإن استعمال العربية ليس على درجة واحدة في كل المجالات، بل هو متفاوت، ففي حين يقوى في صياغة القوانين والأنظمة الإدارية في المؤسسات الرسمية، وفي تسمية مرافق الدولة، والقضاء، والصحف والمجلات والكتب، وبعض برامج الإذاعة والتلفزة، والمراسلات بين المؤسسات الرسمية، نجده متوسطاً أو ضعيفاً في البنوك والفنادق، وتسمية المحال التجارية، والمسرحيات، والأفلام السينمائية، وبرامج الفيديو.

ويمكن القول بصفة عامة: إن العربية متى خرجت من المجال الرسمي وجدت مزاحمة أو مشاركة من اللغة الأجنبية أو العامية، ولعل السبب في ذلك أن كلاً منهما صارت لغة تعامل في المجتمع، فالإنجليزية لغة التواصل الدولي، وتستعمل للتفاهم مع العمالة الأجنبية الوافدة لكثرتها وتنوع لغاتها، والعامية لغة تعامل مع الجمهور، الذي تغلب عليه الأمية.

واستعمال غير العربية أمر طبيعي، حين يكون في حدود الضرورة الملحة، أما إذا تجاوزها فهو خطر يهدد العربية، ولا بد من مقاومته.

ويواجه تعريب المحيط الاجتماعي عدة مشكلات، من أهمها:

- وجود صعوبات في استعمال العربية.
- عدم وجود خطة للتأهيل لاستعمال العربية.
- عدم توفر المصطلحات العربية في بعض المجالات.
- قصور وسائل دعم التعريب ونشره.

(1) قام كاتب هذه المقالة بإعداد دراسة أولية عن واقع التعريب في دولة قطر بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم معتمداً الاستبانة الخاصة التي أعدها المنظمة.



إن ما ينبغي الاعتراف به هو وجود حاجة لتعريب كثير من قطاعات المحيط الاجتماعي، لكن هذه الحاجة تختلف من قطاع إلى آخر، وفقاً لدرجة استعمال العربية فيه.

وأول ما يحتاج إليه التعريب، تدخل الدولة ودعمها له؛ لأنه يساعد على تقبله، ويؤدي إلى الالتزام به، ثم القضاء على مظاهر العامية في وسائل الإعلام، والعناية بتقديم برامج الأطفال بلغة عربية ميسرة، قريبة من مستواهم العقلي والمعرفي.

ولابد من إعادة النظر في طريقة تعليم العربية، للخروج بها من التلقين إلى اكتساب المهارات، وتميئتها بتهيئة كل الظروف التي تساعد المتعلم على ممارسة اللغة العربية، في مواقف عملية، ذات صلة بحياته، ومستقبله الوظيفي. كما ينبغي إيجاد حوافز، تشجع على إتقان العربية، كأن تكون إجادتها شرطاً للتوظيف والترقية، مع ضرورة العناية بتعليم العربية للعمال غير العربية، وتشجيعها على ذلك. ويتطلب التعريب تعاوناً وتنسيقاً بين الجهات المسؤولة عنه، والجهات المقصودة به، لوضع خطة عمل مرحلية، تتضمن إجراء دراسات مسحية شاملة لمعرفة المجالات، التي ينبغي أن تعرب في كل قطاع من المجتمع، ثم تؤلف لجان مشتركة متخصصة، تتولى تحديد منهجية العمل المناسبة لتعريب كل مجال.

## ٢- العناية بالترجمة (من العربية وإليها):

تكمن أهمية الترجمة في أنها وسيلة اتصال بين الحضارات لنقل العلوم والمعارف، تنمو بها الثقافات، وبها تتعارف الأمم. وتعد "عملية حاسمة ومؤثرة

للاغاية في قضية العبور الحضاري، والدول التي أحرزت تقدماً أدركت هذا المفهوم وعملت على الإفادة منه<sup>(١)</sup>.

وحين اتصل العرب في القرنين الأول والثاني المهجرين بثقافات الأمم الأخرى الفارسية واليونانية والهندية، ورأوا أنهم أمام علوم جديدة دفعتهم رغبتهم الشديدة في معرفة ما في تلك الثقافات من علوم وآداب إلى الترجمة، التي بدأت في العصر الأموي، وازدهرت في العصر العباسي، وأنشئ لأجلها بيت الحكمة<sup>(٢)</sup>.

ولا ينكر أحد، أن الترجمة كانت وسيلة الأوروبيين للإفادة من الحضارة العربية الإسلامية، وبناء هضتهم الحديثة<sup>(٣)</sup>.

وإذا كنا نواجه اليوم تحديات علمية وتقنية، ونتطلع إلى أن نأخذ مكاناً بين الأمم، ويكون لنا إسهام بارز في مسيرة التقدم الحضاري، فلا بد من الاهتمام بالترجمة، كما اهتم بها من قبلنا.

وقد أدركت الجامعة العربية أهمية الترجمة، منذ النصف الثاني من القرن العشرين، إذ طالبت الدول العربية بالعمل على تنشيط الجهود، التي تبذل

(١) الترجمة قضايا ومشكلات وحلول، تطور الترجمة، ص ٢٩، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، السعودية، ١٩٨٥م.

(٢) ضحى الإسلام، أحمد أمين، ط ٨، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٢، ج ١، ص ١٧٧-٢٧٠.  
- الترجمة قديماً وحديثاً. شحادة الخوري، دار المعارف، سوسة، تونس، ١٩٨٨م؛ فضل الإسلام على الحضارة الغربية.

(٣) فضل الإسلام على الحضارة الغربية. مونتجومري وات، نقله إلى العربية حسين أحمد أمين، دار الشروق، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص ٨١.

لترجمة عيون الكتب الأجنبية القديمة والحديثة، وتنظيم تلك الجهود. وتكونت لجنة ثقافية تتبع الجامعة، واتخذت قرارات وتوصيات تعضد حركة الترجمة<sup>(١)</sup>.

كما اهتمت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالترجمة، وقامت بعقد عدد من الندوات في كل من الكويت (١٩٧٣، ١٩٨٣م) وتونس (١٩٧٩م)، وتم إنشاء وحدة الترجمة عام ١٩٨٩م، وأعدت دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، أسهمت في وضع الخطة القومية للترجمة، التي أقرها المجلس التنفيذي للمنظمة، في دورته الثلاثين عام ١٩٨٢م ومؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية، عام ١٩٨٣م ودعواً الدول العربية إلى تنفيذها<sup>(٢)</sup> وأحدثت المنظمة مؤخراً بالتعاون مع الغرفة التجارية العربية الفرنسية، جائزة سنوية للترجمة من الفرنسية إلى العربية، سميت (جائزة ابن خلدون للترجمة) وتهدف إلى مكافأة مترجمين عرب، أو ناطقين بالفرنسية، في مجالي العلوم الاجتماعية، والتقنيات الحديثة<sup>(٣)</sup>.

(١) للترجمة قضايا ومشكلات وحلول، مرجع سابق، ص ٣١.

(٢) دراسات عن واقع الترجمة في الوطن العربي، القسم الأول، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م، ص ٨.

- الخطة القومية للترجمة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م.

- الخطة الشاملة للثقافة العربية، ط ٢، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٠م، ص ٣١١.

(٣) مجلة الفيصل، العدد ٣٠٦، فبراير - مارس ٢٠٠٢م، ص ١٢٩، دار الفيصل للثقافة، الرياض، السعودية.

إضافة إلى تلك الجهود قام مكتب التربية العربي لدول الخليج، بإعداد سلسلة من الدراسات حول قضايا الترجمة ومشكلاتها وحلها<sup>(١)</sup>. ومع كل هذه الجهود، فإن الترجمة في البلاد العربية تواجه عقبات وصعوبات، تحول بينها وبين الوصول إلى أهدافها، فما زالت الأنشطة متناثرة بلا تنسيق، ولم تتوفر بعد الوسائل اللازمة للترجمة، في كثير من البلدان العربية، وليس هناك برامج تنفيذية تعتمد الأولويات المناسبة لحاجات المجتمع، وخطط التنمية. ولا تتوافر لديّ معلومات دقيقة عن حركة الترجمة في دول مجلس التعاون سوى الدراسة التي أعدها د. حسام الخطيب عن واقع الترجمة في دولة قطر<sup>(٢)</sup> وهي تكشف عن حصيلة متواضعة وتطورات محدودة، وفيها إشارة إلى ضعف الترجمة في معظم دول الخليج، مما يقتضي المبادرة إلى إنشاء مراكز للترجمة، لإعداد المترجمين، ثم وضع خطة وطنية للترجمة، تعتمد على تعاون دول المجلس، فيما بينها، وتعاونها مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من أجل تنظيم جهود الترجمة وتفعيلها .

### ٣- المشاركة الإيجابية في الحوار بين الحضارات:

شهد العالم في القرن الماضي في بقاع كثيرة منه حروباً وصراعات خلفت دماراً وآلأفاً من القتلى، وأدرك بعد حين وهو على مشارف الألفية الثالثة أنه بحاجة إلى منهج جديد يخلصه من الآثار السيئة لتلك الحروب والصراعات،

(١) الترجمة قضايا ومشكلات وحلول، مرجع سابق.

(٢) الترجمة في قطر: الواقع ومؤشرات المستقبل، د. حسام الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، الدوحة، قطر، ٢٠٠٠م.

فظهرت فكرة الحوار بين الحضارات، على أنها أفضل الوسائل الممكنة للعيش في سلام وأمان. وأقرت منظمة الأمم المتحدة هذا التوجه، وأعلنت سنة ٢٠٠١م سنة الأمم المتحدة للحوار بين الحضارات، ودعت الحكومات والمنظمات الدولية وغير الحكومية، إلى تخطيط وتنفيذ برامج ثقافية، واجتماعية، وتعليمية، ملائمة لتعزيز فكرة الحوار بين الحضارات.

وقد استجاب المجتمع الدولي لهذه الدعوة، وبرز اهتمام كبير بتلك الفكرة من خلال عقد الاجتماعات والمؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية في بلدان عديدة<sup>(١)</sup>.

وأكدت الدول العربية والإسلامية، ممثلة بمنظمة المؤتمر الإسلامي، التزامها بتعزيز الحوار والتفاهم بين الحضارات وذلك في إعلان طهران (ديسمبر ١٩٩٧م)، وتولت المنظمة مهمة إعداد مشروع الوثيقة العالمية للحوار بين الحضارات، وبرنامج العمل التنفيذي (جدة: فبراير وسبتمبر ٢٠٠٠م).

وبعد التشاور مع الدول الأعضاء بمنظمة الأمم المتحدة تم دمج الوثيقتين في وثيقة واحدة صارت برنامجاً عالمياً للحوار بين الحضارات، بعد أن أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة في دورتها السادسة والخمسين (نوفمبر ٢٠٠١م)<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان الحوار قد أصبح مهماً وضرورياً في عالمنا المعاصر، فإن مشاركتنا فيه نحن العرب والمسلمين ضرورية، ومهمة كذلك، وعلينا أن نستعد له، ونهئ أنفسنا،

(١) انظر: تقرير الأمين العام، الأمم المتحدة، الجمعية العامة، الدورة ٥٦، البند ٢٥ من جدول الأعمال، سنة الأمم

المتحدة للحوار بين الحضارات، نوفمبر ٢٠٠١م.

(٢) المرجع السابق، فقرة (برنامج عالمي للحوار بين الحضارات).

دولاً ومؤسسات وأفراداً، للمساهمة الإيجابية فيه على كل مستوياته، المحلية والإقليمية والعالمية، وفي كل مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

إن توجهنا إلى الحوار يجب أن يكون مبنياً على مبادئ ديننا الحنيف وثوابت حضارتنا الإسلامية الداعية إلى التعارف والبر والعدل.

قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَظَكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)، وقال الله سبحانه: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَيِّلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (المتحنة: ٨).

تستند فكرة الحوار بين الحضارات على حقيقتين لاجتال فيهما وهما: وحدة الجنس البشري وتنوعه، وإذا كانت الوحدة تثبت المساواة في الأصل، فإن التنوع يوجب التعارف الذي هو أعم من الحوار ومقدمة ضرورية له، ولعل هذا ما دعا أحد الباحثين<sup>(١)</sup> إلى استنباط فكرة "تعارف الحضارات" وتفضيلها على مصطلح "الحوار بين الحضارات".

ويتطلب الحوار تكافواً بين طرفيه، وتحديدأ لأهدافه ومجالاته، ومناخاً مناسباً له، ووعياً بالهوية الذاتية، واحتراماً للثقافات الأخرى، واهتماماً

(١) هو الباحث زكي الميلاد، في: تعارف الحضارات، مجلة الكلمة، العدد ١٦، السنة ٤، صيف ١٩٩٧م، منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ص ١٩.

بالقيم الإنسانية المشتركة، وتقديراً لدورها في تحقيق الألفة والسلام والتفاهم المتبادل، وتعزيز فرص التنمية للمجتمعات كافة.

ومما يسهم في نجاح الحوار: التأمل الواعي، في ما يعترضه من معوقات يغلب عليها بغض (الأخر)، وتشويه صورته، والجهل به أو تجاهله، وذلك يقتضي انتهاج موقف نقدي أمين واع من ثقافتنا وثقافة غيرنا، لاكتشاف أفضل القيم التي تقرب بيننا، وتتيح لنا فرصاً أكبر للتفاهم، والتعاون، والثقة المتبادلة.

وليس الحوار مقصوراً على أن يكون بين الحضارات، بل يكون داخل الحضارة الواحدة أيضاً، وهو الأول أن يبدأ به لتنظيم الجهود والتنسيق بينها، ونشر الوعي بأهداف الحوار وقضاياها، وإتاحة الفرص لنقاش واسع وثرى على كل المستويات، الرسمية وغير الرسمية، من أجل الوصول إلى رؤية واضحة، حول كل الأمور المتعلقة بالحوار داخلياً وخارجياً، إذ لافائدة من الحوار، إن لم تسبقه إجراءات عملية، وتعقبه نتائج إيجابية.

والرغبة الصادقة في الحوار هي التي تدفع إلى هئية الوسائل التي تشجعه، ولعل أولها بالاهتمام: وسائل الإعلام، لما لها من أثر كبير في تكوين الاتجاهات وصياغة المواقف، ومن المهم توجيهها إلى تصحيح الصور المشوهة، عن الحضارات والثقافات، وزيادة التواصل البناء، والتفاهم المتبادل بين الشعوب.

وللتربية دورها المهم أيضاً في تنمية الوعي بالهوية الذاتية وخصائصها، والتعرف على الآخرين، واحترام التنوع، بوصفه مصدراً للارتقاء، والنمو، ووسيلة لتقاسم الخبرات، وتعظيم فرص التطوير والتنمية. وتسهم كل صور اللقاء، من خلال الزيارات والاجتماعات والمؤتمرات والندوات، في تشجيع التفاعل، وتبادل الآراء، واكتشاف الجوانب المشتركة، بين الحضارات والثقافات.

إن الحضارة العربية الإسلامية، بما تمتلكه من رصيد غني متنوع وما تنفرد به من خصائص متميزة، يمكن أن تسهم بصورة إيجابية في تعزيز أسس الحوار بين الحضارات، وتحقيق العدل والتعاون والإخاء، للبشرية جمعاء. وفي هذا المجال يواجهنا تحد حقيقي، في اتخاذ المبادرات الملائمة على جميع المستويات، من خلال منظماتنا الإقليمية والدولية، لتشجيع الحوار وتفعيله في جميع المجالات، من أجل تحقيق التفاهم المتبادل بين الحضارات<sup>(١)</sup>.

#### ٤- العمل على مواكبة عصر المعلومات:

لايختلف اثنان أننا نعيش عصر المعلومات، الذي تحولت فيه المجتمعات إلى مجتمعات المعلومات، وأنه يفرض على البلدان العربية مواجهة ما نشأ عنه من تحولات وتغيرات، شملت كل جوانب حياتنا المعاصرة.

(١) انظر مراكز أساسية لحوار حقيقي بين الحضارات، د. المنجي بوسنينة، المجلة العربية للثقافة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، السنة ٢١، العدد ٤٢، مارس ٢٠٠٢م، ص ١٢١.



ومن أهم ما يتميز به هذا العصر، التدفق الهائل للمعلومات عبر وسائل الاتصالات، والتقنيات الحديثة، وارتفاع دور المعلومات، حتى عدت مورداً للتنمية يفوق الموارد المالية<sup>(١)</sup>.

وإذا كان العرب، يدخلون هذا العصر وهم بحالة غير مرضية من عدم التكامل والتنسيق، وضعف الثقة في الاستفادة من مخرجات التعليم، وتأخر في اللحاق بالعالم المتقدم، فإن وقع التحديات العلمية والتكنولوجية عليهم أشد ثقلًا من سوء واقعهم، إذ هم يمرون بمرحلة حرجة، لا تتناسب فيها أوضاعهم مع متطلبات هذا العصر، وتداعياته، ولا مفر لهم من المبادرة إلى اتخاذ خطوات عملية لوضع خطة عربية، لمواجهة ذلك الواقع، وتلك التحديات<sup>(٢)</sup>.

وقد أفاض د. نبيل علي في كتابه القيم: "العرب وعصر المعلومات" في بيان العديد من قضايا العلاقة المجتمعية — المعلوماتية والمفاهيم المحورية والتوجهات الرئيسة لتكنولوجيا المعلومات، وأكد في نهاية الكتاب الحاجة الماسة لسياسة عربية للمعلومات وقدم مقترحاً، باتخاذ المدخل المعلوماتي وسيلة لإعادة الاندماج العربي<sup>(٣)</sup>.

ومن هنا فإن التعامل مع عصر المعلومات، يتطلب تجاوز حالة الانبهار إلى حالة الفعل، المتمثلة في عدم الاكتفاء باقتناء المنتجات الإلكترونية، ووضع استراتيجية محددة للتعامل معه، وصولاً إلى المشاركة الفعلية في إنتاج تكنولوجيا العصر.

(١) الثقافة العربية وعصر المعلومات. د. نبيل علي، سلسلة عالم المعرفة، ط٢، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠١م، ص ١١.

(٢) العرب وعصر المعلومات. د. نبيل علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢٥-٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٢٥-٤٣٢.

## خاتمة:

تضمنت هذه المقالة أربع منطلقات أساسية لكل منها أهميته الخاصة، وبدأت بما يعد رمز وحدتنا العربية الإسلامية وعنوان وجودنا، وهو لغتنا العربية، وإن أمةً لا تم بلغتها محكوم عليها بالفناء لاحالة. ولا يعني ذلك أبداً إهمال تعلم لغة غير العربية وتعليمها، بل أصبح من الواجب علينا إتقان اللغة الأجنبية، للتعرف على غيرنا، والاستفادة من منجزات حضاراتهم وثقافتهم، ومن هنا تأتي أهمية العناية بالترجمة، بوصفها شرطاً من شروط النهضة والتقدم، وكما قل اهتمامنا بالترجمة، طال مدى تأخرنا، وبعدت المسافة بيننا وبين ركب الأمم الصاعدة في فضاءات الرقي والتقدم.

وأما الحوار بين الحضارات، فهو طريق التعارف بين الناس، ومنهج لتعزيز السلام والتنمية، ومشاركتنا فيه واجبة، وخاصة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، لتصحيح ما ترسخ في أذهان الغرب، من صور مشوهة وزائفة عن العرب والمسلمين.

والعمل من أجل الاستفادة من عصر المعلومات، مهمة لازمة لتعزيز قدراتنا في كل المجالات، لمواجهة كل ما يعترض حاضرنا ومستقبلنا من تهديدات وتحديات. وغاية ما أرجوه، أن تسهم هذه المقالة، مع غيرها مما كتب من دراسات وأبحاث قيمة حول هذه المنطلقات، في نقل الاهتمام من التأطير النظري، إلى ميدان الفعل والتطبيق، لتصبح هذه التوجهات منجزات ملموسة في حاضرنا ومستقبلنا.

## لتكونوا شهداء على الناس

الأستاذ عمر عبيد حسنه (\*)

إن اختيار الجزيرة العربية، بأرضها وإنسانها ولسانها، لبدء خطوات النبوة الأولى عليها، وانتهاء الورثة الحضارية والرسالات السماوية إليها، وتكليفها برسالة عالمية، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لتوفر خصائص وصفات ومؤهلات تجعلها عملاً لهذا الاختيار.. فالمهازل ليسوا عملاً للصناعة الثقيلة.. والحمل الثقيل لا يطيقه إلا الأقرباء.

الرؤية الدقيقة المطلوب إدراكها، والإحاطة بها، للانطلاق صوب التنمية والنهوض، ومعاودة الإقلاع من جديد أو إخراج الأمة، تركز - فيما نرى - على ركائز ثلاث، يأتي في مقدمتها:

العقيدة، أو عالم الأفكار والرؤى، التي تشكل مجموعها فلسفة الحياة، أو الشاكلة الثقافية، التي تقبع وراء السلوك الإنساني: ﴿قُلْ كَذَّبَ عَنِ شَاكِلَتَيْهِ﴾ (الإسراء: ٨٤)، والتصور العام للكون والإنسان والحياة، وما ييلور من قيم تضبط مسيرة الحياة، وتشكل المعايير والموازن، التي تمكن من النظر والتقييم،

(\*) مدير مركز البحوث والدراسات.. (دولة قطر).

والمعايرة، والقبول والرفض.

والعقيدة، أو عالم الأفكار، كانت وما تزال هي المحور الأساس، الذي يتمحور حوله الإنتاج الفكري والثقافي، ويشكل في الوقت نفسه الدافع السلوكي، والمحرض الحضاري، ودليل العمل، أو البصيرة والمعالج الهادي.. فالعقيدة هي التي تحمي روح الأمة، وتشكل عقلها، ونسيجها الاجتماعي، وتحقق وقايتها الحضارية والثقافية.. لذلك فهي المسؤولة عن نهوض الأمة ورفيها الحضاري، كما أنها المسؤولة، إلى حد بعيد، عن الانتهاء بها إلى الركود والنكوص والعطالة والاستنقاع الحضاري.

وعمق دار ما تكون العقيدة، أو عالم الأفكار، سليماً نقياً ملائماً لظفرة الإنسان، بكيونته الطبيعية، مستجيباً لحاجاته الأصلية، وبعقدار ما تكون العقيدة سليمة قادرة على تقديم الإجابة الشافية والمقنعة على الأسئلة الكبرى في الحياة، عن النشوء والمصير والأهداف المحركة للإنسان، قادرة على تحقيق إنسانية الإنسان، بعقدار ما تكون مؤهلة للنهوض الحضاري، قادرة على التجاوز، وشحذ الهمم، وتجميع الطاقات، وإعادة الفاعلية في فترات السقوط الحضاري، للإقلاع من جديد.

يلاحظ ذلك وبشكل خاص عندما تلحق بالأمة الهزائم الكبرى، وتُدمر أشيائها ومنتجاتها، فنرى أن العقيدة، أو عالم الأفكار، هو الكفيل بمعاودة النهوض.. لكن الإشكالية الكبرى عندما تكون الهزيمة في العقيدة، والإصابة في عالم الأفكار؛ لأن ذلك مؤذن بالدخول في مرحلة التيه والضللال الثقافي، الذي لا تدرك نهايته.

والتاريخ الحضاري العام، وتاريخ الأمة المسلمة، بشكل خاص، خير شاهد

على قدرة الأمم المستمسكة بعقيدها على تجاوز الهزائم، إذا كانت عقيدتها سليمة، وعالم أفكارها معاني؛ نلمح مدلول ذلك واضحاً في قوله تعالى بعد الهزيمة الكبرى للمسلمين في معركة أحد، بكل إصابتها: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)، فإذا كنا مؤمنين حقاً كان الإيمان، أو عالم الأفكار والقيم، كفيلاً بردم الفجوة، وتحقيق القدرة على التجاوز لإصابة عالم الأشياء، ومعاودة النهوض، حتى لو دمرت أشياءنا.

فإذا كان للعقيدة، أو عالم الأفكار، هذه الأبعاد الحضارية، والإنسانية، والاجتماعية، والثقافية، كان من الأهمية بمكان التوقف طويلاً عند مصدر التلقي لهذه العقيدة، واختبار أدوات التوصيل، ومنهاج التعامل، والعمل على الحراسة الدائمة لسلامتها، والمراجعة المستمرة لنفي أي غبش أو نبتة سوء يمكن أن تحيد بالإنسان عن الجادة، بل أكثر من ذلك نقول: إن هذه المراجعات المطلوبة باستمرار، والتنقية الدائمة لعالم الأفكار، تتأكد أكثر فأكثر في فترات السقوط والهزائم؛ لأن السقوط والهزيمة مؤشر خلل واضح في مسيرة الأمة وكيفية تعاملها مع قيمها وأفكارها.

ولعلنا نرى أن الفيصل الأساس في مجال العقائد، أو عالم الأفكار ابتداءً، إنما يكون في مصدر التلقي، وسلامة التوصيل، والقدرة على تجسيدها في الواقع من خلال عزمات البشر واستطاعتهم، وحسبنا في هذا المجال أن نقول: إن نقاء العقيدة وسلامتها من التحيز، وتحقيقها للعدل الإنساني والاجتماعي، حتى مع الأعداء، وإيقاف الظلم وتسلط الإنسان على الإنسان، هو الأمر الأهم في هذا المجال، إذ لا يمكن أن يعقل أن يكون الإنسان بعلمه المحدود، وعمره

المحدود، ووقوعه تحت مجموعة مؤثرات حزبية أو طائفية أو نسبية قبلية أو مناخية أو تاريخية أو مرضية، هو مصدر تلقي العقيدة (أ) والخلل الذي لا يقل عن ذلك سواءً أن يكون الإنسان مصدر العقيدة ومحلها في الوقت نفسه.. هو الذات وهو القيمة.. هو المعيار والمقياس، وهو موضوع القياس والتقويم (أ)

وقد يكون الاستقراء الحضاري لتاريخ الأمم العام وما أصابها هو الذي انتهى بالكثير من المفكرين والعلماء إلى تقرير هذه الحقيقة، أو هذه السنة الحضارية، التي لخصها الأستاذ مالك بن نبي (رحمه الله) في قوله: إن الحضارة لا تتجلى أو تظهر إلا في صورة وحي يهبط من السماء (مصدر التلقي) يكون للناس شرعة ومنهاجاً.. وتقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي، بالمعنى العام.. فالدين ظاهرة فطرية، كونية، اجتماعية، تشكل حضارة الإنسان وتحكم فكره، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في مساراتها. وعلى هذا، يبدو الدين وكأنه مطبوع في النظام الكوني قانوناً خاصاً بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية.

ولا شك عندنا أن العقيدة كانت على مدار التاريخ ولا تزال، تشكل المحور وبؤرة الاهتمام في الحراك الثقافي والتحريض الحضاري، سواء في ذلك الذين يناصرونها ويدافعون عنها، ويجتهدون في البرهان على صحتها ودورها في تحقيق إنسانية الإنسان وسعادته وتخليصه من تسلط الإنسان على الإنسان، أو الذين يواجهونها ويحملون لها العداوة، ويحاولون إسقاطها واستغلالها للتسلط باسم الدين، بشتى الوسائل، وإن كنا نقول هنا: إن الإشكالية، أو محل المعركة حضارياً وتاريخياً، كانت غالباً في ممارسة الكهانات الدينية أكثر من أن تكون في

العقيدة الدينية ذاتها؛ لأن العقيدة لازمة فطرية بشرية، حيث لا إنسان بلا عقيدة، أياً كانت تلك العقيدة، ابتداءً من الإنسان البدائي الوثني بعقائده، ومروراً بالعقائد السماوية، وانتهاءً بالرسالة الخاتمة التي خلصت البشرية من الاستغلال والكهانات ووضعت الإنسان أمام الله بدون وسائط البشر.

وقد تكون المحصلة النهائية للذين يمارسون محاربة العقيدة، أنهم إنما يحاولون القيام بعملية إخلاء وإملاء، أو عملية استبدال، لتصبح نظرياتهم وأفكارهم هي عقائد للناس، وبذلك تُستدعى عقائد بديلة أو كهانات بديلة، أو آلهة عصرية سياسية واقتصادية.. إلخ، ويصبح أصحاب النظر والفلسفات والعقائد هم الكهانات الجدد والآلهة الجدد.

فالإشكالية ليست دائماً في طبيعة العقيدة وخصائصها ومدى ملاءمتها للفطرة، بل قد تكون الإشكالية كلها في الكهان، الذين يستغلون العقيدة، بحيث تلبس الذات بالقيم، وتغيب تعاليم العقيدة الدينية لتحل محلها تفاسير ومفاهيم وشروح وتقاليد الكهانات، وعند ذلك يسود ضرب من الإرهاب الفكري باسم الحفاظ على العقيدة، فيصبح الكلام عن الكهانة ونقائصها ونقائضها كلاماً على العقيدة.

وبالإمكان القول: إن النبوة الخاتمة الخالدة، التي كان محلها أرض الجزيرة العربية، وقاعدتها البشرية الأولى إنسان الجزيرة، ووعاء تعبيرها لغة أهل الجزيرة، واستيعابها يحدده مفهوم العرب ومعهودهم في الخطاب، ومعجزتها ممتدة وبجردة عن حدود الزمان والمكان والأشخاص والكهان، بحيث تمتلك المعيار (النص الإلهي) السليم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ذلك أنه على

الرغم من تقدم العلوم وتطور الفلسفات وتواصل الحضارات، لم تسجل عليه إصابة واحدة؛ هذه النبوة الخاتمة بتجربتها التاريخية الحضارية في مهبط الوحي، تعتبر من أهم الإمكانات التي هيء إنسان الجزيرة لمعاودة الانطلاق صوب الذات وصوب (الآخر)، وأعظم القدرات الكامنة التي يمتلكها منطلقاً من عقيدة التوحيد التي تحمل المساواة، وتوقف تسلط الإنسان على الإنسان، وتلغي جميع أنواع الوثنيات، وتلغي الكهانات التي يمكن أن تقوم باسم الدين، وتسوي الناس أمام الله وعبادته بدون واسطة.

أما الركيزة الثانية التي يقوم عليها النهوض -فيما نرى- فهي التاريخ. فالتاريخ هو التجسيد العملي للعقيدة، أو لعالم الأفكار، أو هو التجلي والاستجابة للقيم والأفكار في سائر الأنشطة الإنسانية.. وهو الذاكرة الجمعية المتراكمة للأمة، وسجل حركتها، ومرآة مستقبلها، أو هو المختبر الحقيقي للمبادئ والأفكار ومدى قابليتها للتطبيق ونصيبتها منه، وقدرتها على البناء الحضاري ابتداءً، ومعاودة النهوض الحضاري عندما تتعرض الأمم للإصابة أو السقوط، لسبب أو لآخر.

والتاريخ ليس شيئاً منفصلاً من عالم الأفكار، بإطاره العام، وإن بدا فيه بعض الجنوح والخروج والانفلات في بعض الأحيان، ونشأت على جوانبه بعض نباتات السوء التي لا تلبث أن تتضاءل وتغيب، لعدم توفر المشروعية العليا لقيم العقيدة وعالم الأفكار في صياغتها؛ لأن العقيدة هي روح التاريخ ومرتكز تدفقه، منها تستمد القيم والموازن التي تقوم الفعل البشري، وتبين مواطن الإصابة، وتحدد أسباب القصور ومواطن التقصير، وتصوب مسيرة التاريخ



وتحميها، وتبين سبيل الخروج ومعاودة النهوض.

والتاريخ يمنح البصارة للأجيال، في حاضرها ومستقبلها، ويختزل أعماراً في عمر، وتجارب في تجربة، وهو تراكم معرفي لأجيال في جيل، بحيث يقف على أكتاف من سبقوه، فيبصر الماضي ويستشرف آفاق المستقبل.

والتاريخ يُوقف الإنسان على قمة التجربة التاريخية للأمم، ويتحقق برصيدها، ويمكن من استقراء قانون الحركة الاجتماعية واكتشافه، ذلك القانون الذي ينتظم سير الأمم، ويبين فاعلية السنن في الأنفس والآفاق، ويؤكد اطرادها، ويصّر بكيفية التعامل معها، ويحذر من الغفلة عنها، والعدول عن تسخيرها.

وخلاصة القول: إن التاريخ بيان، ومعرفة، وعلم، واهتداء إلى السنن الفاعلة في الحياة والأحياء، وعبرة وموعظة بمن سبق من الأمم، ووقاية حضارية من إصابات السقوط.

وحيث كان للتاريخ هذه الأهمية والدلالة والدور الأساس في تلمس وسائل النهوض الحضاري وتصويب المسيرة البشرية وتحقيق الوقاية، فقد جعل الإسلام تاريخ الأمة، وعلى الأخص الذي تشكل وانطلق من مهبط الوحي (بلاد الجزيرة العربية) لا يقتصر على تاريخ الفترة الزمانية والمكانية الخاص بمهبط الوحي، وإنما أوقفت معرفة الوحي إنساناً هذه المنطقة المنطلق، على قمة التجربة البشرية، وجعلت رصيد المسيرة التاريخية للأمم، بكل ما فيها، تاريخاً لحملة الوحي الخاتم، على الرغم من اختلاف الزمان والمكان، وبذلك امتلكت أرض الوحي المخزون التاريخي العام والجذور الضاربة في عمق الزمان والمكان، وشكّل القصص القرآني، الذي يمثل تاريخ النبوات، ويصّر بتضاريس السقوط والنهوض،

المساحة التعبيرية الأكبر في نصوص الوحي (القرآن) لأهل مهبط الوحي ومن ثم المسلمين بشكل عام، ليتحركوا على بينة، ويستشرفوا الماضي بكل عبره، ليصلحوا الواقع ويصروا المستقبل تماماً، ويعيدوا البناء وفق سنن الله التي لا تحابي أحداً، وتكون عندهم القدرة على الانفتاح والانتفاع بتجارب الآخرين، التاريخية منها والمعاصرة، حتى لنكاد نقول: إن التاريخ الإنساني انتهى إلى مهبط الوحي ابتداءً.

فتاريخ الجزيرة في أبعاده الحقيقية هو التاريخ الإنساني، عبرة وعطاء، قال تعالى: ﴿ قَسِرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿١٦٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٧-١٣٨)، حيث لم يرض الله لأهل هذه المنطقة، قبة الأمة المسلمة بشكل خاص، أن تقتصر على التاريخ الخاص، وإنما طلب إليها التحقق بالتاريخ العام.

وقد لا نستغرب بعد ذلك أن يأتي الأمر الإلهي، على الرغم من امتلاك نصوص الوحي الخاتم وبيانه النبوي، يطلب السير في الأرض، والتوغل في التاريخ العام، والتزود بالقوانين الاجتماعية، والتحقق بإدراك السنن الفاعلة في الحياة والأحياء (الفرض الحضاري).

إن أرض الجزيرة بدأ تاريخها بالنبوة الأولى، وتعاليمها بدأت بتاريخ أبي الأنبياء، عليه السلام، عندما أسكن ذريته بوادي مكة المكرمة، وحدد الهدف، ورسم المسار، وقص الله ذلك بقوله: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ... ﴾ (إبراهيم: ٣٧)؛ وانتهت إليها النبوة الخاتمة: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ

الْيَتِيَنُ ﴿ (الأحزاب: ٤٠)؛ وفيها بُني أول بيت لعقيدة التوحيد والمساواة وإيقاف تسلط الإنسان على الإنسان ، وعندها ألغيت الوثنيات بجميع أشكالها: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٦)، وإليها انتهت وراثه التوحيد: ﴿ تِلْكَ آيَاتُكُمُ الَّتِي هَدَيْتُمُوهَا إِلَى الْيُسُوفِ وَأَنْتُمْ كَالْمُغْرَبِينَ ﴾ (الحج: ٧٨).

وهنا قضية قد يكون من المفيد لفت النظر إليها، وهي: أن هذه الأرض، أرض الجزيرة العربية، أو أرض النبوة ومهبط الوحي، إضافة إلى أنها منطلق التاريخ الإسلامي وامتداده بكل أزمانه وأقاليمه ورجاله، إلا أنها تتميز دون سواها من أرض الإسلام بأنها كانت الوعاء لمرحلة السيرة وبناء الأنموذج وسيرة جيل خير القرون.

والسيرة النبوية، رغم أنها حلقة في تاريخ الأمة المسلمة، إلا أنها حلقة متميزة؛ لأنها تشكلت على عين الوحي وحركة المعصوم ﷺ وبيانه، من خلال تأييد الوحي وتسديده، وغطت جميع المساحات التاريخية والإنسانية بما في ذلك: فترة الدعوة، والمجتمع والدولة، والسرية والعلنية، والضعف والقوة، والتمكين، والنصر والمهزيمة، وبناء المجتمع، والمواجهة، والمعاهدة، والحوار.... إلخ، ابتداءً من الخطوات الأولى للنبوة وحتى بناء الأنموذج، كمالاً واكتمالاً، كل ذلك على أرض الجزيرة، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ أَقْرَأْ ﴾، ووصولاً إلى قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (المائدة: ٣)، فهي مرحلة الأسوة والقدوة، لأنها الفترة المعصومة، المسددة بالوحي والمؤيدة به، إلى جانب كونها حلقة في التاريخ.

فإذا كان تاريخ الإسلام، أو تاريخ المسلمين فيما بعد مرحلة السيرة، يشكل

عبرة وعظة، فإن فترة السيرة العملية في الجزيرة تمثل الأسوة والقودة، ومصدر التشريع، والمعيار لتحويل الفكر إلى فعل، أو العقيدة إلى عمل.. وليس ذلك فقط، بل تعتبر السيرة مع فهم القرن الذي شهد له الرسول ﷺ بالخيرية، إلى جانب قيم الوحي، أو معرفة الوحي، المرجعية الشرعية لكل فترات التاريخ الإسلامي والحاضر والمستقبل الإسلامي.

فالتجربة التاريخية (السيرة) لتنزيل القيم في الكتاب والسنة على واقع الناس، وتحقق تطبيقها، والالتزام بها، من خلال عزمات البشر وخصائص إنسان بلاد الجزيرة العربية، أو إنسان المنطقة، الذي أهله خصائصه وصفاته لأن يكون مهبط الوحي ومحله ووعاءه وأ نموذج تطبيقه، تعتبر تكليفاً من جانب، وهو أهل لهذا التكليف بما يمتلك من خصائص وصفات تؤهله لمعاودة الانطلاق، وتشريعاً من جانب آخر لاختياره محلاً للرسالة الخاتمة وحملها إلى العالم، وهذا شرف عظيم، وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، وتأتي على قدر الكرام المكارم.

فالتجربة الحضارية تعني - فيما تعني - أن الأرض التي أنبتت هذا العطاء، على مستوى الإنسانية جميعاً، مؤهلة لمعاودة الإخراج لخير أمة، تستأنف العطاء الإنساني إن هي أحسنت التعامل مع القيم، واهتدت بتجربتها التاريخية، واكتشفت ذاتها ومؤهلاتها، ومسؤولياتها تجاه العالم.

فإذا قلنا مع رؤية المفكر الكبير مالك بن نبي (رحمه الله): إن نهوض أي مجتمع مرهون إلى حد كبير بتوفير ظروف وشروط ميلاده الأول، أدركنا أهمية الاهتمام بالتجربة التاريخية الحضارية وإمكان ذلك.

فالجزيرة ابتدأت فيها النبوة واختتمت في أرضها: ﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّبْحِ

الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفٌ إِتْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿الأعلى: ١٨-١٩﴾؛ والجزيرة أضيف إليها رصيد التاريخ البشري؛ والجزيرة مهبط الوحي تمتلك النص الإلهي السليم ومدلولاته ومواطن نزوله وحركته، وهو النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ والجزيرة تمتلك التجربة التاريخية الحضارية؛ والجزيرة تمتلك الفترة التي تمثل المعيار للفعل التاريخي، والجزيرة بُني على أرضها الأنموذج، بكل تشكيلاته وتطوراته وحالاته المتنوعة.

فهي بذلك كله مؤهلة، إن هي أدركت مسؤوليتها الرسالية، لمعاودة الانطلاق، وإيصال الرحمة للعالمين، حيث لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، أو كما قال إمام دار الهجرة، الإمام مالك رحمه الله.

والركيزة الثالثة في البناء والنهوض الحضاري إنما تتمثل في فقه الواقع.. وهو الأمر الغائب اليوم عن الكثير من فقهاء وفكرنا، ولا بد أن نعترف ابتداءً بالتقصير في امتلاك أدواته، ذلك أن الواقع بكل مكوناته، بعالم أفكاره، وعالم أشيائه ومنتجاته، يشكل إلى حد بعيد ثمرة الماضي ومستقبله وامتداده، فالحاضر مستقبل الماضي، وبعده ومداه، وهو في الوقت نفسه يشكل ماضي المستقبل.. فصناعة المستقبل والصورة التي نريدها للمستقبل يبدأ رسمها ونسجها من خيوط الحاضر، ويُستشرف لها الماضي بكل عبره ودروسه والإصابات التي لحقت به، بسبب العجز عن حسن التعامل مع القيم، حتى تشكل الحاضر على الصورة التي هو عليها.

فهاجس التغيير والقلق الحضاري- إن صح التعبير- أو القلق السوي، حيث القلق سويٌّ ومرضي، هو الذي يبيّن إرادة التغيير، ويشكل الهم الذي يصنع

الهمة، ويجمع الطاقة، ويسترد الفاعلية، ويدفع للبحث عن مواطن الخلل وتحديد مواطن القصور وأسباب التقصير؛ يدرس الظواهر الاجتماعية ويتعرف إلى أسبابها، ولا يقتصر على معالجة آثارها السلبية، وإنما يتجاوز إلى معرفة السنن والأسباب وقوانين الحركة الاجتماعية التي تحكمها، ويتحول إلى دراسة هذه السنن وكيفيات تسخيرها، والتعرف على سنن المدافعة وكيفية تفعيلها، ومغالبة سنة بسنة، أو قدر بقدر.

وليس ذلك فحسب، وإنما التعرف على الإمكانيات بكل أبعادها المادية والمعنوية، والمحركات الاجتماعية، وتصميم الخطط والبرامج لحركة المجتمع، ووضع الأوعية الملائمة لحركة الأمة، ضمن إطار الإمكانيات، بعيداً عن الأمنيات؛ وإن كانت الأمنيات هي التي تخلص الخيال وتحرك الحماس وتنشئ الحافز وترسم الفضاء، الذي تتحرك من خلاله الإمكانيات بدون مجازفة وهدر لها.

ولا شك أن دراسة الواقع بكل مكوناته، وتحليله، والتعرف إلى المحركات الاجتماعية أو السنن التي تحكمه، لم تعد قضية خاضعة للتأمل والتمني والشعارات المرفوعة، وإنما أصبح لذلك علوم وأدوات بحثية وتخصصات معرفية في العلوم الاجتماعية بكل فروعها، إلى جانب ما تقتضيه الدراسة من عمليات الاستقراء والمسح الاجتماعي والإحصاء، بكل فروعها ومجالاته، وبعد ذلك كله يمكن أن تتوفر لدينا الرؤية الكاملة والدقيقة والموضوعية لوضعه في السياق التاريخي المناسب للأمة، بكل تضاريسه ومنحنياته، سقوطاً ونهوضاً، ومن ثم القيام بعملية المقاربة، للتحقق بالخبرة والعبرة التاريخية التي تعين على إِبصار العلاج وتداعيات المستقبل.

إن عملية النهوض، وردم فجوة التخلف، ومعالجة الخلل، وتسديد الطريق

إلى المستقبل، تتطلب العودة إلى مسيرة السيرة، بكل مراحلها وعطائها وتطوراتها، ذلك أن السيرة بخلودها هي منجم عطاء ودليل تنزيل للنص الخالد المجرد عن حدود الزمان والمكان، خاصة وأن معاودة النهوض على أرض النبوة نفسها، ومن خلال إنسانها، إضافة إلى أن السيرة محل التأسي والافتداء، الأمر الذي يقتضي وضع هذا الحاضر أو هذا الواقع في موضعه من مسيرة السيرة، ومن ثمّ تحديد موقع الافتداء من خلال الإمكانيات المتاحة والظروف المحيطة، إذ لا يمكن أن تكون مرحلة القوة والتمكين والمجاهدة لدرء الفتن في السيرة، هي محل الافتداء لمجتمع يعيش مرحلة الاستضعاف والتخلف، بل الافتداء لابد له أولاً من تحديد موقع الحاضر من مسيرة السيرة الطويلة، ابتداءً من بدء الخطوات الأولى من بدء الوحي: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وانتهاءً بالوصول إلى بناء الأنموذج وتحقيق حالة الكمال، بكل ما بينهما من منعرجات، من نصر وهزيمة، ودعوة ودولة.... إلخ.

وتشتد الحاجة أكثر فأكثر هنا، عندما يكون التفكير في إعادة إخراج الأمة إنما يتم على أرض النبوة نفسها وفي إطار إنسانها، بكل ما يمتلك من رصيد تجربة حضارية تاريخية تشكل معالم هداية، وتمنح الأمل بالقدرة على معاودة البناء لنسق التجربة على الأرض نفسها وبإنسانها ومناخها وأرضها وجبالها.

وهنا قضية تكاد تكون مسلمة حضارية، تبلورت نتيجة لاستقراء التاريخ الحضاري الإسلامي، إضافة إلى مواعيد الله سبحانه وتعالى وموآثيقه، وهي أن خلود الرسالة، أو خلود عالم الأفكار، يعني تجردها عن حدود الزمان والمكان، وقدرتها على الإنتاج في كل زمان ومكان، إذا أحسنا التعامل معها، وذلك بتجريدها من قيود الزمان والمكان، وتوليدها في كل زمان ومكان.

وهذا الخلود بمقدار ما يصدق على سلامة القيم الإسلامية وقدرتها على الاستجابة للمستجدات والمتغيرات في تاريخ البشرية؛ لأن الرسالة خاتمة وخالدة، بمقدار ما يصدق أيضاً على معاودة إنتاج الأمة التي تضطلع بهذه القيم وإخراجها للناس من جديد.. والتاريخ شاهد على أن المجتمعات الإسلامية عموماً كلما أحسنت التعامل مع القيم تحققت لها النهوض والشهود.. فكيف ببلاد الجزيرة؟

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى نوعية أدوات التقويم والقياس لواقع المجتمع وتحديد مواطن الخلل فيه، حتى لا تطيش السهام، وتتنافر الآراء، وتتحكم الأهواء، ومن ثم وضع المجتمع بكل حاله في السياق التاريخي، لتحقيق العبرة، وفي الموضوع المناسب لمسيرة السيرة، لتحقيق القدوة، ذلك أن القيم وأدوات التقويم والبحث في الإسلام مصدرها معرفة الوحي وليس أهواء البشر.

فتقويم المجتمع إنما يتم من خلال معايرته بالقيم الإسلامية، وقياسه على أصوله الحضارية، والنظر إليه من خلال عالم أفكاره، وتحديد مواطن الإصابة للوصول إلى كيفية التعامل مع القيم وتنزيلها على الواقع في ضوء ذلك، وإلا كيف يتسنى لنا تحديد الخلل واختيار نوع المعايير المستخدمة؟ فقضية المعايير على غاية من الأهمية، لأن الخلل في المعيار يقود إلى النواتج المختلفة والنتائج غير السليمة.

لذلك نقول: إنه بعد تحديد مواطن الخلل وأسبابه، من خلال سنة الله في الخلق وقانون السقوط والنهوض الحضاري، ووضع الواقع في سياقه التاريخي للأمة، وتحديد موضعه من مسيرة السيرة، لتحديد مواطن الاقتداء وكيفياته، تبدأ عملية التنزيل والتسديد، ومعالجة الخلل، من خلال سنن التدرج والمدافعة، والنظر إلى الواقع في ضوء القيم، والتعامل مع القيم وكيفيات تنزيلها للمعالجة



من خلال الواقع.

أما محاولة تقويم المجتمع وتحديد إصاباته من خلال سياق تاريخي غير تاريخه، أو من خلال أصول حضارية غير حضارته، فذلك نوع من تكريس السقوط وديمومة التخلف، إذ لا يمكن أن يُقاس واقع مجتمع ويحاكم بغير سياقه التاريخي وأصوله الحضارية وقيمه الثابتة، هذا على الرغم من اعترافنا أن الواقع اليوم بدأت تساهم بصنعه مجموعة اعتبارات داخلية وخارجية بعد أن كاد العالم يصير واقعاً واحداً.. لذلك فدراسة الواقع تتطلب أيضاً وضعه في السياق الدولي، وأخذ ذلك بعين الاعتبار، تأثيراً وتأثراً.

ومع ذلك، فعمليات التحديث والنهوض والتجارب العديدة، التي جاءت من خارج القيم والتجربة التاريخية والمعادلة الاجتماعية للأمة باءت بالفشل، كما أن محاولات النهوض في الداخل الإسلامي اعتراها الكثير من الضمور والتخلف، وبقيت عاجزة عن الامتداد وتحقيق الخلود بأبعاده المطلوبة، لعدة أسباب، لا مجال لذكرها هنا، لكن حسب تلك المحاولات أنها احتفظت بالإمكان الذاتي للأمة، وإن عجزت عن التوليد، بينما التجارب القادمة من الخارج الإسلامي تجاوزت وأسقطت الإمكان والأهلية وألقت بنفسها على (الآخر) المختلف، فلا الارتقاء حقق النهوض، ولا الانكفاء ساهم بالترقي، فلا بد من تحديد الخلل واسترداد الدور الرسالي من خلال القيم الإسلامية والمسيرة التاريخية.

لذلك فإنسان الجزيرة العربية، أرض النبوة الأولى، ووارث الرسالة الخاتمة، مدعو قبل غيره للاستشعار بمسؤوليته الحضارية والثقافية والدينية، أولاً ليعي ذاته ويصوب مسيرته بتحقيق شهادة الرسول عليه ﷺ، ومن ثم يحمل الخير للعالمين.

ذلك أن الأرض والإنسان، التي كانت مهبط الوحي، ومحلاً لحمل الخير للعالم، والقاعدة البشرية الأولى التي انطلقت بالإسلام إلى الناس، وكانت محلاً لبناء الأنموذج تحت عين النبوة، وأنبئت جيل خير القرون، وأنتجت أجنة الدعوة الأولى، هي مؤهلة بطبيعة الحال لمعاودة الإنتاج على مستوى الفكر والفعل إن هي أحسنت التعامل مع رصيدها وإمكانها الحضاري، فوعت ذاتها، وصوّبت شهادة الرسول ﷺ عليها: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣)، ومن ثم انطلقت للمساهمة بالعطاء الإنساني: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٨)، بحيث تدرك بدقة أن تخليها عن إدراك بعدها الرسالي، وانسحابها من الساحة، وتحويلها إلى محلٍ للتلقي من (الآخر) دون معيار، وتخليها عن دورها في معالجة الأزمة الإنسانية، بما تمتلك من قيم ومعايير إنسانية بعيدة عن التحيز والتعصب، سوف يؤدي إلى تفاقم أزمة الحضارة الإنسانية أيضاً واستحكام الفتن في الأرض، فالله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (الأنفال: ٧٣).

فالعالم يعاني من الفساد والإفساد، بسبب غياب القيم العادلة التي تحقق المساواة وتسترد إنسانية الإنسان، لذلك فالمسؤولية عظيمة، والعطاء عظيم، والثواب على استرداد الدور الرسالي العالمي عظيم أيضاً.

فإذا كان المسلمون عامة مسؤولين عما حل بهم، ومسؤولين تجاه (الآخر) بطبيعة التكليف وطبيعة الرسالة وعالميتها وإنسانيتها، بعيداً عن الإقليمية والتعصب، فإن أرض النبوة، أو الجزيرة العربية، وإنسان النبوة، ومهبط وحيها، ووعاء حركتها الأولى، ولسان خطابها للناس، تصبح المسؤولية بالنسبة له أكد.

ولعلنا نقول: إن اختيار هذه المنطقة من العالم، بأرضها وإنسانها وزمانها  
ولسائها، لبدء خطوات النبوة الأولى عليها، وانتهاء الوراثة الحضارية والرسالات  
السماوية إليها، وخصها برسالة النبوة الخاتمة، التي انتهت إليها أصول الرسالات  
السماوية، وكان تكليفها وخطابها للعالم، ليس عبثاً ولا مصادفة، وإنما لتوفر  
خصائص وصفات ومؤهلات تجعلها محلاً لهذا الاختيار ولهذا المهمة العالمية:  
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ولهذا القول الثقيل: ﴿إِنَّا  
سَنَلْقَىٰ عَائِكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: ٥).. فالمهازيل ليسوا محلاً للقول الثقيل..  
والحمل الثقيل لا يطيقه إلا الأشداء الأقوياء، فالرسول ﷺ يقول: «...أنا خيار  
من خيار»<sup>(١)</sup>.

لذلك يمكن لنا أن نلمح في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾  
(الأنعام: ١٢٤)، بعض الآفاق والأبعاد التي تمكننا من استبانة بعض أبعاد حدود  
المسؤولية والمهمة والأهلية وخصائص القيادة المركوزة في أرض النبوة، التي  
تؤهلها للاضطلاع بدورها الرسالي.

ولكن كان المدلول الأقرب لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾  
إنما ينصرف نحو اختيار الرسول ﷺ، من بين سائر الخلق، لما يتمتع به من  
خصائص وصفات ومزايا تؤهله لهذه المهمة، المعنى الذي أدركته السيدة خديجة  
رضي الله عنها بفطرتها وعشرتها لرسول الله ﷺ عندما جاءه الوحي فعاد إليها

(١) أخرجه الحاكم والبيهقي.. وفي صحيح مسلم: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من  
بني إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم) ١  
وأخرج الإمام أحمد عنه ﷺ: (أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه،  
وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة، وخلق القبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً،  
فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً) (أخرجه الإمام أحمد).

مفزوعاً خائفاً مما لا عهد له به، فأدركت طبيعة المهمة وأسباب الاختيار والعواقب السليمة، في ضوء الخصائص والصفات التي يتمتع بها، فثبتت وطمأنت وقالت: «... أَبَشِّرْ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، فَإِنَّ اللَّهَ إِتَّصِلَ الرَّحِيمَ، وَتَصَدَّقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكُلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ»<sup>(١)</sup>.

فالرسول ﷺ كان يهياً منذ طفولته.. عصمه الله وهياه لهذه المهمة.. ولكن كان ذلك للرسول ﷺ فإنه يصدق أيضاً على المكان، الجزيرة العربية، التي اختارها الله من بين سائر الأمكنة، لتكون مهبط الوحي، أو أرض النبوة، ومكان القبلة والوجهة، والمحور الذي يطوف به الناس (بيت التوحيد): ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧)، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران: ٩٦).

فاختيار الرسول ﷺ، جاء خياراً من خيار، وقد وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، واختيار الجزيرة العربية مهبط الوحي لما كان عليه أهلها من السجايا النفسية والخصائص الخلقية من كرم، وشجاعة، ونبل، وصدق، ووفاء، ونصرة للمظلوم، وحسن الجوار، والرسالة إنما جاءت لتحقيق الاكتمال والكمال لهذه الأخلاق، ولا أدل على ذلك من قول رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»<sup>(٢)</sup>.

كما يصدق أيضاً على الإنسان، الذي تشكلت منه القاعدة البشرية الأولى،

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه البخاري

واستطاع تمثل القيم والمبادئ السماوية في نفسه، ونزّلها على الواقع بكل مكوناته من خلال عزماته، وحفظها من التبديل والتحريف والانتقاص، وبني من خلاله الأنموذج الذي يثير الاقتداء.

ويصدق أيضاً على الزمان واللحظة التاريخية، التي اختيرت للتنزيل دون سائر الأزمنة.

ويصدق أيضاً على اللسان: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: ٢)، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٥)، فاللغة العربية بما تمتلك من قدرات هائلة على مستوى الألفاظ والمعاني والمفردات والمترادفات والقدرة على النمو والتوليد والارتقاء، كانت مؤهلة لتصبح وعاءً للمعجزة البيانية، المعجزة الخاتمة، فتكون وعاءً للتعبير، وأداة للتفكير، ويكون معهود العرب في الخطاب معيناً على فهم وتفسير مدلولات كلام الله الخاتم، ويكون أهل الجزيرة العربية ولغة قريش وأهلها طرق الاتصال والتواصل مع كلام الله وفهمه، ويكون أهلها وفهمهم حجة في البيان والتفسير.. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام: ١٢٤). فهل نجتهد لنعلم أسباب هذا الجعل، ونذكر أبعاد مسؤوليتنا في هذا الجعل، ورسالتنا من هذا الجعل، وموقعنا عالمياً من هذا الجعل، وخطورة نكوصنا عن هذا الجعل؟

نعود إلى القول: إن جعل الرسالة الخاتمة في هذا الموقع، واختيار هذا الإنسان محلاً لها ابتداءً، وقدرته على الانطلاق بها إلى العالمين، إنما جاء عن علم من الخالق بالخصائص والصفات والمؤهلات.. هو جعل قائم على علم ومعرفة، وليس عبثاً ولا مصادفة.

لقد عرف العرب في الجزيرة، قبل الإسلام الكثير من القيم الإنسانية، عرفوا

الشورى كقيمة سياسية واجتماعية، وكانوا يتداولون الرأي، وكانت دار الندوة المشهورة محلاً مشهوداً للتداول والتشاور واتخاذ القرار، ولا غرو في ذلك حيث لا يزالون على بقايا ملة إبراهيم عليه السلام.

كما عرفوا نصرة المظلوم ووقع الظلم، فلقد تلمس العرب قبل الإسلام وجهة الخير، وتعاهدوا وتعاهدوا وتحالفوا على نصرة المظلوم ورد الحق إلى صاحبه، ولا أدل على ذلك من عقدهم لحلف الفضول، الذي تم في دار عبد الله ابن جدعان وحضره الرسول ﷺ، قبل البعثة، وكان مضمون هذا التحالف: ألا يبقى في مكة مظلوم إلا وترد له ظلامته، حتى أشاد الرسول ﷺ بهذا التوجه الخير بعد البعثة، وقال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»<sup>(١)</sup>.. ولا بد أن ندرك أن هذا التحالف إنما كان قبل خمسة عشر قرناً تقريباً.

فالحنيفية، ملة سيدنا إبراهيم، لم تنقطع في الجزيرة العربية، وبقيت هناك مجموعة تأبت عن الوثنيات جميعها، فلم يقبلها عقلها، واستمرت في رحلة التأمل والبحث عن الحقيقة والاختبار للعقائد السائدة، حتى أن العرب وُصفوا قبل الإسلام بالضلال، والضال -من بعض الوجوه- هو الإنسان القلق، الذي لم يقبل بالواقع، ويشعر بالغرابة فيه وعدم الوصول إلى الهدف، ويستمر بالبحث، لذلك فهو يحاول التفتيش عن الحقيقة ويسعى للوصول إلى الهدف، حتى جاءت معرفة الوحي، وحققت الوصول إلى الهدف المطلوب، فكانت ضالة الضالين بالإسلام. فالعرب الذين وُصفوا بالضلال، وجدوا ضالتهم بالإسلام، وكأنه كان

(١) أخرجه ابن اسحاق وابن هشام وغيرهم.

بينهم، بخصائصهم وصفاتهم، وبين الإسلام بعقيدته وقيمه، تواعد والتقاء. وعلى هذا، فلم يكن العرب قبل الإسلام من المجتمعات الساكنة الراكدة، وإنما كانوا من المجتمعات الدينامية المتحركة القلقة من الواقع، الباحثة عن المثل الأعلى.. حتى عبادة الأوثان التي كانت تشكل وراثه اجتماعية، لم تكن مقنعة، فكم من موقف يحمل دلالات نحو هذا الاتجاه، ونكتفي هنا بموقف واحد لعله يشكل نافذة للإطلاة منها على الحال في الجزيرة العربية قبل الإسلام، وذلك عندما ذهب أحدهم إلى وثنه يتعبد عنده فوجد ثعلباً يبول عليه - وكثيراً ما تهوى هذه الفصيلة من الحيوانات البول على النصب- فاغتاظ لذلك وأحس بالهوان والاستصغار لنفسه وعقله وكرامته، فقال:

أربُّ يبول الثعلبان برأسه      لقد هان من بالث عليه الثعالب

ولا معرة في ذلك، فقد وصف الله سبحانه الرسول ﷺ الذي ترفع عن عبادة الأوثان وكان دائم التفكير والخروج إلى الخلاء والبحث عن الحقيقة، وصفه الله بالضلال عن الحقيقة، رغم البحث عنها، حيث لا تتأتى مثل هذه الحقيقة الكبرى إلا من طريق الوحي، أو يستمر الضلال، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (الضحى: ٧).

ومن جانب آخر، تعتبر الجزيرة العربية من البلاد التي بقيت في منأى عن التأثير بالديانات الأخرى، وعاشت اليهودية والنصرانية على هوامشها ولم تصل إلى عمقها، ولم تكن مقنعة لإنسانها، فجاء اختيار الجزيرة العربية عن علم وعن مؤهلات واستحقاقات وصفاء وفطرة سليمة.

وقد يكون من الأمور اللافتة حقاً، أن العرب بشكل أخص، كانوا قبل

الإسلام يعانون من عقدة الزعامة، وإشكالية السلطة، وأن الكثير من العداوات والحروب والثارات والصراعات، يمكن تفسيرها على أنها كانت بسبب النزاع على السلطة والنفوذ، وهذا من بعض الوجوه يشكل ظاهرة صحيّة، إذ كيف يمكن على العموم أن يقبل الإنسان من إنسان مثله، أن يكون له عليه حق السيادة والتشريع والسلطان، خاصة وأن الناس، يولدون متساوين، وينظرون لبعضهم وكأنهم يجلسون على مائدة مستديرة، بالاصطلاح الدبلوماسي، وأنه لا حق لأحد بميزة عن الآخر؟

ولعل هذه العقلية هي إحدى مقومات التأهل والقابلية لاعتناق الإسلام، والقبول به؛ لأنه سوى بين الناس أمام الله، وألغى الكهانات، والواسطات بين الإنسان وبين ربه (طبقة الأحرار ورجال الدين) تلك الواسطات التي تتحول لتصبح وسيلة للاستغلال والابتزاز، ويمكن أن نقول: إن ذلك كان السبب الرئيس لعدم انتشار الديانات السائدة قبل الإسلام، حيث لم تجد عندهم القبول لوجود هذه الواسطات، ذلك أن قيم التشريع في الإسلام تُستمد من الله وليست من البشر، والعبادة تُمارس بدون وساطة بشرية، والمساواة أمام الله متحققة للجميع... إلخ.

وقد لا يكون مستغرباً أن نقول: إن الاستقراء لتاريخ العرب يدل على أنه كلما فترت العقيدة في نفوسهم وهبطت أقدار التدين في حياتهم، برز الصراع على الزعامات والخلافات؛ وإن العرب، لم يتوحدوا تاريخياً إلا بالإسلام؛ وإن جميع الطروحات والبدائل القادمة من خارج القيم الإسلامية لم تزدهم إلا فرقة وشتاتاً وتنازعاً على الزعامة؛ وإنهم إذا لم يُحكّموا بقيم السماء فلن يقبلوا بحكم قيم البشر أمثالهم ويقبلوا بالخضوع لها.



ولا يتسع المجال للمضي في التتبع والاستقصاء للحال التي أهلت إنسان الجزيرة لهذا الجعل وهذه المهمة الكبيرة والمسؤولية العظيمة، على الرغم من أنها تكليف وأعباء ومسؤوليات عن الخلق أجمعين، ورسالة إلى العالم، إلا أنها من وجه آخر تشریف، فلولا المؤهلات والصفات والخصائص لما كان التكليف والجعل من الله سبحانه وتعالى.. وجاء التاريخ يصدق هذه الأهلية، وأن هذا الجعل كان في محله، فكان العطاء الكبير والتفاني الكبير، ولا يُستغرب الخير من معدنه، وكيف لا يكون ذلك وهو من الله العليم الخبير.

إن القيم الإسلامية - كما أسلفنا - تحققت في قاعدتها البشرية الأولى (عرب الجزيرة) من خلال عزمات البشر، حيث كانوا في مستوى الجعل الإلهي، فحققوا الانتصار بالإسلام، على الرغم من كل الظروف الصعبة، وحملوه إلى العالمين، مستوعبين سنن الله المطردة في الحياة والأحياء، ويمتلكون القدرة التي منحتهم إياها معرفة الوحي على تسخير السنن الاجتماعية والارتقاء إلى مستوى المدافعة الحضارية.

والمأمل في مهبط الوحي وبلاد الجزيرة العربية، المتتبع لبناء النموذج الذي سوف يكون محل أسوة للبشرية حتى قيام الساعة على الأصعدة المتعددة ابتداءً من: ﴿ أَقْرَأْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾، يرى أن النموذج والتعامل مع القيم الإسلامية استوعب الحالات الإنسانية جميعها، وقدم نماذج لجميع أنواع الاستجابات والمواجهات، على مستوى إنسان الجزيرة العربية:

فبعضهم أسرع إلى الإيمان وكان له فضل السبق والريادة.. وبعضهم رفع راية المواجهة والعداء سنوات وسنوات، حتى إذا ما أسلم قفز بالإسلام قفزات نوعية، انتصر فيها للإسلام، وعوّض بما مفاته من الزمان.

ومن الناس من أسلم صغيراً وأبواه على الكفر، وقدم أنموذجاً يحتذى لمثل هذه الحال ضمن الأسرة.

وبعضهم أسلم كبيراً وفي سن متقدمة فكان له من العطاء ما كان. ومن الناس من أسلم وزوجته على الكفر.. ومنهن من أسلمت وهاجرت وزوجها على الكفر.

ومنهم من غلبته الشهوة في موقف ضعف إنساني -وهي حالة تلحق بالبشر- فزنى (ماعز والغامدية).. ومنهم من سرق (المرأة المخزومية). ومنهم من تعرض لامتحانات في الإسلام عسيرة جداً وصبر واحتمل. ومنهم من نفذ صبره ونطق بكلمة الكفر واحتفظ بالإيمان في قلبه. ومنهم من تخلف عن الجهاد وتناقل ومن ثم أدرك خطأه واستغفر وأتاب. ومنهم من وقع في الخيانة لله ورسوله (حاطب بن أبي بلتعة). وغير ذلك من الحالات.

لذلك قد لا يستغرب القول: إن أبعاد بناء الأنموذج امتد إلى الجوانب السلبية، لتكون دليلاً لكيفية التعامل معها.

ولعل من الأمور التي تتطلب الكثير من التفكير والتأمل، لتشكل ارتكازاً في النهوض الحضاري، إنما تتمثل في استيعاب مراحل بناء الأنموذج والمثل، والإحاطة به من جميع الجوانب، ذلك أن الشائع في الأذهان، حتى عند بعض المفكرين، أن الأنموذج هو الصورة المثالية والفعل الإيجابي الذي يتطلع الناس إليه، ويحاولون مقاربتة ومحاكاته.. وهذا بدون شك من القضايا والأهداف الأساسية

لطرحة الأعموذج، واستدعائه في التربية والثقافة، لكن شريطة عدم تغيب الجوانب السلبية التي رافقت مراحل البناء.

وتأتي أهمية وعظمة ذلك الأعموذج والمثل أنه إنما تحقق من خلال عزمات البشر، بكل ما يعترهم من ضعف وفطور وشهوات وأهواء هي من طبيعة جبلتهم، ولولا هذه الجوانب السلبية في المثل وبناء الأعموذج لما استحق أن يكون محل اقتداء للبشر، الذي يجري عليهم الضعف والخطأ والخطيئة.. ولو اقتصر الأعموذج على الجوانب المثالية الإيجابية لما صلح أن يكون محلاً لتعاطي البشر.

من هنا نقول: إن الأعموذج الذي تشكل على أرض الوحي وتحقق من خلال عزمات البشر، عرض لكل الحالات البشرية، وقدم أدلة لكيفية التعامل معها، ليكون الأعموذج مثالياً وواقعياً في الوقت نفسه.

وقد يكون من المفيد الوقوف والتأمل في شأن البدرين، الأعموذج الأمثل، الذين هم أكرم خلق الله على الله: «لَعَلَّ اللّٰهَ اَاطَّلَعَ اِإلى أَهْلِ بَدْرِ فَقَالَ ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»<sup>(١)</sup>، «...اللَّهُمَّ إِنْ تُهَلِكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعَبِّدْ فِي الْأَرْضِ»<sup>(٢)</sup>.

هذه المكانة الخاصة العظيمة للبدرين لم تخرجهم عن كونهم بشراً ينال البشر، وهنا تتمثل العظمة ويتحقق الإعجاز في تجسيد المبادئ في الواقع الإنساني ومن خلال عزمات البشر.

فلقد اختلف البدريون في قسمة الغنائم وتنازعوا، واعتري بعضهم الضعف وحظ النفس والنزوع البشري، حتى وصل الأمر إلى سوء العلاقة وفساد ذات

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه مسلم.

البين، يقول عبادة بن الصامت، أحد النقباء في بيعة العقبة: اختلفنا في غنائم بدر حتى كادت تسوء أخلاقنا فنزعها الله منا، وجعل أمر قسمتها لله ورسوله.. ولم يقتصر ذلك على الاختلاف في قسمة الغنائم، وإنما امتد لأكثر من حالة ومرحلة بين يدي الإعداد للمعركة وبعد انتهائها.

والتأمل في آيات الأنفال يبصر نماذج من الضعف البشري، وكيف انتشلت الآيات الإنسان من ضعفه، وسمت به إلى الدرجات العلى، ليكون ذلك مرتقى لكل مسلم.

اختلف البديريون في الغنائم، وخرجوا للمواجهة مكرهين، وجادلوا الرسول ﷺ في الحق من بعد ماتبين لهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وتوهوا أن النصر إنما يتحقق بقوتهم وحكمتهم وتدبيرهم بعيداً عن المدد الإلهي.

ولعل إثبات الآيات للتأمل فيها يحقق بعض الدلالات التي أشرنا إليها.. يقول

الله تعالى: ﴿بَسْطَلُونَكَ عَنِ الْآنْفَالِ قُلِ الْآنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا

ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ

الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ

رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ

بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ (الأنفال: ١-٦).

وعلى العموم يمكن القول: إن هذه الأرض، بلاد الجزيرة العربية، مهبط

الوحي، وهذا الإنسان محل التنزيل، استوعبا جميع الحالات الإنسانية وما يعرض لها، فكان النموذج لكل حالة.. هذا النموذج الذي غطى جميع المساحات البشرية في كل الظروف، فلا توجد حالة إنسانية إلا ويوجد لها محل اقتداء في مسيرة النبوة.

لقد استوعب بناء النموذج في بلاد الجزيرة العربية، مهبط الوحي، في تنزيل القيم في الكتاب والسنة، جميع مجالات الحياة، في الزواج، والروابط الأسرية، والطلاق، والظهار، والخلع، والأخطاء، والكفارات، وعلاقات الجوار، وعلاج ما يلحق بها من إصابات، كما عرض لأنواع من تطبيقات الشورى وإدارة الخلافات السياسية في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول ﷺ وعند اختيار أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، كما قدم نماذج للمعاهدات والعهود الاجتماعية والوثائق الدولية والاجتماعية، من مثل صحيفة المدينة، وصلح الحديبية، ومعاهدات الجوار، كما كانت قضايا الجنوح إلى السلم والعدل والأمن، وشروط الحرب وأدائها وأهدافها، ومجاهدة الأعداء ومجادلة الخصوم وآليات التعامل معهم، في ضوء الآيات والأحاديث، أكثر من أن تحصى.

لقد استوعب ذلك الجيل (نموذج القدوة) تاريخ النبوة الطويل، وأصل وأسس لكل الحالات البشرية والإنسانية، التي تعرض لمسيرة البشرية على الأصعدة المتعددة، على المستوى السلبي والإيجابي، وكيفية التعامل معها من خلال معرفة الوحي، فهو أول من جسد الإسلام في حياته، ونزله على واقع الناس، ليصبح دليل هداية وسبيل عمل للأجيال على مر العصور.. لذلك، فإن الخطورة كل الخطورة عندما يتيه الدليل ويضل.

ذلك أن الأرض التي أنبتت أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وأبا عبيدة وخالد بن الوليد رضي الله عنهم، وأنبتت فاطمة بنت محمد ﷺ وعائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه، وخديجة بنت خويلد رضي الله عنهن جميعاً، أنبتت أيضاً أبا جهل وأبا لهب وعقبة ابن أبي معيط والوليد بن المغيرة وأم لهب وهند بنت عتبة، وغير ذلك من العتاة الأشداء الذين واجهوا الدعوة الإسلامية بكل الوسائل، فكان النصر من خلال عزمات البشر واطراد السنن والنواميس الحياتية.. والشر من لوازم الخير، وهذه سنة من سنن الحياة التي خضع لها المسلمون.

وهكذا تشكل العرب، المسلمون الأوائل، من خلال الظروف الصعبة والمعاناة الكبيرة، ومروا بكل أشكال المعاناة والمعاناة، وخبروا الحياة بكل أبعادها، ليتأهلوا لحمل الإسلام إلى العالم كله، بكل إشكالياته وظروفه وتداعياته وأقاليمه ومناخاته، ومن هنا صدقت فيهم قولة الشاعر محمد إقبال رحمه الله، تعبيراً عن الحال:

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليحيي كل مسلم أسد

لقد كانوا صفوة الصفوة، وشكلوا الأنموذج الذي يثير الاقتداء على التاريخ الطويل حتى يرث الله الأرض ومن عليها، على مختلف الأصعدة.. فعلى الصعيد السياسي لم تعط أية مرحلة من تاريخ المسلمين ميزة مصدرية التشريع والتنهيج بعد مرحلة السيرة النبوية ما أعطيت الخلافة الراشدة، يقول الرسول ﷺ: «...عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَصُوا

عَلَيْهَا بِالنَّوْاجِدِ»<sup>(١)</sup>، حتى لم توصف أية فترة سياسية بالرشد والاكتمال والكمال على مدار التاريخ، على الرغم من عدم انقطاع الخير ضيقاً واتساعاً، إلا فترة الخلفاء الراشدين، وهذا له دلالاته الكثيرة، ولم يكن ذلك على المستوى السياسي فقط وإنما على المستويات جمعياً، الأخلاقي والاجتماعي والمعرفي والمنهجي...

إضافة إلى أن جيل الصحابة الذي فاز برضى الله، وبُشر بعضهم بالجنة وهم على قيد الحياة، يقول تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾، وفتح الباب لاستمرار الخير واستدعاء الرضا بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ﴾ (البينة: ٨)، هذا الجيل بفكره وفعله والتزامه، جعل خير القرون، قال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي...»<sup>(٢)</sup>، وقال: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنَا فَقَرْنَا حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقُرُونِ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا»<sup>(٣)</sup>، ولا يعني القرن هنا المائة عام فيما أحسب<sup>(٤)</sup>، وإنما يعني أن استصحاب هذا الجيل بفهمه للقيم الإسلامية، وسيرته العملية، يشكل المرجعية وجماع الخيرية لكل المسلم، التي تقتضي باستمرار محاولات المقاربة معه والاستهداء بهديه.. صحيح أن الكثير من المسلمين في عصور التخلف لم يتجاوزوا دلالة الإخبار من الحديث، ولم يستشعروا ما فيه من

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) جاء في لسان العرب: القرن: الأمة تأتي بعد الأمة، قيل: مدته عشر سنين، وقيل: عشرون سنة، وقيل: ثلاثون وقيل: ستون، وقيل: سبعون، وقيل: ثمانون، وهو مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان.. وفي النهاية: أهل كل زمان، مأخوذ من الاقتران - بمعنى الصحبة - والقرن من الناس: أهل زمن واحد.. قال الأزهرى: والذي يقع عندي، والله أعلم، أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبي.. والدليل على هذا قول النبي ﷺ: خيركم قرني - يعني أصحابي - ثم الذين يلونهم يعني التابعين؛ انظر ابن منظور، لسان العرب المحيط، المجلد الثالث، دط (بيروت: دار لسان العرب، دت) ص ٧٤.

التكليف لكل مسلم، ليستوعب أبعاد تلك الخيرية وخصائصها، ومن ثم يحاول تنزيلها على حياته وحياته مجتمعه، حتى لقد وصل الأمر بالإمام مالك رحمه الله، أمام دار الهجرة، في ترتيبه لمصادر التشريع أن قدم عمل أهل المدينة في استنباط وتقرير الحكم الشرعي على بعض النصوص الظنية.

وليس أقل من ذلك في دلالاته، ذلك الفضل الكبير والميزات الخاصة التي فاز بها البديريون، أجنة الدعوة ورجالها الأوائل، حيث كانوا مفترق الطريق بين وجهة الكفر ووجهة الإيمان، حتى أن معركة بدر سميت من الله بيوم الفرقان، كما هو معلوم، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ... ﴾ (الأنفال: ٤١)، وبقيت قصتها قرآناً يتلى على الزمن وأنموذجاً يحتذى لكل العصور، وحسبنا هنا أن نذكر بقول الرسول ﷺ على أرض المعركة: «...اللَّهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ»<sup>(١)</sup>.. فالبديريون هم رسل الخلاص من الوثنية والعبودية، الذين أسسوا له، ورسموا نهجه، وأغروا بالتزامه إلى يوم القيامة، ومن هنا جاءت قولة الرسول ﷺ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَطَّلَعَ إِلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ ااعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ الْجَنَّةُ أَوْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»<sup>(٢)</sup>، وهذه منزلة لا تدانيها منزلة.. وهل هؤلاء البديريون إلا نبت الجزيرة وأسلاف إنسانها، الذين كان لهم هذا الفضل وهذا السبق؟

ذلك أنه من المعروف أن هناك معارك في التاريخ الإسلامي كانت أكثر ضحايا وأشد ضرراً من معركة بدر، ومع ذلك كان لبدر ما ليس لغيرها..

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه البخاري.



فهل للأرض التي أنبتت البدرين أن تعاود الإنبات من جديد لتعديل الوجهة وحمل الخير واستشعار المسؤولية؟  
والنماذج في ذلك كثيرة، بل هي أكثر من أن تحصى، على الأصعدة المتعددة.

ولا يتسع المجال هنا لاستقصاء الآيات والأحاديث والآثار والسير التي تؤكد المعاني الكبيرة المركوزة في هذا الجيل، محل الأسوة والقذوة والريادة الأولى، ليكون منارات هدى لإنسان الجزيرة بشكل خاص وللمسلم أينما كان بشكل عام؛ لأن هذه الأرض التي كانت مهبط الوحي ووعاء الحركة الأولى، وهذا الجيل الذي تربى وتشكل على هذه الأرض، هو أكبر مصدر للإلهام والدلالة على الإمكان الحضاري والقابلية للنهوض، ذلك أن استشراف هذا الماضي هو السبيل الوحيد لتصويب الحاضر وتقوم مسيرته، وإبصار المستقبل، وبناء إرادة التغيير، والاهتداء إلى سننه.

ولعل من الأمور اللافتة حقاً، التي تستدعي الكثير من التفكير والتبصر والتأمل في المغزى، أن الإسلام لم يتجاوز بلاد الجزيرة العربية إلا بعد اكتمال بناء النموذج "المعيار".

فهل نستطيع بعد ذلك أن نقول: إن بناء النموذج المحتذى، على المستويات جميعاً، اختير له وكان محله إنسان الجزيرة العربية دون سائر الخلق، وإن تطبيق الإسلام وتنزيله على واقع الناس، على الأصعدة المتعددة، كان اقتداءً وتأسياً ومقاربة مع ذلك النموذج الذي تربى على عين النبوة؟

ولعل من الأهمية بمكان، أن نشير إلى أن مرحلة السيرة (بناء النموذج الاقتداء)، اشتملت على عناصر من غير العرب، من أمثال سيدنا بلال الحبشي، وصهيب

الرومي، وسلمان الفارسي، وغيرهم، رضي الله عنهم، ممن كان لهم عطاء متميز، ودور بارز في المشاركة، وكانوا نماذج للاقتداء في الصبر، والتحمل، والشورى، والجهاد، والعطاء بشكل عام، الأمر الذي يؤكد أن الإسلام ولئن كان لسانه عربياً، وقاعدته البشرية الأولى العرب، التي كانت محلاً للتنزيل وبناء الأنموذج، وجغرافيته الجزيرة العربية، إلا أن رسالته إنسانية وعالمية، لا فضل فيها لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح.

كما أن مراسلة الرسول ﷺ للملوك والأمراء، ودعوتهم إلى الإسلام، والبشائر التي بشر بها ﷺ أصحابه عن بلوغ الإسلام للعالم، إضافة إلى أن خطاب الإسلام قبل قيام الدولة والمجتمع كان إنسانياً عالمياً منذ الخطوات الأولى، يدل على أن رسالة الإسلام رسالة إنسانية، لكل إنسان حيثما كان.. فأى إنسان يؤمن بقيم هذا الدين، يصبح مواطناً عالمياً في أمة الإسلام، يتمتع بحقوق الأخوة الكاملة، التي يتحقق بها كل مسلم، حتى ولو لم يكن مجاوراً للحرم.

إضافة إلى أن مرحلة السيرة (بناء الأنموذج) لم تتجاوز الدعوة والحوار والإقناع إلى المواجهة والقتال، بل كان التزامها قوله تعالى: ﴿كُفُوا أَيديكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ...﴾ (النساء: ٧٧)، إلى أن قامت الدولة والمجتمع، ومع ذلك كان الجهاد رداً للعدوان، ودفاعاً عن استمرار نشر الدعوة والعقيدة، وتأميناً لحرية الاعتقاد، وإيقافاً للإكراه وتسلط الإنسان على الإنسان، ولم يكن اعتداءً، كما أنه لم يكن قرار فرد أو مجموعة أو جماعة وإنما كان قرار الدولة المسلمة، وكان الأفراد في مرحلة الأنموذج يدركون أن خطاب القتال والجهاد منوط بالسلطة المسلمة، وليس بالأفراد، وأن نصيب الأفراد من هذا الخطاب أن يعملوا

على إقامة السلطة المسلمة التي تقوم بمقتضياته، حيث إن المخاطر سوف تكون كبيرة إذا حصل العبث في التعامل مع مثل هذه الأحكام الشرعية، ولم تستوعب مرحلة النموذج، ويصوب الاقتداء، ونصّب الأفراد أنفسهم بديلاً عن الدولة المسلمة وأعطوها الحق في ممارسة سلطات الدولة المسلمة في إعلان الحرب والأفضية وتنفيذ العقوبات.

إن هذه الأرض، أرض الجزيرة العربية، بما تمتلك من سبق له دلالاته وإشاراته الكبيرة على إمكانية النهوض، ما تزال بما حباها الله مؤهلة لمعاودة النهوض والقيادة إذا وعى إنسانها ذاته، ووعى رسالته، واستوعب تاريخه، واستشعر مسؤوليته عن صناعة المستقبل، الذي يكتسب شرعية النسب للماضي.

إن إمكانات النهوض التي تمتلكها أرض الجزيرة العربية، قلب العالم وقبلة المسلمين، تؤهلها لمعاودة النهوض والتحقق بالبعد الرسالي والدور المنوط بها، إلى جانب ما أشرنا إليه من العمق التاريخي، والعمل الريادي، والجليل الذي شكل ولا يزال الأسوة والقدوة ومصدر الإلهام.

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما تزخر به الجزيرة العربية من الإمكان الحضاري على المستوى الروحي والمادي والعمق الثقافي، والتجربة الحضارية التاريخية، ومنطلق عقيدة التوحيد، التي أعلنت المساواة الإنسانية وأوقفت التمييز وتسلط الإنسان على الإنسان، ما يؤهلها للاضطلاع بدور عالمي وإنساني إذا وعت ذاتها وأدركت رسالتها واستشعرت مسؤوليتها تجاه نفسها (والآخر).

والرؤية التاريخية والواقعية ترشدنا إلى تقرير الحقيقة: إن الأمم بقيمتها وعقائدها، أو عالم أفكارها، وعقول أبنائها وفعاليتهم، وليس بأشياءها مهما

تكدرت.. ونحن لا نريد بهذا أن نغط الجانب المادي حقه، أو أن نضعه في مقابل الجانب الفكري الثقافي الروحي الإيماني، وندخل في هذه الثنائية التي أنهكت الحضارات تاريخياً، ونضع الإنسان أمام الخيار الصعب، فلا قيمة لعقيدة أو فكر أو ثقافة تُسقط من حسابها البعد المادي أو تتجاوزته أو تحاول إلغاءه؛ لأنه بعض الإنسان، وجزء من فطرته ودوافعها، وأحد مرتكزات حياته، ولكن نقول: إن الخطورة هي في التوهم أن الإمكان المادي، أو تكديس الأشياء في المجتمع، حتى لو كانت مستوردة، دليل فهو، وأن زيادة الاستهلاك والنقل معيار ارتقائه، وميزان دخله مؤشر حضارته، حتى ولو غاب الإنتاج وتوقف الإبداع وانطفأت فاعلية الإنسان، بسبب ضمور عالم الأفكار وبروز العلل والإصابات في كيفية التعامل معها.

إن القيم والثقافة والعقيدة والإيمان هي الروح والمحرك لعالم الأشياء، ولعلنا نقول هنا: إن الجزيرة العربية حملت رسالة إنسانية وحضارية بلغت أنوارها ومعالمها الهادية الدنيا بأسرها وهي لما تمتلك بعد من عالم الأشياء والأموال والطاقات المادية إلا ما يمكن أن يوصف أنه دون حد الكفاف، لدرجة فسر معها بعض المؤرخين الفتوحات الإسلامية التي خرجت من الجزيرة بدوافع اقتصادية مادية، في محاولة للسيطرة على خيرات البلاد المفتوحة، فكانت الجزيرة في موقع العطاء للعالم بعقيدتها وقيمها ومعرفة وحيها وأتمودج إنسانها.

فكيف إذا اجتمعت لها هذه الطاقات الروحية الهادية مع الإمكانيات المادية

الهائلة، وأحسننا الاضطلاع بمهمتها، وأدركت بعدها الرسالي العالمي؟

إن التوهم بأن المرتكز هو الإمكان المادي يحوّل الأمة من واقع العطاء إلى

موقع الأخذ، ومن موقع الإنتاج إلى واقع الاستهلاك واستيراد الأشياء، وسيطرة

التوهم أن هذه الأشياء بريئة ثقافياً ولا تشكل خطورة، في الوقت الذي أصبح من المسلمات أن كل مُنتج يحمل رسالة أو ثقافة منتجه لكن بشكل خفي، فيساهم بعطالة الإنسان وتغييب الأفكار، إضافة إلى أن غياب عالم الأفكار يخرج أصحابه من دائرة التفاعل الثقافي والمساهمة الحضارية والتداول المعرفي، ويجعلهم بدل ذلك محلاً للنفايات الحضارية، ويجول المجتمع من شريك حضاري إلى زبون تجاري، وبذلك يتحول المال والإمكان المادي لصالح (الآخر)، يوظفه لنهوضه وإنتاجه في المحصلة النهائية.

ولا شك أن بلاد الجزيرة العربية تختلف تاريخياً عن غيرها من سائر الأرض، ليس فقط لما كانت محلاً له من النص الإلهي السليم الخالد، والبيان النبوي المعصوم، والتنزيل للقيم على واقع الناس، ذلك أن كل حبة رمل تحمل تاريخاً وفكراً وعبرة ودلالة، وكل غار وجبل وسهل وشجرة وشعب وبئر وماء وطريق وموطن وبيت، ينطق ويستدعي الوعي ويثير الفاعلية ويحيي الذاكرة ويجدد المعاني الغائبة.

إن بلاد الجزيرة العربية تمتلك - كما أسلفنا - النص الخالد الذي انتهى إليه تاريخ النبوة، وتمتلك الإرث التاريخي للنبوة، وتمتلك البيت الحرام قبلة المسلمين في العالم، حيث يبدأون نهارهم ونشاطهم بالتوجه إليها، ويتابعون الوجهة خمس مرات يومياً، لتبقى اليقظة مستمرة والمعاني حاضرة، ويختتمون يومهم بالتوجه إليها أيضاً، ويصرون على هذا التوجه حتى بعد الموت فيوضعون بقبورهم متوجهين صوب القبلة، إنهم بذلك إنما يتوجهون صوب العقيدة، واستمرار تغذيتها بالعبادة اليومية، حتى جعل التأمل في البيت الحرام (الكعبة) عبادة.

إنهم لا يتوجهون إلى أشياء ووثنيات، إنما يتوجهون إلى أفكار وقيم وثقافات

ومحركات اجتماعية.. يتوجهون صوب الهدف الأعلى، في محاولة للاسترداد وإعادة التأهل! ذلك أن المشروعية العليا في بلاد الجزيرة العربية سوف تبقى للقيم الإسلامية.. حتى أن الشيطان، من الإنس والجن قد يئس، كما أخبرنا الصادق المصدوق، من النيل من هذه القيم، ومن حملة هذه القيم، لكن ذلك لا يعني الكف والتوقف، فالتحرش مستمر، فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ آيسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»<sup>(١)</sup>.. وفي حجة الوداع قال ﷺ: «... أَلَا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ آيسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَدًا وَلَكِنْ سَيَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِي بَعْضِ مَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَيَرْضَى بِهَا...»<sup>(٢)</sup>.. والمحاولات مستمرة.. فكيف نحاصر هذا التحرش من خلال التنبه لخطورته، وإعداد العدة لمواجهة وإدراكه؟

إن المعاني التي تحملها الكعبة قادرة على تحريك الناس في أطراف الدنيا يومياً، هذا الأمر الذي لم يتحقق لأية عقيدة أو فكر أو ثقافة.. فكيف نستوعب هذه الحركة؟ وكيف نرشدها لتبلغ أهدافها؟ وكيف نقودها إلى الخير، وهي رصيد جاهز؟

إن المسلم يجتهد في جمع المال، ولو على حساب نفقته واستهلاكه لينتصر مسافة الزمان والمكان بينه وبين مهبط الوحي، ويذهب إلى الحج، ليرى البيت، ويعيش في رحابه، ويسترجع تاريخه.. يطوف بالبيت عكس حركة الدوران وحركة عقارب الساعة، ليسترجع الماضي ويعيش أجواءه، ويجدد العزم، ويتجدد في عقله ونفسه وسلوكه.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه عن عمرو بن الأحوص، وحسنه الألباني.

إن هذه المواقع هي الرحم الروحي والثقافي والعقيدي، الذي يعد ويعيد الداخلين إليه، القاصدين له بالحج والعمرة، بولادة جديدة: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرُفْثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»<sup>(١)</sup>.. فالجزيرة محل للتجديد والتجدد وإعادة الولادة، وتجديد العزم والعزيمة، ومراجعة النفس وشحن الفاعلية للإقلاع من جديد، انطلاقاً من الإنسان المولود الجديد.

إن هذا الرصيد العالمي المتحرك بهذه القيم وهذه الأفكار، بحاجة إلى إعادة النظر والتأمل، للإفادة من حركته لصالح الإنسان من أهل القبلة، وأقصد بذلك أهل الجزيرة العربية، على الرغم من أن القبلة ملك للمسلمين جميعاً، فقد جعلها الله للناس، سواء العاكف فيها والباد، بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ (الحج: ٢٥)، إلا أن المسؤولية هنا أكبر.

فإذا أبصرنا هذه الطاقات الروحية والفكرية والثقافية الهائلة، وهذه القيم السماوية الهادية، التي تحرك جميع أطراف الدنيا صوب الجزيرة، وأبصرنا ما حبا الله به بلاد الجزيرة العربية من الطاقات والخبرات والإمكانات المادية، التي تحرك عجلة الحضارة العالمية وتغذي تراثها، أدركنا الدور الممكن والمنوط ببلاد الجزيرة العربية عندما تكون في مستوى تاريخها وإسلامها وعصرها.

ولعل من أهم المقومات والعوامل المؤهلة لهذا الدور الرسالي، والاستئناف الحضاري، واسترداد الفاعلية، إضافة إلى ما أشرنا إليه من الإمكان الحضاري المادي والروحي، وجود عوامل مشتركة، وتجانس متميز، ونسيج اجتماعي

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري، وفي رواية لمسلم: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه».

متماسك، وجغرافيا واحدة تقريباً، الأمر الذي لم يتوفر للكثير من المواقع التي تحاول اليوم أن تبني جغرافيا ثقافية فكرية للتعويض عن الجغرافيا البشرية. إن بلاد الجزيرة العربية تمتلك الجغرافيا الفكرية والثقافية والاجتماعية والبشرية، كما الجغرافيا التاريخية أيضاً.

فالعقيدة واحدة، والعادات واحدة، والوحدات الاجتماعية واحدة، والتاريخ واحد، والعدو واحد، والنظام الاجتماعي والتقاليد والعادات واحدة، ونعم الله موفورة ومذخورة، وجسور التواصل والعطاء موجودة، والمسؤولية أمام الله عظيمة وكبيرة، عن الذات وعن (الآخر)، فإذا توقف الرأس عن التفكير فسوف تطيش سهام الحواس وتتناكر، وإذا توقف القلب عن الضخ تجف الشرايين وتوقف الحياة، والجزيرة تاريخياً في موقع القلب وموطن الرأس من العالم الإسلامي والعالم.

والسؤال الكبير المطروح على المستوى السياسي والثقافي والفردي والمؤسسي على هذه الأرض خاصة:

من نحن في التاريخ؟

وأين نحن في الواقع المعاصر؟

وماذا نريد أن نكون في المستقبل؟

وكيف نحقق إرادتنا في التغيير وأهدافنا في الواقع؟

كيف نصوب شهادة الرسول ﷺ علينا، لتناهل ونصبح شهداء على الناس؟

فالقضية ليست بالادعاء، وإنما بالعطاء، استجابة لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ

الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.



## النظام الإقليمي الخليجي

الشيخ الدكتور فهد بن عبد الرحمن آل ثاني<sup>(\*)</sup>

إن المشكلة التخطيطية التي تعاني منها بعض دول المجلس، هي عدم الاستفادة الكاملة من العقول الموهبة، التي أنفقت عليها مليارات الدولارات، خشية على نفوذها من التقلص، لكن عراؤنا الوحيد هو اتجاه بعض القيادات لإعطاء الفرصة للمشاركة الشعبية وتشكيل مجالس منتخبة.

### تمهيد:

هذه الأمة هي أمة الخير والحق، والذي يسير على طريق الخير والحق لا بد أن تقف في طريقه شياطين الإنس والجن لتثنيه عن مسيرة الخير المباركة، ولكن المؤمن الحقيقي الذي يريد أن يساهم في بناء الأمة الإسلامية، لا بد أن يكون عنده عقيدة وإرادة قوية، تتصدع منها جبال الظلم والكفر والفساد.

ومن أفضل الروايات التي قدمها لنا الإسلام لقوة الإرادة هي قصة ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما منذ طفولتها ومساهمتها في دعم المجاهدين العظمين سيد البشرية جمعاء رسول الله ونبيه محمد ﷺ ووالدها

(\*) باحث أكاديمي.. جامعة قطر (دولة قطر).

أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما كانا في غار ثور، محتبئين من إمبراطورية الكفر، في طريق الهجرة العظيمة، التي غيرت مجرى التاريخ، من مكة إلى يثرب. وعندما بلغت أسماء ما يقارب المائة سنة، سطرت في التاريخ ملحمة عظيمة، سوف تخلدها إن شاء الله تعالى إلى يوم يبعثون، وهي:

عندما حاصر الحجاج قائد جيش بني أمية ابنها عبد الله بن الزبير في مكة، وخذله الناس حتى أهله وولده، وعرض عليه بنو أمية الأمان والولاية والمال، ذهب عبد الله إلى والدته أسماء يستشيرها في عرض بني أمية، فقالت أسماء العظيمة لابنها عبد الله العظيم:

«يا ولدي، إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكّن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك، وإن قلت إني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار، ولا فعل من فيه خير. كم خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن ما يقنع به يا ابن الزبير، والله لضربة بسيف في عز أحب إلي من ضربة بسوط في ذل». فمضى عبد الله بن الزبير كما أوصته والدته واستشهد، ومثل بجثته، وصلبت في مكة، وذهبت أسماء إلى الحجاج وقالت له: «أمان لهذا الراكب أن ينزل؟» وحدثت مشادة كلامية بين أسماء والحجاج، فقال الحجاج لأسماء: «اذهي فإنك عجوز خرفت»، فقالت أسماء للحجاج: لقد سمعت الرسول يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومُبير (مُهْلِك)، فأما الكذاب فرأيتاه، وأما المهلك فأنت هو»<sup>(١)</sup>»<sup>(٢)</sup>.

(١) وفي صحيح مسلم: (... أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذاباً ومُبيراً فأما الكذاب فرأيتاه وأما المُبير فلا إخالك إلا إتياء...).

(٢) عباس محمود العقاد، عبقرية الصديق (بيروت: منشورات المكتبة العصرية) ص ١٤٩.

الأحداث المذكورة حدثت في خير القرون الهجرية، إذاً ماذا تتوقعون بعد خمسة عشر قرناً للهجرة، ونحن في قمة قرون المهرج والمرج؟ طبعاً أنا على يقين بأن الأغلبية سوف تقول: لن نستغرب إذا رأينا في هذا الزمان الكذاب، والمهلك، والمفجع، والمفقر، والمتسلق، والمفتون بنفسه، ورغم هذا كله لا بد لنا من وقفة مع أنفسنا، لا ننكر وجود أصحاب هذه الصفات المشينة بيننا، ولكنهم والحمد لله قلة، ودليلنا على ذلك ما قاله الرسول ﷺ:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»<sup>(١)</sup>.

ربما يفتن بعض منا بعظمة أسماء رضي الله عنها، أقول لهم: لا تستغربوا ذلك فإنها ابنة العظيم أبي بكر الصديق رضي الله عنه، واضع الجيوبوليتيكا الإسلامية، الذي قال عنه ابن الدُّغْنَةَ عندما كان أبو بكر من المرشحين للهجرة إلى الحبشة لاتقاء إيذاء إمبراطورية الكفر، فذهب ابن الدغنة إلى أبي بكر وأجاره، أي أعطاه الأمان، وطلب منه أن لا يهاجر إلى الحبشة، وقال ابن الدغنة عن أبي بكر: «إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك بيلدك»<sup>(٢)</sup>.

أما التصور الجيوبوليتيكي للفتوحات الإسلامية عند أبي بكر رضي الله عنه، فنستطيع أن نستشفه مما أوصى به جيش أسامة، حيث قائلاً:

(١) أخرجه مسلم.

(٢) للعقاد، مرجع سابق، ص ٨٧.

«... إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ فَذَرَهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُءُوسِهِمْ مِنَ الشَّعْرِ فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ.. وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تُعْقِرَنَّ شَاةً وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا وَلَا تُعْرِقَنَّه، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجْبِنَ»<sup>(١)</sup>.

ما أوصى به أبو بكر رضي الله عنه قبل خمسة عشر قرناً يمثل خلاصة ما توصلت له جامعات العالم المتقدم من علوم الجيوبوليتيكا، والسياسة، والاستراتيجية العسكرية، والقانون الدولي، والبيئة، وحقوق الإنسان.

واعتقد بأن علينا أن لا نستغرب ذلك، فأبو بكر رضي الله عنه خريج مدرسة محمد ﷺ العظيمة.. ومن أقوال الرسول ﷺ والتي يعمل بها الغرب المتقدم أيضاً هي: «إِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرِمُوهُ»<sup>(٢)</sup>.

أما بالنسبة للأمة الإسلامية فتركت التعاليم والأيدولوجيا العظيمة التي جاءت من السلف، وذهبت تلهث وراء الغرب والشرق لكي تجدها مكاناً في التاريخ الحديث والمعاصر، ولا نستطيع أن ننكر أنها وجدت مكاناً بالفعل، ولكن للأسف في مؤخرة الأمم.

(١) أخرجه مالك في الموطأ.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه.

## نشأة الدولة العربية والإسلامية:

بقيادة الرسول تأسست الدولة الإسلامية في المدينة المنورة (يثرب) عندما أذن الله له ولأصحابه رضوان الله عليهم بالهجرة إلى يثرب بعد أن هدى الله مجموعات من أهل المدينة، من الأوس والخزرج وغيرهم، في بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية.

وبعد أن استقر الرسول الكريم في يثرب بدأ تأسيس الدولة العربية الإسلامية والإعلان عن مبادئها من مؤاخاة بين المسلمين وعدل وعهود من غيرهم بالمحافظة معاً على كيان الدولة وتوزيع الحقوق والواجبات، وتم كل ذلك من خلال المسجد الذي كان مقراً للحكم والعبادة وتلقي العلم وإعلان الحرب وترتيب العلاقات المحلية والخارجية.

وفي عهده ﷺ بدأت الدولة في الاتساع وخاصة بعد أن من الله على المسلمين بفتح مكة ودخول العرب أفواجاً في دين الله، في السنة الثامنة للهجرة، وكذلك أثناء فترة صلح الحديبية الذي كان انتصاراً، حيث ازدادت مراسلات ودعوات الرسول الكريم ﷺ مع القبائل العربية والأطراف الأخرى في الجزيرة العربية، وكذلك في أجزاء من إفريقيا<sup>(١)</sup>.

وقد اتسعت الأرض الإسلامية دون عودة للانكماش في عهد الرسول القائد ﷺ حتى شملت جميع الأرض العربية من اليمن جنوباً إلى الخليج العربي شرقاً، ودخول قبائل عربية أخرى في شمال الجزيرة العربية، وخاصة أثناء غزوة تبوك

(١) صالح حسن، البلدان الإسلامية في قارة آسيا، في كتاب: فتحي عثمان (محرراً)، البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة في العالم المعاصر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٧٩م، ص ٤٨-٥٢.

وبعدها في السنة الثامنة للهجرة، والتي تعتبر آخر غزوات الرسول ﷺ، حيث تحقق منها تأمين الحدود الشمالية مع الروم، وبوفاة الرسول ﷺ في السنة الحادية عشرة من الهجرة، كان الإسلام قد تربع على جميع شبه الجزيرة العربية.

فعلى سبيل المثال قبل أهل عمان والبحرين الإسلام عندما دعاهم نبي الهدى ﷺ إليه عن طريق رسوله أبو العلاء الحضرمي رضي الله عنه، والذي أوصل رسالة منه ﷺ إلى المنذر بن ساوي.

وقد اضطلع أهل الخليج وعمان بدورٍ مهمٍ في الدعوة إلى الإسلام ونشره في فارس وإفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا في فترات تالية عن طريق التجارة على وجه الخصوص.

وعندما قبل أهل اليمن الإسلام ديناً لهم ومحمداً رسولاً، بعث الرسول ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه يعلمهم أمور دينهم وديانهم على نهج المصطفى ﷺ. وفي حجة الوداع في السنة العاشرة، كما تقول الروايات، وصل عدد الحجاج إلى أكثر من ( ١٠٠ ) ألف، من كل أطراف شبه الجزيرة العربية ومن كل القبائل المنتشرة بها.

والمساحة المقدره التي كانت تؤمن بالإسلام في تلك المرحلة قد تكون مساحة الجزيرة العربية والتي تقارب (٣) ملايين كيلو متر مربع.

### التنمية في دول مجلس التعاون:

التنمية عبارة عن ممارسة الإنسان لأنشطة وفعاليات اقتصادية واجتماعية بصورة منظمة في الحيز المكاني، وبهدف التخطيط إلى تحقيق تنمية تطبق أفضل

ما هو متاح من معرفة بقصد السيطرة على تيار التغيير وتوجيهه لضمان أفضل المكاسب الاجتماعية والاقتصادية.

إلا أن النظام الإقليمي لدول مجلس التعاون الخليجي يعاني من إخفاقات متعددة في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية والتكنولوجية في الوقت الحاضر. وعلى سبيل المثال هناك مؤشرات تدل على الإخفاق الاقتصادي، نذكر منها ما يلي:

- اختلال البنية الإنتاجية، نتيجة ضعف أداء النمو الاقتصادي وانخفاض الإنتاجية الزراعية والصناعية.

- اختلال التوازن بين قطاعات الإنتاج السلعي وبين قطاعات التوزيع والخدمات، لصالح الأخيرة.

- اختلال الأمن الغذائي والأمن المائي.

- لا تزال دول المجلس تعتمد على النفط والغاز الطبيعي، أي على تصدير المواد الأولية بشكل كبير.

- يؤدي ضعف القاعدة الإنتاجية في دول المجلس إلى زيادة اعتمادها على الأسواق الخارجية في استيراد معظم السلع اللازمة لسد الحاجات الاستهلاكية والإنتاجية والاستثمارية الخليجية.

- لا يتناسب الوضع الراهن للعمالة الوطنية الخليجية مع القدرات والطاقات الهائلة التي تتطلبها احتياجات العمل، الأمر الذي يجعلها تعتمد على العمالة

الأجنبية مع ما يترتب على ذلك من إيجاد عدم التوازن السكاني واحتمالية الإخلال بالأمن والاستقرار في دول مجلس التعاون الخليجي.

- الانعكاسات السلبية للعولمة على الاقتصادات الخليجية من حيث تحرير التجارة العالمية وانفتاح الأسواق العالمية على بعضها بعضاً في ظل إزالة الحماية الجمركية تدريجياً، وتعرض المنتجات الخليجية لتحديات المنافسة في الأسواق، وهيمنة الشركات الكبرى الأجنبية وبخاصة الشركات متعددة الجنسيات على الأسواق.

وعلى الرغم من الإخفاقات سالفة الذكر، إلا أن هناك جوانب إيجابية يمكن أن تشجع على دعم المسيرة التنموية الخليجية ودفعها إلى الأمام. فقد سجلت أسعار النفط تزايداً في عام ٢٠٠٠م، مع ما يترتب على ذلك من زيادة في حجم الإيرادات المالية التي تسهم بدورها في نمو قيمة الناتج المحلي الإجمالي لدول مجلس التعاون الخليجي، مقابل ذلك يلاحظ من بيانات الأسعار في دول المجلس، أن معدل التضخم قد انخفض بدرجة ملحوظة في السنوات الأخيرة.

ويستدل من الاتجاهات الحديثة القائمة بدول المجلس على أن هناك سياسة متبعة لتقليص دور الدولة الاستثماري والاعتماد المتزايد على دور القطاع الخاص.

وفي مقابل ذلك قامت دول المجلس بتحسين مناخ الاستثمار لديها، والإسراع في تخفيف القيود الاقتصادية، وتبسيط إجراءات منح تراخيص الاستثمار، وتكثيف الجهود لجذب رؤوس الأموال العربية والأجنبية.



## من أهداف خطط التنمية لدول مجلس التعاون الخليجي:

يمكن القول بشكل عام: إن خطط التنمية لدول المجلس تهدف إلى ما يلي:

١- تنمية وتهيئة المواطن اجتماعياً وثقافياً وصحياً حتى يتمكن من مواكبة متطلبات التنمية الحديثة.

٢- التأكيد على أهمية المبادرات الفردية ودور القطاع الخاص في عملية التنمية، ودور الحكومة في توجيه هذا القطاع وتشجيعه.

٣- التنسيق والتكامل وتقليل التباين في مختلف المجالات الحيوية.

٤- ترشيد الإنفاق العام وتنمية الأنشطة الاقتصادية الأولية والثانوية والثالثة.

٥- إيجاد قاعدة ذاتية أصلية للبحوث والعلوم التطبيقية والتقنية.

٦- العمل على مشاركة المستفيدين في تحمل تكاليف إنتاج الخدمات.

٧- تحقيق الترابطات الخلفية والأمامية للصناعة.

وعندما نقارن بين أهداف التنمية الشاملة في دول الخليج، والأهداف الأساسية الاستراتيجية الموحدة للتنمية الصناعية في الخليج أيضاً، سوف نجد أنها متحدة في العناصر تقريباً، غير أن الأهداف الأساسية تعطي بعداً أكثر للاستراتيجية الصناعية في الخليج العربي، ونستطيع أن نضيف للأهداف المذكورة هذا الهدف الذي يشير إلى أن من استراتيجيات التنمية الصناعية في الخليج تشجيع توطين الصناعات في المناطق الأقل نمواً، وهذا يعتبر عاملاً سياسياً عند اختيار الموقع الصناعي.

## أولويات الاستراتيجية الموحدة للتنمية الصناعية في الخليج العربي:

ولعل من المناسب أن نشير إلى إعطاء الأولويات التالية أهمية أثناء النظر في استراتيجية التنمية الصناعية:

١- التركيز على الصناعات التي تقوم على استغلال وتطوير الموارد الطبيعية المتوفرة في الخليج العربي.

٢- التركيز على الصناعات القادرة على المنافسة والنمو في الأسواق المحلية والعالمية.

٣- تنمية الصناعات الخليجية التي تؤدي إلى التكامل والتشابك في السلاسل الإنتاجية.

٤- التركيز على تنمية صناعات خليجية صغيرة ومتوسطة، وتكون مرتبطة بالصناعات الكبيرة، وذلك سوف يؤدي إلى وصول الخليج إلى مصاف الدول الصناعية.

٥- التركيز على مشاريع التكامل الصناعي ما بين دول الخليج، ويمكن ترسيخها من خلال الاستثمارات الصناعية الخليجية المشتركة<sup>(١)</sup>.

(١) تشكل قضية التنمية في دول مجلس التعاون الخليجي (مركز القلب بالنسبة للعالم الإسلامي)، والمفهوم الاستراتيجي لتخطيط التنمية، للهاجس الدائم للباحث، الأمر الذي دعاه إلى وضع دراسة بعنوان: «استراتيجية التنمية في دول مجلس التعاون الخليجي» عرض من خلالها لرويته في العمل التنموي، وتعرض لإخفاقات التنمية في المجالات المتعددة، كما اجتهد في وضع أهداف للخطة التنموية التي تحدد التوجهات الرئيسة وتشكل نقاط الارتكاز لأية عملية تنموية؛ إضافة إلى اهتمامه بقضايا الأمة المسلمة بشكل عام، حيث وضع كتاباً بعنوان: "العالم الإسلامي.. دراسة جيواستراتيجية وجيوبوليتيكية"، حيث رأينا أنه من المفيد إغناء المساهمة بإضافة تمهيد للكتاب الثاني، إضافة للمفهوم الاستراتيجي للتنمية وأهداف الخطة التنموية، كما جاءت في كتابه الأول (النشر).

## النظام الإقليمي الخليجي

إن التاريخ العالمي على مدى أكثر من خمسمائة ألف سنة، شهد أكثر من مائة وخمسين ألف حرب، بمعدل حرب واحدة كل ثلاث سنوات.. وشهد العالم في القرن العشرين، حربين كونيتين، كان ضحايا الأخيرة منها ما يزيد على أربعين مليون نسمة.. وفي النصف الأخير من القرن العشرين، شهد العالم ما يزيد على مائة وثمانين حرباً، بلغت ضحاياها أكثر من ثلاثين مليون نسمة<sup>(١)</sup>. ومعظم هذه الحروب نتجت بسبب طمع الكبار في ضم الصغار، أو سلب مواردهم.

ومن خلال هذه الدراسة، سوف أسلط الضوء على أهمية وضع تصور بالنسبة لمجلس التعاون الخليجي، من ناحية استراتيجية ومؤسسية، وسوف تلاحظون هنا أننا سوف نقوم بتجنب الخوض في بعض المواضيع عن دول مجلس التعاون الخليجي، كالجوانب السكانية والحضارية والاقتصادية، حيث تناولناها في أكثر من دراسة سابقة<sup>(٢)</sup>.

ولقد حاولت أن يكون جل اهتمامي منصباً على الكيفية التي نشأ بها مجلس التعاون الخليجي.. ولمعرفة ذلك، لابد من التركيز على البعد المحلي، والإقليمي، والقومي، والعالمي بالنسبة لدول الخليج العربية.

فمنذ انطلاق مرحلة الكشوف الجغرافية الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي، أصبحت منطقة الخليج من المناطق المهمة في مسرح السياسة العالمية،

(١) عبد الخالق عبد الله، للنظام الإقليمي الخليجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٨م، ص ١٢٤.

(٢) فهد آل ثاني، دراسات في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٠م.

فلاحظ الصراع بين القوات المختلفة في الخليج، مثل: البرتغاليين، والهولنديين، والفرنسيين، والبريطانيين.. وفي الفترة الأخيرة، أي منذ بداية القرن التاسع عشر الميلادي، أصبحت بريطانيا القوة الرئيسة المسيطرة في الخليج، وتعود أهمية ذلك إلى أن الخليج يعتبر الحلقة الرابطة ما بين المستعمرات البريطانية في الغرب الآسيوي، والشرق الآسيوي<sup>(١)</sup>.

ومع أن الأمم تتقلص وتتفاقم همومها، إلا أن مشكلة الخليج المزمنة، التي نلاحظها في الأزمنة المختلفة، هي مشكلة المحافظة على أمن واستقرار المشايخ الخليجية، ووضع سيناريو لتحقيق ذلك. ففي اتفاقية الهدنة بين إمارات الساحل الغربي للخليج وبريطانيا عام ١٨٥٣م «تعهد الحكام فيها ألا يشنوا حرباً بحرية فيما بينهم»، وأعطت هذه الاتفاقية بريطانيا الحق في أن تتولى أعمال الشرطة على السواحل الخليجية. كما تولت بريطانيا أيضاً الشؤون الخارجية للإمارات الخليجية، وكانت حينئذ عشرينياً هي: الكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات السبع (المشكلة للإمارات العربية المتحدة حالياً).

وعموماً، تلى اتفاقية الهدنة البريطانية توقيع اتفاقية الحماية البريطانية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، الاتفاق الأنجلو تركي، الذي نصت المادة الحادية عشرة للميثاق على أن تنازل تركيا عن قطر، ويبقى حكمها عند الشيخ جاسم بن محمد (رحمه الله) وخلفائه من بعده (في ٢٨ يوليو ١٩١٣)، كما تعهدت بريطانيا بحماية قطر ضد أي اعتداء خارجي.. ثم تلتها اتفاقية الحماية ١٩١٦م

(١) محمد الفيل، الأهمية الاستراتيجية للخليج العربي، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٨م.

الموقعة ما بين الشيخ عبد الله بن جاسم (رحمه الله) والحكومة البريطانية.. وكانت اتفاقية الحماية لإمارات الساحل المتهدان تسبق قطر بقرن تقريباً، عام ١٨٢٠م<sup>(١)</sup>. وبعد هذه الاتفاقيات الأمنية، بقي الوضع الأمني في الخليج هادئاً على أقل تقدير من غزو القوات الإقليمية الكبرى نسبياً، وإن بقي نوع من الصراع الداخلي ما بين الإمارات الخليجي، ولكن غالباً ما يكون تحت السيطرة البريطانية، وإن كان البعض يتهمها بإشعاله تارة وإخماده تارة أخرى. واستمر هذا الوضع السياسي والأمني إلى الستينيات من هذا القرن، حين أعلنت بريطانيا عن رغبتها في الانسحاب من الخليج، وقد شكل ذلك هزة بالنسبة للقوة الخليفة الأخرى في الناتو، والتي تعتمد على التوازن الاستراتيجي في المنطقة من خلال وجود المملكة المتحدة.

ومنذ إعلان حكومة هارولد ويلسون العمالية الانسحاب من الخليج، بدأ الحديث عن فراغ سياسي في الخليج، تزامن معه العديد من الدعوات بضرورة ملء الفراغ المحتمل من خلال إيجاد ترتيبات أمنية في المنطقة تهدف على:

- ١- الدفاع عن المصالح الغربية في المنطقة.
- ٢- المحافظة على الوضع السياسي القائم.
- ٣- ضمان وصول إمدادات النفط.
- ٤- صد أي هجوم محتمل على المنطقة.
- ٥- محاربة انتشار الأيديولوجيات المضادة للمصالح الغربية في المنطقة.

(١) أحمد الشلق، تطور العلاقات السياسية بين قطر وبريطانيا (١٩١٦م-١٩٣٥م)، سلسلة دراسات الشرق الأوسط، العدد ٢٤، القاهرة، ص ١.

ومن هنا كان على المملكة المتحدة تسوية الأوضاع قبل انسحابها من الخليج، فكان من السيناريوهات التي وضعت لضمان أمن الخليج العربي أنه لا بد من تشكيل اتحاد كوفدرالي أو فيدرالي ما بين الإمارات الخليجية، حتى تستطيع حماية نفسها.. ويقوم هذا التصور على أن يكون هناك ما بين المشايخ الخليجية التسع ممثلين بقطر والبحرين والإمارات السبع (المشكلين لدولة الإمارات الحالية). وقد تم التقارب وتوقيع الاتفاقية ما بين هذه المشايخ بالفعل في ٢٧ فبراير ١٩٦٨م<sup>(١)</sup>. ولكن لم تنجح هذه الفكرة كاملة، ويعود ذلك لعدة أسباب منها:

- ١- احتجاج بعض القوى الخليجية الكبرى نسبياً على قيام هذا الاتحاد.
- ٢- مشكلة الزعامة الاتحادية.
- ٣- منهم من يؤيد تشكيل مجالس تشريعية منتخبة، ومنهم من يرفضها.
- ٤- الاختلاف على موقع العاصمة الاتحادية.
- ٥- ما موقف الاتحاد إذا احتلت دولة أو جزء من دولة؟
- ٦- بالإضافة إلى الخلافات القائمة ما بين هذه الدول على الحدود وغيرها.
- ٧- ما الطريقة التي سوف تُعتمد بها ميزانية الاتحاد؟
- ٨- البعد المكاني بالنسبة لبعض الإمارات الاتحاد نسبياً.

كل هذا أدى إلى عدم نجاح فكرة قيام فيدرالية ما بين الإمارات التسع. وبعد ذلك، في ٣/٩/١٩٧١م، أعلنت دولة قطر استقلالها، وأعلنت دولة البحرين

(١) حسن العلكيم، الأمن والاستقرار في منطقة الخليج، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، رأس الخيمة، العدد ٣، يناير ١٩٩٩م.

استقلالها، وتشكل اتحاد دولة الإمارات العربية المتحدة من الإمارات السبع (أبو ظبي، دبي، الشارقة، رأس الخيمة، عجمان، الفجيرة، وأم القوين)<sup>(١)</sup>. وهذا يعطينا مثلاً على أن فكرة الاتحاد والتحالف ما بين دول الخليج، سواء كان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عن طريق القوى الأجنبية موجودة منذ القرن التاسع عشر، وتطورت الفكرة ووصلت إلى قمة نضجها، في العقد السادس من القرن العشرين الميلادي، من خلال بريطانيا، ولكن للأسف لم ينتج عن ذلك إلا اتحاد الإمارات العربية.

أما بالنسبة لدور بريطانيا في المنطقة، فإنها رغم محاولتها وضع سيناريو استراتيجي لأمن منطقة الخليج العربي، إلا أنها أثبتت فشلها في احتواء الكثير من الأزمات الإقليمية والقومية قبل تفاقمها، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها:

- ١- الشعور العربي الإسلامي الدائم بأن المتسبب الأول في ضياع فلسطين هو بريطانيا.
- ٢- بروز المد القومي العربي.
- ٣- فشل العدوان الثلاثي على مصر.
- ٤- انهيار حلف بغداد.
- ٥- أحداث اليمن.
- ٦- الثورة الظفارية في عمان.

أما أسباب خروج بريطانيا من المنطقة، من ناحية عالمية، فيعود إلى:

(١) محمد إدريس، النظام الإقليمي الخليجي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٠م، ص ٤٢٩.

١- من الناحية الجيوبوليتيكية، انتهى دور الدول النووية (مثل بريطانيا) بسبب نضج القوميات في المستعمرات، وبدء بروز دور الدول القارية مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي السابق.

٢- ضغوط حزب العمال البريطاني على حكومته للانسحاب.

٣- التدهور الاقتصادي الذي أصاب بريطانيا وشروط صندوق النقد الدولي بتخفيض العملة.

٤- ميزانية التقشف الحادة في بريطانيا أواخر الستينيات.

ولاستيعاب الانسحاب البريطاني من الخليج كل لا بد من وجود قوة عالمية حليفة لملء الفراغ الذي سوف تتركه بريطانيا في المنطقة، والمرشح الوحيد لهذا الدور هو الولايات المتحدة الأمريكية لما لها من مصالح اقتصادية واستراتيجية في منطقة الخليج العربي، ولكن الولايات المتحدة في هذه الفترة لم تكن تريد الدخول المباشر في شؤون الدول الأخرى، وذلك بسبب الضغوط التي تتعرض لها الحكومة الأمريكية من الكونغرس بسبب الفشل الأمريكي الذريع في فيتنام، وتسبب الكونغرس قرار الحد من صلاحيات الرئيس في إرسال قوات أمريكية للقتال خارج الأرض الأمريكية دون الموافقة المسبقة للكونغرس.

وبالتالي، لجأت الولايات المتحدة، في سياستها مع الخليج، إلى إنشاء قاعدة خليجية محلية تستطيع أن تحمي نفسها بنفسها، وذلك من خلال مبدأ العمودين المتساندين، وذلك بقيام تنسيق ما بين الحليفين الاستراتيجيين للولايات المتحدة والممثلين في المملكة العربية السعودية من ناحية وإيران من ناحية أخرى<sup>(١)</sup>. والمقصود هنا هو صد أي هجوم شيوعي من دول الشمال المركزي.

(١) إدريس، مرجع سابق، ص ٤١٣.



وفي عام ١٩٧٦م كان هناك مشروع أمريكي لقيام منظومة خليجية تضم جميع الدول المطلة على الخليج بما فيها إيران والعراق، تكون مسؤولة عن أمن واستقرار المنطقة<sup>(١)</sup>، ولكن جميع التصورات الأمريكية للمنطقة تأثرت بشكل كبير بعد قيام الثورة الإسلامية الإيرانية في أواخر السبعينيات، وأصبح الخليج منقسم إلى ثلاث أيديولوجيات متناحرة ممثلة بالثورة في إيران، ونظام البعث العربي في العراق، والأنظمة الملكية في دول الخليج العربي.. لذلك أصبح من الصعب وجود أي تنسيق استراتيجي ما بين هذه الدول لمواجهة الخطر الشيوعي من الاتحاد السوفيتي السابق، بل الأسوأ من ذلك أصبحت كل دولة تحاول أن تحافظ على توازن معين حتى لا تلتهمها دول الجوار، وبعد ذلك قامت الحرب العراقية الإيرانية التي استمرت فترة ثمانية سنوات، وانتهت عام ١٩٨٨م، وشكلت هذه الحرب هزة إقليمية كاملة لجميع دول المنطقة من الناحية الاستراتيجية السياسية، ومن الناحية الاقتصادية.. إلخ. وهذا يبرز لنا فشل مبدأ نيكسون في المنطقة، ولم يبق لها إلا مبدأ كارتر الذي ينص على وجود قوات للتدخل السريع، وتعدد الخيارات، أي انضمام باكستان للنظام الإقليمي الخليجي، من الناحية الأمنية، وإنشاء قواعد عسكرية في المنطقة، وبالفعل نجحت بعض تصورات هذا المبدأ كما سنذكر لاحقاً.

وبالطبع، لم تبق القوة المضادة للغرب مكتوفة الأيدي بالنسبة للتصورات الأمنية لمنطقة الخليج والمحيط الهندي بشكل عام، فهناك بعض التصورات للمدرسة الشرقية المضادة للغرب ولكنها فشلت تقريباً بفشل النظام الشيوعي

(١) العلكيم، مرجع سابق، ص ٧.

الاشتراكي بشكل عام منذ عام ١٩٩٠م. ولكن التصور الأمريكي الحقيقي ربما نستطيع أن نستشفه من تصور المستشار الأمريكي الأسبق للأمن القومي بريجنسكي من قوله: «إن منطقة الخليج تواجه تهديداً متصاعداً ناتجاً عن عدم قدرة أنظمتها المحلية الصمود أمام ضغوط التحديث من جهة، ومواجهة تهديد الانبعاث الإسلامي من جهة أخرى.. وأضاف بأن على الولايات المتحدة وضع سيناريو كامل للاستقرار المطلوب، وحماية مصالحها في المنطقة»<sup>(١)</sup>.

أما بالنسبة لأهم المبادرات التي قام بها زعماء الدول الخليجية، إنشاء مجلس التعاون الخليجي، وإن كان الكثير من النقاد يعللون قيام المجلس بوجود الهزات الأمنية في المنطقة، وبروزها بشكل واضح في عام ١٩٨١م، وهي نفس السنة التي أنشئ فيها المجلس، ومن هذه الأحداث:

١- الثورة الإيرانية وسياسة تصدير الثورة.

٢- الغزو السوفيتي لأفغانستان.

٣- الحرب العراقية الإيرانية<sup>(٢)</sup>.

وعموماً، كما ذكرنا في دراسة سابقة، فإنه لا بد من وجود محور أساس لنشأة المنظمات الإقليمية والدولية، ومن ثم فإن المنظمات نفسها تقوم بأدوار أخرى، وهو ما لم نلمسه من مجلس التعاون، لا من ناحية المحور الأساس، ولا المحاور الأخرى، كما سنذكر لاحقاً. وعموماً جرى العرف على تقسيم الدول من ناحية سكانية ومساحية إلى دول عملاقة، ودول كبيرة، ودول

(١) المللكيم، مرجع سابق، ص ٢٦.

(٢) آل ثاني، مرجع سابق، ص ٢٩.

متوسطة، ودول صغيرة، ودول صغيرة جداً. ولو قمنا بتقسيم دول المجلس على هذا الأساس لوجدنا أن معظمها يتأرجح ما بين صغير وصغير جداً.

وعلى ذلك، فإن الدراسة التي عرضها مركز الدراسات الاستراتيجية في النزويج بالنسبة للدول الصغيرة يمكن أن تكون من الخيارات الأمنية الآتية الممكنة لاستمرارها كمؤسسات سياسية:

١- أن تنأى بنفسها عن الصراعات القائمة مع الاعتماد على قوتها الذاتية، وهذا مستحيل بالنسبة لدول الخليج لأنها تمثل مطعماً لعدة أسباب منها: قلة عدد السكان، وخاصة عندما تعتمد كلاً منها على إمكاناتها البشرية والذاتية؛ وجود الاحتياطي الهيدروكربوني الكبير؛ والموقع الاستراتيجي؛ وعدم استيعاب جميع شرائحها الاجتماعية للمساهمة في التنمية وخاصة المؤهلين منهم.

٢- أن تتحد الدول الصغيرة اتحاداً فيدرالياً أو كونفدرالياً، وهذا يمكن أن نلاحظه من خلال تشكيل اتحاد الإمارات العربية عام ١٩٦٨م، ولكنه فشل نوعاً ما في ضم جميع الدول العشر الصغيرة في منظومة واحدة، كما كان متصوراً لها منذ عام ١٨٥٣م، فهي لا تستطيع أن تعتمد على قدراتها الذاتية منفردة، كما ذكرنا سلفاً.

٣- أن تنسق الدول الصغيرة مع دول إقليمية كبيرة قوية، وهذا أثبت فشله أيضاً من خلال محاولة التنسيق ما بين دول الخليج الصغيرة والدول الخليجية الكبيرة، وربما أسوأها احتلال العراق للكويت عام ١٩٩٠م،

٤- أن تغذي الصراع بين القوى الإقليمية لكي تنشغل عنها، وهذه من الاتهامات التي وجهت بعنف لدول المجلس خلال الحرب العراقية الإيرانية، ولكن

في الحقيقة فإن الصراع الإيراني العراقي هو صراع أيديولوجي وتاريخي أيضاً وموجود حتى قبل أن يكون لدول المجلس كيانات سياسية مستقلة.

٥- أن تتحالف مع دولة قوية من خارج المنطقة التي تنتمي إليها، وهذا ما يحدث بالفعل لجميع دول المنطقة، وإن كان قبل احتلال الكويت، كان هناك كتمان كبير على هذا الأمر، أما الآن فقد أصبح هذا التحالف علني، ووصل إلى مستوى تقديم التسهيلات والسماح بإنشاء قواعد عسكرية للدول الأجنبية، وعلى رأسها الولايات المتحدة وروسيا والمملكة المتحدة وفرنسا.

٦- أن تتحالف الدول الصغيرة مع دول قوية داخل الإقليم ودول قوية خارج الإقليم. وهذا ما نستطيع تطبيقه على دول المجلس الصغيرة بحيث يحاول بعضها المحافظة على علاقة قوية مع المملكة العربية السعودية، التي تعتبر دولة قوية داخل الإقليم بالنسبة للدول الخليجية الصغيرة الأخرى، وفي نفس الوقت تلجأ الدول الصغيرة إلى تحالفات خارج الخليج، كما ذكرنا أعلاه<sup>(١)</sup>.

وأحياناً تلعب الدول الصغيرة لعبة التوازن السياسي، وهذا الدور رأى البعض بأن الكويت هي أفضل من لعبته من خلال العلاقة الإقليمية مع القوى الإقليمية الثلاث الكبرى، ممثلة في المملكة العربية السعودية، والعراق، وإيران، وهو يتم من خلال المحافظة على علاقة ممتازة مع القوى الثلاث، وإن حاولت إحدى القوى أن تفرض عليها نفوذها أو الضغط عليها مالت أكثر للقوتين المتبقيتين للاحتفاظ بالتوازن.. ونفس سياسة التوازن هذه أهتمت بها الكويت أيضاً من خلال علاقتها العالمية ومحافظتها على توازن معين في علاقتها ما بين

(١) العلكيم، مرجع سابق، ص ٢٠.

المعسكرين الغربي وعلى قمته الولايات المتحدة، والشرقي وعلى قمته الاتحاد السوفيتي السابق.

وأيضاً للكويت دور ثالث في معادلة التوازن من خلال تقوية علاقتها مع الدول الصغيرة في الإقليم وحثهم على تشكيل فرع من الاتحاد الفيدرالي أو الكونفيدرالي أو التحالف في مواجهة القوى الإقليمية الأخرى.

وعموماً، فإن لعبة التوازن هي من الألعاب التي تعطي الدول الصغيرة دوراً بارزاً في إقليمها السياسي، ويمتد ذلك إلى أن يكون لها دور في مسرح السياسة العالمية، ولكن هذه اللعبة كالمخلطة السحرية التي متى ما اختل أحد مركباتها، تدفع الدولة ثمن ذلك غالياً.

ومن خلال لعبة الشد والجذب في إقليم الخليج على المستوى المحلي والإقليمي والعالمي، لم يستطع المجلس الخليجي أن يقدم حلولاً مرضية لحل مشاكل دول المجلس الآتية:

- ١- مشكلة الحدود.
- ٢- المشاركة السياسية.
- ٣- العمالة الوافدة.
- ٤- عدم التنسيق فيما بينها في المنظمات الدولية.
- ٥- عدم وضوح صورة التنسيق الاقتصادي.
- ٦- تخوف البعض من إنشاء جيش موحد.
- ٧- عدم إعطاء ضمانات مرضية وكافية للمواطن الخليجي من حيث العمل والاستثمار والتنقل.

٨- وأخيراً لم نستطع أن نستشف من هذا المجلس بعد مرور ما يقارب عقدين من الزمن أي محاولة للتوجه نحو الفيدرالية أو الكونفيدرالية.

وحتى التنسيق الأمني ما بين دول المجلس لا توجد له صورة واضحة، رغم كبر الإنفاق العسكري الذي يصل معدله في دول المجلس إلى ٢٤ مليار دولار، كما هو في عام ١٩٩٦م، تقابله ديون تصل إلى ما يزيد على ١٠٢ مليار دولار، وعجز في موازنة دول المجلس يصل متوسطه إلى ٢٥%، ورغم هذا كله نلاحظ أن دول المجلس تعتمد في الناحية الأمنية بشكل شبه كلي على الدول الأجنبية، مع عدم مراعاة أي هزة في السياسة العالمية.

وفي عام ٢٠٠٠م، وبسبب ارتفاع أسعار النفط، كان يتوقع أن يصل الفائض في ميزانية دول مجلس التعاون إلى أكثر من ٢٢%، ولكن جل مخاوفنا تتركز على أن لا تصنع الدول المستهلكة للنفط سيناريو مضاد للدول المنتجة لكي تسحب فائض الميزانية، وخاصة إذا علمنا أن أكثر من ٢٥% من الطاقة النفطية المنتجة تستهلكه الولايات المتحدة الأمريكية التي تعتبر الخليج بحيرة خاصة لبوارجها العسكرية، ودائماً يقال: إن مشكلة دول الخليج مشكلة سكانية، وهي التي لا تعطي هذه الدول إمكانية لحماية نفسها، وأن كنتُ اختلف اختلافاً كلياً مع من يقول هذا القول.

ذلك أن مشكلة دول الخليج مشكلة تنظيمية وتخطيطية، أما من الناحية السكانية فهي تبلغ ٢٦ مليون نسمة، وحتى لو قلنا: إن سكان الخليج يبلغ عددهم ٥٠% من إجمالي هذا العدد فهذا يعني أن عددهم يصل إلى ١٣ مليون

نسمة، وأكثر من نصفهم من الشباب (ذكور وإناث)، أي مجموع الشباب لا يقل عن ٦,٥ مليون نسمة، وهل يعقل أننا لا نستطيع أن نجند ما يقارب ١٥% من هذا العدد، وسوف يكون لدينا مليون جندي حاملين للسلاح، والباقيون يمكن أن يخضعوا لتجنيد إجباري لفترة زمنية محددة، أي في النهاية يوجد عندنا ما يقارب من ٦,٥ مليون نسمة جاهزين لحمل السلاح والدفاع عن أوطانهم.

وبالمقارنة مع إسرائيل، سوف نجد عدد سكانها لا يزيد عن ٦ مليون نسمة، وتعتبر القوة الأولى في الشرق الأوسط، وربما يصدر تساؤل هنا عن مجموعة من المفكرين يقول: لا وجه للمقارنة بين مجلس التعاون وإسرائيل، وسوف أقول لهم: احترم رأيكم، ولكن ماذا لو أجرينا مقارنة ما بين العراق عندما دخل الكويت في أغسطس ١٩٩٠م، وكان يومها عدد سكانه أقل من ١٨ مليون نسمة، ويقابله عدد سكان دول المجلس الآن ما يزيد على ٢٦ مليون نسمة، وكان العراق يعتبر يوم دخوله الكويت رابع أكبر قوة في العالم، ولكي يخرج من الكويت تم تحالف يجمع نحو ٤٠ دولة لإخراجه، وربما يقول بعضهم: إن هذا التحالف مظلة أمريكية لتعبئة الرأي العام العالمي ضد العراق، ولكنني سوف أختلف معهم هذه المرة؛ لأنه لإخراج العراق من الكويت في عام ١٩٩٠م، لم يكن أمام أمريكا سوى خيار من خيارين، إما استخدام أسلحة غير تقليدية، وهذا مرفوض تماماً على جميع المستويات، أو إنشاء تحالف دولي ضد العراق، أو أن يخوض الأمريكان حرباً لوحدهم، وحتى لو حققوا فيها النصر، إلا أنها سوف تكبدهم خسائر كبيرة.

إذاً، فالنموذج العراقي يمكن أن يطبق على دول المجلس من الناحية العسكرية، مع مراعاة ظروف كل إقليم.. ولماذا لا نكون صريحين مع أنفسنا، فالعراق سخر شريحة كبيرة من موارده لقوته العسكرية، وأخرج جيشاً قوياً قبل كارثة ١٩٩٠م، ونحن سخرنا معظم مواردنا وعائداتنا للتمويل العسكري، وازداد ارتباطنا بالقوى الأجنبية للدفاع عنا.

ويمكن أن اجتهد فأقول: إن المشكلة التنظيمية والتخطيطية التي تعاني منها دول المجلس هي عدم احترام العقول المؤهلة الموجودة لديها، والتي أنفقت عليها الدول الخليجية مليارات الدولارات، فغالباً ما تنظر بعض الحكومات إلى هذه الكفاءات بعينٍ من الشك والريبة، وقد تكون هناك فئة من الصفوة (Elite) تخاف على نفوذها من التقلص فتحاول أن تقفل جميع الأبواب أمام مفكري الأمة بكل ما أوتيت من سلطان، ولكن عزاؤنا الوحيد هو اتجاه بعض القيادات الخليجية لمحاولة إعطاء الفرصة للمشاركة الشعبية، وتشكيل مجالس منتخبة، وهذا كله سوف يدعم خطط التنمية والأمن في المنطقة.

وعموماً، نرى أن من أفضل الدول الخليجية في المشاركة الشعبية هي الكويت، التي بدأ فيها هذا العمل منذ عام ١٩٢١م، وتم تشكيل أول مجلس للأمة الكويتي عام ١٩٦٣م وربما هاجم بعضهم الكويت سابقاً وقال: إن مجلس الأمة الكويتي لم يعط الحق للمرأة لا في الانتخاب ولا الترشيح، ونرد عليهم بالسؤال: هل أعطيتم الرجل حقه حتى تفكروا في حق المرأة؟ وعموماً صدر أخيراً مرسوم من سمو أمير دولة الكويت سمح بمشاركة المرأة الكويتية في الانتخابات البرلمانية القادمة، لكن البرلمان الكويتي رفض التصديق على هذا



المرسوم! وفي سلطنة عمان هناك مجلس شورى منتخب.. وفي الإمارات المجلس الوطني بالتعيين.. وفي السعودية، أُسس أخيراً، بعد حرب الخليج الثانية، مجلس شورى بالتعيين.. وفي البحرين هناك مجلس وطني نصفه بالانتخاب ونصفه الآخر بالتعيين.. وفي قطر مجلس شورى بالتعيين.

وفي رأيي أن من الأعمدة الأساسية للتنمية في دول المجلس هو إنشاء مجالس تشريعية منتخبة، على أن تكون هناك فرصة لجميع المواطنين للمشاركة فيها من ذكور وإناث، مدنيين وعسكريين، وجميع الفئات الاجتماعية بما فيهم أبناء الأسر الحاكمة في دول المجلس. ومن نفس المجلس المنتخب في كل دولة يقوم أعضاء هذا المجلس بترشيح خمسة أعضاء من مجلسهم للمشاركة في البرلمان الخليجي، على شرط أن يتم التجديد لهم سنوياً أو استبدالهم من مجالسهم الأصلية، ومن خلال هذا التوجه يمكن أن ننشئ نواة لمؤسسة خليجية واحدة.

وأخيراً، فإن مستقبل المنطقة يرتبط بعملية السلام مع إسرائيل، فإذا نجح السلام كان هناك خيار، فإن لم ينجح فهناك تصورات أخرى.

وعموماً، بالنسبة للتصور الأول، وهو نجاح السلام مع إسرائيل فسوف يلغي كل ما هو قومي أو ديني من ناحية تنظيمية، وسوف يستبدل بمظلة الشرق الأوسط، وسوف يفرض على جميع الدول في نظام الشرق أوسطية تطبيق الديمقراطية وإنشاء مجالس تشريعية منتخبة، ومن يرفض ذلك سوف تُجمد عضويته مثلما يحدث بالنسبة لدول الكمنولث Commonwealth.

ولكن هناك تخوف من التلاعب بالعملية الانتخابية من خلال دعم بعض الفئات معنوياً ومادياً من بعض الجهات المنتفذة، أو العمل على إحياء التناحر

الفكري ما بين الناحيين الذين غالباً ما يمثلون مدارس فكرية مختلفة. وفي النهاية سوف يكون في ذلك ضياع للهدف الأساس من العملية الانتخابية، وهو تحقيق التنمية الشاملة ورفاهية وأمن المجتمع.

أما السيناريو التالي، في حالة فشل عملية السلام وأن الدول لم تطرح سيناريو بديل لفشل هذه العملية، فهو عودة الكرة مرة أخرى إلى ملعب المدارس القومية والدينية وخاصة الراديكالية.

وفي هذه الحال، فسوف يشيع ذلك نوعاً من المواجهة غير المستحبة بين الحكومات والمدارس الراديكالية التي وصلت في الخليج الآن إلى أكثر من ستة مدارس، وجميعها تنتظر الفرصة السانحة لكي يكون لها دور في المشاركة بشكل عام، وربما يطالب بعضها بالتغيير.

ولكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن مؤسسات دول مجلس التعاون يمكن أن يكون لديها، في مطبخها السياسي، السيناريوهات البديلة لكل مرحلة، وإن لم نشاهد حتى الآن، على أرض الواقع، أيّاً من السيناريوهات البديلة في مواجهة الأزمات السابقة.

## بين الجغرافيا والتاريخ

الدكتور مالك الأحمد (\*)

تميزت هذه المنطقة بخصائص جغرافية وتاريخية، كانت حاضرة في حياة السكان ونشاطهم، فالطبيعة وقسوتها كان لها الأثر في تشكيل جيل مفرد في الماضي، وموهل لأن يكون كذلك في المستقبل، إذا وعى المعطيات المتوفرة ومقومات الانطلاق.

يطلق مصطلح الجغرافيا على المنطقة والسكان، على البيئة والمناخ، على الاقتصاد والإمكانات البشرية والمعطيات الإنسانية، أما التاريخ فيشمل النشاط الإنساني على مر الزمان شاملاً الجانب الحضاري والعقدي والثقافي، الأحداث والوقائع، الرجال وسيرهم، والمنطقة وما مر بها. والجزيرة العربية مرت بتغيرات جغرافية وأحداث تاريخية مهمة كونت الحاضر وحفظت معطيات المستقبل.

تميزت هذه المنطقة بخصائص ومميزات كان لها الأثر في التاريخ وكانت الجغرافيا حاضرة في السكان ونشاطهم والطبيعة وقسوتها عليهم، شكلت جيلاً

(\*) باحث أكاديمي... (المملكة العربية السعودية).

متفرداً في الماضي ومؤهلاً أن يكون كذلك في المستقبل، إن اعتبرت المعطيات المتوافرة ومقومات الانطلاق .

### خصائص جزيرة العرب:

ها الله هذه المنطقة من الخصائص ما يجعلها متفردة ومتميزة عن غيرها، في مجموعة من العناصر:

السكان: يشغل الجزيرة العربية العرب من قبائل شتى لكنهم إما عرب عاربة كقحطان وإما عرب مستعربة كعدنان، وكانت بلاد العرب خياراً إلهياً لتكون مهبط آخر الرسالات البشرية:

فالرسول ﷺ عربي من قريش، بل من أفضل قبائل قريش، من بني هاشم، وقريش من أفضل قبائل العرب، والعرب بمؤهلاتهم وبقبائلهم المتعددة من أفضل الشعوب والقبائل على وجه الأرض على الإطلاق، كما قال الرسول ﷺ: «...أنا خيار من خيار»<sup>(1)</sup>، أي من العرب، ثم من قريش، ثم من بني هاشم. هذا الاختيار الإلهي للعرب جعل اليهود يحقدون ويمكرون، وقبل ذلك يرفضون دعوة الإسلام؛ لأنهم توقعوا أن يكون خاتم الأنبياء منهم.

تميز العرب بخصائص عديدة جعلتهم أهلاً لحمل الرسالة في الجزيرة العربية، وتبليغ الأمانة، هم أهل الشجاعة والإقدام، والمروءة والنخوة، والصبر والتحمل، والكرم والجود.

(1) أخرجه الحاكم والبيهقي.

المرأة لها حقها ومكانتها، ويقولون « تجوع الحرة ولا تأكل بثديها» أي لا تزني، رغم وجود البغايا، وهن غالباً من الإماء، وكانوا أهل تعظيم للشعائر الدينية، كالأشهر الحرم والحج.

كانت فطرتهم سليمة رغم ما اعترأها لاحقاً من ملوثات.

وكان استعدادهم البشري عالياً لقبول دين الله، وكانت قريش محط احترامهم: «الناس تبعاً لقريش، مسلمهم تبعاً لمسلمهم، وكافرهم تبعاً لكافرهم».

وعن جابر بن عبد الله، قال ﷺ: «غَلِظُ الْقُلُوبِ وَالْجَفَاءُ فِي الْمَشْرِقِ وَالْإِيمَانُ فِي أَهْلِ الْحِجَازِ»<sup>(١)</sup>، وقد مدح رسول الله ﷺ الحجاز والشام وذم كثيراً المشرق؛ لأنها مصدر للفتن ومخرج الدجال.. وهم عددياً ليسوا بالكثيرين، لكنهم مع ذلك يتناقصون وتقل نسبتهم، كما جاء في الحديث: في آخر الزمان: «لَيَفِرَّنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَالِ فِي الْجِبَالِ، قَالَتْ أُمَّ شَرِيكٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: هُمْ قَلِيلٌ»<sup>(٢)</sup>.

البيئة: تميزت الجزيرة العربية ببيئة فريدة، ورغم قسوة المناخ صيفاً وبرودته شتاءً إلا أنها تمر بفترات زمانية قل أن تجد لها مثيلاً في العالم - هذا إذا جادت السماء بالأمطار - لم تكن البيئة سهلة لكنها كانت مواتية والتحم أهلها بها، وقلما فارقوها إلا في أوقات الجفاف الشديدة المتوالية. أثرت هذه البيئة على الناس فكانوا جزءاً منها، وارتبطوا بديانها وسهولها وجبالها، وعرفوا شجرها وحجرها، وتعايشوا معها بالكامل.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) أخرجه مسلم.

مرت جزيرة العرب في أحقاب بعيدة في التاريخ بفترة من الخضار وستعود إليه، كما قال ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا...»<sup>(١)</sup>.

الموقع: هي وسط بين الشرق والغرب، في العالم القديم خصوصاً ، وعند ظهور العالم الجديد (أمريكا) أصبحت تسمى "الشرق الأوسط"، وهذه الوسطية في المكان كان له دور في نقل التجارة قديماً بين الشرق والغرب ولاحقاً في نقل الإسلام ونشره بين تلك الشعوب.

الدينية: اختار الله في جزيرة العرب وادياً مقفراً لم يعرف بالسكن من قبل وليس فيه ماء ... اختاره الله لبيني فيه الكعبة، ويكون هذا البلد حرماً آمناً: «إِنَّ هَذَا الْبَلَدَ - أي مكة - حَرَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحَرَمَةِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»<sup>(٢)</sup>.

وكما اختار الله مكة مكاناً للبعثة ، اختار المدينة مكاناً للهجرة وحرمها كما حرم مكة، وجعلها موئلاً لأهل الإيمان : «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث الآخر: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه أحمد.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه البخاري.

(٤) أخرجه مسلم.

وقال ﷺ: «سَيَعُوذُ بِهَذَا الْبَيْتِ - يَعْنِي الْكَعْبَةَ - قَوْمٌ لَيْسَتْ لَهُمْ مَنَعَةٌ وَلَا عَدَدٌ وَلَا عُدَّةٌ، يُنْعَثُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ حَتَّى إِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

وفي آخر الزمن عندما يخرج الدجال ويعيث في الأرض فساداً فإنه لن يدخل مكة والمدينة حيث الملائكة تحرسها وترده على أعقابها.

دين واحد: لم تكن وصايا الرسول ﷺ لمن بعده كثيرة، فقد بين الدين وأقام الحجة، لكن بعد انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، وبدء مناطق الروم ولتطهير الجزيرة من العريية والشرك، أوصى الرسول ﷺ بإخراج أهل الكتاب من المنطقة فقال: «لَا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ دِينَانِ»<sup>(٢)</sup>.

والأمر كما هو واضح ليس قاصراً على أهل الكتاب، فالوثنيين من باب أولى، فلا يقبل في الجزيرة مشرك ولا يهودي ولا نصراني، فقط أهل الإسلام. هذه خاصية لجزيرة العرب فقط ولم تكن تشمل بلاد الشام مثلاً رغم أهميتها عن بقية المناطق.


همزة الوصل مع الشام: من تقدير المولى عز وجل وحكمته أن أمر أبا الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام أن يتوجه إلى مكة ويترك فيها زوجته هاجر وابنه إسماعيل ليقوم كيان جديد في المنطقة، قائم على التوحيد، ويعيد - بعد ذلك - بناء بيت الله الحرام في هذه البيئة المجدبة لتكون منطلقاً لحضارة جديدة تسود العالم.

(١) أخرجه مسلم.

(٢) متفق عليه.

كان إبراهيم عليه السلام همزة الوصل بين بيئتين ومنطقتين حيثنا بخصائص خاصة، فبلاد الشام كانت أرض النبوة والرسالات، وهي البلاد التي بارك الله فيها ومدحها في كتابه، وهي أيضاً أرض المحشر، وقبلها هي أرض الملاحم ومهبط عيسى عليه السلام في آخر الزمان، أما جزيرة العرب فمهبط الوحي وبلاد خاتم الأنبياء والمرسلين، وهي موئل الإسلام ومأرزها، وأيضاً مستقبله.

واجتماع بلاد الشام مع جزيرة العرب لم يكن فقط في عهد إبراهيم الخليل عليه السلام، حيث بنى هو وولده الكعبة المشرفة وترك أحد أبنائه رسولاً ونبياً في العرب بينما حمل الرسالة في بلاد الشام أخوه إسحاق.

العلاقة استمرت مع مبعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ من ولد إسماعيل، وكان ﷺ يقول: «أنا دعوة أبي إبراهيم»<sup>(١)</sup>، مصداقاً لدعائه عند بناء الكعبة مع إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾  رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ (البقرة: ١٢٨-١٢٩)، وقد أمر أن يصلي إلى المسجد الأقصى في الشام.. حتى في إسرائته ﷺ كانت البلاد الطيبة هي الهدف، حيث اجتمع الأنبياء وأمهم ﷺ وهي منطلق معراجه إلى السماء، وتم هذا التواصل في البيئة والدين والقبيلة .

التاريخية: استمر التوحيد في بلاد العرب بعد إسماعيل ما شاء الله أن يكون، ثم بدأ الشرك يدب فيهم، ويقال إن عمرو بن لحي هو أول من أدخل الشرك إلى جزيرة العرب من الشام - حيث كانت أسبق للشرك من الجزيرة العربية -،

(١) أخرجه ابن عساکر في «التاريخ»، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة.



وزاد الشرك حتى ساد العرب، وكان عقيدتهم الأساسية رغم الاستثناء اليسير من وجود بعض الموحدين على ملة إبراهيم الخليل.

ورغم انتشار الشرك فآثار الدين باقية وبعض الأخلاق قائمة، حتى بعض رسومه استمرت كالحج، وتعظيم الأشهر الحرام، وتعظيم مكة والبيت الحرام، والطواف.

لكن الشرك نخر في العقول والقلوب فكان أمر الله أن يبعث فيهم من يعيدهم ثانية إلى التوحيد .

رغم الصعوبات التي واجهها الرسول ﷺ من قريش إلا أن البيئته - عموماً - كانت خصبة للدعوة، وكان عدد الداخلين يزداد، وفشى الإسلام في كافة قبائل قريش.

كان لاختيار مبعث النبي ﷺ في هذه البيئته حكمة، ذلك أن القوم رغم سلبات الجاهلية الكثيرة أفضل من كان على وجه الأرض، وكانوا مهيبين ذاتياً لحمل الدعوة ونشرها بخلاف البلدان الأخرى.

فالاختيار لم يكن قاصراً على النبي ﷺ نسباً بل بيئته ومنطقة، وكانت الآثار عظيمة والنتائج باهرة، فهذا ربعي بن عامر الأعرابي يدخل على كسرى في أوج قوته وجبروته بيده الرمح يخرق النمارق ويرفع صوته عالياً: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد».

انساح العرب - بعد أن استقر لهم الأمر في الجزيرة - شمالاً وشرقاً، واخضعوا أقوى دولتين، فارس والروم، وأقاموا أقوى حضارة، وأصلوا أفضل وأعدل حكم على الشعوب، حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً.

هذه البيئة القاسية أنتجت رجالاً لا يعرفون الخوف، ولا يقرهم الخور، رهباناً بالليل فرساناً بالنهار، حتى أن الروم والفرس استهانوا بهم في بداية الأمر وعرضوا عليهم الطعام - إن كان ما أخرجهم الفقر - وعرضوا عليهم الكساء إن كان هذا مطلبهم، حتى بدا لهم بعد ذلك أن هؤلاء ليسو طلاب دنيا بل طلاب آخرة، يعشقون الموت كما يحبون هم الحياة .

ورغم القرون الكثيرة الجميلة والفاضلة التي أطلت على هذه البلاد إلا أن النخر عاد من جديد، والجهل بدا يفشو، حتى سادت البدعة وظهر الشرك، فكان أن قيض الله لهذه البلاد رجالاً صلباً ، علم دين الله وأصر على نشره، رضي من رضي وخالف من خالف. كان محمد بن عبد الوهاب مجدد عصره ومعلم شعبه، أزال آثار الشرك من الجزيرة العربية، ومحي آثاره، وأعاد التوحيد نقياً صافياً، وما زالت آثاره باقية حتى الآن وإن غاب الكثير منها مع الهجمة الغربية وقلة العلماء وضعف الدعاة.

بين الزمان والمكان : لم يأت الثناء المحض من رسول الله ﷺ لبلاد في العالم إلا ثلاثة: مكة، والمدينة، والقدس، وذلك لما بها من مساجد ذات قداسة خاصة، ليست لغيرها من المساجد، لذلك شرع السفر لها وحدها فقط.

ولم يكن مبعث النبي ﷺ في مكة ومهاجره إلى المدينة قضية عبثية، بل كانت عقديّة حضارية، وأخيراً بيئية.

لم يتوافق البعد المكاني والعقدي والبشري وحتى الزمني كما توافقت مع جزيرة العرب، فأهلها من العرب هم خيار الناس، وجنسهم مفضل على غيرهم من الأجناس، وهم أولى الناس، وهم كما تشرفوا بصاحب الرسالة فهم أولى

الناس بحمل الأمانة وأدائها إلى غيرهم من الشعوب والأمم ، ولئن ضعفوا أو استكانوا في بعض الأزمان فهم أولى بالعودة وتسلم الراية من جديد.

في العقود الأخيرة ظهرت الصحوة الإسلامية في العالم، لكنها كانت أقوى ما يكون في جزيرة العرب، وأشدّ عوداً وأصلب موقفاً.

كانت الحركة العلمية أكثر انتشاراً في هذه البيئة، والدعوة العالمية تتحرك فيها، وما يكاد بلد من بلاد المسلمين أو غير المسلمين إلا وقد وصله وفد منهم أو مال لمساندة مشاريعهم .

**العودة:** في آخر الزمان عندما يضعف العرب ويتفرقون ويتناصرون، يقبض الله لهم رجلاً منهم يشبه نبيهم ويطابق اسمه (المهدي محمد بن عبد الله) يقودهم بالكتاب والسنة ويجتمعون عليه، ويتحرك بهم لإحقاق الحق ونشر العدل، حتى يعم الخير الناس، ولا يجد المتصدق من يقبل صدقته مما هم فيه من الغنى.

### مقومات الانطلاق نحو المستقبل:

تميز الجزيرة العربية بالعديد من العناصر والمقومات التي سوف تساعد على انطلاقة قوية نحو المستقبل في كافة المجالات، ومنها:

- في الجانب الاقتصادي: ثروات معدنية هائلة، وأهمها النفط والغاز، الذي مازال وسيستمر لفترة طويلة في المستقبل مصدراً رئيساً للطاقة في كافة بلدان العالم.

- في الجانب السياسي: تتميز المنطقة بتشابه أنظمة الحكم فيها والاستقرار السياسي البعيد المدى، ورغم التفاوت فيما بينها قريباً وبعداً عن تطبيق الشريعة

الإسلامية، إلا أن التوجه العام هو اعتبارها جزءاً من منظومة الحكم ومقررة في الدستور.

- في الجانب التاريخي : تميزت المنطقة بتاريخ مشترك واحد تقريباً منذ بعثة النبي ﷺ، وحتى في زمن الاستعمار الغربي لم تواجه المنطقة إلا استعماراً واحداً بخلاف مناطق أخرى من العالم العربي والإسلامي. وفي أزمنة التشتت والخلافات، كان الغالب أن قبائل المنطقة هي المحرك للأحداث وليس من خارجها .

### مقومات دينية:

يبقى العنصر الديني دائماً من أهم العناصر ومقوم أساس لوحدة الشعوب والمجتمعات ومصدراً أساساً لانطلاقة عالمية .

والجانب الديني ليس قاصراً على وجود قبلة المسلمين (مكة) ومهاجر النبي ﷺ (المدينة) رغم أهميتهما دينياً، كما سبق الإشارة إليه، فالأمر تعدى ذلك إلى تحول المنطقة إلى مصدر للإشعاع الديني حول العالم ، فالمنطقة مركز نشر وتحقيق وطبع التراث الإسلامي، ومركز الثقافة الإسلامية سواءً باللغة العربية أو حتى باللغات الأخرى، وهي المرجع في القضايا الدينية الفقهية، وتحتوي أكبر عدد من العلماء وطلبة العلم، ولها دور ضخم في توجيه المسلمين في بقية أنحاء العالم .

إضافة إلى ذلك، فالمنطقة أقوى وأهم مصدر للأنشطة الخيرية الإسلامية سواءً في العالم الإسلامي أو غير الإسلامي ، فالملايين من الدولارات تخرج من هذه البلدان إلى أفريقيا وآسيا و أوروبا وأمريكا للدعوة والتوجيه والإغاثة

والمساعدة، مما ساعد الكثير من الشعوب الإسلامية على مقاومة التنصير، وأنقذها من ظلمات الجهل، فضلاً عن آلاف بل عشرات الألوف الذين دخلوا الإسلام عن طريق جهود المنظمات والجمعيات الخيرية التي انطلقت من المنطقة.

### مقومات حضارية:

لا تنفك الحضارة عن الثقافة، والمنطقة تملك من الثقافة الشيء الكثير، بين الكتب أو في صدور الرجال، وكان للحركة الثقافية في العالم العربي نصيب هام في الجزيرة العربية، رغم البدء المتأخر والمشاركة المحدودة، لكنها تميزت ثقافياً - في الغالب - باعتمادها البعد الديني والإرث العقائدي المحلي، وليس النظريات والأفكار والعقائد المستوردة.

### مقومات جغرافية:

تميزت المنطقة بموقع متوسط في العالم القديم وموقع قريب من الحضارات ومركز الديانات، مما جعلها ترتبط حتى مع العالم الجديد لحاجة (الآخر) إليها وليس العكس.

### مقومات بشرية:

يسيطر جيل الشباب على المنطقة، فالذين لم يتعدوا ١٥ سنة يقاربون نصف عدد السكان، مما يجعل البيئة شابة، ويساعد على بناء كيان المنطقة في كافة مناحي الحياة مستقبلاً.

وشعوب المنطقة شعب واحد في الحقيقة، فاللغة واحدة والدين واحد، وحتى المذهب السائد (السنني) واحد.. وفي الطبيعة الاجتماعية، فالناس تعيش

بطرق متشابهة ومتطابقة أحياناً، مما يجعل الحديث دائماً عن شعب واحد وليس شعوباً مختلفة كما هو في الكثير من مناطق العالم.

## أخيراً:

عندما يتداخل التاريخ مع الجغرافيا في بيئة مثل الجزيرة العربية، ويأخذ البعد الزماني أثره والبعد المكاني موقعه، فإننا نأمل بل نلمس تغيرات إيجابية واسعة تقود المنطقة إلى ريادة إنسانية وتأثيرات عالمية في الحضارة والثقافة، في الشريعة والاقتصاد، مما يؤهلها أن تكون محوراً رئيساً ومحط أنظار الآخرين وميدان اهتمامهم.. من يئسها ينهلون، ومن عطائها يستفيدون، وبهديها يقتدون، ورسالتها يأملون بسلام عالمي واستقرار إنساني.

# مهد الرسالة

## هل تؤدي دورها من جديد؟

الدكتور محمد صالح المسفر<sup>(\*)</sup>

ليس المطلوب للحاق بالمرحلة التكنولوجية، كما هو مستوى الحضارة الغربية، بأن نستعير فقط ما يمكن، فالاستعارة لا تشكل "حيوية حضارية" وإنما تشكل "بطلاً" حضارياً وذهنياً، واثالية تجعل منا تجاه الغرب كحال العبد المملوك "كَلَّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير".

### مقدمة:

للجزيرة العربية خصوصية دينية لدى ما لا يقل عن مليار مسلم ينتشرون في مختلف بقاع الأرض، إضافة إلى موقعها الجغرافي - السياسي الذي يتوسط ما بين القارتين، الأفريقية عبر البحر الأحمر غرباً، والآسيوية عبر الخليج شرقاً وباتجاه كل المحيط الهندي، ثم عمقها باتجاه الهلال الخصيب شمالاً، حيث يلامس ذلك العمق الشمالي القارة الأوربية.

نص الله سبحانه وتعالى على خصوصية هذا الموقع الذي يتوسط القارات القديمة الثلاث بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ

(\*) باحث... أكاديمي (دولة قطر).

وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿ (البقرة: ١٤٣)، وربطت هذه الآية بين "التبدل المكاني"، بين القدس والكعبة: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهٖ ﴾ (البقرة: ١٤٣).

فموقع الوسط الجغرافي مرتبط باستقبال الكعبة البيت الحرام، فالأمة الوسط ليس بمعنى "الوسطية" في الدين والفكر والاتجاه أو السلوك، فلإسلام منهجه الذي لا يقبل بما يحمله مفهوم الوسطية الفكرية من تلفية وتوفيقية ودعاوى فكرية أو سياسية تتجاوز أحياناً حتى ثوابت الإسلام<sup>(١)</sup>.

فوسطية الأمة "موقع جغرافي" دلالاته "مكانية القبلة" من جهة، وكذلك "الشهادة" على الناس من حولهم من جهة أخرى. والشهادة "حضور" لا تستقيم مع "الغياب" ولا علاقة لها بالوسطية المفهومية.

ثم حين تكون شهادة العرب المسلمين على الناس، من موقع الوسط تأتي شهادة الرسول ﷺ على العرب المسلمين أنفسهم: ﴿ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣).

ونص الله سبحانه وتعالى على خصوصية الكعبة الدينية، بوصفها منطقة حراماً، أو أرضاً حراماً، حرّمها مكاناً وحرّم فيها أشهراً حراماً: ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكِبْكَبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَالِدَ ذَلِكَ لِيُعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٩٧).

هكذا "نسخ" القرآن الكريم باستقبال البيت الحرام ما كان من استقبال سابق لبيت المقدس: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنُعَلِّمَ مَن يَتَّبِعُ

(١) ما ذهب إليه الباحث هنا، من مفهوم الوسطية وغيره من مفاهيم، وما أشار إليه فيما بعد مما انتقاه من نماذج، أمور غير مسلمة ومحل نظر، لا يتسع المجال لمناقشتها (الناشر).



الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَيَّ عَقْبَيْهِ ۖ

فخصوصية الجزيرة العربية الدينية ترتبط بمركزية الوسط الجغرافي، التي ترتبط بدورها بالبيت الحرام والشهادة على الناس.

وقد ربط الله سبحانه وتعالى ما بين "البيت الحرام" و"القرآن" و"النبوة الخاتمة": ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبِّكَ هَكَذَا أَلْبَدَةَ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٦﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٧﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَانصَبُوا بِأَنفُسِكُمْ لَهَا وَمَا يَكْفُرُونَ بِهَا ۗ ﴾ (النمل: ٩١-٩٣).

واتخذ الله سبحانه من الأميين العرب قاعدة بشرية لحمل الرسالة و"الخروج" بها للناس: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠).

وناط بهم المسؤولية عن الذكر: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ (الزحرف: ٤٤). فقرن الله ما بين المسؤولية و"المحاسبة- السؤال"، فلم يجعل المسؤولية عن الذكر اصطفاً عرقياً أو علواً في الأرض حين الخروج، ولكنه سبحانه جعلها رحمة للعالمين، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر سبحانه، يهيأهم لمقتضيات الخروج بتحقيق الألفة بين قلوبهم: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٣).

وكذلك نصر نبيه ﷺ والمؤمنين: ﴿ إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا

تَحَزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا  
وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ  
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿التوبة: ٤٠﴾.

تلك هي "خصائص الخروج" رحمة للعالمين قبل أربعة عشر قرناً هجرياً<sup>(١)</sup>.  
قد خرج الأميون العرب من جزيرتهم "دعاة دين" وكذلك "محرري أوطان"  
فناجزوا أكبر احتلالين في ذلك العصر، هما الإمبراطورية البيزنطية والأخرى  
الساسانية بداية بقيادة الرسول ﷺ لحملة الغزو ضد الروم في تبوك في العام  
التاسع للهجرة (٦٣٠ / ٦٣١م)<sup>(٢)</sup>، ثم تابعت الفتوح طوال العهد الراشدي  
(١١هـ / ٦٣٢ - ٦٣٣م وإلى ٤٠هـ / ٦٦٠ - ٦٦١م) ثم العهد الأموي وإلى  
(١٣٢هـ / ٧٤٩ - ٧٥٠م)<sup>(٣)</sup>.

ثم ومنذ العهد الأموي (٦٦١ / ٧٥٠م)، ما يقارب التسعين سنة، ثم  
وطوال العهد العباسي (٧٥٠ - ١٢٥٨) ما يقارب خمسة قرون، تفاعل  
الفاتحون العرب مع مختلف "الأنساق الحضارية" و"المناهج المعرفية والفلسفية"  
التي كانت سائدة على المستويين الحضاريين في الشرق الآسيوي والغرب  
الأوروبي، مما أفاض في توضيحه وتفصيله المفهرسون العرب كالشهرستاني<sup>(٤)</sup>.

فهذه أو تلك (سبعة قرون) تفاعل فيها الفاتحون العرب بالشعوب والقبائل  
بمختلف مكوناتها، ما بين السند "شرقاً" وإلى الجزيرة "الأيبيرية" في إسبانيا غرباً،  
ثم مضوا بعد ذلك إلى غرب أفريقيا وإلى ساحلها الشرقي.

(١) محمد أبو القاسم حاج حمد، محاضرات غير منشورة، جامعة الجزيرة، السودان (إسلامية المعرفة: المفاهيم والقضايا  
الكونية) إضافة إلى الملحق (ولماذا القرآن دون الكتب الأخرى؟) ١٥ رجب ١٤٢١هـ - ١٤ تشرين أول/ أكتوبر  
٢٠٠٠م.

(٢) عبدالسلام الترماني، أزمنة التاريخ العربي، ج ١، المجلد الأول، قسم التراث العربي، المجلس الوطني للثقافة  
والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٢٦.

(٣) عبدالسلام الترماني، مصدر سابق، ص ٦٩، ١٧٨.

(٤) أبي الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، ٤٧٩ - ٥٤٨هـ؛ الملل والنحل، تحقيق: محمد  
سيد كيلاني، دار المعرفة: بيروت، لبنان، جزءان.

ثم أُطبق عليهم المقول والتتار من الشرق، إلى سقوط بغداد في عام ١٢٥٨م، وأُطبق عليهم الصليبيون في الغرب عبر حملات متتابعة (١٠٩٥ إلى ١٢٧٠م)، وإلى إخراجهم من الأندلس وسقوط غرناطة في عام ١٤٩٢م<sup>(١)</sup>.

هكذا انحدر العرب سبعة قرون أخرى وتالية لقرون الازدهار والفتوح السبعة الأولى، حيث شهدوا في ختامها المتزامن مع نهاية القرن الرابع عشر الهجري الاختراق الصهيوني جيو-بوليتيكياً للوطن العربي الجزأ ما بين البحر الأبيض المتوسط شمالاً والبحر الأحمر جنوباً، فيما عُرف منذ عام ١٩٤٨م بدولة إسرائيل، وهي دولة أو كيان نشأ في قلب الوطن العربي بعد اتفاقات (سايكس بيكو) لتجزئة المنطقة عام ١٩١٦م ووعد بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة عام ١٩١٧م وسقوط الخلافة التركية عام ١٩٢٤م<sup>(٢)</sup>.

وتتابعت الحروب بين دول "المواجهة" العربية وإسرائيل بداية من العام ١٩٤٨م، ثم ١٩٥٦م، ثم ١٩٦٧م، ثم ١٩٧٣م، أما الشعب الفلسطيني فقد بدأ بثوراته منذ بدايات الاستيطان في عام ١٩٣٥م، وما تزال ثوراته مستمرة حتى اليوم. على المستوى الجزيري، شهدنا أعنف حربين، الأولى بين العراق وإيران، وقد استمرت عقداً من الزمان (١٩٨٠/١٩٨٩م) والثانية بين العراق والكويت (١٩٩٠/١٩٩١م)، دمرت مقدرات ثلاثة شعوب مسلمة، وارتمن اقتصاد وأمن دول مجلس التعاون الخليجي كافة، وفتحت الأبواب للاختراق الصهيوني للمنطقة.

ثم تواصلت الهيمنة الأمريكية "مرتكراً" والأوربية "مساندة"، استغلالاً لتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م في مدينتي نيويورك وواشنطن بدعوى التحالف الدولي لمكافحة الإرهاب.

(١) موسى الزعبي، ما الذي تغير في الحضارة الغربية؟ الاستراتيجية أم التكتيك؟، الشادي للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٥م.

(٢) العرب والأترك في عالم متغير، الجزء الأول، وجهة نظر عربية، ميشال نوفل، خالد زيادة، محمد السماك، محمد نور الدين، مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتنسيق، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص ٧٤-٧٥.

وامتدت الهيمنة إلى الدول والشعوب الإسلامية في محيط بحر قزوين الغني بالنفط وجنوب آسيا (فتكالت علينا الأمم كتكالب الأكلة على قصعتها، وليس من قلة بنا ولكننا كثرة كغناء السيل).

والآن، نقف مجدداً في جزيرة العرب، وقد أصبحت مجلس التعاون الخليجي، باستثناء اليمن الذي طالت غربته، فهل ستؤدي الجزيرة العربية دورها الرسالي مجدداً؟

أمد الله الجزيرة العربية، ومنذ الثلاثينيات من القرن الماضي، بثروة النفط، حيث يصل الإنتاج اليومي في مجموعه لدول مجلس التعاون الخليجي حوالي (١٤) مليون برميل يوميا، بعائد سنوي يصل إلى (٦٤) بليون (مليار) دولار، تبعاً لإحصائية عام ١٩٩٩م.

ويتجاوز عدد السكان - من غير الوافدين - في مجموعه حوالي (٢٥) مليون نسمة تبعاً لإحصاء ١٩٩٦م. وإذا استمرت معدلات النمو السكاني الخاصة بدول مجلس التعاون وفقاً لافتراضات الأمم المتحدة، فإن عدد السكان سوف يصبح (٨٠) مليون نسمة بحلول عام ٢٠٥٠م، وسيبلغ تعداد سكان السعودية وحدها (٦٠) مليون نسمة<sup>(١)</sup>.

ثم إنفاً مركز استقطاب للحجيج والمعتمرين والوافدين بعشرات الملايين، فعوضاً عن الخروج للناس - كما كان في السابق - هاهم الناس يخرجون للجزيرة، ومن مختلف الجنسيات، وبمختلف الدوافع.

ثم إن لديها عمقها العربي الإسلامي على مدى الهلال الخصيب، ووادي النيل والمغرب العربي الكبير، وهو عمق يتسع لثلاثمائة مليون نسمة.

وجعل الله من حول الجزيرة العربية أهم مضايق العالم وبواباته البحرية، من مضيق هرمز، وإلى باب المندب، وإلى قناة السويس، ثم امتداداً في العمق إلى جبل طارق.

(١) عبد العزيز محمد الدخيل، العولمة الاقتصادية ودول مجلس التعاون، منتدى التنمية، اللقاء السنوي الحادي والعشرون، ٣-٤ فبراير ٢٠٠٠م، دبي، الإمارات العربية المتحدة، من كتاب المنتدى، دول الخليج والعولمة، دار قرطاس للنشر، الكويت، ٢٠٠٠م، ص ٥٥، ٨٩.

وما زالت جغرافيتها تتوسط القارات القديمة.  
ثم ها نحن نعيش مع العالم مرحلة الثورة التكنولوجية التي جعلت العالم قرية واحدة اختصرت ما بينه وسائل الاتصال والمواصلات.  
فكل المميزات الاقتصادية والديمقراطية والجغرافية - السياسية وغيرها، سواء على مستوى الجيوبوليتيك أو الاستراتيجية أو العولمة بتقنياتها المتقدمة، قد وفرها الله - سبحانه - لهذه الجزيرة العربية.  
وما يزال كتابها (القرآن الكريم) بين يديها.. فهل ستؤدي دورها الرسالي رحمة بالعالمين، متواصلة مع ختم النبوة والرسالة، علماً بأن هناك "حاجة إنسانية" تبتغي دوراً رسالياً تعبر به "أزمته الحضارية"؟

### الغرض من الدراسة:

يرتبط الغرض من الدراسة بعدة موجبات أساسية:  
أولاً: إن الجزيرة العربية، شعوباً وأنظمة، وعلى الرغم من المميزات المتعددة والمتنوعة التي ذكرناها ما زالت مأسورة عالمياً ومرتهنة بدور "التابع" للنظام العالمي الذي يستنزف ثرواتها فيما رأيناه من حربين خليجيتين عامي ١٩٨٠ و ١٩٩٠م، بحيث بلغ العجز التراكمي لهذه الدول كنسبة مئوية من الناتج الإجمالي ما يقارب ١٠% في السنوات الثمانية الممتدة من عام ١٩٩٢ إلى عام ١٩٩٩م<sup>(١)</sup> فهذه الدول في حاجة إلى نهج استراتيجي يباعد ما بينها وبين "التبعية"، وليس لديها من نهج بديل سوى التوجه الإسلامي، الذي حرر "المناذرة" في حيرة العراق من قبل من التبعية للدولة الساسانية، وحرر الغساسنة في الشام من التبعية للروم، فبفضل الإسلام والدور الرسالي من قبل أربعة عشر قرناً تحرر العرب المسلمون من التبعية وأصبحوا سادة أوطانهم وقرانهم.  
خصوصاً وأن كافة الأنظمة والتيارات التي استندت إلى مفاهيم غربية

(١) عبدالعزيز محمد الدخيل، مصدر سابق، ص ٨٣.

وافدة، سواء كانت ليبرالية أو ثورية، قومية أو أممية، قد فشلت تماماً طوال النصف قرن الأخير الماضي.

**ثانياً:** إن احتواء الجزيرة العربية دولياً أو عالمياً لم يعد يقتصر على نفوذ القوى العظمى، وتتقدمها الولايات المتحدة الأمريكية فقط، فالكيان الإسرائيلي منذ عام ١٩٤٨م وإلى اليوم يشكل رأس حربة "داخل" المنطقة العربية بأسرها لكافة أشكال النفوذ الأجنبي، وشريكاً فعلياً في المخططات، سواء تمت الشراكة مستترة أو معلنة.

**ثالثاً:** إن الإرث الصليبي الغربي، وكذلك الإرث اليهودي الإسرائيلي، تجمع بينهما قواسم مشتركة في العداة للعرب والمسلمين، تاريخياً ودينياً وقومياً، مما يدفع بهما لإجهاض أي نمو حقيقي لشعوب وبلدان الجزيرة العربية خاصة وأنها تمتلك المميزات التي ذكرناها، والتي تؤهلها لدور رسالي.

فالغرض من الدراسة يقوم على "فرضية" التلازم المصري بين التوجه الرسالي للمنطقة والحفاظ على استقلاليتها وشخصيتها، فبقدر ما تباعدت عن هذا الدور الرسالي بقدر ما استذلت لغيرها. أي بقدر ما ينحسر دورها العالمي الرسالي بقدر ما تنحسر ذاتها ومقوماتها.

### منهج الدراسة:

تعتمد الدراسة على منهج معرفي Epistemology معاصر في تحليل المركبات الحضارية والاجتماعية والتاريخية، سواء تلك الخاصة بالحوار الرسالي مع الحضارة الغربية أو استكشاف طبيعة الدور الرسالي الإسلامي - العربي الذي ينطلق من الجزيرة العربية، ارتباطاً بالموجبات والمقومات التي ذكرناها في المقدمة والغرض من الدراسة. ولذلل تعدد مصادر دراستنا من التاريخي إلى الفلسفي وإلى الديني والحضاري.

كذلك تتخذ الدراسة المنحى "المقارن" ما بين الطبيعة التركيبية للحضارة العربية الإسلامية والطبيعة التركيبية للحضارة الغربية المعاصرة والزاحفة بعولمتها. فمنهج الدراسة متعدد ولكنه متكامل، بتعدد وتكامل الموضوعات، وتحمل

تحليلاتنا في ثناياها طبيعة المناهج التي نستخدمها تبعاً لكل حالة ولكن في إطار تكاملي، فللرؤية الدينية مصادرها المعرفية، تماماً كما أن لما نتطرق إليه تاريخياً واجتماعياً وفلسفياً مصادره التي حرصنا على توثيقها.

**مفاصل الدراسة:**

تبدأ الدراسة بالبحث في الأزمة الحضارية الغربية المعاصرة، من حيث التركيب والبنائية، باستخدام منهج التحليل والنقد، سواء من داخل الذات الغربية أو خارجها، وحاجتها لبديل روحي.

ثم النظر في الأسباب التي حالت دون أن تكون العودة للمسيحية، لو بمنطق التجديد، بديلاً لهذه الحضارة.

بعد ذلك نطرح موجبات البديل الإسلامي وخصائصه، مع النظر في المعوقات التي تحول دون طرح هذا البديل، وكيفية التغلب عليها.

**مدخل لخلفيات الأزمة الحضارية العالمية:**

من الواضح أن خلفيات "الأزمة" المعنية تعود إلى سياق حضاري «وضعي - غير ديني وغير رسالي» وإلا لما انتهى منطق التداعي باتجاه الحل لأن يكون "رسالياً دينياً". وتنطبق هذه المواصفات "الوضعية" على الحضارة الراهنة المهيمنة عالمياً، وهي حضارة ذات "منشأ" أوروبي و"محصلة" أمريكية تُعرّف الآن "بالعولمة".

يقتضي ذلك منا البحث في داخل الصياغة الوضعية لهذه الحضارة الغربية التي تفرض مركزيتها. بمنطق العولمة على العالم، ثم اكتشاف أزمتها اكتشافاً "إشكالياً"، بمعنى تطور الأزمة إلى مستوى الإشكالية التي تتطلب بحكم الضرورة حلاً حاسماً يكشف عن مواطن الخلل في "النسق" الحضاري الوضعي، ويفرض منظومة نسق رسالي مغاير لحل هذه الإشكالية دفعة واحدة.. فهل نحن فعلاً أمام إشكالية؟!

يحدد الدكتور محمد عابد الجابري<sup>(١)</sup> معنى ومفهوم الإشكالية بقوله: «على الرغم من أن كلمة إشكالية من الكلمات المولدة في اللغة العربية وهي ترجمة PROBLEMATIQUE فإن جذرها العربي يحمل جانباً أساسياً من معناها الاصطلاحي. يقال: أشكل عليه واختلط، وهذا مظهر من المعنى الاصطلاحي المعاصر للكلمة: الإشكالية منظومة من العلاقات التي تنسجها، داخل فكر مُعَيَّن، مشاكل عديدة مترابطة لا تتوافر إمكانية حلها منفردة، ولا تقبل الحل - من الناحية النظرية - إلا في إطار حل عام يشملها جميعاً. وبعبارة أخرى، إن الإشكالية هي النظرية التي لم تتوفر إمكانية صياغتها، فهي توتر ونزوع نحو النظرية، أي نحو الاستقرار الفكري».

إذن، فحل الإشكالية هو غير حل الأزمة، فالأزمة يمكن حلها جزئياً وبمنطق يتصل بها مباشرة، لذلك نفضل الأخذ بمفهوم "الإشكالية" التي وصلت إليها الحضارة الغربية.. وبذلك يأتي الحل، كما حدد الجابري، عاماً يشمل المشاكل العديدة والمترابطة.

### تركيب وبنائية الحضارة الغربية:

يقودنا ذلك لمعرفة تركيب وبنائية الحضارة الغربية التي تتسارع خطاها باتجاه العولمة لتنفيذ بعد ذلك إلى عناصر الإشكالية فيها:

إنه من المعلوم، وإلى درجة البدهاية في العلوم السياسية والاجتماعية المعاصرة، أن سياق الحضارة الغربية - الأوربية منشأً والأمريكية مُحصَلةً - قد انتهى بعد سياق تطوري بدأ منذ القرن السادس عشر الميلادي إلى تبني مذهب "المنفعة" Utilitarianism، والبراجماتية Pragmatism وكلاهما قد نشأ في إطار الخيارات الفلسفية "العلمانية Secularism" وفي إطار "النمو الرأسمالي" Capitalist الذي يقوم على "الفردية والمنافسة Individualism and competition" ويحوّل الإنسان إلى أداة للإنتاج والاستهلاك فيما يظهر من تصورات أداتية، أو الفلسفة

(١) محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٥، ص ٢٧.



الأدائية النفعية Instrumentalism التي أطلقها د. جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢م) كإنجيل عملي جديد للمجتمع الأمريكي، وبالذات في المجالين التربوي والأخلاقي<sup>(١)</sup>.

لا تعتبر البراجماتية مذهباً فلسفياً، فهي تقود لصرف طاقة الفكر عن التوجه إلى الفلسفة، تركيبة كانت أو تحليلية، إلى الفعل ونتائجه. فالجوانب الفلسفية التي تظهر لدى مفكري هذه المدرسة هي فقط للتدليل على القيمة العملية للحقيقة في مقابل مختلف التصورات الفلسفية. هكذا هو موقف المفكر الأمريكي "تشارلس ساندرز بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤م) حيث ينتهي إلى القول: إن «تصورنا لموضوع ما هو تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر».

وكذلك هو موقف المفكر الأمريكي الآخر وليم جيمس (١٨٤٢-١٩١٠م)، الذي نزع نحو تجريبية متطرفة، وجعل المدركات العقلية مدركات حسية مهمتها الوصول إلى تحقيق فعل نافع، أي أن أفكارنا في تمثلنا لقيمتها، فهي بقدر ما تؤديه من فعل نافع تتجه إليه بالضرورة، وهذا هو أساس "المنهج الأدائي" أو "الأدائي". وهو اتجاه يتعامل مع الواقع كما يعبر عن نفسه بصدق مع الأفكار المحمولة عنه، فالبراجماتزم اتجاه يضع العمل "مبدأً مطلقاً" محالاً حسم المناظرات الفلسفية حين يؤولها بحسب ما يترتب عليها من نتائج في العمل ومن فرق في حياة الإنسان، فالمنهج البراجماتي مؤداه تحويل النظر عن الأوليات الفلسفية إلى الغايات والنتائج.

وفي نفس الإطار اعتبر المفكر البراجماتي جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢م) فيما أوضحه عنه "جورج نوفاك": «أن قيمة أي عمل، أو قيمة أي أسلوب

(١) أخلاقهم وأخلاقنا، ليون تروتسكي، جون ديوي، جورج نوفاك، ترجمة سمير عبده، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٧٩ - ٨٥؛ ولمزيد من البحث يُراجع: (أ) يعقوب فام، البراجماتزم أو مذهب الذرائع، دار الحدائق، بيروت، ١٩٨٥م؛ (ب) الموسوعة الفلسفية المختصرة، دار القلم، بيروت، وليم جيمس، ص ١٧٧، ١٨١.

للسلوك، أو قيمة أي سياسة، يجب أن يحكم عليها بنتائجها الحقيقية فقط، ومما يؤخذ بعين الاعتبار ليس نوايا ودوافع وأهداف الأفراد وإنما النتائج المحضه الناتجة عن أعمال الناس». .. فديوي يرى في الأخلاق: «فعالية ظاهرة، لها نتائج، بدلاً من كونها مجرد صفة شخصية داخلية». .. ويعقب "جورج نوفاك" بأن هذا المقياس الموضوعي قد فصل دوي عن جميع أولئك البشر شبه المتدينين والعاطفيين الذين تعتمد القيمة الخلقية لديهم على "طيبة القلب". هذا هو نسق التركيب الداخلي للحضارة الغربية انطلاقاً من محصلتها الأمريكية الراهنة من "الداخل".

غير أنه يُراد لهذا النسق أن يعمم عالمياً، أي أن يصبح "محوراً للعولمة". لهذا سطع اسمان، أولهما "فرانسيس فوكاياما" مؤذناً بالليبرالية نهاية للتاريخ الإنساني<sup>(١)</sup> وكذلك "صمويل هنتغتون" مؤذناً بصدام الحضارات مع المركزية الحضارية الغربية بمواصفات العولمة الأمريكية<sup>(٢)</sup>.

قد تعمدت الدوائر الرأسمالية الغربية، وبالذات في الولايات المتحدة. الترويج لدراسة فوكوياما، لأنها تجعل مدخل السير إلى نهاية التاريخ من خلال الليبرالية وذلك كنهج مضاد للماركسية التي طرحت نفسها هي الأخرى كنهاية للتاريخ. وبسقوط التجربة السوفياتية، تتوثب الرأسمالية الغربية لتقدم ليبراليتها عبر فوكوياما باعتبارها نهاية للتاريخ، في محاولة لورثة التجربة السوفياتية، لا على صعيد استراتيجي فقط ولكن على صعيد أيديولوجي أيضاً، وهي ليبرالية لا تمارس على حقيقتها - على الرغم من نقائصها - في الولايات المتحدة نفسها، كما فضح مضمونها "آرثر ميللر"<sup>(٣)</sup>.

"ففي الواقع الأمريكي، حيث مجتمع "الكلاب الفخمة الضخمة" - على حد

(١) فرانسيس فوكوياما، هل هي نهاية التاريخ؟، دار البيادر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٥/١١/١٩٩٠م، ترجمة عن:

End of history. Francis Fukoyama, national interest summer-1989

(٢) صمويل هنتغتون، صدام الحضارات، Debate-Foreign Affairs reader, Newyork, 1993.

(٣) أنطون شلحت، سباحة في أدب وفكر آرثر ميللر، فلسطين الثورة، عدد ٢٧١، تاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٧٩م.

تعبير آرثر ميللر - وحيث الوطن هو "حديقة حيوانات"، فإن التوجه الإنساني والثوري إنما يكون باتجاه الليبرالية، حيث إن "الليبرالية في أمريكا ليست أمراً سهلاً أو مستساغاً"، ولهذا فضح ميللر الفرق بين الواقع المكارثي الذي يلاحق الإنسان والحقيقة الليبرالية الغائبة، رغم الادعاء. وقد مثل ميللر نفسه أمام لجنة تحقيق تابعة للكونغرس حول آرائه في عام ١٩٥٤م بتهمة أنه يناصر الحركة الشيوعية، ومنع من مغادرة البلاد لمشاهدة عروض مسرحيته "البوتقة" التي كانت تعرض في بلجيكا وقتها.

قد انتهى "فوكوياما" إلى أن الليبرالية هي "نهاية التاريخ"، وأن "الجدل الذي غذى الحروب والتطور المنفصل لمختلف أجزاء العالم عبر التاريخ، قد بلغ نهايته الأخيرة، حيث يعدم الخصوم والتناحرات". وقد حظيت أفكار "فوكوياما" باهتمام عالمي واسع بوصفها "بياناً نظرياً لتبرير ما سمي بالنظام الدولي الجديد" في مقابل التحولات منذ عام ١٩٨٩م في الاتحاد السوفياتي وأوروبا الشرقية. وقد أرجع فوكوياما أفكاره هذه إلى أصولها الفلسفية لدى المفكر الألماني "فريدريك هيغل (١٧٧٠-١٨٣١م) وشروحات "ألكسندر كوجيف"<sup>(١)</sup>.

حيث رأى هيغل عبر منهجه في دراسة التاريخ أن مبادئ الثورة الفرنسية في العدالة والحرية والمساواة، بمضمونها الليبرالي، تشكل نهاية التاريخ، والتي ظنها في عام ١٨٠٦م حين دحر نابليون الملكية الروسية. لقد كشفت ليبرالية الأربعينيات عن وجهها البوليسي حين سيق "آرثر ميللر" للمحاكمة تحت طائلة الحملات المكارثية.

(١) الإشارة هنا إلى كتاب كوجيف، مقدمة لقراءة هيغل، نشر بالفرنسية في عام ١٩٤٧م ثم ترجم إلى الإنجليزية في عام ١٩٦٩م؛ ولأن كوجيف قد اعتقد بأن مطلق هيغل قد تحقق بعد الحرب العالمية الثانية فقد لملم أوراقه الفلسفية وهجر مهنة التدريس إلى أن جاءت نهايته هو في عام ١٩٦٨م.

انظر: كامل شجاع، فوكوياما وفلسفة هيغل، تلخيص لمقال بيار بورترز عن مجلة إسبري، Espnit، الفرنسية بعنوان: التاريخ والبيوتوبيا، حيث يرى بورترز، من خلال مفهومه لحرية الإنسان كإرادة وفعل ومسؤولية، أن معنى التاريخ لا يستقيم من خلال تشخيص قوانين عامة ذات غاية محددة فيه بل من خلال معايشة التجربة الإنسانية ذاتها والتي تستعصي بطبيعتها على أية محاولة لتأخيرها أو تأجيلها لصالح معنى مستقبلي مزعوم، صحيفة الحياة، تاريخ ٢١ تموز / يوليو ١٩٩٢م، عدد رقم ١٠٧٥٥.

أما ليبرالية فوكاياما فقد كشفت عن وجهها البوليسي المعاصر أيضاً حين تسن التشريعات للقضاء حتى على حقوق الإنسان الأمريكي الدستورية باسم "مكافحة الإرهاب" إثر تلك العمليات التي تمت في نيويورك وواشنطن بتاريخ الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، والتي طبق فيها أيضاً منطق "صدام الحضارات"، كما سنشرح لاحقاً- ضد كل عربي ومسلم ومشرقي.

أما بالنسبة لصمويل هنتنغتون وتنظيره لصراع حضارته "هو" مع حضارات العالم انطلاقاً من "مركزية" العولمة الأمريكية، فهذا تعبير عن موقف التمركز على الذات وليس الثقافة Acculturation الإيجابية والإنسانية مع الآخرين، فصدامية هنتنغتون الحضارية وليبرالية فوكاياما، كلاهما من أدوات أو أذرع الفلسفة الأداة النفعية التي تزحف للسيطرة على العالم.

### ماذا فعل هذا النسق الغربي بنفسه؟

وقبل أن نسأل عن مصير العالم مع هذا النموذج الزاحف علينا أن نسأل أولاً عن مصير إنسان هذا النموذج الذي يعيش داخله.

في تحليله لهذا الوضع يقدم الدكتور جميل قاسم<sup>(١)</sup> الطرح التالي:

في بداية القرن الحالي كانت عبارة الأمركة Americanisme مصطلح دال على الفظاظ، يعرفها أحد القواميس الألمانية على النحو التالي: «سطحية، إيقاع تموري، سوء تقدير للثروات المادية، بحث بدون إتقان، ميل نحو الحسيات، ميكنة العمل والحياة، استثمار فظ للطبيعة وللقوة البشرية». وكانت الأمركة تعني أيضاً الروح المستلبة - الذات، وتعني «ملكية أي شيء بواسطة المال».

وعندما زار توكفيل أميركا في منتصف القرن التاسع عشر قال: إن الروح الأميركية هي أبعد ما تكون عن الفلسفة. ولعل الفلسفة الأميركية الوحيدة التي ظهرت - وسادت - في الولايات المتحدة في تاريخها الحديث هي الفلسفة البراغماتية، ومفاد هذه الفلسفة العملية الرئيسي هو التجريبية المحضة،

(١) جميل قاسم، مقنمة في نقد الفكر العربي، من الماهية إلى الوجود، مكتبة الفقيه ودار الهلال، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٢٢-٢٢٣.

أو الأمبريقية الراديكالية. ويُشتق مصطلح البراغماتية من عبارة "Pragma" اليونانية وهي المرادفة للبراكسيس Praxis، أو النزعة التطبيقية. وقد حمل المصطلح في بدايات صياغته في أواخر القرن الماضي في حلقة شارل بيرس (١٩١٤-١٨٣٩م) مرادفات عدة: "الأدواتية" Intrumentalisme، و"العملية" Practicisme قبل أن تستقر التسمية مع وليام جيمس في كتابه الشهير "البراغماتية ١٩٠٧م": إن قيمة كل فكرة وكل مفهوم تكمن في الجدوى العملية المقدر لها، أي في المؤدى والغاية العملية. ذلك هو فحوى البراغماتية التي تظل مفيدة كمعيار هائي، موضوعي للحقيقة، ولكنها عندما تكون فلسفة حياة راديكالية تصبح مثلها مثل كل الأفكار والمفاهيم الثواني، خاضعة لإدارة قوة، تحدد ما هو عملي وجائز وتطبيقي، فكل حقيقة أو فكرة تخضع إلى وضعية ما، تحددها وتطبعها بطابعها.

فالبراغماتية في نظام إمبريالي هي غيرها في بلد في طريق النمو أو تحت التنمية. والبراغماتية الديمقراطية تختلف عن البراغماتية في نظام توتاليتاري. وهكذا فإن البراغماتية تتحدد بمحددات خارجة عنها. والسؤال هو: هل الأمركة البراغماتية ستحمل في "النظام الجديد" الوعد أم الوعيد؟

لعل شهادة أخرى هي الأبلغ تعبيراً عن الواقع / الإشكالية، لأنها استهدفت مباشرة ظاهرة "الكازينو" أو اقتصاد القمار، وبسقف احتجاجي أعلى مما ذهب إليه "آرثر ميللر" حول "الكلاب الفخمة الضخمة".

في كتاب "الحدائثة وما بعد الحدائثة" الذي ضمنه معدّه ومقدمه "بيتر بروكر" آراء العديد من المفكرين حول هذا الموضوع، تطرق "ديفيد هارفي" في الأفكار التي نشرت له إلى من حالة ما بعد الحدائثة، بحث في جذور التغيير الاجتماعي، ونقتبس هنا هذه الفقرات الموجزة<sup>(١)</sup>.

«إن ظهور اقتصاد كازينو القمار هذا بكل ما يحتويه من مضاربات مالية

(١) الحدائثة وما بعد الحدائثة: إعداد وتقديم بيتر بروكر، ترجمة عبدالوهاب علّوب، مراجعة جابر عصفور، ط١، ١٩٩٥، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي، ص ٢٩٠-٢٩١.

وتكوين ثروات وهمية وأموال مصطنعة ليس لها دعم بأي نمو حقيقي في الإنتاج، يساعد على توسيع الفجوة بين الأفراد. فهلت رأسمالية كازينو القمار على البلاد ووجدت كثرة من المدن الضخمة نفسها تسيطر على تجارة جديدة وقوية. وعلى "قفا" هذه الطفرة في الأعمال والخدمات المالية، ظهرت ثقافة جديدة تماماً تنتمي إلى طبقة محدثي النعمة بكل لوازم التحول إلى طبقة أرستقراطية واهتمام برأس المال الرمزي والأزياء والموضة والحياة الحضرية».

وعلى الجانب المضاد من البجوحة في العيش، كان هناك وباء التشرد والتجريد من أسباب القوة والنزول إلى قاع الفقر، الذي غمر كثيراً من المدن الكبرى. وظهرت حالة من التعالي والأناية ومعها شعور بالانتقام والتأثر لم تشهد البلاد مثيلاً لها طوال فترة ما بعد الحرب. وتم تسجيل الأصوات المنسية والأحلام التي لا ينساها مشردو نيويورك على النحو التالي "ائتلاف المشردين"، ١٩٨٧:

«أنا في السابعة والثلاثين من عمري؛ لكن هيتي توحى بأني في الثانية والخمسين. يقول بعضهم إن حياة الشوارع حرة وسهلة.. لكنها لا حرة ولا سهلة، فإن كنت لا أدفع مالاً، فإني أدفع من صحي واستقراري العقلي. وطني اسمه الضياع، وأرضي وصمها العار، أظل أبحث عن حجرة وأبحث عن الدفء وشماعات أعلق عليها ردائي، وعن درج، وعن مجرد طبق من الحساء الساخن. فما فائدة الحرية؟».

وقبل أعياد الميلاد لعام ١٩٨٧م مباشرة، أجرت حكومة الولايات المتحدة خفضاً قدره ٣٥ مليون دولار على ميزانية إعانات الطوارئ للمشردين. وفي الوقت نفسه، واصلت مديونية الفرد ارتفاعها، وبدأ مرشحو الرئاسة في التقاتل حول من منهم يعلن وعده بالولاء بصوت أكثر إقناعاً. أما أصوات المشردين، فضاعت في الهواء في عالم «تسوده الأوهام والخيالات والادعاءات الزائفة».

نتيجة لهذه الحضارة ذات "القيم الزائفة" وإن تطورت تكنولوجياً، حلّ

الإعلام بديلاً عن التربية والتعليم، والدعاية بديلاً عن الثقافة، والمنهج الأدائي بديلاً عن الفلسفة، فانجيس الإنسان الأمريكي داخل جدرانها وأصبح "مبوتقا Encapsulated"<sup>(١)</sup>.

وياً حبذا لو تم الجمع بين كتابات "آرثر ميللر" وكتابات "جون رويس" لطرح معالجة نقدية متكاملة لما نحن بصده من سلبات في تركيبة هذه الحضارة التي تنتج البؤس العقلي والروحي.

ولكننا - ومع هذه الشهادات، وقبل أن نتقل للبحث في "البدائل"، وهي - أي البدائل - بطبيعتها "نقيضة" للنسق الذي بين أيدينا، نورد شهادتين هامتين وردتا في منشورات "مركز البحوث والدراسات" في الدوحة، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في قطر<sup>(٢)</sup>.

في شهادته، يقول المفكر الفرنسي المسلم "روجيه جارودي" حول "الأزمة الحديثة" و"النهضة الغربية": «إن الارتباط بين المعطين لا يعني سوى "الميلاد المتزامن" للرأسمالية والاستعمار، والذي "بتقويضه أركان قرطبة عام ١٢٣٦م ودكه لغرناطة آخر مملكة إسلامية بأوروبا عام ١٤٩٢م، واجتياحه لأمريكا، يكون قد قطع أوصال ثقافتين شامختين، هما الثقافة الإسلامية وثقافة الهنود الحمر».

وابتداءً من هذه اللحظة، يغدو بالإمكان أن نرجع بتحديد الحضارة الغربية لعلاقتها بالطبيعة والآخر والله "أو الغاية النهائية من الوجود" إلى ثلاث مسلمات هي:

- ١- مسلمة ديكارت، التي تجعل "الإنسان سيداً ومالكاً للطبيعة".
- ٢- مسلمة هوبز، التي تجعل "الإنسان ذئباً بالنسبة للإنسان".

(١) John R. Royce, The Encapsulated man, university of Alberta, 1964.

(٢) الدور الحضاري للأمة الإسلامية في عالم الغد، نخبة من الباحثين والكتاب، إعداد مركز البحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مؤتمر القمة الإسلامي التاسع، ط١، جمادى الآخرة ١٤٢١هـ / أيلول - سبتمبر ٢٠٠٠م.

٣- مسلمة مارلو، التي تجعل "الإنسان المنمي لقدراته العقلية إلهاً يسود جميع العناصر ويهيمن عليها".

ولكن خمسة قرون من الهيمنة المطلقة لم تنته بهذه الثقافة إلى ما استهدفته مسلماتها تلك من نتائج، وإنما إلى نقائصها من تلويث للطبيعة، واستنفاد لمواردها، وقدرة تقنية على إتلافها، وانغمار في مستنقعات السوق التي فاقمت العنف، وسعرت الحروب، وأهبت نيران المزاحمة التي لم تفتأ أن جزأت المجتمع الواحد إلى فئات متناهشة، وعمقت الهوة بين شمال مستقطبٍ للثروات المتفاحشة، وجنوب يتضور جوعاً ومسغبة.

أما زعم الاستغناء عن الله سبحانه في تدبير الكون، فقد انحدر بهذه الثقافة إلى كفرانها بالقيم المطلقة، واعتبارها الإنسان والنزعة القومية مركزاً للأشياء ومقياساً لها؛ فانقضت ركائز الحياة، وخيمت البلبلة، ومزقت حراب العنف أحشاء المدن، وطم بحر الأهوال، وتوازنت الرعب، واحتدم سعار الإيرادات والرغبات، على صعيد الأفراد والمجتمعات.

ومما لا مراء فيه أن هذه "الحدائث" المزعومة التي انطلقت منذئذ أبواقها للترويج لها، إنما هي دين، غير أنه لا يجرؤ على الجاهرة باسمه، وركنه الأوحـد إنما هو "آحادية السوق"، تلك البدعة التي انفرد الغرب باختلاقها في مطلع "النهضة" والذي اهتبل الاتحاد السوفيتي، وتحطيم العراق، واستبداد الولايات المتحدة الأمريكية بشؤون العالم الثالث وأوروبا، فرصة سانحة ليجاهر العالم باعتبار "ليبراليته الاقتصادية" نهاية التاريخ، على حد تعبير فوكوياما، أحد منظري أيديولوجية وزارة الدفاع الأمريكية.

ومما لا شك فيه أنه ما من مسلمة من مسلمات هذه "الحدائث" المزعومة إلا وهي مجرد أكذوبة من الأكاذيب، في مقدمتها:

أكذوبة الديمقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، وحماية الحريات. والحق أن هذه الديمقراطية لم تكن في طور من أطوارها سوى وسيلة تعمية وتمويه، تلجأ إليها أقلية من مالكي العبيد إلى مالكي الثروات.



أما ديمقراطية أئينا على عهد بركليس، التي يضرب بها المثل، والتي تعتبر "أم الديمقراطية"، فقد كانت عبارة عن حكومة يديرها عشرون ألف مواطن من الأحرار، يستبدون برقاب مئة ألف من الأرقاء المحرومين من جميع الحقوق. أجل، إنها ديمقراطية، لا عيب فيها، غير أنها مقصورة على الأسياد، وليس لغيرهم من العبيد فيها نصيب.

أما الأكذوبة الثانية فهي المتعلقة بالمساواة بين الناس في الحقوق. وعلى الرغم من نص وثيقة "إعلان الاستقلال الأمريكي" على هذا المبدأ، فقد ظل العبيد أكثر من قرن من الزمان يتجرعون علقم الاسترقاق، ولم يتورع حاملو هذا الشعار إلى اليوم عن ممارسة ألوان من التمييز العنصري الذي ينحدر بالزنج إلى دركات الأشياء.

أجل، إنها ديمقراطية لا عيب فيها غير أنها مقصورة على البيض، وليس لغيرهم من السود فيها نصيب<sup>(١)</sup>.

أما الشهادة الثانية فهي موثقة إحصائياً، وهي التي أوردتها دراسة الدكتور "شافي بن سفر الهاجري" حيث عالج "نتائج" الرؤية الغربية للإنسان على واقع هذا الإنسان وانسجامه في إطارها، وذلك في الكتاب نفسه:

«هذه النظرة أو الفلسفة لموقع الإنسان في الرؤية الغربية، أو إن شئت فقل في الرؤية غير الإسلامية، والتي حاولنا استقراءها من أكثر من موقع جغرافي، أو أكثر من مدرسة، وأكثر من اتجاه، وأكثر من تاريخ - وحاولنا ما أمكن توثيق ذلك لتتسم نظرتنا بالموضوعية وعدم التحيز - انتهت على المستوى العملي أو على مستوى السلوك إلى واقع المعاناة الإنسانية الذي جاء ثمرة مرة لهذه الرؤية.. لذلك قد يكون من المطلوب منهجياً، بعد وضعنا الملامح العامة للنظرية العامة للإنسان في الرؤية الغربية أن نلقي ضوءاً على واقع الممارسة والتطبيق، وسوف نكتفي هنا بإيراد إحصاءات عن هذا الواقع وهذه الشقوة

(١) المصدر السابق، ص ١٦٧-١٦٩.

والمعاناة، تم إعدادها من خلال مؤسسات الحضارة نفسها، حيث إن علم الإحصاء اليوم هو من أهم العلوم التي تحدد توجهات المجتمع ووجهته وتبصر بالأمراض التي تقبع داخله:

- ألمانيا: ٣٠ ألف ينتحرون سنوياً.
- المجر: أعلى نسبة انتحار في العالم.
- العنف في أمريكا: ١٣٥ ألف مسدس تجلب للمدارس الأمريكية كل يوم؛ ٢,٤ مليون طالب مدرسة، يُسرق منه شيء؛ ٢٨٢ ألف طالب يتعرض للاعتداء الجسدي كل شهر، ٥٢٠٠ مدرس يتعرض للضرب في الشهر؛ أكثر من ٢١٠ آلاف أمريكي قتلوا في حوادث عنف داخلية خلال العقد الأخير؛ ١٧ مليون ضحية لجرائم العنف في الفترة ذاتها؛ ٧٠% من كل جرائم القتل تتم بالمسدسات؛ ٤٠% من جرائم القتل تتصل بالمخدرات.
- ١٢٠ ألف حادث انتحار في فرنسا.
- ٤٠ مليون أمريكي ضحايا الإجرام خلال عشرين عاماً. الخسائر المادية المترتبة على الجريمة عام ١٩٩١م بلغت ١٩ مليار دولار.
- الحكومة الأمريكية استخدمت الأسكيمو في تجربة الأدوية المشعة "تقرير ذكرته شبكة سي إن إن".
- أرباح الاتجار بالمخدرات حوالي ٥٠٠ بليون دولار سنوياً، ويعادل هذا المبلغ مجموع الناتج القومي الإجمالي لثلاثي الدول الأعضاء في الأمم المتحدة»<sup>(١)</sup>.

وهناك شهادات عديدة من "داخل الذات" الغربية أوردتها الدكتورة "سالم أحمد محل" أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة صنعاء في ذات الكتاب<sup>(٢)</sup> ولها قيمتها النقدية؛ لأنها صرخات تحذير من الداخل كما قلنا. وقد استشهد دكتور "محل"

(١) المصدر السابق، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨١-١٩٠.

بأزولد اشبنكلر، وبالأحرى "آزفلد اشبنجلر ١٨٨٠-١٩٣٦م" و "آرنولد تويني ١٨٨٩-١٩٧٥م" و "جوزيف. أ. كاميليري" وكذلك "روجيه جارودي" و "الكسيس كاريل" والرئيس الأمريكي الأسبق "ريتشارد نكسون" والرئيس الفرنسي الأسبق "شارل ديغول"، حيث أكد الجميع أن الحضارة الغربية في "مرحلة تفسخ".

### إذن: أين البدائل؟!

بعد هذا التداعي المنطقي في بحثنا، استدلالاً "عقلياً" واستقراء "علمياً"، يمكن أن نصل بوضوح إلى أن البدائل تكمن في نسق حضاري نقيض لهذا النسق الوضعي/ العلماني بمنشئه الأوربي ومحصلته الأمريكية. والبديل النقيض هو "روحي" أو ما يسميه البعض "ديني" أو أخلاقي، وذلك لإعادة التوازن بين "جوهر" الإنسان إنسانياً، ومنجزاته المادية في الحضارة، فلا يمارس الاستعلاء والاستغلال والفردية على ذاته وعلى الآخرين في كَوْنٍ مُسَخَّرٍ له إلهياً منذ البداية.

كل الذين طرحوا البدائل من داخل الذات الأوربية ركزوا على الجانب القيمي والأخلاقي والروحي، ولكنهم أبقوا على هذا التركيز في حيز الوعي "المتطلع" وليس حيز "الوعي" المتشكّل، فالكل ينشد قيماً روحية وأخلاقية "مضافة" ولكن ما هي بالتحديد؟ وما هو مصدرها؟

من بين الذين نقدوا التجربة الأوربية هناك "روجيه جارودي" الذي اختار الإسلام، غير أن هذا الاختيار الإسلامي لا يشكل "القاعدة" لدى المفكرين الغربيين، وإن كنا نجد غيره كأمثال "محمد أسد" - أو - "ليوبولد فايش- سابقاً"<sup>(١)</sup>.

لا ينفي ذلك أن الإسلام قد استقطب كثيرين من أبناء الحضارة الغربية،

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ.

حيث اجتباهم المولى عز وجل، ولكن اتجهت للمفكرين منهم بالذات والذين كشفوا عن ضرورات الطرح القيمي والروحي ولكن دون تحديد نوعية الوعي الروحي هذا، الذي يتطلعون إليه.

فلنأخذ مثلاً آخر لمفكر وجودي حتى النخاع وهو "كولن ولسن"، الذي تكاد المكتبة العربية أن تكون قد ترجمت كل كتبه وأحياناً بعناوين مختلفة.

فما يستشف من كتابات كولن ولسن<sup>(١)</sup> وبالذات في كتابه "اللامنتمي"<sup>(٢)</sup> أنه ينتهي إلى نوع من "الإشراقية" و"الكشف الصوفي الآسيوي فيما كتبه عن "راما كريشنا" حيث أشار:

«وعلينا أن نفهم أن راما كريشنا استطاع الاحتفاظ بحساسية الطفولة طيلة حياته، أما نحن، وسط حضارتنا المعقدة، فإننا مضطرون إلى التبلور في مزاج معين، ولهذا فإنه ليس تزييفاً أن نقول: إن حضارتنا هي المسؤولة عن انتشار النماذج الإنسانية والمادية في الفكر، أما راما كريشنا، الذي يعتبر في الطرف المعاكس، فقد كان باستطاعته أن ينفذ إلى أعماق ما يستطيعه الإنسان من ذهول تخيلي نشوان، الأمر الذي لم يستطع أن يفعله إلا عدد ضئيل جداً من الغربيين ما عدا أولئك القديسين الذين ظهروا في القرون الوسطى، والذين كانوا قادرين على أن يهبوا عقولهم أيضاً للتأمل والهدوء».

أما النماذج الإنسانية والمادية في الفكر الغربي فقد جسدها كولن ولسن في "الخبز والطاقة والجنس"، حيث يسيطر "الخبز" على عقل "كارل ماركس" ويسيطر "الجنس" على عقل "فرويد"، كما تسيطر "الطاقة" على عقل "ألبرت أنشتاين"، وقد رمز لماركس بشخصية "لورنس"، ولفرويد بشخصية الرسام "فان جوخ" ولأنشتاين بشخصية راقص الباليه "بينيچنسكي".

(١) أورده الدكتور شافي بن سفر الهاجري، المصدر السابق، الدور الحضاري للأمة الإسلامية، ص ٢٣٩.

(٢) كولن ولسن، اللامنتمي، ترجمة أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، ط ١، ١٩٦٩م، ص ٨٠، "حول النماذج"، عن راما كريشنا، وص ٣٠٠-٣٠١.

## المسيحية: لماذا ليست البديل؟

كل الذين طرحوا آفاقاً للخلاص الروحي في الحضارة الغربية لم يتجهوا للمسيحية التي نشأوا في أحضانها.. وأربط "عدم التوجه" هذا بالمرحلة التأسيسية للفكر الوضعي في أوروبا، أي الفكر الذي بدأ باستبعاد الدين على يد فرانسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) وإن كانت جذور هذا الفكر الوضعي تمتد تاريخياً إلى ما قبل ذلك. غير أن "جديد" سيكون هو محاولة فصله بين الاستدلالية العقلية والاستقرائية العلمية. وهو أمر لم يتبلور لاحقاً إلا على يد أوجست كونت (١٧٩٨-١٨٥٧م) أبو الوضعية المعاصرة، الذي قسم مراحل تطور العقل من "اللاهوت" إلى "الميتافيزيقيا" إلى "الوضعية"<sup>(١)</sup>.

غير أن أبا الوضعية "كونت" هذا، قد انتهى في عام ١٨٤٥م، أي قبل وفاته بسبعة عشر عاماً إلى أن يضع الشعور القلبي في مقام أرفع من العقل، ثم رأى الخلاص في "دين جديد" ولكنه لم يلجأ إلى المسيحية، إذ تعلق بدين للإنسانية<sup>(٢)</sup>.

أما (أرنولد توينبي)، الذي قدّم (نقداً موسوعياً) للحضارة الغربية، وكتب عن كل حضارات العالم وثقافته تقريباً<sup>(٣)</sup>. فقد انتهى قبل وفاته في عام ١٩٧٥ م متراوحاً بين الدعوة لدين عالمي وعقله "اللا أدري"، وذلك فيما نشرته صحيفة (التايمز اللندنية بتاريخ ٢٠/١٢/١٩٧٥م؛ وهي تستعرض الرسائل المتبادلة وغير المنشورة بين توينبي والكاتب اليهودي (روزنتال).

للإجابة على سؤالنا: لماذا عدم الاتجاه إلى المسيحية كمدخل للخلاص الروحي، فإننا لن نكتب بأفضل مما كتب المؤرخ الموسوعي (جون هرمان

(١) ول ديورانت: قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ٣ ط، بيكون من ص ١٢٦، أوجست كونت من ص ٤٥٢.

(٢) المصدر السابق، ديورانت، ص ٤٥٥.

(٣) أرنولد توينبي، مختصر دراسة للتاريخ، Study of History، ٤ مجلدات، اختصاراً لاثني عشر مجلداً، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: أحمد عزت عبدالكريم، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ط١، ١٩٦٠م؛ كذلك: تاريخ البشرية، مجلدان، ترجمة الدكتور نقولا زيادة، بيروت، الأهمية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م.

راندال<sup>(١)</sup> الذي أصل لنشوء وتطور وتكوين "العقل الحديث" الصاعد، في تقديره، منذ القرن الثاني عشر في مواجهة "اللاهوت المسيحي"، والذي حاول بدوره تعديل مواقفه عبر تجديدات متتابعة و"حلول وسط" لحركة الإصلاح الديني. تكمن مشكلة اللاهوت المسيحي في أن موضوعاته أو مقولاته الخاصة بالإنسان والنظرة إلى وجوده وحياته وعلاقته بالطبيعة قد أنتجت ضمن مرحلة عقلية هي الأكثر تحللاً قياساً إلى ما سبقها من حضارة هيلينية واسكندرانية حفلت بالمحاورات الفلسفية العقلية. فجاء اللاهوت المسيحي، الذي لم ينشأ في الأرض المقدسة وإنما في أرجاء الإمبراطورية الرومانية، وكأنه الرد الأكثر تحللاً على العقلانية اليونانية.

فلما استيقظت أوروبا على فكر النهضة أو الأنوار بداية من القرن الثاني عشر، وإرهاصاً قوياً في القرن السادس عشر، بدأت أوروبا تستعيد ذك الموروث العقلي اليوناني، في مجال البحث في الطبيعة كما في مجال الإنسان، وقد كان (ابن رشد) أحد المساهمين في تلك اليقظة الأوربية جامعاً ما بين الدين والفلسفة (فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من اتصال) كما أعاد إحياء (أرسطو) الملقب بالمعلم الأول<sup>(٢)</sup>.

قد حدثت ملابسات سلبية عديدة في كتابة الأناجيل الأربعة "متى، يوحنا، بطرس - بولص" ما عدا إنجيل "برنابا"، بما باعد بينها وبين النصوص الحقيقية

(١) جون هرمان راندال، تكوين العقل الحديث، مجلدان، ترجمة: جورج طعمة، مراجعة برهان نجاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥م، قدم له محمد حسين هيكل، انظر صفحات الإصلاح الديني من ٢٤١ إلى ٢٧٨، المجلد الأول بالعربية.

(٢) ابن رشد، فيلسوف الشرق والغرب، الملتقى الدولي حول حدائث ابن رشد، تونس ١٦-٢١/٢/١٩٩٨م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة برامج الثقافة والاتصال، بيت الحكمة، إصدار المجمع الثقافي، أبوظبي، ١٦، ١٩٩٩م، ومشاركة: منظمة اليونسكو، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، مجلدان، ولد ابن رشد في قرطبة بالأندلس عام ١١٢٦م وتوفي في مراكش عام ١١٩٨م.

التي نطق بها السيد المسيح في الأرض المقدسة<sup>(١)</sup> وكذلك في إنشاء اللاهوت المسيحي طبقاً لهذه الأناجيل، فحدث منذ البداية ما يشبه الطلاق بين العقلانية وهذا اللاهوت، فلما تسلحت العقلانية الأوربية بما ورثته عن الهيلينية في عصر الأنوار من جهة وما دفعتها إليه تطورات الرأسمالية المتنامية التي عززت من فعالية العقل الحر، المؤسس الأول للسوق الحر وقيمه، مما اضطر المناصرين لذلك العقل إلى إحداث الانقسام البروتستانتي الذي اكتشف من خلاله (ماكس فيبر) العلاقة المتناقضة بين ظهور الرأسمالية الحرة والعقلية الكاثوليكية التقليدية، بدأت مرحلة حصار اللاهوت المسيحي<sup>(٢)</sup>.

تم تطور الحصار إلى "قطيعة معرفية" بظهور الفكر أو النهج "الوضعي" بداية من فرانسيس بيكون وصعوداً إلى (أوجست كونت) وليس انتهاء بالعوامة المعاصرة التي تتراوح ما بين الوضعية والعلمانية، فليس كل علماني هو وضعي يستبعد الدين، وأمثلة هنا بحالة الفيلسوف الفرنسي فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) إذ كثيراً ما كان يردد "أن اللاهوت المسيحي قد بدأ حين التقى أول كاهن محتال من رجال الدين بأول أحمق من البشر"، وقد كان شديد الخصومة لرجال الدين ولللاهوت، ووجه نقداً عنيفاً حول صحة الأناجيل.

"وحين اشتد به المرض إلى درجة استدعاء القسيس لسمع اعترافه، وسأله فولتير عن أرسله، فأجابه إن الله قد أرسله، فسأله فولتير أن يقدم له أوراق اعتماده. وانصرف القسيس من غير أن يغنم بغنيمة. وأرسل فولتير بعد ذلك في طلب قسيس آخر. ولكن هذا القسيس رفض تقديم الغفران إلى فولتير

(١) محمد أبو القاسم حاج حمد، ٢٩ / ٣ / ١٩٧٩م، المراسلات غير المنشورة بين توينبي وروزنتال، التاييمز اللندنية، ١٩٧٥/١٢/٢٠ كذلك: الإشارة إلى دراسات برونو باور، حول نقد تاريخ إنجيل القديس يوحنا، عام ١٨٤٠م ونقد تاريخ الأناجيل الأربعة، ١٨٤١؛ ونقد التفسير اللاهوتي للأناجيل، برلين ١٨٥٢م، ترجمة الحوارات، صحيفة الاتحاد، ٢٩ / ٣ / ١٩٧٩م.

(٢) ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمة: محمد علي مقلد، مركز الإنماء القومي؛ انظر جميل قاسم، مصدر سابق، ص ٩٤.

ما لم يوقع على اعترافه وإيمانه بالمذهب الكاثوليكي إيماناً راسخاً. ولكن فولتير ثارت ثورته لهذا الطلب وكتب بدلاً من ذلك بياناً قدمه إلى سكرتيره (واجنر) ذكر فيه: «أموت على عبادة الله، ومحبة أصدقائي، وكرهية أعدائي، ومقتي للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين».. ووقع هذا البيان، في الثامن والعشرين من فبراير عام ١٧٧٨م<sup>(١)</sup>.

ويقول (ديورانت)<sup>(١)</sup>:

«ولكن يجب ألا نفترض من هذا أن فولتير كان رجلاً بلا دين، فقد رفض الإلحاد رفضاً باتاً، حتى أن بعض الملحدين الذين اشتركوا في "كتابة الموسوعة" اتجهوا ضده، وهو يقول في كتابه الفيلسوف الجاهل، أنه قرأ سبينوزا وآراءه حول وحدة الكون وتأليهه ولكنه ابتعد عنها على أساس كونها آراء ملحدة». ذلك هو ما كان من فارق بين العقلانية الأوربية والأناجيل الأربعة واللاهوت الذي بني عليها، وبالذات في إطار المنظومة الكاثوليكية، وقد شكلت الإرهاصات الرأسمالية الأولى، كما ذكرنا، بداية انطلاق العقل الحر بوجه الكاثوليكية التقليدية.

«قد حاول ماكس فيبر في كتابه "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" أن يبين أثر التربية وبنية الوعي التي يرسخها المناخ الديني على تطور ونشوء عقلية اقتصادية، وهي، ههنا، دور الأخلاق البروتستانتية في تطور المشروع الرأسمالي. وهو يرى، بالمحصلة، أن القواعد الشكلية العقلية لبنية عقلية ما تؤدي إلى انبثاق عقلية تقنية وإدارية في المجال الإنتاجي الاقتصادي، أي أن بنية العقل الصورية تتضمن بُنية تقنية في مجال القانون والإدارة والتخمين والمبادرة. من هنا، مثلاً، يُلاحظ أن الكاثوليكي، كان، عادة، يتحلى بذهنية جبرية أكثر انفصالاً عن العالم من البروتستانت القدرى الأكثر إقبالاً على العالم، فالأول يميل إلى الاكتفاء والزهد، بينما الثاني يميل إلى المغامرة والريادة. الكاثوليكي يرفض "المادية" باعتبارها نتيجة العلمنة وتزمين شؤون الحياة، بينما البروتستانت يسهى

(١) ول ديورانت، قصة الفلسفة، مصدر سابق، ص ٢٩٧ - ٢٩٩، ٣١٢.



إلى الكسب المادي باعتباره شكلاً من أشكال الجدارة الطهرية وتحقيق الذات الاجتماعية. وليس المذهب الأخلاقي في دين أو عقيدة دينية معينة هو الذي ينطوي على قدرات بسيكولوجية معينة، بل السلوك الأخلاقي الذي تتضمنه العقيدة الدينية، كالاتمان، وإعلاء شأن العمل والمبادرة، والبحث المنهجي عن الكسب، والتقدير لعامل الوقت، والمنفعة المترتبة عليه، والدقة، كل هذه هي التي تحدد روح العقيدة أو المذهب وما تؤدي إليه من مفاعيل في الحياة الاجتماعية- الاقتصادية. وإذا أثر الفكر على الاقتصاد، والاقتصاد على الفكر، فإن هذا يؤكد جدلية التأثير البنوي في علاقة الفكر بالواقع، والمادة بالوعي. وقد تركت الفكرة التطورية في القرن التاسع عشر أثراً بارزاً على العلم والفكر والأديان، وأسهمت في إخضاع الظواهر الفكرية إلى النسبية التطورية، حتى تلك الظواهر التي تتميز ببنى تطورية - تزامنية، كالدين، والجماعات الأنثروبولوجية كالطائفة والقبيلة.. إلخ. وإذا أدت التطورية إلى بروز أنماط تطورية من الوعي الديني، مثلما أسهمت بنية الوعي البروتستانتية في التطور الرأسمالي، في الغرب، فإنها أسهمت في الشرق العربي ب بروز وعي ديني تطوري قامت على أسسه إشكالية الإصلاح»<sup>(١)</sup>.

غير أن وتيرة التطور الأوربي تجاوزت حتى قدرات الإصلاح البروتستانتية، بحكم ضوابط مرجعيته اللاهوتية والكهنوتية، حتى دخلنا مرحلة الفكر الوضعي ومؤثراته، "وعادة ما يطلق على الفلسفة الوضعية المعاصرة أسماء متعددة، تعتبر في كثير من الكتب التي تتناول الفلسفة المعاصرة، كما لو كانت كلها مترادفة. فهي تسمى أحياناً: "الوضعية الجديدة" New-Positivism أو بأسماء أخرى مثل: "الوضعية المنطقية" Logical Positivism، أو "التجريبية المنطقية" Logical Empiricism أو "التجريبية المتسقة" Consistent Empiricism، أو "التجريبية العلمية" Scientific Empiricism، أو "الوضعية الجديدة المنطقية" Logical new Positivism.

(١) جميل قاسم، مصدر سابق، ص ٩٤-٩٥.

وكما تختلف وتعدد الأسماء التي تسمى هذا الاتجاه الفلسفي، أو هذه الحركة الفلسفية المعاصرة، نجد أن هناك اختلافاً أيضاً بين مؤرخي الفلسفة المعاصرة حول المساحة التي تشغلها تلك الحركة الفلسفية الجديدة بالنسبة للفكر الفلسفي المعاصر. فهناك من يقصرها على الفلسفة الوضعية المنطقية، أو التجريبية المنطقية وحدها، وهناك من يجعل مداها يتسع فيستوعب الصورة التي تطورت عليها، وعرفت بالتجريبية العلمية أو الوضعية المنطقية الجديدة<sup>(١)</sup>. وقد أدى هذا السياق التطوري إلى توليد الفلسفة الأدائية والبراجماتزم، بحيث إنه قد فقدت الحدود بين الأقسام الفلسفية في الإنتاج الراهن:

«إن الاتجاهات الفلسفية المعاصرة لا تمثل في حقيقتها مدارس فلسفية بالمعنى التقليدي القديم بقدر ما تمثل فلسفات تتجمع في إطارات عامة. فلسفة البراجماتيزم مثلاً، كما تتمثل في الفلسفة البراجماتية Pragmatism عند وليم جيمس، تتمثل في الفلسفة البراجماتية أو "البراجماتيقية" Pragmaticism عند بيرس، وتتمثل في النزعة الوسيطة "أو الادائية" instrumentalism عند جون ديوي، وكذا في النزعة الإنسانية Humanism عند شيلر، وإن كانت كلها يجمعها إطار واحد هو النزعة البراجماتية»<sup>(٢)</sup>.

### البديل هو الإسلام .. ولكن:

قد قيمنا حتى الآن الحاجة الإنسانية الحضارية المتأزمة للدور الرسالي، وعجز اللاهوت المسيحي - رغماً من محاولات الإصلاح والتجديد - الإحاطة بالعقلانية الغربية نتيجة بنائته السلبية التي أوضحناها. فلم يتبق أمام الإنسانية جمعاء سوى كتاب واحد يتعالى على "اللاهوت" وعلى "التزييف" معاً وهو "القرآن الكريم" الذي جعله الله سبحانه وتعالى خاتم رسالاته وكلماته للأرض، باعثاً به آخر الرسل والأنبياء وختامهم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

(١) عزمي إسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١، ١٩٨٠م، ص ١٠٧.

(٢) المصدر سابق، ص ١٦.

والقرآن الكريم قد جمع في الذكر بين أرقى المستويات العبادية والعقلية وعلى مستوى كوني متجاوز ومستوعب أيضاً كافة "المناهج المعرفية" البشرية، أياً كانت مشمولاتها ومضامينها، ومنفتحة ومتفاعلاً مع كافة "الأنساق الحضارية". بمنطق "التعارف" الذي يشكل ركناً أساسياً في علاقة المسلمين بالآخرين، وحتى بأنفسهم، شعوباً وقبائل.

فالقرآن وعي كوني، محيط وشامل، بل هو وعي مطلق؛ لأنه وحى إلهي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فليس في الإسلام لاهوتاً كذاك الذي ابتدعه المسيحيون، وليس فيه مرجعية كهنوتية، ولم يقف يوماً أمام العقل أو الحرية، بل إن الله سبحانه وتعالى قد نبه لفارق العبودية له من عبده، والعبودية بين الناس، فنهى عن ضرب الأمثال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ ضَرْبَ اللَّهِ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرْبَ اللَّهِ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٤﴾ (النحل: ٧٤-٧٦).

فالمملوك للبشر مملوك هو وما بيده: ﴿عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾، وكذلك هو ﴿أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾، أي مسلوب الإرادة ومسلوب التعبير إلى حد البكمة. ثم هو ﴿كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ﴾ رهن إشارته، ومولاه البشري ذاك بصفته مالك عبيد فإنه بحكم تكوينه لا يوجهه لخير ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

أحاط الله سبحانه وتعالى في هذه المقاطع من سورة (النحل). بمواصفات مجتمعات "القنانة" و"العبودية البشرية" لا يجعلها "قدراً" كما فعل اللاهوت المسيحي في دعمه للإقطاع والحق الإلهي المقدس للملوك. ولكن يجعلها سبة في جبين البشرية، ثم يؤكد على المعنى النوعي المفارق حين تتعلق العبودية به سبحانه وتعالى، فهو لا يكتفي بتملك عبده الحر للرزق بل ينتجه له كالعسل واللبن من بين "فرث ودم" ثم يمنحه حرية التصرف فيه: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾. ثم إن الله سبحانه لا يأمر عبده إلا بالعدل ويوجهه للصراط المستقيم، ويزيد إلى ذلك تملكه قوة الوعي والإدراك الثلاثي: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: ٧٨)، فلا بكمة ولا استلاب وعي الحرية: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٧٩).

ذلك هو الإنسان في القرآن، وذاك هو "عبدالله"، فلم يكن القرآن يوماً خصيماً للعقل والعقلانية وحرية التعبير والإرادة. والإنسان في القرآن "كائن كوني" ممتد في الزمان والمكان، ما قبل ميلاده وإلى ما بعد بعثته: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨). وكذلك: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَا أُمَّهَاتِنَا وَأَحْيَيْنَا أُمَّهَاتِنَا فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ﴾ (غافر: ١١).

فهذا الإنسان لا يحيط به أي منهج وضعي، فهو أكبر من الزمان الوضعي والمكان الوضعي وكذلك الفلسفة الوضعية. والكون الذي يولد فيه الكائن الإنساني هو أكبر من أن تحيط به الفلسفات الوضعية مهما أنتجت من النظريات "النسبية" أو الجدل والضرورة أو الثورات الفيزيائية، أو الحداثة وما بعدها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَخْتَرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيهِ فَاَسْتَعِذَّ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّكِينُ﴾ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ (غافر: ٥٦-٥٧).

وهكذا يقف العلم أمام كون لا متناه في الصغر ولا متناه في الكبر، كون خلق فيه الإنسان وهو أكبر من خلق الإنسان. بهذا المنطق التكويني لا يبوثق الإنسان - كما تبوتقه الحضارة الغربية - ليكون مادة بايولوجية للإنتاج والاستهلاك، هنا يصبح الإنسان "قيمة وجودية" متعالية على الطبيعة البحتة وبهيميتها، حيث يدعو الله سبحانه ليتسامى إليه عبر الدين، ولتحقق من خلال هذا الإنسان منهجية الحق التي خلق الله بها الخلق، وليس منهجية العيب الوضعي، مادياً كان هذا العيب أو مثالياً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴿١٨﴾ (الأنبياء: ١٦-١٨).

فالخلق الإلهي للإنسان والكون ليس ملهاة عبثية كتلك التي تجسدها أساطير "الأولمب" حيث مسكن آلهة قدماء اليونان الذين خلقوا الخلق للتسلية والمنافسة

فيما بينهم. فهنا "خلق" ينتهي إلى "غائية حق" وهذا هو أساس الدين حيث يتسامى الكائن الكوني وهو الإنسان متجاوزاً "وضعية" الأرض. هنا فقط نحل "الإشكالية" التي أفرزتها الأزمة الحضارية العالمية، وهذه هي "رسالتنا"، وهذا هو "دورنا"، وكما تذكر مقدمة المحور الثالث (إلحاق الرحمة بالعالمين).

### ولكن .. كيف نؤدي هذه الرسالة؟

ليست مشكلتنا أن بنا لا هوتاً أو كهوتاً، ولكن مشكلتنا أن بنا "تخلفاً"، والفكري والثقافي من هذا التخلف أقذع من الاقتصادي والاجتماعي، وإن كانت هذه المنظومة مترابطة ببعضها، اقتصاداً واجتماعاً وفكراً، كما أوضحنا في تحليل (ماكس فيسر) للترابط بين البروتستانية وروح الرأسمالية بوجه الكاثوليكية التقليدية.

إن مجتمعاتنا ما تزال تعيش بوعيها المتحذر مرحلة ما قبل الصناعة، وليس المطلوب إلحاق بالمرحلة التكنولوجية والمتقدمة كما هو مستوى الحضارة الغربية الراهنة، أي أن نبدأ "ذاتياً" من جديد أو أن نستعير فقط ما يمكن من الغير، فالاستعارة لا تشكل "حيوية حضارية" وإنما تشكل "تبطلاً" حضارياً وذهنياً، واتكالية تجعل منا تجاه الغرب كحال العبد المملوك مع مالكة ﴿كَلِّ عَلَىٰ مَوْلَانِهُ إِنَّمَا يُوجِّهُهُ لَأَيِّ يَأْتِ بِخَيْرٍ﴾.

قد انطلقت أوروبا في نهضتها - أيًا كانت النتائج السلبية - بعد أن جيشت منذ القرن السادس عشر الحرفيين والتجار الذين يمولون الحرفيين ويسوقون منتجاتهم، فتحول الحرفيون إلى صناعيين والتجار إلى رأسماليين بعد أن سندتهم اختراعات العلماء وكشوف الرحالة، وأزاح رجال العقل والفلسفة سلطة الكهنوت واللاهوت والحق الإلهي المقدس للملوك.

قوى مترابطة عضويًا، تدفع بالتطور، وعلى مدى قرون، ولكنها افتقرت

للبديل الديني في نسقها الحضاري.

ولا نقول: إن لدينا "المقابل" الذي "نقايض" به، أي روحانية الدين، فهم مايزالون يسحبون على ديننا ما سحبه على اللاهوت المسيحي إلا أن "نبرهن" على أن ديننا "الإسلام" وكتابه "القرآن" ونبه ورسوله "الخاتم" يملكون القدرة للتعامل مع الموروث العقلائي للحضارة الغربية حتى ضمن أعلى سقف له في الوضعية المنطقية المعاصرة، كما شخصها دكتور (عزمي سلام)، دون ذلك حرث في بحر.

فالسؤال الآن: هل نملك نحن الذين نتنادى للحلول الإسلامية نفس مستوى "الوعي الحدائي" في فهمنا لديننا، بحيث نستطيع مخاطبة الحدائة الغربية، ونعوضها عن "لاهوتما المسيحي" من جهة وعن "وضعيتها وعلمانيتها" من جهة أخرى؟! لعلني طرحت بذلك "شروط" الخطاب الإسلامي المعاصر، لأنفسنا أولاً حتى يكون للغير ثانياً؛ أي البدء بأنفسنا، غير أننا "كمسلمين" مانزال في وضع ثقافي وبالطبع أيديولوجي لا يؤهلنا لهذا الدور، ولعلني أبدأ هنا للتقييم ذي النقاط الست التي ساقها دكتور (حسن حنفي) لهذا الخطاب<sup>(١)</sup> كوجهة نظر لا تخلو من تحفظات:

١- البداية بالإيمانيات والإلهيات، وليس بالعقليات والإنسانيات، دفاعاً عن حقوق الله وحقوق الإنسان أولى بالدفاع، فالمشروع الحضاري الجديد من مقتضيات الإيمان تنفيذاً للأمر الإلهي وليس من متطلبات العصر. حاجاته إلى إعمال العقل والدفاع عن كرامة المواطن وحقوق الإنسان يعتمد على النص، قال الله وقال الرسول، أكثر مما يعتمد على العقل وتحليل العلل المادية المكونة للواقع والدفاع عن السلوك كما هو الحال في نظرية العلم في علم الأصول.

٢- استعمال تطبيق الشريعة الإسلامية كوسيلة للضغط الاجتماعي وليس للثورة الاجتماعية، كفرض إلهي وليس تعبيراً عن مصالح الناس،

(١) حسن حنفي، المشروع الحضاري العربي .. إلى أين؟ محاضرات الموسم الثقافي الخامس عشر، ١٩٩٩م، مؤسسة الثقافة والفنون، المجمع الثقافي، أبوظبي، ص ٨٦-٨٧.

مطالبة للناس بواجباتهم قبل إعطائهم حقوقهم، وتقديم الحدود والعقوبات على تطبيق النظام الاقتصادي والاجتماعي والتربوي والبدائية بالشكليات والمظاهر الخارجية وبالتستر والحجاب قبل النزول إلى رحاب الفضاء والسعي في ربوع الأرض.

٣- تقليد القدماء إحساساً بالعجز أمام العصر الذهبي الأول في عدم ترك السلف إلى الخلف شيئاً: ﴿ خَلَفَ مِنْ بَدِينِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ ﴾ . نشأت الحركات السلفية والعودة إلى الأصول هرباً من الحاضر وتعويضاً عن أزماته في عظمة الماضي والافتداء بنموذجه وسنن أبطاله مع أن الحاضر مملوء بنماذج الجهاد في جنوب لبنان وفي فلسطين وفي أفغانستان.

٤- رفض الواقع والعجز عن التعاون معه، الخروج عليه وتكفيره، والوقوع في جدل أما.. أو ، الكل، أو، لا شيء، أما الإسلام أو الجاهلية، الإيمان أو الكفر، الله أو الطاغوت. ولا مصلحة بينهما، بقاء أحدهما مرهون بالقضاء على الآخر، ولا حل لهذا الصراع إلا باستيلاء على السلطة، بتنظيم سرّي أو علني.

وبالتالي وجب قلب نظام الحكم وتأسيس الحكومة الإسلامية، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. ولما كانت السلطة في كل مكان بين هذه النظم والجماعات الإسلامية يأتي حدّ العنف المتبادل، وإراقة دماء المسلمين بالقتل من طرف والاغتيال من طرف آخر.

٥- رفض الحوار مع التيارات الفكرية الأخرى واتهامها بالعلمانية وتكفيرها؛ لأنها تفصل بين الدين والدولة، ولا تطبق الشريعة الإسلامية، فالجماعات الإسلامية وحدها تمتلك الحقيقة وغيرها في الضلالة والبهتان، منطلق الفرقة الناجية مقابل الفرق الهالكة، وحتى دون اعتبارهم من المؤلّفة قلوبهم ممن لهم حقّ في بيت المال، وهم جميعاً أبناء وطن واحد.



٦- ردة البعض منهم إلى النقيض، فالنقيض يولد النقيض، والطرف ينقلب إلى الطرف المضاد، فيحوّل إلى قومي أو اشتراكي أو ماركسي أو ليبرالي جذري أو ينشغل بالتجارة وشؤون الدنيا بعد أن تشبّع بشؤون الدين، ويصبح الدين وسيلة للغطاء والتستر على مباحج الحياة واستغلال للبسطاء".

ربما يقول بعضهم أن الدكتور حسن حنفي قد "غالى" بعض الشيء حين سحب مقولات الحركات المتطرفة على مجمل الفكر الإسلامي السائد غافلاً عن طرح "الوسطيين" أو المعتدلين من العلماء والفقهاء الأكثر اختصاصاً بهذه القضايا.

القضية هنا ليست في "العينة" التي اتخذها دكتور حنفي ناطقة باسم التيار الديني، فالاختيار بالنسبة للدكتور حنفي ليس "انتقائياً" فهي عينة تجسد مثلاً الخطاب الإسلامي الراهن، ومن يدعي الاعتدال والوسطية هو على هامش هذا التيار، وذلك لسبب رئيسي وبسيط وهو أن التيار الذي يدعي الاعتدال والوسطية لم يبلور مواقفه في إطار "العقلانية الإسلامية" بحيث إنه لا يبدي أي نوع من التواصل أو حتى ذكر الاتصال الثقافي بجزور ورموز العقلانية الإسلامية طوال المرحلة ما بين القرنين الهجريين الثالث وإلى السابع "القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلادي"، فإذا تواصل "المعتدلون" مع تلك المرحلة فإنهم يأخذون باتجاهات وفتاوى وأحكام مدرسة "النقل" وليس "الرأي".

كما أننا لا نرى تواصلاً فعلياً في توجهات هؤلاء بفكر الإصلاح الديني والنهضة طوال الفترة ما بين ١٧٩٨ وإلى ١٩١٤ تقريباً<sup>(١)</sup> فإهماماتنا لما يطلق عليه تيار الوسطية والاعتدال لا تقل عن إهماماتنا لتيارات

(١) حددت معظم الدراسات التي تناولت بدايات التجديد والإصلاح الديني المعاصر فترة ما بين ١٧٩٨ وإلى عام ١٩١٤ وما بعدها بقليل كعنوان لتلك الفترة: البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة (١٧٩٨-١٩٣٩م)، ترجمة كريم عزقول، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٧م؛ علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ١٧٩٨-١٩١٤م، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٥م.

الغلوّ والتطرف، فلو ركز التيار الوسطي على ابتعاث (ابن رشد) و(الكندي) و(الفارابي) و(ابن سينا) و(ابن خلدون) ومعظم الفلاسفة العقلانيين في مرحلة ما بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلاديين، ولو تم التركيز أيضاً على ابتعاث (جمال الدين الأفغاني) و(محمد عبده) و (رشيد رضا) وحتى (علي عبدالرزاق) في مرحلة فكر النهضة، لما كانت "العينة الغالبة" هي تلك التي لجأ لتصنيف أفكارها الدكتور حسن حنفي.

ولنا أن نسجل هنا برؤية البروفيسور (محمد أركون) حول تلك "الانفتاحية" في المجتمع الإسلامي، التي ارتبطت "بالعقلانية" الإسلامية<sup>(١)</sup>.

### مجتمع منفتح:

هل من الممكن، كخلاصة لهذا الفصل، أن نقدم بإيجاز نمط المجتمع الذي ساد طيلة الحقبة الكلاسيكية الإسلامية؟ إننا نرى فيه لأول وهلة "مجتمعاً منفتحاً".

كانت بغداد والعواصم الأخرى لمختلف إمارات الشرق، وقرطبة الأموية، والمراكز الكبرى المرابطية والموحّدة، وتونس والأغالبة والحفصية، كانت مراكز إشعاع علمي كوني، من القرن التاسع حتى القرن الثالث عشر الميلادي، صدرت مؤلفات كبرى في مجالات العلوم والفلسفة والأدب والفنون ومختلف علوم الدين. يكفي أن نذكر هنا أن العالم الرياضي والجغرافي والفلكي أبو الريحان البيروني، والفلاسفة والأطباء والعلماء أمثال الكندي والفارابي، وابن سينا في الشرق، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد، في الغرب، والكتاب الصوفيين، وجلال الدين الرومي الإيراني، والموسيقين، و"المصلح" الغزالي والفقهاء فخر الدين الرازي.. ويمكن إيراد الكثير الكثير من الأسماء.

وكثيرة كانت، في الغرب وفي الشرق، في القصر كما في المدينة، "المجالس"

(١) محمد أركون، لوي غارديه، الإسلام: الأوس والغد، ترجمة: علي المقلد، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، ط. ع. ١٠، ١٩٨٣م، ص ٧٣-٧٤.

المفتوحة على يد وزير أو أمير، وكان يلتقي في هذه المجالس المثقفون والعلماء فيتبارون في مناظرات فكرية وأحاديث وحوارات في كل فن. وإبان الحقبة العباسية العظيمة، ظلّت هذه المجالس مفتوحة للذميين من اليهود والمسيحيين والصابئة، وكان للفيلسوف المسيحي يحيى بن عدي مجلس يتردد إليه المسلمون. وأصبحت المجالس مؤسسة اجتماعية امتازت بها الحضرات الإسلامية، فيها نشأ "أدب السلوك" .. والحقيقة تُقال، إن الأخلاقيات فيها، سواء كانت قرآنية، أم موروثية عن الإغريق، كانت غير محترمة كثيراً. وفي المدونات الاجتماعية، عن تلك الحقبة، نجد الكثير من الاحتجاجات ضد "الإباحية" ورخص الأخلاق" السائدة في الكثير من مجالس الأدب. وقد سادت فيها على الأقل روح التسامح وتقبل الآخرين على عَلائهم.

هذه اللقاءات بين العلماء والباحثين جعلت من المجتمع الإسلامي، في عصره الكلاسيكي مجتمعاً منفتحاً. وقد امتدت هذه اللقاءات إلى الأسواق، حيث أصبحت تُعقد فيها حلقات عفوية يجتمع فيها المتعلمون، ورجال الدين، والطلاب مع أصحاب الحوانيت والباعة وأهل الحرف. وكان لهذه اللقاءات أثرها، أكثر من مرة، في سياسة الدولة.

بمجتمع منفتح يُقبل فيه العابرون من كل نوع وصوب. وكان حب السفر طاغياً في المجتمع الإسلامي الكلاسيكي. فالتجارة البرية والبحرية، بواسطة القوافل أو السفن، كانت مزدهرة. كما أن الحكمة القائلة: «اطلب العلم ولو في الصين» لم يكن حرفاً ميتاً، فالبحارة، والتجار والحجاج، والجغرافيون المُكَلَّفون من قبل الدول، والعلماء والفلاسفة والمتصوفون المتلهفون على معرفة معلم مشهور وبعيد كانوا يتجولون ويجتازون دروب العالم الإسلامي، بل ويغامرون أحياناً إلى ما وراء حدوده.

وبفضل الكتاب وصلتنا تقارير عن هذه الرحلات. وهي تدل على حرصهم على الموضوعية العلمية الخالصة، وقد تدل أحياناً على ولعهم بالغريب والعجيب،

وينقل الأساطير عن البلدان المجهولة، والأقاصيص والحكايا الشعبية اغتنت من هذه الأساطير.. وإلى الحقبة الكلاسيكية تعود حكايا الجن والكائنات الأسطورية التي تعمر قصة السندباد البحري وقصص ألف ليلة وليلة. وإلى هذه الحقبة أيضاً تنتمي دقائق الجغرافي المقدسي، وكتاب البيروني عن الهند وعلومها وحضارتها".

### خاتمة: السبيل إلى الخروج:

إن استعادة العقلانية الإسلامية لتلعب دورها مجدداً ضمن واقع المتغيرات "النوعية" المعاصرة، وليس بمنطق "التكرار" هي المدخل لإحداث "النهضة" التي يؤسس عليها استعادة "الدور الرسالي رحمة بالعالمين".

فهذه العقلانية تشكل معبراً باتجاهين متكاملين:

أولاً: إعادة النظر في فهم الموروث، بكل إيجابياته وسلبياته، ضمن رؤية تحليلية معرفية ومنهجية.

ثانياً: إعادة تحليل الحضارة الغربية وموقفنا منها، بكل سلبياتها وإيجابياتها.

ونسترفد هنا قولاً سديداً للمفكر العربي المسلم الليبي د. مصطفى التير: إن "العقلانية بمعنى توظيف القدرات لاكتساب المعرفة وتوصيلها ونشرها، ليست بالأمر الغريب عند العرب، وهي ليست غريبة كمفهوم، كما أنها ليست غريبة كوظيفة. "إن العقل ليس اكتشافاً جديداً في الثقافة العربية، ولا هو ثمرة الحضارة الحديثة الصاعدة، بل هو أكثر المفاهيم رواجاً في هذه الثقافة". ولكن الكيفية التي تستخدم بها القدرات العقلية تخضع لتأثير خصائص الثقافة في زمن ومكان معينين، وخصوصاً تلك الثوابت الثقافية التي تحدد خطوط سير الفكر وتحد من حرية انطلاقه، وهي ثوابت تستمد قوتها، وكذلك شرعيتها، من الدين ومن التراث ومن التاريخ، لذلك توجد عقلانيات مختلفة، ولبعضها قيود أشد صرامة من بعضها الآخر.

ونوع العقلانية هو الذي يحدد المسارات العامة التي يمكن أن يتحرك ضمنها

نمط التفكير، أي الأسلوب الذي يترجم من خلال نوع العقلانية السائد عند التعامل مع الواقع وحل المشكلات التي يواجهها. فبواسطة الأنشطة المتعلقة بنمط التفكير تبني المعارف وتُرتَّب الحقائق، وتكون جميع هذه نسبية ومستقلة عن الفرد وتخضع لمحكّات عملية في حالة سيادة العقلانية التجريبية، ولكن عقلانيات أخرى لا تكون مستقلة عن الفرد، كما أن مصداقيتها تكون في التطابق مع نسق معرفي محدد مسبقاً إلى دين أو إلى أيديولوجيا.

وعلى الرغم من إمكانية وجود أكثر من نوع من العقلانية في المجتمع نفسه وفي الوقت نفسه، إلا أن واحداً منها تكون له مكانة أرفع، وعند سيطرة العقلانية في داخل ثقافة معينة. وإذا فرضت هذه الثقافة سلطتها على ثقافات أخرى، فإن سيطرة نوع العقلانية هذه سيتجاوز حدود مجتمع الثقافة التي ظهر فيها هذا النوع أول مرة.

إن تجربة التحديث الأوروبية بشقيها الغربي والشرقي، تسيطر اليوم على العالم من أقصاه إلى أقصاه، وهي تجربة ترتبط بتطور المعرفة العلمية وتقدمها وتوظيفاتها الصناعية. لكن هذا لا يعني بالضرورة أنها التجربة الناجحة الوحيدة، ولا أنها تجربة خالية من العيوب ومن الآثار السلبية. وتقدم الوقائع العلمية أدلة ملموسة تشير بأصابع الاتهام إلى هذه التجربة وتحملها مسؤولية معاناة ملايين البشر ومسؤولية دفع العالم نحو أوضاع قد تؤدي إلى نهايته<sup>(١)</sup>.

إن ذلك يتطلب إصلاحاً كبيراً في المناهج التربوية والتعليمية والإعلام مع تفعيل دور مراكز البحوث المنهجية والفكرية جنباً إلى جنب مع الجامعات، حتى تؤدي رسالتنا لأنفسنا وللعالمين.

(١) مصطفى عمر التير، الدين والعقلانية ونمط تحديث التفكير العربي، ملاحظات مبدئية، ضمن (ندوة: الدين في المجتمع العربي)، مركز دراسات الوحدة العربية (و) الجمعية العربية لعلم الاجتماع، مطبوعة، بيروت، حزيران يونيو ١٩٩٠م، ص ٦٠٤ - ٦٠٥.

وَمَا أَنْ منظومة دول مجلس التعاون الخليجي تمضي باتجاه التحديث الحامل للعقلانية جنباً إلى جنب مع ترسيخ "الأصالة"، وتقوم علاقاتها الاجتماعية والسياسية على منطق القبيلة الممتدة" وليس النظام السلوكي "المغلق"، فإن للمثقف المسلم الملتزم دوراً أساسياً يجمعه إلى رجل الدولة وكذلك العلماء والفقهاء لوضع أسس جديدة ومعاصرة لهذا الدور الرسالي انطلاقاً من "مسؤولية الذكر":

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُشْكُرُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٤).

وهي مسؤولية إن لم تنجز بعد أن وفرَّ الله سبحانه لنا كل مقوماتها يمكن أن تؤخذ منا إلى غيرنا: ﴿ إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبِكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَسَتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التوبة: ٣٩)، وكذلك: ﴿ هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ (محمد: ٣٨)، وكذلك: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (التوبة: ١٩-٢٠).

وبالله التوفيق.

# رسالة الإسلام

## تجليات الحاضر وإمكانات مواجهة المستقبل

الدكتورة ميثاء الشامسي<sup>(\*)</sup>

يجب على المثقف العربي المسلم أن ينظر إلى الوقائع «من زاويتها الإنسانية الرحبة ليدرك دوره الخاص ودور ثقافته في الإطار العالمي»، وينتهي إلى الحوار مع ثقافة (الأخر)، حواراً يحفظ به وجوده، وينمي ثقافته، ليكون في مستوى التفاعل الحقيقي لا في مستوى الخضوع والاستسلام.

مقدمة: في أهمية الدراسة وموضوعها: -

يؤكد المؤرخون والمشتغلون بالدراسات الإنسانية على الدور الفاعل الذي لعبته الرسالة الإسلامية في تحقيق العديد من التغيرات والإنجازات الهائلة في مختلف المجالات في مجتمع شبه الجزيرة العربية، بل والمجتمعات العربية الإسلامية. وقد جنى الأفراد والجماعات ثمار هذه التغيرات وتطورت - على أثرها - الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والثقافية، بل وازدادت مكانة العالم العربي

(\* نائب المدير لشؤون البحث العلمي، جامعة الإمارات العربية المتحدة (دولة الإمارات العربية المتحدة).

الإسلامي قوة على الخريطة العالمية. لكن صورة الحاضر التي رسمتها التغيرات السياسية والتكنولوجية، في القرون الماضية بعامة وأوائل القرن الحالي بخاصة، تبرهن على أن أمور المسلمين قد تبدلت، وأن كياناتهم قد ضعفت، وأن واقعهم الاجتماعي أصبح مفككاً، وأن مكائهم الاقتصادية والسياسية، على الخريطة الدولية ليست متميزة، إذا ما قورنت بمكانة الآخرين الذين ينتمون إلى الثقافات الأوروبية عامة والثقافة الأمريكية خاصة.

وتثير هذه الأوضاع تساؤلات عديدة، حول الأسباب المؤدية لذلك؛ هل هي كامنة في الرسالة التي أتى بها الإسلام، أم في مضمون تلك الرسالة والتي تعكسها الثقافة الإسلامية بمقوماتها وخصائصها، أم في الممارسين لهذه الثقافة، والطرق التي يتعاملون بها، والمؤسسات التي تتكفل برعايتها وصيانتها، هذا ما ستجيب عليه هذه الدراسة من خلال استعراض لعدة موضوعات ترد في ثلاثة أقسام على النحو الآتي:-

**القسم الأول :** ونعرض فيه لطبيعة الرسالة الإسلامية ومضامينها، التي تجسدها الثقافة الإسلامية بمقوماتها المتميزة ومعالمها الفريدة.

**القسم الثاني:** ونعرض فيه لحاضر المجتمعات العربية الإسلامية والتحديات التي تواجه الإسلام والثقافة الإسلامية.

**القسم الثالث:** ونعرض فيه لإمكانات وسبل تقوية دعائم وبناء الثقافة الإسلامية لتغيير الواقع ومواجهة التحديات الحالية والمستقبلية.



## القسم الأول

### في مضمون الرسالة ومعالم الثقافة الإسلامية

يشار إلى الإسلام، باعتباره رسالة سماوية أتت للبشرية جمعاء، وإن كانت الجزيرة العربية مهدها الأول، لكنها رسالة بأفكارها ومعتقداتها ونظمها السياسية والاجتماعية والاقتصادية طرحت نفسها باعتبارها دين ونهج كل البشرية دون استثناء؛ أي أنها كانت ترى في العالم كله ميدانها وفي الإنسانية روحها ورسالتها، وبالتالي فقد عولمت الفكر الديني، الذي بدوره عولم الاقتصاد والسياسة.

فقد كان من تقدير الله وحكمته أن تكون هذه الرسالة خاتمة الرسالات لما تتم به من صلاح كامل للبشرية كلها. ومن تقديره وحكمته أيضاً أن تكون الرسالات التي سبقت الإسلام قد اقتصرت في نزولها على أمة معينة بذاتها، وخلال مدة من الزمن محدودة، وذلك في ضوء الملائمة التي تستدعيها ظروف الأمة وأحوالها في زمن من الأزمان دون غيره. لكن رسالة الإسلام قد قدرت تقديرًا ربانياً محكماً لتناسب الأحوال والظروف كافة، ولتلائم الحاجات والمقتضيات البشرية طيلة العصور والأزمان. وليس لأحد بعد ذلك أن يساوره الشك حول صلاحية الإسلام باعتباره خاتم الأديان، ذلك أن هذا الدين بطبيعته الشاملة المرنة يحتوي على أصول المسائل جميعاً، فلا يقف عاجزاً أمام المشكلات، ولا يعزب عن تقديره وشموله أي معني من معاني الحق والخير في العقيدة أو الأخلاق أو التشريع. وعلى ذلك، فقد احتوى

الإسلام عناصر الإصلاح التي تيسر تطبيقه والعمل به في كل زمان، ولكل أمة على وجه الأرض<sup>(١)</sup>.

وللإسلام ثقافة تعد نتاجاً لعقيدة متينة مترابطة ولفيوض عظيم من الفقه الشائع الخصب، الذي يشمل الحياة برمتها مع الاحتفاظ بحق الاستفادة من الحكمة وحقائق المعرفة والعلم أني وجدت، ولذا توصف الثقافة العربية الإسلامية بأنها عربية في لغتها، إسلامية في جذورها، إنسانية في أهدافها، وهي شأن كل ثقافة، تتكون من مقومات أساسية فكرية وروحية، أهمها العقيدة، وهي الإسلام، واللغة العربية وآدابها والتاريخ والتراث ووحدة العقلية والمزاج النفسي<sup>(٢)</sup>.

والإسلام يقدم نسقاً ثقافياً متكاملأً يتحدد بمقتضاه نظرة الإنسان إلى نفسه وإلى ثنائية تكوينه من جسم وروح، وأن الروح من أمر الله، وأن للحياة البشرية قدسيته باعتبار الروح وديعة من الله في الإنسان ولا بد من المحافظة عليها، إضافة إلى النظرة إلى الكون، ونظرة الإنسان إلى الخالق، والنظرة إلى الآخرين وبالذات إلى أتباع الديانات السماوية الأخرى، فإذا كان القرآن الكريم ينص على أن المسلمين هم خير أمة أخرجت للناس، فإنه ينص في الوقت ذاته وفي سورة البقرة على أنه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: ٢٥٦)<sup>(٣)</sup>.

(١) أمير عبد العزيز، دراسات في الثقافة الإسلامية، مدخل إلى الدين الإسلامي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م، ص ٢٠٧.

(٢) عبد العزيز التويجري، الثقافة العربية والثقافات الأخرى، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٩٨م، ص ١١.

(٣) أحمد أبوزيد، «الإطار الاجتماعي والثقافي للمجتمع العربي»، في: المجتمع العربي، الطبعة الأولى، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، ١٩٨٩م، ص ٤٥٧.

والإسلام دين حياة ودنيا بقدر ما هو دين عقيدة وآخرة، وهي أمور تنعكس بالضرورة في المجتمع العربي المعاصر الذي يؤلف المسلمون حوالي ٩٠% من سكانه، فالإسلام ليس مجرد دين أو عقيدة بالمعنى العام الشائع البسيط.. كما أنه ليس مجموعة من القواعد السلوكية التي تنظم حياة الإنسان والمجتمع، وإنما هو أسلوب كامل للحياة يصل تأثيره إلى جوانب الوجود الإنساني كلها ويصبغها بصبغة خاصة متميزة... إنه يقود حركات الإنسان ويوجهها في كل مضارب الحياة: الفردية منها والاجتماعية، المادية منها والمعنوية، الأخلاقية منها والاقتصادية والقانونية والثقافية، القومية منها والدولية على السواء<sup>(١)</sup>.

كما أن الإسلام ثقافة وحضارة معاً، أي أنه نظام قانوني كامل وشامل، كما أنه نسق اقتصادي وطريقة للعمل وأسلوب للحكم والإدارة، فهو يضع قوانين محددة للسلوك والتصرف في الحياة اليومية وتوجيهات للملبس والمأكل والصحة العامة والعناية حتى بجسم الإنسان؛ وهي كلها أمور ومسائل لا توجد في غيره من الشرائع - على الأقل بهذا القدر من الوضوح - ولذا فإن الإسلام يبدو مسيطراً تماماً على حياة الناس بما في ذلك (التقدميون) و (المتحررون)؛ وذلك لأنه ثقافة وحضارة وأسلوب للحياة وطريقة للتعامل بقدر ما هو نسق من المعتقدات وطريقة للعبادة<sup>(٢)</sup>.

ومن الصعب إلى حد كبير الفصل في التجربة الإسلامية بين ما هو ديني وما هو غير ديني، لأن تعاليم الدين تتغلغل في كل جوانب الحياة في المجتمع

(١) أبو زيد، مرجع سابق، ص ٤٥٥

(٢) نفسه.

العربي والإسلامي، كما أن الدين يوجه التصرفات الفردية والسلوك الجماعي على السواء. وأفضل مثال لذلك هو تدخل الدين في تنظيم العائلة والقرابة والزواج وما يترتب عليها من حقوق وواجبات ومسؤوليات والتزامات في حالي الحياة والموت<sup>(١)</sup>، هذا وقد تبلورت وتجمدت هذه الخصائص الفريدة للإسلام في عديد من المقومات التي غيرت الثقافة العربية الإسلامية والتي تبدو فيما يلي:-

١- تتسم الثقافة العربية الإسلامية أساساً بسمتين: سمة الثبوت فيما يتعلق بالمصادر القطعية، وما جاءت به من عقائد وتشريعات وقيم ومناهج، وسمة التغيير فيما يتعلق باجتهادات المسلمين وإبداعاتهم القابلة للصواب والخطأ، وبالتالي الاختلاف، فالجانب القطعي في الثقافة العربية الإسلامية يتسم بما يتسم به الإسلام من خصائص بصفته ديناً ومنهجاً للحياة. وتتجلى هذه الخصائص في العالمية، والشمولية، والوسطية، والتنوع في الوحدة، والرؤية والتوازن<sup>(٢)</sup>.

٢- والقرآن الكريم يُعتبر المصدر الأساس للثقافة العربية الإسلامية بفضل ما ورد فيه من تعاليم دينية وأخلاقية واجتماعية، ولكونه صالحاً لكل زمان ومكان ومسايراً لمتطلبات كل عصر ومستجداته، كما تشكل السنة النبوية المصدر الثاني الأساس للثقافة العربية الإسلامية. كما اعتمد المسلمون، في هضمتهم الفكرية والعلمية والحضارية على القرآن ودعوته، على سنة نبيهم ﷺ

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) عبد العزيز السويجري، الإسلام والتعايش بين الأديان في أفق القرن الحادي والعشرين، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٩٨م، ص ٩.

بعد أن جمعوها ودونوها وفصلوا أبوابها، واستثمروها في جهودهم العلمية ومناهجهم المعيشية. وبذلك تكون الثقافة العربية الإسلامية المنطلقة أساساً من القرآن والسنة، ثقافة متفتحة، داعية إلى التعايش والحوار والتفاهم<sup>(١)</sup>. ومعنى ذلك أنها ليست حضارة محصورة في جنس واحد من بني الإنسان أو في مجموعة أجناس وذلك تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨).

والواقع التاريخي يزيد هنا المعنى تأكيداً، فقد وسَّعت هذه الحضارة سكان الدنيا كلها بالرغم من اختلاف عقائدهم وأنماط حياتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتعدد أجناسهم ولغاتهم، سواء من دخل منهم في دين الإسلام أم بقي في ظل الحضارة الإسلامية على دينه القديم، والدليل الواضح على عالمية الحضارة الإسلامية هو أن كل البيئات والشعوب التي عاشت في ظلال هذه الحضارة قد استطاعت أن تطور حياتها معنوياً ومادياً تطوراً واضحاً، وترتقي بجميع مكونات هذه الحياة رقياً كبيراً، في حين أنها كانت تعاني من تخلف كبير في حياتها الروحية والعقلية والاجتماعية<sup>(٢)</sup>.

٣- وعالمية الإسلام تجعل الثقافة والحضارة الإسلاميتين منفتحتين على حضارات الأمم، ومتجاوبتين مع ثقافات الشعوب، مؤثرتين ومتأثرتين. إن الإسلام ينكر (المركزية الحضارية) التي تريد العالم حضارة واحدة، وتسلك

(١) التويجري، المرجع السابق، ص ١١.

(٢) مصطفى محمد طه، "حول خصائص الحضارة الإسلامية"، الفكر العربي، ص ٢٠، ع ٩٨، خريف ١٩٩٩م، ص ٢٨.

سبل الصراع - صراع الحضارات - لقسر العالم على نمط حضاري واحد؛ لأن الإسلام يريد العالم (متنديات حضارات) متعددة ومتميزة، ولكنه مع ذلك لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزية الحضارية القسرية، إنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند في كل ما هو مشترك إنساني عام<sup>(١)</sup>.

وإذا كان الإسلام ديناً عالمياً، فإنه، في جوهر رسالته وحقيقة مبادئه، لا يعنى أيضاً (المركزية الدينية)، التي تريد العالم ديناً واحداً، فهو ينكر هذه المركزية الدينية، عندما يرى في تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله في الاجتماع الديني، لا تبديل لها ولا تحويل<sup>(٢)</sup>.

٤- ومن أشد ما يبغضه الإسلام ويندد به ذلكم الانكماش والانحسار دون الانتهاال من زاد العلوم الثابتة النافعة، وهو انحسار ضار منكماش سيؤول بأهله إلى أوضاع الجهالة والسلبية والتخلف عن ركب الحياة السريع. كما لا يرضى الإسلام عن الإدبار عن العلم والاستفادة من معانيه وحقائقه، ولا يستطيع المدير عن ذلك أن يتذرع بأية ذريعة، وهو في ذلك لا يعدو أن يكون متخاذلاً جهولاً، فأن من الحقيقة أن يدعو الإسلام للاستفادة من معطيات العلوم على تعددها وكثرتها ليكون ذلك باعث قوة للمسلم وهو على طريق العبادة لله.

(١) التوجيهي، مرجع سابق، ص ١٤.

(٢) نفسه.

وبذلك فإن الثقافة الإسلامية غير منكمشة على نفسها فتنبذ ما تمخضت عنه أدمغة البشر وما تفتقت عنه أذهان الناس من أقوال وآراء سديدة جدرة بالتقدير، ولكنها تنظر لكل حكمة نافعة ورأي سديد بمنظار من التقدير والاحترام<sup>(١)</sup>.

٥- تجمع الثقافة العربية بين الجانبين الروحي والمادي، وهي قابلة للتطور؛ فمن المعروف أن رسالة الإسلام هي خاتمة الرسالات والأديان، ورسوله الكريم ﷺ خاتم الرسل، وحضارته، المؤسسة على هذه الرسالة، استوعبت كل تطورات الحياة الإنسانية وما استجد في حياة الإنسان من تطورات، وهي كذلك لا تقف جامدة أمام متغيرات الحياة البشرية في واقعها الفردي والاجتماعي، عاجزة عن الفصل في القضايا المتجددة لهذا المجتمع البشري، في بيئاته المختلفة، المتنوعة في نشاطها الإنساني وأنظمة حياتها، وعلى هذا الأساس أقام المسلمون صرح الحضارة الإسلامية بمعطيها الروحية والمادية، مما جعلها تحقق للإنسانية أقصى درجات طموحها في تلك العصور التي كان فيها العالم من حولها يعيش خواءً روحياً وأخلاقياً وتخلفاً واضحاً في صناعة الحياة، مقصراً عن بلوغ الغايات الإنسانية السامية التي بلغت الحضارة الإسلامية في فترة قصيرة من عمر الزمن، حيث كان كل نشاط مادي في ظلها له غاية أخلاقية، وفيه جانب روحي<sup>(٢)</sup>.

(١) أمير عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢) مصطفى محمد طه، مرجع سابق، ٢٥٢.

٦- تتميز الثقافة الإسلامية بالتوازن والشمولية: أما التوازن في الثقافة الإسلامية فإنه يعني أن الإسلام بثقافته يحرص على مراعاة هذه الجوانب جميعاً، فلا يعتمد جانباً ولا يركز على مطلب في الإنسان دون غيره ولكنه يوزع اهتمامه وحرصه على الجوانب كلها في آن واحد، من غير محاباة أو تمييز مثلما تفعله المبادئ والأنظمة الوضعية التي صنعها البشر، وهذه إحدى الحقائق التي أكتسبت الإسلام خاصية الصلاح لكل زمان ومكان<sup>(١)</sup>.

أما الشمولية فتشير إلى أن الإسلام بثقافته يتناول شتى مناحي الحياة للإنسان، ويتناول كافة الجوانب الرئيسية الأصلية للبشر، فهو يتناول كلا من الجانب البدني والنفسي والروحي والعقلي.

وبعبارة أخرى، فإن الإسلام يجمع جمعاً متسقاً وثيقاً بين حياة الإنسان المادية والروحية، فلا يذر الإسلام جانباً من جوانب الإنسان ليكون مهملًا بغير حساب أو رعاية، ولكنه ينظم جميع هذه الأركان التي يتألف من مجموعها الإنسان ليكتمل بناؤه الشخصي<sup>(٢)</sup>.

(١) أمير عبد العزيز، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٧.



## القسم الثاني

### الثقافة الإسلامية بين الازدهار والاضمحلال

كان للإسلام وثقافته المتميزة دور بارز في نهضة المسلمين وتفوقهم على غيرهم، كما لعب دوراً مهماً في ازدهار حضارتهم وتغيير واقعهم وتقوية دولتهم، فلم تستطع الحضارة العربية الإسلامية أن تحقق ما وصلت إليه من تقدم وازدهار إلا باعتمادها على الدين الإسلامي، فبفضل الإسلام توحدت قبائل شبه الجزيرة العربية، وانطلق العرب في فتوحاتهم حاملين معهم رسالتهم، ولم يكذب ينقضني أكثر من قرن واحد على وفاة النبي ﷺ حتى أصبح للعرب دولة امتدت امتداداً كبيراً من شواطئ المحيط الأطلنطي غرباً إلى بوادي الصين شرقاً، ومن سواحل البحر المتوسط شمالاً حتى شواطئ المحيط الهندي جنوباً<sup>(١)</sup>.

ولم يكن دور العرب قاصراً على التوسع في تلك الرقعة الفسيحة من العالم المعروف آنذاك فحسب، بل في منحهم تلك البلاد حضارة جديدة أخذت بنصيب من الحضارات السابقة لها. وأضافت إليها.. فعلى الرغم من الانقطاع أو عدم التواصل الحضاري بين تلك البلدان وما كان لها من تراث حضاري، فإنها مع ذلك لم تفقد طاقاتها الإبداعية التي بدت في ما اتسمت به الحضارة العربية الإسلامية من تفوق<sup>(٢)</sup>.

(١) جمال زكريا قاسم، ١٩٨١، "منجزات الحضارة الإسلامية" في: المجتمع العربي، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى، ١٩٨٩م، ص ٢٦٥.

(٢) نفس المرجع السابق.

كما أن الحضارة الإسلامية استطاعت أن تحقق الكثير من المنجزات في مختلف المجالات المادية والفكرية، وقد حدث ذلك حين كانت معظم أنحاء القارة الأوروبية تعيش عصور التأخر والاضطراب. وما كادت الأمور تستقر حتى أقبل الأوروبيون على دراسة المصنفات العربية، والتعرف من خلالها على أسس النهضة العربية الإسلامية. وترتب على ذلك تحرير أذهان الأوروبيين من أوهام العصور الوسطى، مما مهد السبيل لعصر النهضة الأوروبية الحديثة. ومما يؤسف له أنه في الوقت الذي أخذ فيه الأوروبيون يعكفون على دراسة منجزات الحضارة العربية الإسلامية والإفادة منها، كانت النكبات تتوالى على الأمة العربية الإسلامية حتى أنها أقبلت على مطالع العصور الحديثة وهي تعاني قدراً كبيراً من الركود والتأخر بينما بدأت أوروبا عصر نهضتها وتقدمها<sup>(١)</sup>.

ونصل إلى واقع مؤسف مؤداه أن الهيمنة الغربية اتسعت على باقي الشعوب الأخرى غير العربية والإسلامية في سائر القارات، وقد أدى نجاح هذه السيطرة الغربية إلى منح نفسها زيادة ثقة بالنفس إلى درجة وصلت إلى الغرور والتعالي على الآخرين، انطلاقاً من أن نجاحهم وتقدمهم هذا يشير إلى مدى تفوق ثقافتهم على غيرها من الحضارات المنافسة لها، وبوجه خاص الحضارة والثقافة الإسلامية. وواقع الأمر أن التنافس قد بلغ مداه منذ احتكاك الحضارتين ووصل إلى درجة التحدي أو الصراع، الذي يأخذ أشكالاً مختلفة، إما بصدام الحروب، أو الهيمنة على الأسواق، أو الغزو بالثقافة والأفكار<sup>(٢)</sup>.

(١) جمال زكريا قاسم، المرجع السابق، ص ٢٩٠-٢٩١.

(٢) صلاح عبد المتعال، مستقبل التنمية... نحو بديل حضاري إسلامي، دار الشرق الأوسط للنشر، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١٢.

كما أن الثقافة العربية الإسلامية اتخذها بعض راسمي سيناريو المستقبل عدواً عندما اختفى الصراع الأيديولوجي بين الغرب والاتحاد السوفيتي، كان الصراع شرط لوجود الولايات المتحدة، ولعل هذا السيناريو أخذت عناصر تنفيذه تنهياً - وإن كانت مزيفة - لتلويث العالم الثقافي، كما لُوِّث عالم البيئة، فإنهم يريدون أن يوقدوا ناراً للحرب الحضارية كما أوقدوها من قبل وسموها بالحرب الباردة الأيديولوجية<sup>(١)</sup>.

فقد حاول "هنتنغتون" أن يثبت أن نهاية الحرب الباردة التي كانت تغذي الصراع الأيديولوجي لا تعني نهاية الصراع، ولكن نقل الصراع إلى ساحة الثقافة. وبدل أن يكون خط المواجهة، كما كان في حقبة الحرب الباردة، بين أنصار العقائد الاجتماعية والسياسية المتعارضة، بصرف النظر عن ثقافة هؤلاء الأنصار، أصبح هذا الخط يمر أساساً بالاختلافات الثقافية، وأصبح الصراع بين أتباع الثقافات المختلفة هو المنبع الرئيس للحروب المعاصرة، مشيراً إلى ما يقول به من التحدي المتزايد الذي يظهره العالم الإسلامي للثقافة والسياسة الغربية .

وقد قصد هنتنغتون من هذا التحليل أن ينبه الغرب إلى أن الصراع لم ينته في العالم، بل إنه بالكاد قد بدأ، على الرغم من أنه لم يعد صراعاً سياسياً اقتصادياً وإنما تحول إلى صراع القيم والمبادئ والمفاهيم والرؤى، أي الثقافات بالدرجة الأولى. وقد أشار بشكل خاص إلى خطر الإسلام الزاحف بثقافته وعقائده

(١) عليان الطالبي، "نظرة نقدية للتمية الثقافية في البلاد العربية"، في: المسلم المعاصر، ع ٨٧، ص ٢٢، فبراير - أبريل ١٩٩٨م، ص ١٨٠.

المتطرفة، كما أشار إلى خطر التحالف الممكن بين عالم الإسلام والعالم الصيني الصاعد أيضاً<sup>(١)</sup>.

وبعد أن يعترف "فوكوياما" بأن الخطر الإسلامي يمثل الخصم الإيديولوجي الوحيد المتبقي في مواجهة إيديولوجية النظام العالمي الجديد، الليبرالية- الديمقراطية، التي يراها مزهوة بانتصارها على الشيوعية والثيوقراطية والأرستقراطية والملكية والاستبدادية والفاشية والنازية، يرد هذا الخطر إلى خاصية النظام الفكري للإسلام أكثر مما يعتبره ترجمة للقوة السياسية أو العسكرية، فدعوة الإسلام - كما يؤكد فوكوياما- ذات طابع شمولي، وهي تتوجه إلى جميع الناس كبشر وليس باعتبارهم أعضاء في مجموعة إثنية أو قومية خاصة فحسب.

والإسلام في الواقع، وكما يرى فوكاياما، هزم الديمقراطية - الليبرالية في أجزاء متعددة من العالم الإسلامي، وهو يشكل تهديداً كبيراً للممارسات الليبرالية، حتى في البلدان التي لم يستطع فيها استلام السلطة مباشرة. فإذا كان الإسلام قادراً هكذا على منع انتشار الليبرالية- الديمقراطية في العالم الإسلامي، فإن خطره على النظام العالمي سوف يأخذ منحى أكثر خطورة: تهديد النظام العالمي في عقر داره<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا السياق، يصبح الإسلام والإرهاب وجهين لعملة واحدة، ذلك أن الدعوة إلى القتل فكرة ثابتة لا يعرف المسلمون التلفظ بغيرها، كما يقول

(١) برهان غليون، "العولمة وحوار الثقافات"، في: مستقبل الثقافة العربية في القرن الحادي والعشرين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٩٨م، ص ٨.

(٢) علي الشامي، "الإسلام في النظام العالمي" في: شؤون الشرق الأوسط، ع ٣٤، أكتوبر، ١٩٩٤م، ٣٣-٣٤.

روفيل، مضيفاً أنه "لا يمكن أن نصف بالتسامح ديانة يتساوى فيها الاختلاف مع الإعدام.. إن الإسلام هو مصدر تسعة أعشار الإرهاب العالمي الرسمي"<sup>(١)</sup>.  
ومن هنا نجد أن الثقافة العربية الإسلامية تواجه أخطاراً وتحديات عديدة ناجمة عن آثار العولمة الثقافية، بيد أن آثار العولمة الثقافية لا تقتصر على توسيع إمكانيات التفاعل الثقافي بين الثقافات التاريخية الكبرى، إنها تحمل أيضاً أخطاراً كبيرة وتحديات لن يكون بمقدور جميع الثقافات مواجهتها والرد الإيجابي عليها..  
ومن هذه التحديات:-

١- تعميق دينامية السيطرة الثقافية، أو الإمبريالية الثقافية، وتأکید سيطرة وقيم الثقافات الكبرى التي تنجح في استخدام التقنيات الاتصالية الحديثة وتحتل الفضاء العالمي الجديد.

٢- تفجير أزمة الهوية ومشكلة التعرف على الذات، بل تحديد الذات؛ فمع تزايد نفوذ الثقافات الأقوى في فضاء مفتوح يتضاءل وزن الثقافات الوطنية ونفوذها<sup>(٢)</sup>. ذلك لأن التعرض لسيل عارم وفيض هائل من أنواع السلوكيات والقيم الغربية عبر القنوات الفضائية، والإنترنت، وما يترتب على ذلك من تأثير شديد بها، بل تبني لما هو سلبى ومغاير للقيم العربية الأصلية، الأمر الذي يندر بأخطار اجتماعية ويهدد معالم الهوية الثقافية للأسرة العربية عامة والأجيال الشابة (من النوعين) خاصة.

٣- يتخذ "الغزو الثقافي" أشكالاً أخرى لا تقل عن ذلك خطورة مثل محاولات (تفريغ) العالم العربي من كفاءاته العلمية والإبداعية عن طريق

(١) نقلاً عن الشامسي، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٢) برهان غليون، مرجع سابق، ص ١٣.

تشجيع هذه الكفاءات على الهجرة إلى الغرب، وهي الظاهرة التي تعرف الآن باسم (هجرة العقول) أو (هجرة الأدمغة)، أو عن طريق تفرغ الثقافة العربية الإسلامية ذاتها من مضامينها وإنجازاتها عن طريق التشكيك في قدرات هؤلاء العلماء والمبدعين والمفكرين العرب والتهوين من شأن إنجازاتهم وقيمتها وأصالتها، بل ومحاولة رد أي نوع من الإبداع الثقافي المتميز إلى تأثير هؤلاء المبدعين بالثقافات غير العربية أو حتى انحذارهم من أصول غير عربية. وهذه الدعاوى تجد لها صدى كبيراً عند كثير من المثقفين في العالم العربي، فيرددونها دون إدراك منهم لحقيقة الأهداف الخطيرة التي ترمي إليها<sup>(١)</sup>.

كما أن الواقع الاقتصادي والاجتماعي العربي يعاني من مشكلات عديدة تبدى فيما يأتي:-

١- إبطاء في الأداء التنموي، تعكسه المؤشرات الإحصائية والديموجرافية المختلفة، وتبدو في انخفاض معدلات الإنتاجية في القطاعين الزراعي والصناعي، ورجوح كفة الواردات عن الصادرات، وانخفاض معدلات الدخول الفردية، وتدهور المستويات المعيشية، وتفاقم العديد من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية في مختلف القطاعات المجتمعية والريفية والحضرية.

٢- كثرة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، وعلى رأسها التلوث البيئي، والبطالة، والفقر، والتفكك الأسري، وارتفاع معدلات الجرائم وتنوعها، وتدهور الخدمات الأساسية وعدم القدرة على إشباع الحاجات الأساسية للأفراد: التعليمية والثقافية والاجتماعية.

(١) أبو زيد، مرجع سابق، ٤٦٥.

٣- تحول الدول العربية من منتجة إلى مستهلكة، مع ازدياد واتساع الفجوة بينهما وبين الدول المتقدمة، علمياً وتكنولوجياً واقتصادياً.

٤- تهديد الكيان الأسري العربي، من حيث مقوماته ودعائمه وقيمه التي تحكم علاقاته، والمعايير التي تحدد الوظائف المختلفة التي يؤديها. يضاف إلى ذلك كله أن الأمة العربية الإسلامية تواجه العديد من التحديات الأخرى، لعل من أبرزها تلك المتعلقة بنتائج الثورة العلمية والثقافية، فإن العلاقة بين التعليم العالي والتقدم التقني ذات اتجاهين:

فمن جهة يؤدي تطور التقانات إلى تغيير في محتويات التعليم والتكوين (على الأقل في الجزء المتعلق منها بتلبية حاجات سوق العمل) وفي طرقها وأدواتها. ومن جهة ثانية، بتلبية تطور التعليم العالي بدوره إلى تغيير في تطور التقانة واهتماماتها ومساراتها بل وفي سرعة تطبيقها على وضع خطة بحثية متممة للخطة الشاملة والمتكاملة، تركز على أهداف وبرامج ومشاريع التنمية العربية وليس نقلاً وتقليداً لعمل البحث والتطوير الأجنبي وغاياته وأهدافه. وضمن هذه الخطة يجب أن يتم تغيير دور العلم في التنمية، وتسخيره لخدمة جهة التنمية، وأن ترسم برامج البحث العلمي وتعمل لتبدأ في المختبر وتنتهي بالاستعمال<sup>(١)</sup>. وإذا كان هذا هو واقع المجتمع العربي الإسلامي المتردي، فهل أسبابه راجعة إلى الإسلام وثقافته؟ وهل هناك من سبيل لتغيير هذا الواقع ومواجهة تلك التحديات؟ هذا ما سنعرضه في القسم القادم.

(١) ميثاء الشامسي، أولويات البحث العلمي في الوطن العربي، ورقة مقدمة إلى مؤتمر أولويات البحث العلمي والتكنولوجيا في الوطن العربي، المشاركة، دولة الإمارات العربية المتحدة، مارس ٢٠٠٢م، ص ١٤.

## القسم الثالث

### الثقافة الإسلامية بين إمكانات تغيير الواقع ومواجهة

#### تحديات المستقبل

كشفت الحقائق التي عرضنا لها في القسمين السابقين عن جوهر الرسالة الإسلامية ومضمونها الذي تعكسه الثقافة الإسلامية بمقوماتها المتميزة وخصائصها الفريدة، ومعالمها المتعددة، وأن هذه الرسالة قد استوعبها المسلمون الأوائل وحملوا لواءها باقتدار، ونفذوا مضامينها بإخلاص وأمانة، فكُتِب لهم الاستعلاء والسيادة، ليست فقط الإقليمية بل والعالمية. كما تمكنوا من إقامة كيان اجتماعي متماسك، وأسسوا دولة قوية ذات نظم سياسية واقتصادية متميزة كفلت للأفراد والجماعات العيش في استقرار وأمن، ومكنتهم من التعامل بتسامح دون تعصب مع الآخرين، كما استطاعوا، من خلال التوظيف الواعي لمصادر الثقافة الإسلامية، أن يحرزوا تقدماً هائلاً في المجالات العلمية والفكرية التي أثرت في الحضارات والثقافات الأخرى.

ولكن صورة الحاضر، تبدو مغايرة تماماً، ذلك لأن الواقع يرهن على أن المجتمعات العربية الإسلامية تعاني من مشكلات عديدة، اجتماعياً واقتصادياً، وأن هويتهم أصبحت مهددة، وأن قوتهم تبدلت إلى ضعف، وتحولوا من منتجين إلى مستهلكين، ومن مبدعين إلى تابعين، خاصة في المجالات العلمية والتكنولوجية، كما أنهم في مآزق خطير لمواجهة تأثيرات العولمة ومضامين الثقافات الأخرى، وفي وضع يتعين عليهم الدفاع عن هويتهم وتصحيح صورة



الإسلام التي رسمها الغرب واصفاً الإسلام بأنه دين التعصب والإرهاب والتطرف... فهل يمكنهم تحقيق ذلك؟ هذا ما سنعرض له في الفقرات القادمة.

وتقتضي الموضوعية تأكيد عدة حقائق، هي:

- أن أسباب التردّي والمشكلات التي تعاني منها المجتمعات العربية لا ترجع إلى الإسلام، كما أنها ليست متعلقة بمضمون الثقافة الإسلامية، خاصة ما يتعلق بالنسق الفكري كما تعكسه القيم الإيجابية التي جاء بها الإسلام لدعم وتغيير البناء الأسري والاقتصادي والسياسي، ولكن في التفريط في هذه المضامين والتهاون في ممارستها والامثال لها، قولاً وعملاً.

- إن الأسباب لا ترجع إلى مصادر الثقافة الإسلامية، فهذه المصادر - القرآن والسنة - خالدة، وصالحة لكل زمان ومكان، وبفضل العمل بها تمكن المسلمون الأوائل، كما أسلفنا، من تحقيق نهضة شاملة وتغييرات مذهلة... ولكن السبب يرجع إلى هجر هذه المصادر والاعتماد على مرجعيات فكرية واردة من مجتمعات أخرى كموجهات للفكر، ومحددات للسلوك الفردي والجماعات ومنظمات لشؤون المجتمع وسياساته.

- الأسباب المؤدية إلى تشويه صورة الإسلام، ليست راجعة إلى رسالة الإسلام ومضمونها، فالإسلام - كما أسلفنا - ليس دين "إرهاب" ولا يدعو إلى التعصب، بل دين تسامح يدعو إلى المحبة والسلام، ولكن الأسباب ترجع إلى عدة عوامل منها " الأمية الدينية " وتدهور أحوال بعض الجماعات المتطرفة، اقتصادياً واجتماعياً، وتفاقم الصراعات الطائفية والإثنية، كما ترجع - في المجتمعات الأوروبية والأمريكية - إلى الجهل بأمور الإسلام، وعدم التعمق في فهم

ثقافته واستيعاب خصائصها المتميزة، وإلى الحقد الديني الكامن في صدور بعض المفكرين بل وعامة الأفراد والجماعات في هذه المجتمعات.

- أسباب التردّي الاقتصادي في المجال التنموي وضعف أدائه، والمشكلات المتصلة بالهوية الثقافية، ليس مرجعها إلى طبيعة الإسلام وثقافته، وإلا فكيف حافظ المسلمون الأوائل على هذه الهوية وتمسكوا بها؟

إن الأسباب عديدة منها: عدم تطبيق ما جاء به الإسلام لتحقيق النهضة الاقتصادية والاجتماعية، عن طريق التفكير والإبداع، وحسن الاستغلال لمختلف الموارد، واحترام العمل، وتقدير الإنجاز والإنتاج، وعدم الإفراط في الاستهلاك، وحسن التخطيط، والحفاظ على الممتلكات وصيانة الثروات، والأهم من ذلك التأهيل للموارد البشرية عن طريق العلم واكتساب المعرفة على المستوى النظري والتطبيقي. هذا إضافة إلى قيم التكامل الاجتماعي، والتعاون بين الأفراد والجماعات، وبين المجتمعات بعضها بعضاً، والمساواة، والعدل الاجتماعي، والأمانة، والصدق والإخلاص ... الخ

يضاف إلى ذلك: غياب وتقاعس دور المؤسسات التربوية والإعلامية والثقافية، وتخطيط برامجها على أسس إسلامية رشيدة، تجعل الأفراد على صلة بدينهم وتزكي نفوسهم، وتربي عقولهم، وتقوي عقيدتهم. ويدعم رأينا هذا ما أكده "الطالبي" <sup>(١)</sup> حين أشار إلى أننا في العالم الإسلامي ينبغي أن نجد وسائل الاتصال الحديثة، وهي غربية في مصدرها، لخدمة ثقافتنا الذاتية، أما إذا كان

(١) عليان الطالبي، مرجع سابق، ص ٧٢.

استخدامنا لها لنشر الثقافة الغربية، فقد نكون قد شاركنا في هدم ثقافتنا بأنفسنا، وهذا الذي نراه للأسف في أغلب قنواتنا الفضائية وغيرها من وسائل إعلامنا والتي لا تقدم إلا الأشياء الهزيلة. ومستقبل الإسلام يتوقف على مدى اتصالنا بمصادره، ومدى تغذية نفوسنا وعقولنا بها، باعتبارها طاقة دافعة لحركة التاريخ والحضارة. ونظراً لقوة وسائل العولمة الغربية فإن التاريخ يتطلب منا جهداً مضاعفاً، وجهاداً متواصلًا من أجل ألا نضيع في غبار التاريخ، فإن لم نتفوق في هذه العولمة فلا أقل من أن نحفظ ماء وجوهنا، والضروري من أصول ثقافتنا.

- لهذه الأسباب، نؤكد أن صورة الحاضر القائمة والمقلوبة، لم يرسمها الإسلام ولا ثقافته المتميزة، وإنما الطريقة التي وظفت بها مبادئ الإسلام ومضامينه في رسم هذه الصورة.

- ولذا فإن على المجتمعات العربية الإسلامية، أفراداً وجماعات ومؤسسات، مهمة تغيير هذا الواقع ومواجهة التحديات الحالية والمستقبلية، سواء على المستوى الإقليمي أو العالمي، مستلهمين ومسترشدين بما جاء به الإسلام من مبادئ، وما تتضمنه ثقافته من مقومات وخصائص، سبق أن أشرنا إليها في القسم الأول.

ومن بين هذه التحديات التي ينبغي مواجهتها:

- الدفاع عن الهوية الثقافية، والتمسك بها، والمحافظة عليها.

- تعديل الأداء التنموي، وإيجاد حل للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية

التي تواجهها مجتمعاتهم.

- ضرورة التفاعل مع الثقافات الأخرى، والتعامل مع متغيرات العولمة

الاقتصادية والتكنولوجية.

- ضرورة تصحيح الصورة المشوه التي يرسها "الغرب" " عن الإسلام".

ويبقى السؤال: كيف يمكن الاستفادة من إيجابيات الثقافة الإسلامية في

تحقيق ذلك؟

الإجابة على هذا السؤال تحتاج إلى مقالات مستقلة، ولذا فإننا سننتقى

بعض القضايا لإلقاء الضوء عليها في الفقرات القادمة.. وتبلور هذه القضايا

فيما يلي:-

أولاً: أن للثقافة الإسلامية قدرة على مواجهة محاولات الغزو والاستلاب

والتشويه الثقافي ورفضها لكل محاولات طمس الهوية وتشويه المعالم الثقافية

العربية، ولم ينجح الاستعمار الحديث في محاولات الفرنسة أو التهويد

أو البلشفة، وساعدت الخصائص الأخرى للثقافة العربية، خاصة المرونة

والدينامية، على المحافظة على الهوية والتمسك بأصالة القيم ومبادئ العقيدة.

وهنا نؤكد أن الثقافة المعولمة أو التي يراد تعميمها هي في الواقع ثقافة الغرب

الرأسمالي. إذ على الرغم من أنها - كما قلنا فيما سبق - تمثل الثقافة السائدة

أو قل الثقافة الغالبة في هذه الأيام، إلا أن ما تحمله من مبادئ وقيم هي في

الواقع مبادئ وقيم مادية في جوهرها. ولا تستقيم حياة الإنسان ككل إذا

ما عاش وفقاً لهذه الثقافة المادية<sup>(١)</sup>.

(١) مصطفى النشار، "في فلسفة الثقافة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٥٩.

كما أن هويات الشعوب الثقافية تستند على عراقة الحضارات التي تنتمي إليها وتاريخية هذه الحضارات. ومن ثم فإن الشعوب إن قلدت النموذج الثقافي الشائع والسائد فإن هذا لا يستتبع أنها قد وقعت أسيرة لهذا النموذج المقلد، لأن الشعوب سرعان ما تمل من التقليد وتعود إلى التمسك بأصالتها خاصة وأن النموذج الثقافي السائد والغالب يعد نموذجاً هشاً يركز على بُعد واحد، بينما الإنسان كائن مركب، والبعد الروحي فيه هو الأصل وليس البعد المادي المتمثل في الجسد.

وعلى ذلك، يمكننا أن نشير باطمئنان إلى أنه رغم هذا التناقض في الأهداف، إلا أن ذلك لا يحول بين التفاعل الحضاري في المجالات العلمية والعملية، وقد تكون هذه الحدود التي يقف عندها التفاعل بين الحضارتين الإسلامية والغربية، فالتفاعل في المجالين العلمي والعملية لا يفقد الحضارة الإسلامية شخصيتها، فعندما تفاعلت الحضارة الإسلامية مع الحضارة اليونانية لم تفقد الحضارة الإسلامية شخصيتها كما أن الحضارة الغربية عندما تفاعلت مع المناهج العلمية المتقدمة لدى الحضارة الإسلامية لم تفقد الحضارة الغربية شخصيتها، إنما الذي يفقد الشخصية الحضارية مميزاتها واستقلاليتها هو تنازلها عن أهدافها الأساسية، حيث لا تتفق الحضارتان الإسلامية والغربية في ذلك، فالحضارة الإسلامية تهدف أساساً إلى الرقي الداخلي - الروحي - حيث تتغلب اعتبارات القيم الروحية والأخلاقية على قيم المنفعة الخالصة، بينما يسود الحضارة الغربية المبالغة في الانتفاع المادي في جميع مظاهر الحياة، أما الوجود الديني والأخلاقي فهو أمر فطري محض يجب ألا يمت إلى واقع الحياة بصلة.

وبناء على هذا التناقض في أهداف الحضارتين الإسلامية والغربية، فإنه لا يمكن أن يتكيف أسلوب الحضارة الإسلامية الراهنة مع الحضارة الغربية الحديثة، أو يخضع لها.. بتعبير آخر، فكما ذكرنا، يقف التكيف عند حدد الاستفادة العلمية والعملية، أما في مجالات تنظيم العلاقات الاجتماعية والثقافية فإنه أمر قائم بذاته يجب ألا يخضع لأي تقليد أعمى لنماذج العلاقات في الثقافة أو الحضارة الغربية<sup>(١)</sup>.

ثانياً: سبق أن أكدنا أن الثقافة الإسلامية تتمتع بالدينامية والحركة مع قابلية التطور والتجدد من خلال الأنماط المختلفة، فهي لم تنغلق ولم تتفوق، ولهذا عاشت ونمت وتطورت، وهي لم ترفض الجديد لأنه جديد ولم تنأى عن الإبداع لغرابته ولكن أخذت من الجديد ما يناسب احتياجاتها وصاغت من الإبداع صوراً كثيرة تحقق لها بعدي الأصالة والمعاصرة. وحتى تكون الثقافة العربية فاعلة وقادرة لابد لها من أن تكون متفاعلة مع غيرها من الثقافات حتى تتمكن من المشاركة والعطاء دون انكفاء على النفس تفوقاً، ودون اندفاع إلى الخارج ضياعاً. وإذا ما حدث ذلك ستصبح الأمة العربية أمة مؤثرة في مجريات الأحداث العالمية، مؤثرة في الاتجاهات العالمية خاصة اتجاهات الحرب والسلام، واتجاهات التنمية الدولية، واتجاهات التربية الدولية، واتجاهات الاقتصاد العالمي. وأن التفاعل الثقافي يعطي الأمة العربية حضوراً دولياً ويعطي للثقافة العربية مكاناً بارزاً ومتميزاً بين الثقافات، كما يجعلها تبقى على أصالتها، ويمكنها من المعاصرة الإيجابية<sup>(٢)</sup>.

(١) عبد المتعال، مرجع سابق، ص ٢٧.

(٢) محمد عزت عبد الموجود، "استراتيجية الثقافة العربية.. شروط ومتطلبات تنفيذها" في: ندوة الثقافة العربية: الواقع وأفاق المستقبل، كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، جامعة قطر، الدوحة، ١٩٩٣م، ص ٦٦٩.

وفي هذا الصدد، نؤكد أن إعادة بناء الثقافة المعاصرة لا يتوقف عند حد إحياء التراث، وخاصة عناصره الإيجابية الباعثة على التقدم والداعية إلى الأخذ بأسبابه والراسمة لطريق تحقيقه في مختلف المجالات، وإنما ينبغي في ذات الوقت وبنفس القدر من الجرأة أن يفتح العقل العربي على تلقي نتاج مختلف الثقافات المعاصرة دون خشية الوقوع في برائنها أو الذوبان فيها. فطالما نملك موروثاً حياً ملهماً قوياً، لا خوف علينا من الذوبان في (الآخر)، أو فقدان ذاتيتنا في ذاتيته؛ فالذوات الفكرية والحضارية تتقابل وتتفاعل وتتزوج وتتلاقح على مر العصور دون أن تفنى ذات حضارية قوية في ذات حضارية على نفس المستوى من الصلابة والقوة<sup>(١)</sup>.

**ثالثاً:** أن للثقافة الإسلامية قدرة على التكيف مع مقتضيات التطور بفضل ما تميز به الإسلام من نظرة وسطية غير مثالية، ومن تشجيعه على التفكير والتأمل ودعوة الناس ليتعارفوا ويتآلفوا، وهنا نؤكد على أهمية وفاعلية الحوار بين الحضارات، إلا أن الحوار الحضاري الإيجابي والفعال، يتطلب فهم الذات الحضارية، كمقدمة لفهم (الآخر) الحضاري، والعكس يكاد يكون صحيحاً. وهذا الفهم لا يتم بمدح الذات أو (الآخر) الحضاري، ولا بهجاء الذات أو (الآخر) الحضاري، إنه يتطلب درساً وفحصاً للذات الحضارية، قدراتها وإمكاناتها، والمعوقات التي تحول دون تجددتها. كما يتطلب فهم قدرات (الآخر) وإمكاناته، وجوانب قوته وحركته. كما أن الحوار مع الحضارات الأخرى، خاصة الحضارة الغربية، ليس اختياراً، وإنما ضرورة من ضرورات التجدد الذاتي،

(١) النشر، مرجع سابق، ص ١٦٥.

وامتلاك شروط السيطرة على مقومات هذا التجدد، وهنا ينبغي تأكيد ما يأتي:  
أ- أن الحضارة الغربية ليست متجانسة على نحو مطلق، ففيها جوانب فكرية وتقنية تحتاج إلى التأمل وتفرض الإفادة منها. إنها ليست شراً كلياً كما يتصور بعضهم<sup>(١)</sup>.

من هنا نؤكد أنه يجب على المثقف العربي المسلم أن ينظر إلى الوقائع "من زاويتها الإنسانية الرحية ليدرك دوره الخاص ودور ثقافته في الإطار العالمي"، وبتهيأ إلى الحوار مع ثقافة (الآخر)، والحوار معه حواراً يحفظ به وجوده، وينمي ثقافته ليكون في مستوى التفاعل الحقيقي لا في مستوى الخضوع والاستسلام، وهذا الحوار يكون سبيلاً للتقدم لا سبيلاً للوقوف على هامش التاريخ.

ب- أن العولمة من شأنها أن تقوي عزمنا على البحث عن مناهج ترسيخ جذورنا وانتمائنا، فالعالم لا يخلو من الصراع، بأشكاله المختلفة، كل حضارة تدافع عن وجودها وتفيد من الحضارات الأخرى، وتختلف درجة الصراع من عصر إلى عصر ولكن الجوهر واحد. وليس السبيل إلى نجارتنا أن ننسحب من الواقع أو نستسلم له، فلماذا لا نفكر في نسق استراتيجي لتنمية شاملة واقعية في التخطيط والتنفيذ لرفع مستوانا إلى مستوى الحضارة؟<sup>(٢)</sup>.

وهنا نتفق مع الرأي<sup>(٣)</sup> الذي يؤكد أن تخوف الدول العربية من العولمة ترجع أسبابه إلى ما تعانیه هذه الدول من مشكلات اقتصادية وثقافية نجمت عن الفرقة

(١) عبد المعطي، مرجع سابق، ٢٥٥-٢٥٦.

(٢) الطالبي، مرجع سابق، ١٩٥.

(٣) محمد صديق محمد حسن، "الثقافة العربية وتحديات العولمة (إعداد)"، في: التربية، ع ١٢٨، ص ٢٨، مارس ١٩٩٩م، ص ٨١.



والانقسامات وانعدام التخطيط والتنسيق والتعاون بين الدول العربية، كما ترجع إلى سوء تفاعل الدول العربية مع التكنولوجيا، فلا توجد سياسات وطنية تهدف إلى تطوير وتوطين كفاءات ومؤسسات محلية.

فنحن العرب تقع على عاتقنا مسؤولية مصيرية للتعامل مع العولمة، فنحن نملك القوى الاقتصادية والبشرية، ولدينا الرصيد الثقافي والحضاري الكبير الذي يساعدنا في إقامة مشروع أو رسم استراتيجية عربية متكاملة، اقتصادية وسياسية واجتماعية وثقافية وإعلامية، قادرة على المنافسة والتأثير والتأثر بثقافات وحضارات غيرنا، وليس هذا الأمر بغريب عن الثقافة العربية والإسلامية على مدى العصور، فكم تأثرت وأثرت - كما ذكرنا سابقاً - في الثقافات والحضارات المجاورة لها على مر العصور والقرون وهي لم تنزل شامخة تحتفظ بهويتها العربية والإسلامية.

ج- إن التعامل مع الثقافة الغربية الحديثة بالشكل الأمثل ينبغي أن يتم على أساس التخلص من كل مثالبنا التربوية والاجتماعية، التي أبرزها ميلنا إلى الانشداد إلى الوراثة وتقديس الماضي، وانعدام الفاعلية الإيجابية لما نزرع تحته من قيود مثبطة لهمم ومعوقة للحركة الحرة، فضلاً عن الشعور بالاعتراب والشعور بالدونية والتخلف. إن كل هذه المظاهر السلبية في ثقافتنا العربية يجب أولاً أن نتخلص منها، وليس من وسيلة إلى التخلص منها إلا بالثقة بالنفس المتولدة من دورنا الرائد في التاريخ الحضاري، ومن قدرتنا - إذا ما بعثنا في أنفسنا الهمة واتحدت الإرادات وقبلنا التحدي - على التعامل الإيجابي مع ثقافة العصر دون وجل أو خوف أو شعور بالدونية والاضطراب<sup>(١)</sup>.

(١) النشر، مرجع سابق، ص ١٦٩.

رابعاً: يمكن الاستفادة من الثقافة الإسلامية ومصادرها في تطوير النسق التربوي من أجل تحديث الواقع الاجتماعي، وتحقيق أداء أفضل في المجال الاقتصادي، وتقوية الكيان الأسري الاجتماعي، وتحديث الشخصية العربية، وإعداد أفضل للموارد البشرية العربية.. وما يدفعنا لتأكيد ذلك ما يأتي:-

- التربية، عليها أن تكون العلماء وتعد المخترعين وخبراء الثقافة؛ لأن العلم أصبح عصب الحياة وحتى يتمكن هؤلاء العلماء من أداء مهمتهم في تنمية الثقافة بما يخترعون وما يبدعون.. وإذا أتينا إلى مناهج تعليم العلوم فإننا لا نجد لها موظفة لتعليم أسلوب التفكير العلمي وأسلوب البحث والاستكشاف، ومن ثم لا تعد مخترعين أو مبدعين إنما نقلة لعلم الآخرين وحفظة لعلوم السابقين، فهي ثقافة نقلية بنكية<sup>(١)</sup>.

- التربية، عليها أن تهذب النفس وتغرس الفضيلة في النفوس، وهذه الوظيفة الأخلاقية مهمة جداً للثقافة؛ لأن البعد الروحي والقيمي بما لا يقل أهمية عن البعد المادي، فإذا تقاعست التربية في أداء وظيفتها الأخلاقية ضعف الجانب الروحي والقيمي للثقافة، وقد أكدت ثقافتنا العربية الإسلامية أهمية هذه الجوانب.. فكل علم لا يحمل الخير ولا يدعو إلى الفضيلة هو عند المسلمين علم عقيم، وحمله وزر يُعاقب عليه الإنسان<sup>(٢)</sup>.

- التربية، عليها أن تعلم قيم الإنتاج وحب العمل بجميع أنواعه وأشكاله وتغرس في المجتمع قيماً اقتصادية مهمة مثل احترام المال العام، والعمل على إتقان

(١) عبد الموجود، مرجع سابق، ص ٦٩٣.

(٢) نفس المرجع السابق.

مهارات الإنتاج، والتدريب المستمر لصقلها لمجاراة التقدم العلمي والتقني، والالتزام بالوقت، كما أن التربية مسؤولة عن تعليم الاتجاهات التنموية التي يحتاجها المجتمع مثل التخلص من السلوك الاستهلاكي، والهدر في الاستهلاك، وسوء استخدام الموارد المتاحة، وفي مقابل ذلك يحتاج الإنسان العربي أن يتعلم ترشيد الإنفاق وتنظيم الأسرة وتدريب شؤونها، وإذا ما نجحت التربية في أداء وظيفتها الاقتصادية حققت الثقافة هدفاً استراتيجياً من أهدافها وهو تحقيق التنمية الشاملة<sup>(١)</sup>.

تساهم التربية في غرس ما يسمى بثقافة الإنجاز من خلال توفير الاقتدار المعرفي، فلم تقم في أمة، عبر مختلف مراحل التاريخ، إلا وكانت ثقافة الإنجاز هي إطارها المرجعي مادياً وعلمياً وتقنياً، أو فكرياً وروحياً.. والمستقبل، في متطلباته المتزايدة من الاقتدار المعرفي، يكرس بشكل لا رجعة فيه ثقافة الإنجاز المتميز، طالما أن المعرفة تحصل، والمهارة تبني: فلاهما يوهبان، أو يمنحان، ولاهما ينزلان حظاً من السماء. ذلك هو المسار الحرج في عصر العولمة والتنمية المستدامة (سواء بسواء) والذي يحكم كل ما عدها من مسارات، مشكلاً المعبر الوحيد للشراكة العالمية.

من هنا، فإن آفاق المستقبل تضغط بشكل غير مسبوق لأدراج بناء ثقافة الإنجاز في أولويات برنامج التنشئة المستقبلية. وكم هو جميل أن هذه الحالة بالذات تعيد صلتنا بحضارتنا العربية الإسلامية أكثر من أي أمر آخر. فليس

(١) المرجع السابق، ص ٦٩٤.

هناك من دين يحض على العمل وإتقانه، جاعلاً منه المعيار في الموازنة بين الناس ورافعاً إياه إلى مصاف الجهاد الأكبر بقدر ما تحفل تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. وليس هناك من حضارة قامت على الإنجاز المنفتح إنسانياً بقدر هذه الحضارة العربية الإسلامية<sup>(١)</sup>.

ختاماً، لا بد من التأكيد أن تحديث الشخصية العربية يستدعي تنقية هذه العقيدة المقدسة مما علق بها من أوشاب وزيف؛ إما جهلاً بالدين؛ أو حباً في الدنيا، أو بسببهما معاً.

كما تستدعي الرجوع إلى منابع الصافية للإسلام، في القرآن والحديث النبوي، وإلى سيرته الشريفة؛ وإلى عمل خلفائه وأصحابه، والاستهداء بآراء المفكرين المجتهدين؛ والمواءمة بين صحة العقيدة وروح الإسلام الحقيقي القائم على الوحدانية وعلى المعرفة والعلم، والعدالة والمساواة، والتفتح والقوة، وعمارة الأرض، والتفكير في ظواهر الكون، واكتشاف أسرارها الدالة كلها على قدرة الله، الإسلام الداعي إلى تكريم الإنسان وتعظيم قدره، وإلى الحفاوة بالحياة، وبالعمل والسعي... كل هذه القيم هي التي تعين على اقتحام المستقبل.

ولا بد من تصحيح الصورة التي يتعمد أعداء الإسلام نشرها عنه، مما هو منه براء.. وفي المجتمع الإسلامي، من يعين، ربما بحسن نية على نمو مثل هذه الانطباعات، ليس في مفهوم الآخرين عن الإسلام هو مفهوم مغرض، وإنما في مفهوم المسلمين، عن أنفسهم<sup>(٢)</sup>.

(١) مصطفى حجازي، "العولمة والتشنة المستقبلية"، مجلة العلوم الإنسانية، عدد ٢، صيف ١٩٩٩م، ص ٣٦.

(٢) محي الدين صابر، من فضايا الثقافة العربية المعاصرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧م، ص ٨٤.

## التجربة الحضارية التاريخية

الدكتور الشيخ ناصر بن سليمان العمر<sup>(\*)</sup>

لا بد أن تكون النظرة إلى طبائع الشعوب والأجناس مجردة عما تأثرت به من أمور خارجة عنها، فمن استصلح بالشرع والدين، يفضل من سواه، ويعلوه بقدر ما قام به من دين، ومن فضل العرب، إنفا فضلهم لمكارم الأخلاق التي اتصفوا بها، وجاءت الشرائع بتتبعها.

إن لأهل الجزيرة العربية<sup>(١)</sup> ثروة تاريخية ثرة، وإرث حضاري يمتد عبر قرون بعيدة وأزمنة مديدة، يجب أن يستلهموا منه دروساً، وأن يأخذوا منه عبراً، للمضي بحضارتهم ورسالتهم قُدماً.

فجزيرة العرب بها أم القرى، وبيت الله الحرام، ومدينة النبي ﷺ، ومسجده

(\*) داعية وباحث أكاديمي.. (المملكة العربية السعودية).

(١) قال سماحة الشيخ بكر أبو زيد -حفظه الله- : «هيحدها غرباً بحر القلزم - والقلزم مدينة على طرفه الشمالي، ويقال بحر الحبشة وهو المعروف الآن باسم البحر الأحمر، ويحدها جنوباً بحر العرب ويقال بحر اليمن، وشرقاً خليج البصرة، الخليج العربي، والتحديد من هذه الجهات الثلاث بالأبحر المذكورة محل لتفاهق بين المحدثين والفقهاء والمؤرخين والجغرافيين وغيرهم... ويحدها شمالاً ساحل البحر الأحمر الشرقي الشمالي وما على مُسَلِّمَتِهِ شرقاً؛ من مشارف الشام وأطراره [الأردن حالياً] ومنقطع السامرة من ريف العراق، والحد غير داخل في المحدود هنا» خصائص جزيرة العرب ص ١٧-١٨ باختصار يسير. الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ، دار ابن الجوزي.

عليه الصلاة والسلام، وما بين البيت إلى المنبر، روضة من رياض الجنة<sup>(١)</sup>:

بطيبة رسم للرسول ومعهد      منيرٌ وقد تعفو الرسوم وتمهد  
ولا تمحى الآيات من دار حرمة      بما منير الهادي الذي كان يصعد  
و واضح آيات وباقي معالم      وربّع له فيه مُصلّى ومسجدُ  
به حجرات كان ينزل وسطها      من الله نور يستضاء ويوقد  
معارف لم تطمس على العهد أيها      أتاها البلى فالآي منها تجدد

وفيها كان الخلفاء الراشدون، والأنصار والمهاجرون، وبها عقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين، وأيضاً فإن فيها المناسك والمشاعر، والمواقيت والمناحر:

إذا هزّنا الشوق اضطربنا لهزه      على شُعْبِ الرحل اضطراب الأرقام  
فمن صبوات تستقيم بمائلٍ      ومن أريحيات تُهبُّ بنائمٍ  
وأستشرفُ الأعلام حتى يدلني      على طيبها مرُّ الرياح النواسمِ  
وهل أنسم الأرواح إلا لأفها      تهبُّ على تلك الربى والمعالم؟

كما أنها جزيرة شعرية، ذكرها الفحول في دواوينهم، فدرسها الشُّراح في مصنفاتهم، فإذا قرأها وجدت زمزم والحطيم، وددأ وأشداخ، ومدافع الريان، وشماريخ رضوى، وبرقة ثممد، وحومانة الدراج، وتقادمت فالجيس فالسوبان،

(١) انظر صحيح البخاري حديث رقم ١١٩٥، وصحيح مسلم حديث رقم ١٣٩٠.

وهجر وجوانثا، وإضم والجواء، وتمامة والحجاز، والعروض واليمن، واليمامة  
والرميصاء، بل أرض نجد كلها:

وإني وإن فارقت نجداً وأهله      لمحترق الأحشاء شوقاً إلى نجد  
أروح على وجدٍ وأغدو على وجدٍ      وأعشق أخلاقاً خلقن من المجد

ولو استطرَدنا بذكر شيء مما ورد في أشعارهم لطال المقال<sup>(١)</sup>، وأي دار من  
ديارها ما وقفوا عليها؟ وحسبك قول عنتره:

هل غادر الشعراء من متردم      أم هل عرفت الدار بعد توهم؟  
و فوق ذلك تجد في تلك المصنفات ذكر عشائر الجزيرة وقبائلها  
وخصائصهم، وأموراً دقيقة متعلقة بهم.

وفضلاً عن ذلك فقد كان للحضارات القديمة فيها شأن عظيم، بل إن أول  
الحضارات البشرية قامت بها وأهلتها وذلك لما بنى آدم عليه السلام بيت الله  
الحرام<sup>(٢)</sup> فكان أول بيت وضع للناس بيكة مباركاً، وقد ذكر العليم الحكيم في

(١) انظر في ذلك مثلاً صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني، ص ٣١٩ وما بعدها. طبعة دار  
اليمامة، ١٣٩٧هـ، بتحقيق محمد بن علي الأكواع الحوالي.

(٢) ذكر ابن حجر في الفتح لُقوالاً في أول من بنى البيت فذكر آدم والملائكة وشيث بن آدم، ثم قال: والأول أثبت،  
قال السيوطي في شرح سنن النسائي عند تعليقه على حديث: "سألت رسول الله ﷺ أي مسجد وضع أولاً؟ قال:  
(المسجد الحرام). قلت: ثم أي؟ قال: (المسجد الأقصى). قلت: وكم بينهما؟ قال: (أربعون عاماً) قال القرطبي:  
فيه إشكال، وذلك أن المسجد الحرام بناه إبراهيم عليه السلام بنص القرآن، والمسجد الأقصى بناه سليمان عليه  
السلام، كما أخرجه النسائي من حديث ابن عمر، وسنده صحيح، وبين إبراهيم وسليمان أياماً طويلة، قال أهل  
التاريخ أكثر من ألف سنة. قال: ويرتفع الإشكال بأن يقال: الآية والحديث لا يدلان على بناء إبراهيم وسليمان  
لما بينا- ابتداء وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما وبداه، وقد روي: أول من بنى البيت آدم،  
وعلى هذا فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاماً. انتهى. قلت: بل آدم نفسه  
هو الذي وضعه أيضاً، قال الحافظ ابن حجر في كتاب التيجان لابن هشام: إن آدم لما بنى الكعبة أمره الله  
- تعالى - بالسير إلى بيت المقدس، وأن يبنيه فبناؤه ونسك فيه كتاب المساجد باب ذكر أي مسجد وضع أولاً،  
حديث رقم ٦٨٩، سنن النسائي بشرح السيوطي، ٢/٣٦٢، الطبعة الخامسة لدار المعرفة، ١٤٢٠هـ.

القرآن الكريم عن حضارات الجزيرة العربية ما لم يذكره عن غيرها من الأمم والحضارات التي قامت في شتى البلدان والأقاليم فسادت ثم بادت. ألا ترى أن جزيرة العرب، أرض معجزات نبوية، ومجال رسالات سماوية، ففيها بلد سبأ، وسد مأرب، وعرش عظيم، وبئر معطلة، وقصر مشيد، بل سائر بلاد عاد؛ إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، وثمود الذين جابوا الصخر بالوادي، وأصحاب الرس، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الأخدود، وقبر هود، ودعوة إبراهيم، وحجر صالح، ومدین شعيب، ومرتع إسماعيل، وملجأ موسى، ومهد محمد - صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين - ومثواه:

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد<sup>(١)</sup>

ثم كانت أرض الجزيرة وطاءً لخير القرون وأديمها لحافاً لجلهم بعد أن غيبوا تحت أطباق تراها.

ومع هذا كله فأرض الجزيرة العربية تشتمل على حدود جلييلة، وكورٍ جسيمة، فهي من أمد الأقاليم مساحة، وأفسحها ساحة، وأعظمها حرمة، وأشرفها مدناً: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨).

الحكمة بالغة قضاها يستوجب الحمد على اقتضاها

وقد فضل جزيرة العرب على ما سواها جمع ممن عنوا بالأقاليم والبلدان. قال الهمداني: «أفضل البلاد المعمورة من شق الأرض الشمالي إلى الجزيرة

(١) البيت من مرثية حسان - رضي الله عنه - التي مطلعها: بطيبة رسم للرسول ومعهد.



الكبرى ... وتسمى جزيرة العرب»<sup>(١)</sup>، وقال القلقشندي: «.. بجزيرة العرب الواقعة في أواسط المعمورة وأعدل أماكنه وأفضل بقاعه، حيث الكعبة الحرام..»<sup>(٢)</sup>، قال المقدسي في أحسن التقاسيم: «وهي أمد الأقاليم مساحة، وأفسحها ساحة، وأفضلها تربة، وأعظمها حرمة، وأشرفها مدناً»<sup>(٣)</sup>.

فجزيرة العرب من أفضل البلاد وأشرفها، قال الشيخ بكر أبو زيد: «كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، ولهذا الجزيرة جملة أسماء؛ كلها مضافة إلى العرب لا غير»<sup>(٤)</sup>، وذكرها: [جزيرة العرب]، و[أرض العرب]، و [بلاد العرب]، و[ديار العرب]، و[الجزيرة العربية]، و[شبه جزيرة العرب]، و[شبه الجزيرة العربية].

ومما يدل على شرفها أيضاً كثرة ما صنف فيها، وقد أشار الشيخ بكر إلى شيء منها، ومما كتب زيادة على ما ذكر<sup>(٥)</sup>، والشأن هنا أيضاً في ذكر المؤلفات المفردة عن هذه الجزيرة على اختلاف مقاصد المؤلفين:

- ١- جزيرة العرب للأصمعي، يذكره من ترجم له.
- ٢- جزيرة العرب لأبي سعيد السيرافي، ذكره الباباني في هدية العارفين، وغيره.
- ٣- جزيرة الإسلام للشيخ سلمان العودة، مطبوع، وما يليه كذلك.

(١) صفة جزيرة العرب ص ٣، للهمداني.

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، لأبي العباس أحمد القلقشندي، طبعة دار الكتاب المصري مع دار الكتاب اللبناني، تحقيق إبراهيم الإبراهيم.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للمقدسي.

(٤) انظر خصائص جزيرة العرب، لفضيلة الشيخ بكر أبو زيد.

(٥) انظر خصائص جزيرة العرب، ص ١٢٠.

- ٤- جزيرة العرب مهد الحضارة الإنسانية، لمحمد معروف الدواليبي.
- ٥- مرآة جزيرة العرب، لأبي أيوب صبري باشا.
- ٦- السكان والاقتصاد والعمل قبل قرن في جزيرة العرب، أحمد اليحيى.
- ٧- جغرافية شبه جزيرة العرب، لمحمود أبو العلا.
- ٨- جغرافية جزيرة العرب، لعمر رضا كحالة.
- ٩- رحلات في شبه جزيرة العرب، لجون لويس بوركهات.
- ١٠- جزيرة العرب قبل الإسلام، لبرهان الدين دلو.
- ١١- تاريخ جزيرة العرب القديم وسيرة النبي ﷺ، لعبدالله العثيمين.
- ١٢- وفود القبائل على الرسول ﷺ، وانتشار الإسلام في جزيرة العرب،  
لحسن جبر.
- ١٣- جزيرة العرب: مصير أرض وأمة، لمحمد ولد داداه.
- ١٤- شبه جزيرة العرب، لمحمود شاكر، وهو مجموعة كتب جعل لكل  
قسم أو أقسام منها كتاباً.
- ١٥- أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ: جزيرة العرب، لمحمد عبدالمهادي،  
وفاء محمد.
- ١٦- صور من شمالي جزيرة العرب: في منتصف القرن التاسع عشر،  
لجورج أوغست، ترجمة سمير الشبلي.
- ١٧- أرض المعجزات: رحلة في جزيرة العرب، لعائشة عبدالرحمن.
- ١٨- جزيرة العرب في العصر الحديث، لصلاح العقاد.

١٩- الجزيرة العربية: موطن العرب ومهد الإسلام، لمصطفى مراد الدباغ.  
٢٠- لمحات عن تطور الفكر في جزيرة العرب في القرن العشرين، لفهد المبارك.

٢١- جزيرة العرب في القرن العشرين، لحافظ وهبة.

٢٢- النهضة الحديثة في جزيرة العرب، لمحمد عبدالله ماضي.

٢٣- مشاهداتي في جزيرة العرب، لأحمد حسين.

٢٤- اكتشاف جزيرة العرب: خمسة قرون من الحضارة والعلم، جاكين بيرين، ترجمة قدرى قلعجي.

٢٥- دراسات عن تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية، لصباح إبراهيم الشبخلي.

وقد أغفلنا شيئاً مما كتب في جيولوجيتها وتضاريسها للاكتفاء بما ذكر،  
أما التسجيلات المرئية، والندوات، وما كتب في المجالات من مقالات  
متخصصة عن الجزيرة العربية فأكثر من أن تحصر، ولا أطيل بسرد بعضها  
ففيما سبق غنية وكفاية.

### جزيرة العرب وعلاقتها بفضل العرب:

سل المعاني عنا إننا عرب شعارنا الجمد يهوانا ونهواه  
هي العروبة لفظ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه

لقد قرر أهل العلم أن العرب هم "رأس الأمة وسابقوها إلى المكارم"<sup>(١)</sup> فهم "أفضل من العجم"<sup>(٢)</sup> بل "أفضل من غيرهم"<sup>(٣)</sup> بل "أفضل الأمم"<sup>(٤)</sup> قاطبة.

قال شيخ الإسلام: «ولهذا ذكر أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني صاحب الإمام أحمد في وصفه للسنة التي قال فيها: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها المقتدى بهم فيها: وأدركت من أدركت من علماء أهل العراق والحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب، أو طعن فيها، أو عاب قائلها، فهو مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وهو مذهب أحمد وإسحاق ابن إبراهيم بن مخلد وعبد الله بن الزبير الحميدي وسعيد بن منصور وغيرهم ممن جالسنا وأخذنا عنهم العلم، فكان من قولهم: إن الإيمان قول وعمل ونية، وساق كلاماً طويلاً إلى أن قال: ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث رسول الله ﷺ: «حب العرب إيمان وبغضهم نفاق» ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي، الذين لا يحبون العرب، ولا يقرون بفضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف. ويروون هذا الكلام عن أحمد نفسه، في رسالة أحمد ابن سعيد الأصبخري، عنه إن صحت، وهو قوله وقول عامة أهل العلم»<sup>(٥)</sup>.

(١) نواتر الأصول في أحاديث الرسول، ص ١٠٦، لمحمد بن علي الحكيم للترمذي، طبعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

(٢) انظر تفسير القرطبي، ١/١٤١.

(٣) السابق، ٤/٢٦٣.

(٤) تحفة الأحوذى بشرح جامع للترمذي، ٩/٣٧٩، لمحمد بن عبدالرحمن المباركفوري، طبعة دار الكتب العلمية.

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام ابن تيمية، ١/١٤٨. وانظر كذلك ص ١٥٦، وقد نسب القول بفضل العرب للجمهور في منهاج السنة النبوية، ٤/٥٩٩.

وقال الكرمانى أيضاً: «فالعرب أفضل الناس، وقريش أفضلهم، هذا مذهب الأئمة وأهل الأثر والسنة..»<sup>(١)</sup>.

قال شيخ الإسلام: «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل ذريته صفوة ولد إبراهيم، فيقتضي أنهم أفضل من ولد إسحق، ومعلوم أن ولد إسحق الذين هم بنو إسرائيل أفضل العجم، لما فيهم من النبوة والكتاب، فمتى ثبت الفضل على هؤلاء فعلى غيرهم بطريق الأولى»<sup>(٢)</sup>.

وقال قبلها: «فإن الذي عليه أهل السنة والجماعة: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم... وليس فضل العرب ثم قريش ثم بني هاشم بمجرد كون النبي ﷺ منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل، وبذلك ثبت لرسول الله ﷺ أنه أفضل نفساً ونسباً وإلا لزم الدور»<sup>(٣)</sup>، وقد وضع المصنفون كتباً وأجزاء في الدليل على فضل العرب فلتراجع<sup>(٤)</sup>.

وسر تفضيل العرب على من سواهم، هو ما تميزوا به من خصال حميدة، وأخلاق نبيلة، كما قال الحكيم الترمذي: «فالعرب بالأخلاق شرفوا، وإلا فالشجرة واحدة وهو خليل الرحمن»<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر فيض القدير شرح للجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، ٥١٥/٤، للطبعة الأولى للمكتبة التجارية الكبرى.

(٢) انظر اقتضاء الصراط المستقيم، لشيخ الإسلام بن تيمية، ١٥٤/١، الطبعة الثانية لمطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

(٣) السابق ١/١٤٨.

(٤) لابن القيم - رحمه الله - فصل في الدليل على فضل العرب، وللمقنسي مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب، وللهيتمي مبلغ الأرب في فخر العرب، لختصره الهيتمي من كتاب حافل للحافظ العراقي.

(٥) انظر نواتر الأصول في أحاديث الرسول، لأبي عبدالله الحكيم الترمذي، ص ٩٦.

وقال الشيخ بكر: «فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها... لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم»<sup>(١)</sup>، كما أنهم «أطوع للخير، وأقرب للسخاء، والحلم، والشجاعة، والوفاء... أصحاب إباء لا يعرفون التزلف والنفاق وتحمل الاستبداد.. ومما تميز به العرب الصدق، حتى الذين كانوا يحاربون الإسلام ظهر صدقهم في أمور»<sup>(٢)</sup>. فيا لله كيف انتكست بعد ذلك الفطر، وتغيرت العقول، ففتن بعضنا بحضارة غربية قاصرة، على جوانب قاصرة فيها ما فيها، واستبدل - يوم استبدل - شرها بمكارم حضارة عريقة.

مولى المكارم يرعاها ويعمرها      إن المكارم قد قلت مواليها  
ولا يخفى على القارئ الكريم أن هذا التفضيل ينبغي أن يراعى عند النظر إليه أمران:

الأول: أن النظرة هنا إلى طبائع الشعوب والأجناس مجردة عما تأثرت به من أمور خارجة عنها، فمن استصلح بالشرع والدين يفضل من سواه ويعلوه بقدر ما قام فيه من دين. ومن فضل العرب إنما فضلهم لمكارم الأخلاق التي اتصفوا بها، وجاءت الشرائع بتميمها، فإذا التزم الناس بالشرائع فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، والأصل أن الناس معادن<sup>(٣)</sup>.

(١) خصائص جزيرة العرب، للشيخ بكر أبو زيد، ص ٦١، مع اختصار يسير.

(٢) جزيرة الإسلام، للشيخ سلمان بن فهد العودة، ص ٤٢-٤٦، والنقل باختصار وتصرف يسير.

(٣) جزء من حديث الصحيحين، انظر صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالى: ﴿لَنْدَّ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِسْرَاهُ﴾، ٣٢٨١، وصحيح مسلم رقم ٢٥٢٦.

الثاني: أنه وصف عام، وعند التفصيل ومقارنة الأفراد يشذ بعضهم، فقد تجد شخصاً من العجم يفضل بعض العرب في أخلاقه وصفاته، ولكن عند الإطلاق والتعميم فالعرب أفضل ممن سواهم.

والشاهد من هذا التقرير هو أن البيئة التي يعيش فيها الإنسان، والأرض التي ينشأ عليها لها صلة وثيقة بأخلاقه وعاداته، وقد عرفت العرب هذه العلاقة منذ زمن بعيد، ولهذا كانوا يدفعون أولادهم إلى المراضع «لينشأ الطفل في الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق الهيئة المعدية، وقد قال - عليه السلام - لأبي بكر، رضي الله عنه، حين قال له:

«ما رأيت أفصح منك يا رسول الله».

فقال: «وما ينعني، وأنا من قريش، وأرضعت في بني سعد؟».

فهذا ونحوه كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات. وقد ذكر أن عبد الملك بن مروان كان يقول: أضر بنا حُب الوليد؛ لأن الوليد كان لحاناً، وكان سليمان فصيحاً؛ لأن الوليد أقام مع أمه، وسليمان وغيره من إخوته سكنوا البادية، فتعربوا، ثم أدبوا فتأدبوا»<sup>(١)</sup>.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فرق بين من يتقلب في عيش لين الأعطاف رطب، وبين آخر تربى في بيئة شديدة وعرة، فذل شظف العيش وركب صعبه، وقد قيل:

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليحيى كل مسلم أسد

(١) انظر الروض الأنف، لعبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، شرح حديث الرضاع، ١/١٨٨، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.

فإذا شرف العرب لأخلاقهم وصفاتهم فالبيئة [الجزيرة العربية] هي التي ساعدت في صنع كثير من تلك الأخلاق والخصال التي تميز بها العرب<sup>(١)</sup>، ولهذا كانت الجزيرة العربية أفضل من غيرها.

### تعلق العرب في شتى الأمصار بأرض الجزيرة:

ولا يخفى على القارئ الكريم أن العرب الأصليين الذين تفرقوا في شتى الأمصار أصولهم من الجزيرة العربية وإن بعد العهد، وهذا ما قرره من عنوا بالتقاسيم والأقاليم، قال القلقشندي: «اعلم أن مساكن العرب في ابتداء الأمر، كانت بجزيرة العرب»<sup>(٢)</sup>، وهو قول المعاصرين من الباحثين في هذا الحقل، قال المقرئ:

«ولاخلاف بيننا في أن هذه القبائل العربية التي ملأت الأقطار العربية على اتساع رقعتها، قد انبعث كلها بطبيعة الحال من مهدها الأول وهو شبه الجزيرة العربية»<sup>(٣)</sup>.

وقال: «وليس من شك في أن المستودع الأول في شبه الجزيرة العربية الذي أمد شطري الوادي بالعناصر العربية منذ عصور الجاهلية، هو نفسه الذي أمد بلاد المغرب كلها في أفريقية، وبلاد الشام والعراق في آسيا..»<sup>(٤)</sup>.

(١) ذكر الشيخ بكر أبو زيد في كتابه خصائص الجزيرة، ص ٦٣-٦٦، ستاً وعشرين ميزة للعرب وجزيرتهم نقلاً عن كتاب أم القرى فلتراجع.

(٢) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص ٥١.

(٣) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، ص ٧٤، للمقرئ.

(٤) السابق، ص ٩٥.



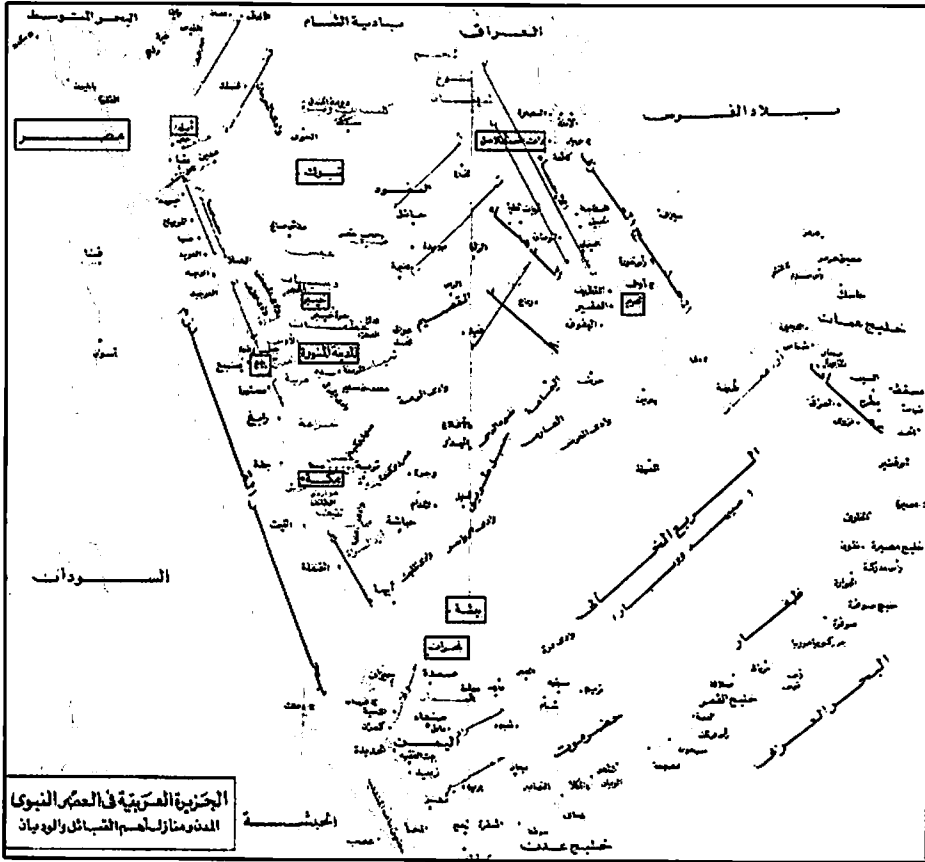
قال شيخ الإسلام :

«.. وفي هذه الأرض كانت العرب حين البعث وقبله، فلما جاء الإسلام وفتحت الأمصار سكنوا سائر البلاد من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب وإلى سواحل الشام وأرمينية، وهذه كانت مساكن فارس والروم والبربر وغيرهم، ثم انقسمت هذه البلاد قسمين، منها ما غلب على أهله لسان العرب حتى لا تعرف عامتهم غيره... ومنها ما العجمة كثيرة فيهم أو غالبية عليهم.. فهذه البقاع انقسمت إلى ما هو عربي ابتداءً وما هو عربي انتقلاً، وإلى ما هو عجمي، وكذلك الأنساب ثلاثة أقسام قوم من نسل العرب وهم باقون على العربية لساناً وداراً أو لساناً لا داراً أو داراً لا لساناً، وقوم من نسل العرب بل من نسل بني هاشم ثم صارت العربية لسانهم ودارهم أو أحدهما، وقوم مجهولو الأصل لا يدرون أمن نسل العرب هم أو من نسل العجم، وهم أكثر الناس اليوم»<sup>(١)</sup>.

والمقصود أن أصول العرب في مشارق الأرض ومغربها ترجع إلى الجزيرة العربية في كثير من الأحيان، وهذا بدوره يجعل للجزيرة العربية في كثير من القلوب مكاناً، وقد قيل:

نَقَلَ فؤادك حيث شئت من الهوى      ما الحب إلا للحبيب الأول  
 كم منزل في الأرض يألفه الفتى      وحينه أبداً لأول منزل  
 وقبيح بنا وإن قدم العهد      هوان الأباء والأجداد

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ١/١٦٦-١٦٧، باختصار.



قبائل العرب ووجودها في الجزيرة العربية في العصر النبوي

## جزيرة العرب مهوى أفئدة المسلمين:

وعيرني الواشون أني أحبها . وتلك شكاة زائل عنك عارها

لما كانت الجزيرة مهبط الوحي وسابقة الأراضي للإسلام - فما مات رسول الله ﷺ حتى فتح الله عليه سائر الجزيرة العربية<sup>(١)</sup> لما كان الأمر كذلك عظمت مكانة الجزيرة في قلوب المسلمين جميعاً، عرباً وعجماً، ولاغرابة فهي التي مدت البقاع والأصقاع بالإسلام، فلا عجب إذا قرأت في بعض التراجم عن بعض أهل العلم من الأعاجم أنه كان: «واسع الاطلاع بشؤون العالم الإسلامي، شديد التعلق بجزيرة العرب والحجاز والحرمين الشريفين، عميق الحق، شديد التعظيم للنبي ﷺ، وأصحابه وأهل بيته، شديد الحب للعرب، يسوؤه ويؤلمه ذمهم وانتقاص حقهم وفضلهم، خبيراً بجغرافية الجزيرة العربية، ألف كتاباً باللغة العربية في هذا الموضوع في شبابه»<sup>(٢)</sup>.

وكيف لا يكون للمسلمين في المشارق والمغرب تعلق بما وهم يتوجهون لتلقائها في الخمسة الأوقات. وقد قال قائلهم إقبال:

نحن الذين إذا دعوا لصلاتهم      والحرب تسقي الأرض جاماً أحمر  
جعلوا الوجوه إلى الحجاز فكبروا      بمسامع الروح الأمين فكبروا

(١) انظر التماس السعد في لوفاء بالوعد للسخاوي، ص٣، وكذلك أسد الغلبة لابن الأثير، ص٦٠٢، ترجمة حبة بن بعكك.  
(٢) نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ص١٩١٧، لعبد الحي اللكنوي، والكلام هنا عن ابنه عبدالملي ابن عبدالحى.

وهذا التعلُّق نلاحظه في كثير من العجم وبخاصة في شبه القارة الهندية، فتراهم يكبرون ويجلون من عرفوا أنه من أرض العرب، وهذا كثير فيمن عنوا بالشرع والدين، ولاسيما من لم يعيش منهم بأرض الجزيرة، وأما من عاش فيها فكثير منهم تغيرت نظرتهم إما لاختلاف واقع أحفاد أبي بكر وعمر وسائر الصحابة عمّا في مخيلته، أو نتيجة معاملة وأخلاق ليست بأخلاق أهل هذه البلاد، ولكنها أخلاق حضارات وافدة فتحت لها الصدور فتطير شررها واستشرى شرها.

### جزيرة العرب ودعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

ومن مميزات جزيرة العرب التي جعلتها ذات حضارة رائدة متميزة، قيام دعوة إبراهيم عليه السلام بها:

هي الحنيفية عين الله تكلؤها فكلما حاولوا تشويهها شأها

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَاَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾  
 (البقرة: ١٢٦)، ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ٣٧) ، فاستجاب الله دعوته؛ وجعل في نسله من الأنبياء من يقوم بدعوة الحنيفية يحوطها ويرعاها ويتممها، فكان إسماعيل عليه السلام أبا العرب، ورسولهم، والمجدد الأول لملة إبراهيم -عليه السلام- وعن

بنيه انتشرت بقايا الحنيفية في سائر أرجاء الجزيرة العربية، وصارت الحنيفية الديانة الرسمية لشبه الجزيرة العربية.

ولقد ظل العرب رواد حضارة نبوية مجيدة رديحاً من الزمن، ثم تقادمت بهم السنون واندرست معالم حضارة التوحيد شيئاً فشيئاً، إلى أن جاء عمرو بن لحي الخزاعي واستورد عبادة الأصنام عن دين العماليق بأرض الشام<sup>(١)</sup>، قال ﷺ: «رَأَيْتُ عَمْرَو بْنَ لُحَيِّ بْنِ قَمْعَةَ بْنِ خِنْدِفَ، أَبَا بَنِي كَعْبِ هُوْلَاءِ، يَجْرُ قُصْبَهُ فِي النَّارِ»<sup>(٢)</sup>.

وأورد «ابن إسحاق في السيرة الكبرى ... أتم من هذا، ولفظه: (سمعت رسول الله ﷺ، يقول لأكثم بن الجون: رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار، لأنه أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان وسيب السائبية وبخر البحرية ووصل الوصيلة وحمى الحامي»<sup>(٣)</sup>.

وقال: و«قال هشام وحدثني أبي وغيره أن إسماعيل عليه السلام لما سكن مكة وولد بها أولاده فكثروا حتى ملثوا مكة ونفوا من كان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات وأخرج بعضهم بعضاً ففسحوا في البلاد<sup>(٤)</sup> والتماس المعاش فكان الذي حملهم على عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم

(١) انظر فتح الباري لابن حجر، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٢٠، ٦/٦٦٩، طبعة دار السلام، ١٤٢١هـ.

(٢) صحيح مسلم، حديث رقم ٢٨٥٦.

(٣) فتح الباري لابن حجر، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٥٢٠، باختصار يسير.

(٤) في نهاية هذا المبحث خارطة تبين وجود العرب في الجزيرة قبل البعثة، ص ١٤.

بالبيت حياً للبيت وصبا به، وهم على ذلك يعظمون البيت ومكة ويحجون ويعتَمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم عبدوا ما استحسِنوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم، واستخرجوا ما كان يعبد قوم نوح عليه السلام منها على إرث ما بقي من ذكرها فيهم، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بما من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة وإهداء البدن مع إدخالهم فيه ما ليس منه»<sup>(١)</sup>.

غير أنه بقيت فيهم قلة على الحنيفية مستقيمون، كأمثال زيد بن عمرو ابن نفيل، قال ورقة بن نوفل -وهو كذلك من المتألهين قبل البعثة دارساً للكتاب- في رثائه:

رَشِدَتْ وَأَنْعَمْتَ بِنِ عَمْرٍو وَإِنَّمَا      تَجَنَّبْتَ تَنْوَرًا مِنَ النَّارِ حَامِيًا  
بَدَيْتَ رَبًّا لَيْسَ رَبُّ كَمَثَلِهِ      وَتَرَكْتَ أَوْثَانَ الطَّوَاغِيِّ كَمَا هِيََا

إلى قوله:

فَأَصْبَحْتَ فِي دَارِ كَرِيمٍ مُقَامَهَا      تُعَلِّلُ فِيهَا بِالْكَرَامَةِ لَاهِيًا  
تُلَاقِي خَلِيلَ اللَّهِ فِيهَا وَلَمْ تَكُنْ      مِنَ النَّاسِ جَبَارًا إِلَى النَّارِ هَادِيًا  
وَقَدْ تُدْرِكُ الْإِنْسَانَ رَحْمَةً رَبِّهِ      وَلَوْ كَانَ تَحْتَ الْأَرْضِ سَبْعِينَ وَاوِيًا

(١) إغائة اللهفان من مصائد الشيطان، ٢/٢١٠، لابن القيم، بتحقيق محمد حامد الفقي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٥٧هـ.

وقد كان زيد يلتمس الحنيفة ملة إبراهيم، «فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل الموءودة، وقال: أعبد رب إبراهيم؛ وبادى قومه بعباد ما هم عليه»<sup>(١)</sup>.

وقد ثبت في صحيح البخاري «أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم فقال: إنني لعلّي أن أدين دينكم فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله.. فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله.. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم.. وقال الليث: كتب إلي هشام عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي اللهم عنهما، قالت: رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مُسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش والله ما منكم على دين إبراهيم غيري.. وكان يحيي الموءودة

(١) المسيرة النبوية لابن هشام، ٢٥٣-٢٥٤، الطبعة السابعة لدار الكتاب العربي، ١٤٢٠هـ.

يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ: لَا تَقْتُلْهَا أَنَا أَكْفِيكَهَا مَوْتَهَا فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعَرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا إِنَّ شَيْئًا دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتَكَ مَوْتَهَا» (١).

ومن المتأهلين قبل البعثة أيضاً أمية بن أبي الصلت الثقفي وهو القائل:

إِنَّ آيَاتِ رَبِّنَا ثَاقِبَاتٌ      لَا يَمَارِي فِيهِنَّ إِلَّا الْكُفُورُ  
 كُلِّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ      هَ إِلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ بَورُ  
 وَكَانَ يَرَى مَا آلَ إِلَيْهِ حَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ الضَّلَالِ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ:  
 فَرَأَى اللَّهَ حَالَهُمْ مَعْضُوعٍ      لَا بَدِي مَزْرَعٍ وَلَا مَثْمُورَا  
 فَسَنَاهَا عَلَيْهِمْ غَادِيَاتٍ      وَتَرَى مَزْمَمٍ خَلَايَا وَخُورَا

إلى آخر ما قال، غير أنه لم يسلم بعد البعثة النبوية حسداً من عند نفسه. وما مضى يدل على بقايا سمحة كانت عند العرب، صقلت أذهانهم وجلت أبصارهم ليروا زيغ النصارى واليهود وما آلو إليه.

والخلاصة، أن دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بالإضافة إلى الجانب الروحي الذي عمرته بالعبادات التي شرعتها والشعائر والمناسك التي تركتها وبقيت آثارها إلى حين البعثة النبوية الشريفة، فقد أرست دعائم حضارة فذة، في مجالات الحياة كلها، وقد كان لها أثر كبير على العرب وما تميزوا به من كريم خصال وحسن أخلاق.

فلئن كان في العرب صدق ووفاء فإن أباهم كان صادقاً: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ (مریم: ٥٤).

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب، حديث رقم ٣٨٢٨.



ولئن كان في العرب صبر وجلد فإن أباهم قال عند الذبح: ﴿يَتَأْتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (الصفات: ١٠٢).

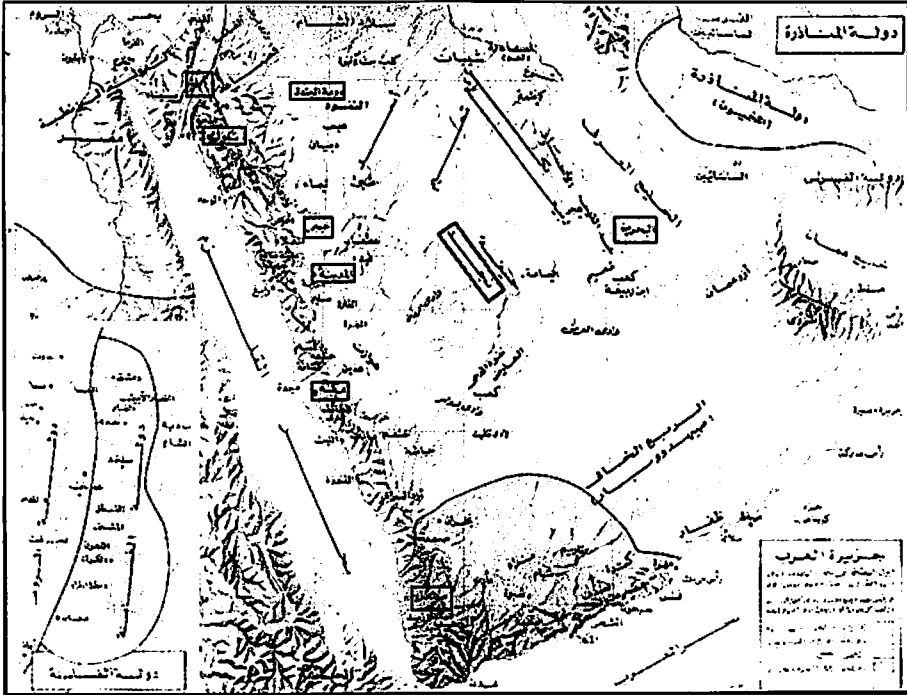
ولئن كانوا يجيدون القتال والرمي بالنبال فإن أباهم كان رامياً<sup>(١)</sup>.

ولئن كانوا فرساناً فإن أباهم أول من ذللت له الخيل<sup>(٢)</sup>، ولئن كان فيهم

كرم فجددهم مالبت أن جاء بعجل حنيذ.

ثم لما ضاعت هويتهم الحنيفية السمحة، ذهبت حضارتهم، وأمسوا في شر حال،

كل عام يرذلون، وبالمقابل فقد سطعت شمس القياصرة، وتأججت نار الأكاسرة.



جزيرة العرب قبل البعثة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام

(١) في حديث البخاري وغيره: «ارموا بني إسناجيل فإن أباهم كان رامياً»، انظر الصحيح، كتاب الجهاد، باب التحريض على الرمي، حديث رقم ٢٨٩٩.

(٢) انظر أخبار مكة، ١٨٩/٤، لمحمد بن إسحاق اللخمي، الطبعة الأولى لمكتبة النهضة الحديثة ١٤٠٧ بتحقيق عبدالمك بن دهيش.

## جزيرة العرب ودعوة محمد عليه الصلاة والسلام:

جرت سنة الله القاضية بإهلاك المكذبين الظالمين، في أصحاب الحضارات السابقة من الأمم التي خلت في أرض الجزيرة. وذلك لما بطرت معيشتهم، وعتوا عن أمر ربهم، وتفاقم ظلمهم: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مِعْطَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ (الحج: ٤٥)، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطَرْت مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكِنُهُمْ لَمَّا شَكَنُوا مِنْ بَدْوِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَعْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص: ٥٨)، ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَسَانَا إِذَا هُمْ مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّسِلُونَ﴾ ﴿قَالُوا يَا بَوَلَنَّا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَلِيدِينَ﴾ (الأنبياء: ١١-١٥)، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَنَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بِيَنَاءٍ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ (الأعراف: ٩٦-٩٨)، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَنَّ عَنَّا أَمْرُ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا تُكْرًا﴾ ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ (الطلاق: ٨-١٠).

إن من سنن الله عز وجل في هذه الحياة أن جعل لكل بداية نهاية، فمع اليوم غداً، وبعد الحدث حدثاً، ولكل مولود يوم موعود، وهذه سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً، فكم من حضارة قامت وازدهرت ثم ما لبثت أن تبدلت وتبددت. ولكن جعل الله لهذه السنن أسباباً ونواميس

وقوانين؛ حتى يسهم البشر في صنعها؛ في تقديمها و تأخيرها، بحسب علمهم وحلمهم. وحتى يكون الجزاء من جنس العمل، فيقال: يداك أوكتا وفوك نفخ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

وهكذا لما اندرست معالم التوحيد في أرض الجزيرة، وترك الناس ملة الخنيفية خلا نفر قليل، واجتالت الشياطينُ البشرَ فتأهوا بين وثنية جائرة، ومجوسية فاجرة، ويهودية مدمرة، ونصرانية حائرة، « وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ »<sup>(١)</sup>، أمست حضارة العرب في حضيض، وغدو في شر حال<sup>(٢)</sup>، وأذن الناس بهلاك، ولكن اقتضت رحمة الله أن ينبثق فجرٌ، وأن يُبعث رسولٌ يخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم:

لَمَّا أَطَّلَ مُحَمَّدٌ زَكَتِ الرَّبِّي وَأَخْضَرَ فِي الْبَسْتَانِ كُلِّ هَشِيمٍ

فألف الله به بين الشمّل، وجمع به بين القلوب، وعصم به من كيد الشيطان.

واقترضت حكمته أن تكون أرض النبوة الخاتمة والرسالة العالمية الخالدة هي أرض الجزيرة العربية، ليبلغ أهلها رسالة ربهم إلى الناس كافة، « فالعرب هم حملة شريعة الإسلام إلى سائر المخاطبين بها .. لأنهم يومئذ قد امتازوا من بين سائر

(١) جزء من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، وهو عند مسلم برقم ٢٨٦٥.  
(٢) عن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «لَقَدْ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي فِتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَزُونَ أَنْ دِينًا أَفْضَلَ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفَرَقَانِ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٦٨٤، ومن الميمنية ٣/٦، ورجاله ثقات قال ابن كثير في التفسير، ٣/٣٣١: وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه. وساقه الطبري بسنده في التفسير، ١٩/٥٣ من رواية محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه، وراه ابن حبان في صحيحه، ٤٨٩/١٤، والطبراني في المعجم الكبير، ٢٥٣/٢٠، والبخاري في الأدب المفرد، ٤٤/١.

الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعث عن الاختلاط ببقية أمة العالم. فهم بالوصف الأول: أهل لفهم الدين وتلقيه. وبالوصف الثاني: أهل لحفظه، وعدم الاضطراب في تلقيه. وبالوصف الثالث: أهل لسرعة التخلق بأخلاقه، إذ هم أقرب إلى الفطرة السليمة... وبالوصف الرابع: أهل لمعاشرة بقية الأمم، إذ لا حزازات بينهم وبين الأمم الأخرى»<sup>(١)</sup>.

ومن رعاية الله لهذه الجزيرة وأهلها أن النبي ﷺ لم يمض حتى فتح الله عليه سائرها.

ومن لطف الله بهذه الجزيرة وأهلها، أنه قسم فناماً من الظالمين اعتدوا فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ (الفيل: ١-٥)، ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١﴾ وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿١﴾﴾ (هود: ٥٩-٦٠)

الغدر أهلك عاداً في منازلها  
من حمير حين كان البغي مجهرة  
والبغي أفنى قروناً دارها الجند  
منهم على حادث الأيام فاجردوا

وهذه سنة الله الباقية..

(١) خصائص جزيرة العرب، للشيخ بكر أبو زيد، ص ٦١، مع اختصار يسير.

فمن موعود الله لنا ما ثبت في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها  
 قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يَغْزُو جَيْشُ الْكَعْبَةِ فَإِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ  
 يُخَسَفُ بِأَوْلِهِمْ وَآخِرِهِمْ، قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يُخَسَفُ بِأَوْلِهِمْ  
 وَآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَأُهُمْ وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: يُخَسَفُ بِأَوْلِهِمْ وَآخِرِهِمْ ثُمَّ  
 يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَاتِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

ولا مجال هنا للحديث عن حضارة الإسلام وكم سادت من قرون وكيف  
 انتكس أهلها لما تخلو عنها، فإن النهار لا يحتاج إلى دليل، والمعروف لا يعرف،  
 وما كتب أكثر من أن يحصر.

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب	بالأمس كانوا هنا واليوم قد تاهوا
فإن تراءت لك الحمراء عن كتب	فسائل الصرح أين المجد والجاه
وانزل دمشق وخاطب صخر مسجدها	عمن بناه لعل الصخر ينعاه
وطف ببغداد وابحث في مقابرها	عل امرئ من بني العباس تلقاه
أين الرشيد وقد طاف الغمام به	فحين جاوز بغداد تحده
هذي معالم خرس كل واحدة	قامت خطيباً فاغراً فاه
ماض نعيش على أنقاضه أمّا	ونستمد القوى من وحي ذكره
لا در در امرئ يطري أوائله	فخراً ويطرق إن ساءلته ما هو؟

(١) صحيح البخاري رقم ٢١١٨، ومسلم رقم ٢٨٨٢.

والحاصل أن لأهل هذه الجزيرة مقوم من مقومات ظهور حضارتهم ألا وهو أس الحضارة وأساسها ذلك هو الإسلام، الذي وطئ كل أرض فدخل كل قلب صالح. ولئن سمعنا بأن بعض الدول الإسلامية تصل نسبة المسلمين فيها إلى المائة مئوية، فأى دولة أعجمية -أياً كانت حضارتها- لا وجود لمسلم فيها؟ وهذا دليل على قوة حضارة الإسلام ونفوذها، وبيان جلي عملي يؤكد صلاحها لأي زمان وفي كل مكان.

والإسلام باق، والتجربة التاريخية في القيادة الحضارية شاهدة ماثلة، والمقومات المادية موجودة، فإذا جمعنا هذه الثلاث واستفدنا منها كانت حضارتنا الأجدر بالسيادة والريادة، كما كانت في سابق عهدها.

### وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون:

إن هذا القرآن شرف للعرب إذ نزل بلغتهم: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ...﴾ (الزمر: ٢٨)، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا...﴾ (يوسف: ٢)، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا...﴾ (الأحقاف: ١٢)، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكَمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد: ٣٧).

وكيف لا يكون خطاب رب العالمين إلى كافة المكلفين عرباً وعجماً شرفاً للعرب، وقد جاء بلغتهم دون سواهم؟ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ...﴾ (الزخرف: ٤٤)، قال القرطبي:

«يعني القرآن شرف لك ولقومك من قريش إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم نظيره: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ (الأنبياء: ١٠)، أي

شرفكم، فالقرآن نزل بلسان قريش، وإياهم خاطب، فاحتاج أهل اللغات كلها إلى لسانهم، كل من آمن بذلك، فصاروا عيالاً عليهم؛ لأن أهل كل لغة احتاجوا إلى أن يأخذوه من لغتهم حتى يقفوا على المعنى الذي عني به من الأمر والنهي وجميع ما فيه من الأنباء، فشرفوا بذلك على سائر أهل اللغات، ولذلك سمي عربياً<sup>(١)</sup>.

وعلى قدر التشريف يأتي التكليف، ولهذا قال بعدها: ﴿وَسَوْفَ تُنْتَلُونَ﴾ (الزخرف: ٤٤)، «أي عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له»<sup>(٢)</sup> فأفهم الناس له، ينبغي «أن يكونوا أقوم الناس به، وأعلمهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوهم من الخالص من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم»<sup>(٣)</sup>.

فمن قام بهذا التكليف استحق الذكر والتشريف، وبالمقابل من نبذ الرسالة وضيع الأمانة عاد عليه القعود عن التكليف بالتوبيخ والتعنيف، وكان معرضاً للوعيد والتهديد، ولعل من مناسبة قول الله عز وجل: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الأنبياء: ١١)، بعد قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠)، الإشارة إلى أن القعود عن القيام بالذكر ظلم عاقبه وخيمة قصمت مدناً وقرى وحضارات أترفت فغداً أهلها حصيداً خامدين.

(١) تفسير القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ٩٣/١٦، طبعة دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ.

(٢) تفسير ابن كثير، ١٣٠/٤، طبعة دار الفكر، ١٤٠٧هـ.

(٣) السابق، ١٢٩/٤.

فواجب على أهل الجزيرة، منبع العرب، ومشرق الإسلام، أن ينهضوا بحضارتهم، وألا يغفلوا عن تبليغ رسالات ربهم، فقد آتاهم الله ما لم يؤت أحداً من العالمين، وفضلهم على كثير من المخلوقين، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآئِنَّا فَكُنَّا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ (الأنعام: ٨٩)، ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَنْ يَشَأْ كَمَا أَنْشَأَكُم مِّنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ (الأنعام: ١٣٣)، ومن ينهض بالتكليف يناله حظه من التشریف، ولن ينسى التاريخ صلاح الدين، ومحمود ابن سبكتكين.

لا هم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً  
فامنن علينا براع أنت ترضاه  
يرعى بنيه وعين الله ترعاه  
راع يعيد إلى الإسلام سيرته

تاريخنا



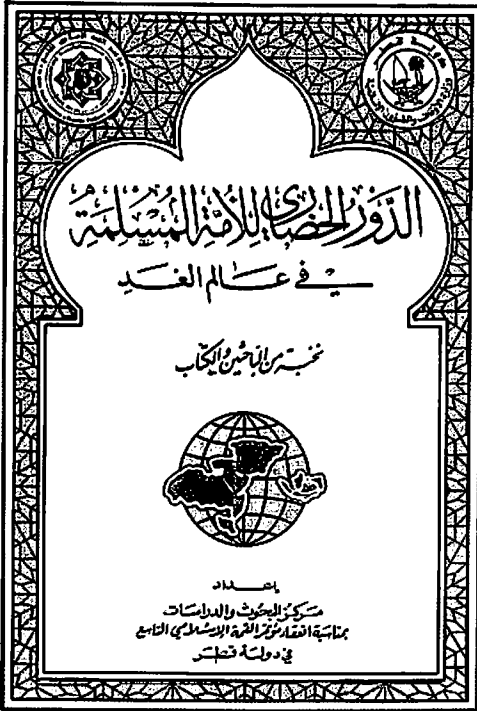
## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٧	- تقديم سعادة وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية .....
	أحمد بن عبد الله المري
١١	- هذا الكتاب .....
١٩	- من خصائص جزيرة العرب .....
	د. بكر بن عبد الله أبو زيد
٦٩	- إِبصار المستقبل .....
	د. جاسم مهمل الياسين
١٠٣	- الإسلام.. دين المستقبل .....
	د. عارف الشيخ
١٣٩	- السبيل لمعاودة الدور الرسالي .....
	د. عبد الرزاق خليفة الشايجي
١٦٣	- الإمكانات المذخورة .....
	د. عبد الغفار محمد الشيزاوي
٢١٥	- السبيل لاسترداد فاعلية الأمة .....
	د. عبد اللطيف محمود آل محمود
٢٢٧	- منطلقات لتفعيل دورنا الحضاري .....
	د. علي أحمد الكبيسي
٢٤٥	- لتكونوا شهداء على الناس .....
	الأستاذ عمر عبيد حسنه

- ٢٨٣ ..... - النظام الإقليمي الخليجي  
د.فهد بن عبد الرحمن آل ثاني
- ٣٠٩ ..... - بين الجغرافيا والتاريخ  
د. مالك الأحمد
- ٣٢١ ..... - مهد الرسالة.. هل تؤدي دورها من جديد؟  
د. محمد صالح المسفر
- ٣٦١ ..... - رسالة الإسلام  
د. ميثاء الشامسي
- ٣٩١ ..... - التجربة الحضارية التاريخية  
د. ناصر بن سليمان العمر
- ٤١٩ ..... - الفهرس

# الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد

صدر كتاب : (الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد) ، باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، عن مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في مناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع في رحاب دولة قطر (تشرين



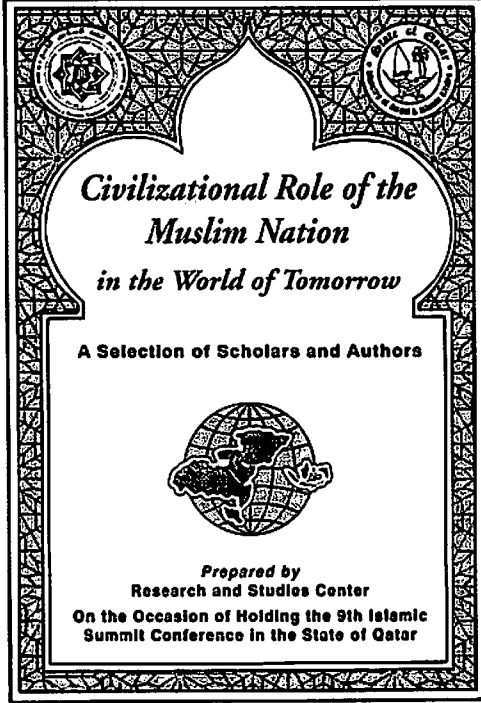
أول /نوفمبر ٢٠٠٠م)، مساهمة في إحياء عملية الاجتهاد والتجديد وإعادة بناء مشروع النهوض، لتستأنف الأمة المسلمة دورها في الشهود الحضاري وإلحاق الرحمة بالعالمين ، وما يتطلبه ذلك من معرفة الذات، وما تمتلكه الأمة من الإمكان الحضاري والتخطيط لحسن استثماره، ومعرفة (الآخر)، المعرفة التي تمكن من كيفية التعامل معه ودعوته إلى كلمة سواء ، وتحقيق المشترك الإنساني .

ويأتي الكتاب - الذي تقع نسخته العربية (٧٥٢) صفحة من الحجم

المتوسط (٢٤X١٧سم)- في إطار محاولة لتقديم رؤية مستقبلية، لما يمكن الاصطلاح على تسميتهم : ( أهل الاجتهاد والفكر والرأي)، بحيث تشكل هذه الرؤية أحد أدلة

العمل أمام أصحاب القرار للوصول إلى تحقيق الانسجام والتكامل والتصالح بين أهل الرأي وأصحاب القرار .

وكان الهدف الأساس من هذا المشروع الثقافي الممتد، التعرف على الإمكان الحضاري الذي



تتوفر عليه الأمة، والرؤية الاستراتيجية لتفعيله، وكيفية استرداد الدور الغائب للأمة لتستأنف من جديد رسالتها في الشهود ومعالجة أزمة الحضارة، وتحقيق الغاية التي من أجلها جاءت الرسالة .

ولقد كان الحرص على أن تأتي المساهمات من مواقع ثقافية وجغرافية ومدارس فكرية ومذهبية متنوعة، ممثلة، إلى حد كبير، لجميع بلاد العالم الإسلامي الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، على اختلاف مذاهبهم وتوجهاتهم، إضافة إلى مساهمات ممن

يعيشون ضمن منظومة الثقافة الغربية المعاصرة ومؤسساتها .

وقد تركز الكتاب حول أربعة محاور أساس :

\* أهم مقومات وشروط النهوض التي تمتلكها الأمة ، في إطار التعرف على الذات (الإمكان الحضاري) .

\* أسباب عتالة الأمة وعدم فاعليتها: المعوقات ( التعرف على مواطن الخلل ) .

\* أزمة الحضارة العالمية وحاجتها إلى الرؤية الإسلامية ( معرفة الآخر وتحديد الحاجة والمداخل الفاعلة ) .

\* أولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة، والرؤية الاستراتيجية لمستقبل العمل الإسلامي العام ( دليل عمل، أو سبيل الخروج).

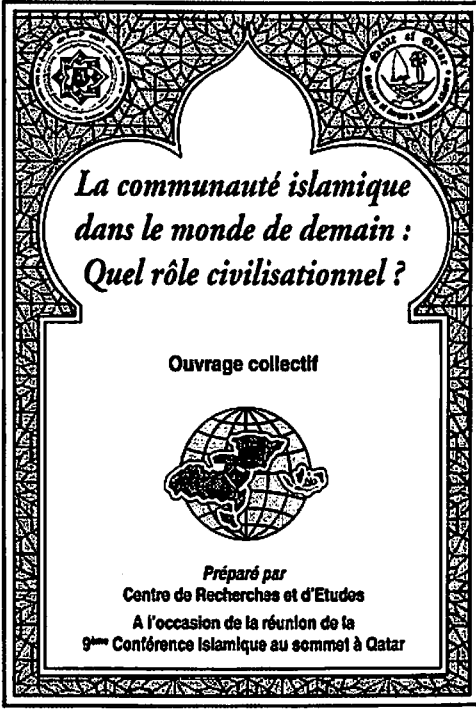
وكان التوجه إلى عدم تحديد المحاور التي تدور حولها المساهمات، حتى لا يشكل ذلك محددات مسبقة لرؤية الباحث، فترك الموضوع لكل باحث يتناوله من الزاوية التي يرى أهميتها، دون تحديد مسبق أو مداخلة لاحقة، ومن ثم المحافظة على نص

الباحث، على الرغم مما يمكن أن يوجد فيه - أحياناً - من بعض الملحوظات أو التحفظات القابلة للمناقشة.

لذلك جاءت الآراء والاجتهادات الواردة في الكتاب تعبيراً حقيقياً عن وجهة نظر أصحابها. وهي تشكل في محصلتها محاولة لتقديم رؤية عن الواقع الموجود، بكل ما فيه، الذي تمور به الساحة الفكرية، ونوافذ مهمة تمكن من الإطلالة على هذا الواقع الثقافي القائم.

وتتمثل المحصلة الثقافية لهذا المشروع-

الكتاب في أهمية طرح الأمر، والتأكيد على الرؤية المستقبلية واستدعائها إلى مجال الهم الثقافي العام وساحة تفكير النخبة المثقفة بشكل أخص، وذلك بغض النظر عن نوعية بعض المساهمات وقدرتها على إثراء الموضوع من جوانبه المتعددة وتحقيق الهدف المأمول، حيث إنها تعتبر باكورة لدراسات مستقبلية متكاملة ونضيجة.



جائزة الشيخ  
عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّانِي  
في العلوم الشرعية والفكر الاسلامي

إسهاماً في تشجيع البحث العلمي، وطرح القضايا المعاصرة لدراستها من قبل المفكرين والباحثين، ومحاولة للمساهمة في تكوين جيل من العلماء المسلمين في مختلف شعب المعرفة، فقد تم تخصيص جائزة سنوية في العلوم الشرعية والفكر الإسلامي باسم « جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية ».

تبلغ قيمة الجائزة ٧٥ ألف ريال قطري ، ويحدد موضوعها كل عام من قبل لجنة تشكل لهذا الغرض .

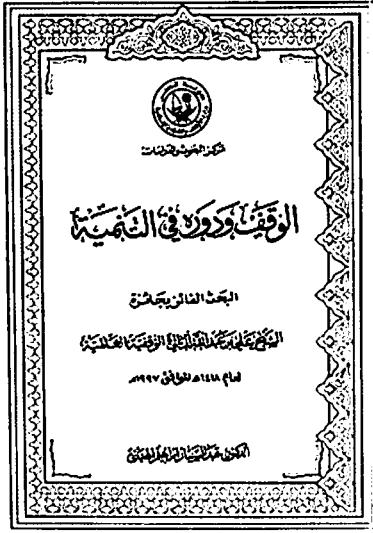
يُشترط في البحوث المقدمة، أن تكون قد أُعدت خصيصاً للجائزة، وألا تكون جزءاً من عمل منشور، أو إنتاج علمي حصل به صاحبه على درجة علمية جامعية، وأن تتوفر في هذه البحوث خصائص البحث العلمي، من حيث ، المنهج ، والإحاطة ، والتوثيق، وسلامة الأسلوب ، والجدة ، والابتكار .

وتعرض البحوث على محكمين يتم اختيارهم في ضوء موضوع الجائزة، وتكون قراراتهم نهائية لا مجال للطعن فيها .

ويحق للجنة التحكيم التوصية بمنح الجائزة مشتركة بين اثنين أو أكثر من الباحثين، كما يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة .

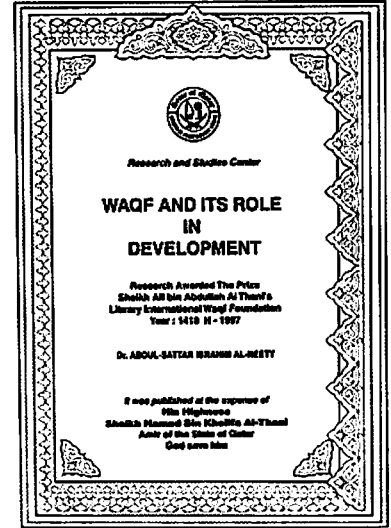
ويحق للجهة المشرفة سحب قيمة الجائزة، إذا اكتشفت أن البحث الفائز قد نشر سابقاً، أو قدم إلى جهة أخرى، لغرض آخر، أو مستلاً من رسالة علمية، كما يحق لها حجب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث المقدمة للمستوى المطلوب، و لا تمنح الجائزة لمشارك واحد أكثر من مرة خلال فترة ثلاث سنوات .

## موضوعات الجائزة :

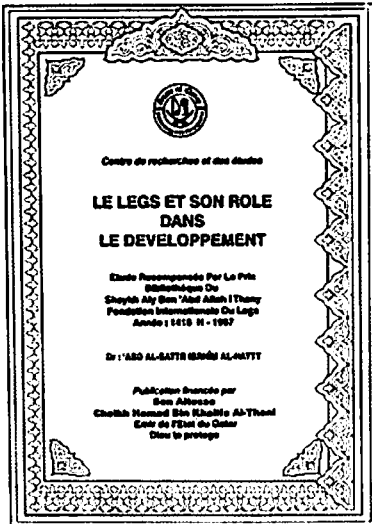


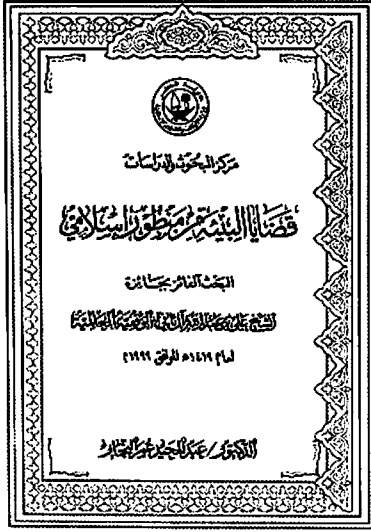
□ وقد تناولت الجائزة في موضوعها الأول : الوقف ودوره في التنمية، استدعاءً لدور الوقف في الفعل الاجتماعي والثقافي.

□ وموضوعها لعامها الثاني : قضايا البيئة من منظور إسلامي، مساهمة في طرح رؤية حضارية إسلامية لمعالجة الأزمات والقضايا المعاصرة؛ ذلك أن البيئة أصبحت تشكل مشكلة عالمية وأزمة من أزمات الحضارة المعاصرة.



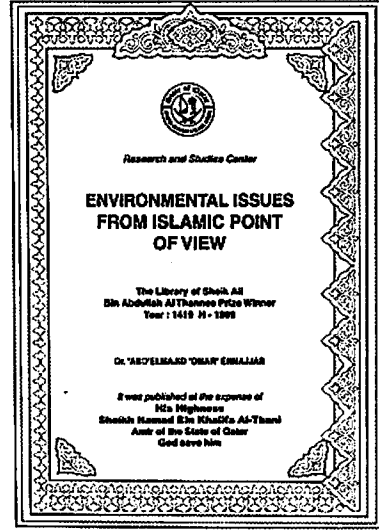
□ وموضوعها لعامها الثالث : الأسرة المسلمة في العالم المعاصر، في محاولة لتنمية هذا الحصن الباقي ورعايته والحفاظ عليه أمام حملات الاستهداف وأعاصير الاقتلاع، وتقديم النموذج المثير للاقتداء؛ حيث إن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى، والرحم الذي تتخلق فيه جميع أنشطة الحياة.





وذلك وفق الأطر العامة الآتية:

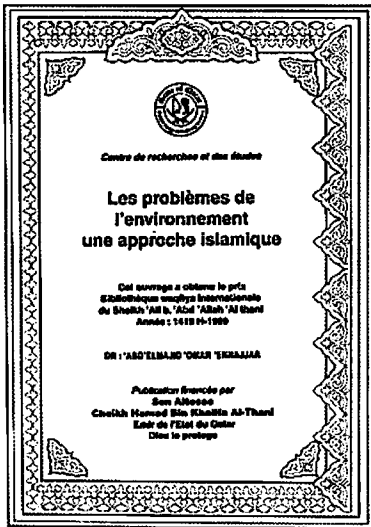
- \* الأسس الشرعية لبناء الأسرة.
- \* الأسرة في مرحلة القدوة (العهد النبوي والخلافة الراشدة).
- \* دور الأسرة في التربية والنهوض الحضاري.
- \* تحديات تواجه الأسرة (تحديات داخلية وخارجية)، وسبيل التحصين.
- \* رسالة الأسرة المسلمة في عالم اليوم.



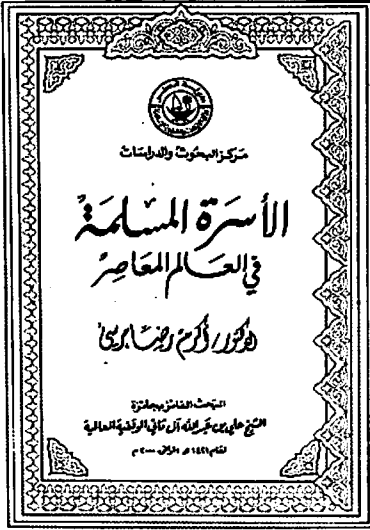
□ وموضوعها لعامها الرابع: إشكالية التعليم في العالم الإسلامي، سعياً لبحث جوانب الحلل في العملية التعليمية والتربوية ووضع سبل العلاج؛ لما للتعليم من دور خطير في نهوض الأمة واسترداد دورها.

وفق الأطر العامة الآتية:

- \* التعليم المحور الأساس للتنمية والنهوض الحضاري.
- \* أبعاد الإشكالية تتركز في: البعد السياسي، والإعلامي، والثقافي، والاجتماعي، والمنهجي.

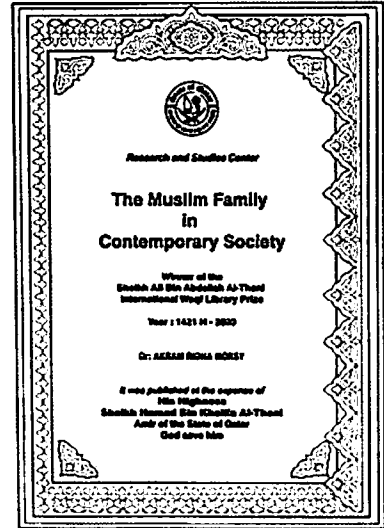




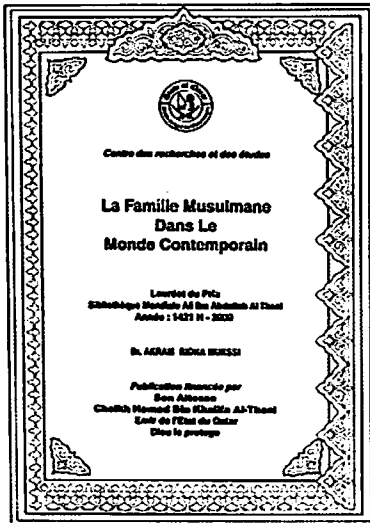


- \* عجز التعليم بمؤسساته المختلفة عن تحقيق أهدافه :  
مواطن الخلل وأسباب العجز .
- \* دور مؤسسات البحث العلمي ومراكز الدراسات  
في البناء التعليمي .
- \* وسائل التصويب ، وكيفية النهوض .

- موضوعها لعامها الخامس : الحوار الحضاري :  
شروطه ، وآدابه وثمراته .
- وفق الأطر العامة الآتية :  
\* مشروعية الحوار .. شروطه ؛ مقوماته ؛ آدابه ؛ عوائقه .
- \* الحوار في التاريخ الإنساني .



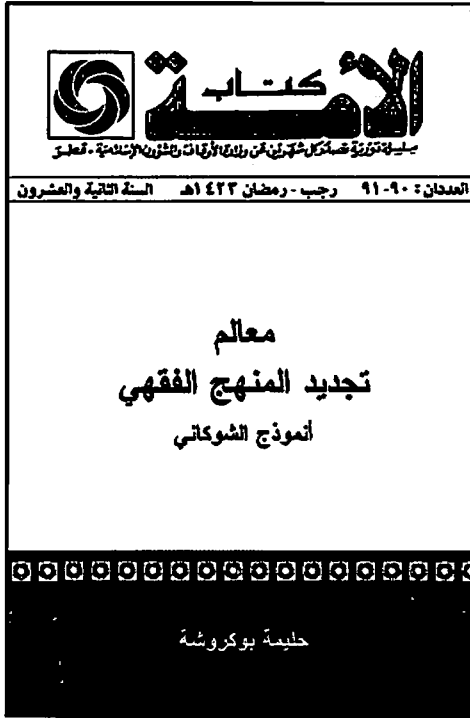
- \* الحوار مع ( الذات ) والحوار مع ( الآخر ) .
- \* بين الحوار والمواجهة .
- \* ثمرات الحوار في مجال الدعوة والتربية والثقافة .
- وتمت ترجمة البحوث الفائزة في الموضوعات  
الثلاثة الأولى إلى بعض اللغات العالمية مثل الإنجليزية  
والفرنسية .



# الأمّة كتاب

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

- كتاب الأمّة سلسلة دورية، تصدر كل شهرين، عن مركز البحوث والدراسات، في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، في دولة قطر، وتطبع في الوقت نفسه في أكثر من بلد، وتوزع في العالم الإسلامي والغرب، كما يتم الإطلاع عليها من خلال موقعها على الإنترنت: [www.islam.gov.qa](http://www.islam.gov.qa)



- تعنى بنشر الأبحاث والدراسات الفكرية والثقافية، التي تهتم بالنظر في قضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها، وكيفيات معالجتها في ضوء الكتاب والسنة، وتسهم في التحصين الثقافي والتغيير الحضاري للأمة، وتعمل على إعادة بناء العقل المسلم في ضوء معارف الوحي.. كما تعنى بمحاولة تقويم مواقع العمل الإسلامي وبناء الوعي، والعمل على إخراج الأمة استجابة لقوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، لتستأنف الأمة دورها في القيادة والشهادة.

- صدر الكتاب الأول منها في جمادى الآخرة ١٤٠٢ هـ - آذار (مارس) ١٩٨٢م، وبلغ مجموع إصداراتها حتى الآن أكثر من (٩٠) إصداراً، ترجم بعضها إلى لغات عالمية مثل: الإنجليزية، والفرنسية، وإلى بعض لغات العالم الإسلامي مثل التركية، والإندونيسية... وغيرها.

● تسعى السلسلة إلى تغطية المحاور والمجالات التالية:

– تأصيل الرؤية الشرعية للقضايا والمشكلات المعاصرة، والعودة بالأمة إلى ينباع التلقي الأولى في الكتاب والسنة، وفهم القرون المشهود لها بالخيرية.

– المساهمة في تجديد أمر الدين، ونفي نوابت السوء، وتنقية واقع التدين مما شابه من بدع وانحرافات، وذلك عن طريق إحياء مناهج المراجعة والنقد والتقييم.

– معالجة أسباب الغلو والتشدد والانتحال الباطل، والعودة بالأمة إلى منهج الوسطية والاعتدال.

– إحياء مفهوم الأخوة الشامل، وإشاعة مبدأ الحوار، والتأكيد على الحوار الداخلي لإزالة الحواجز بين المسلمين.

– تحرير مصطلح عالم الغيب، وبناء الرؤية المستقبلية في ضوء استشراف الماضي وفقه الحاضر.

– إحياء مفهوم فروض الكفاية، وبيان أهمية التخصص في شعب المعرفة المتنوعة.

– إعادة تشكيل شخصية المسلم المعاصر في ضوء القيم الإسلامية، وتبصيره بالرسالة المنوطة به، وتأهيله لتحقيق متطلبات الاستخلاف، وشحن فاعليته ليكون قادراً على استثمار طاقاته الروحية والفكرية والمادية في ضوء هدايات الوحي واجتهادات العقل، وفي ظل الإمكانيات المتاحة والظروف المحيطة.

– المساهمة في بناء النخبة (الطائفة القائمة على الحق)، التي تتحقق بالمرجعية الشرعية المتمثلة في الكتاب والسنة، لتشكل النموذج التطبيقي العملي لفهم الدين، والدليل الممتد على خلود الإسلام، وقابليته للتطبيق في كل زمان ومكان.

– العمل على إخراج الأمة من جديد، وإنقاذها من حالة الفرقة والتخلف والوهن، وتأهيلها لاسترداد دورها المنوط بها، في الشهادة والقيادة وإحقاق الرحمة بالعالمين.

– التعريف بأهم مقومات النهوض التي تمتلكها الأمة، وتحقيق الوعي الحضاري والحصانة الثقافية.

- إحياء المنهج السنني ، وإشعار الأمة بأهمية التوغل في التاريخ، والسير في الأرض، والنظر في العواقب والمآلات ، وإدراك السنن والقوانين الاجتماعية التي تحكم الحياة والأحياء .
- دراسة حركات التغيير والنهوض الإسلامي، وتقويم نتائجها، وبيان أسباب القصور ومواطن التقصير.
- التعريف بأولويات مشروع النهوض على مستوى الأمة، وفتح آفاق الاجتهاد الفكري والتفكير المنهجي لمستقبل العمل الإسلامي، وبيان أبعاد التكليف الشرعي في ضوء فقه الاستطاعة .
- الإسهام في معالجة أزمة الحضارة المعاصرة، والتأكيد على حاجتها إلى الهدي الإلهي .

\* \* \*

### من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحسين الثقافي وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية .
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة ، والموضوعية، والمنهجية .
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره .
- أن يوثق علمياً، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث .
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق ..
- يُفضل إرسال صنوذة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد .
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث .
- تقدم مكافأة مالية مناسبة .



